

كل ما تحتاج معرفته عن

الفلسفة

من البداية حتى الإتقان
في كتاب واحد

أفلاطون
بروتاغوراس
نيتشه
الحقيقة
تارسكي
بيرهو

أرسطو
المنطق
ديوجين
سقراط

كريسيبوس
الطبيعة
زينو سيتيوم

الأكويني
أوغسطين
التعالي
بيركلي
كيركيغارد

بوتنام
الفكر
دينيت
فودور

فوكو
هوبز
نوسباوم
المجتمع
روسو
راولز
سين

بارمينيدس
لايبنيز
سبينوزا
الكينونة والوجود
هايدغر
هيراقليطس
لويس

فريج
راسل
اللغة
فيتجنشتاين
كريبك

لوك
هيجل
ماركس
الشخصية والذات
شوبنهاور
سارتر
دي بوفوار

بنثام
أبيقور
كانط
القيم والأخلاق
ماكنتاير
المطحنة
جيليجان
المغني

هيوم
كواين
المعرفة
مور
كوهن

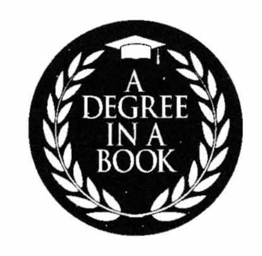
الديمقراطية
العقل
ديكارت

بيتر جِبسون

ترجمة: ربيع الطربوش







كل ما تحتاج معرفته عن

الفلسفة

من البداية حتى الإتقان
في كتاب واحد

مكتبة | سُر مَن قرأ

#912

بيتر جِبسون

ترجمة: ربيع الطربوش





يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي Degree in a Book Philosophy

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر Arcturus Publishing Limited

بمقتضى الاتفاق الموقع بينه وبين الناشر

اسم الكتاب: كل ما تحتاج معرفته عن الفلسفة من البداية حتى الإتقان في كتاب واحد

اسم المؤلف: بيتر جِبسون

ترجمة: ربيع الطربوش

الطبعة الأولى 1442هـ/ 2021م

عدد الصفحات: 320 صفحة

الناشر: دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع. العراق - بغداد

الرقم الدولي: ISBN: 978-9922-601-92-2



العــراق - بغــداد - المنصــور

darmanairaq@gmail.com



العـراق - بغـداد - شارع المتنبي

07819141219 | 07702931543

darktbalmya@yahoo.com

المحتويات

مقدمة المترجم

كانت ترجمة الفلسفة في طليعة التحديات الأولى التي واجهتها الثقافة العربية وهي في طور مخاضها الحضاري الكبير الذي أنتج ثقافة مدهشة وعلومًا متعددة ظلت طوال القرون الوسطى تمثل المركزية الفكرية والمرجعية الحضارية للعالم المعروف في ذلك الوقت.

لقد عكف المثقفون العرب على ترجمة الفلسفة في مرحلة ازدهار الحضارة العربية خصوصًا بعد تأسيس بيت الحكمة الذي كانت الترجمة وظيفته الأساسية وكان للفلسفة النصيب الوافر من جهود المترجمين والعلماء والدارسين. بيد أنّ مشكلات كثيرة واجهها المترجمون العرب في سعيهم إلى نقل الفلسفة إلى لغة الضاد منها ما يتعلق بالعقيدة الدينية ومنها ما يتعلق بالمفاهيم والأفكار التي تعبر عنها مصطلحات أو مفردات معينة لم يجد المترجمون العرب ما يناظرها في لغتهم، لكنهم لم ينكصوا على أعقابهم ومضوا قدُمًا في جهودهم العبقرية التي أتت أكلها للإنسانية كلها بفضل همتهم وبفضل عبقرية لغة القرآن التي تضم في بحرها الزاخر كنوزًا وجواهرًا تعين المترجمين على أداء رسالتهم الإنسانية.

كان الفارابي (874/ 950م) من أوائل الذين أشاروا إلى صعوبة ترجمة الفلسفة حين قال: « انتقلت الفلسفة إلى العرب واحتاجت الفلاسفة الذين يتكلمون العربية ويجعلون عبارتهم عن المعاني التي في الفلسفة وفي المنطق بلسان العرب ». من المعروف أن كل موضوع له خصوصيته في الترجمة، وأن كل حقل من حقول الثقافة والمعرفة له آلياته وتحدياته التي تفرض على المترجم أن يسلك أكثر من طريق ويتوسل بأكثر من وسيلة حَتى ينفذ إلى جوهر النص ساعيًا إلى الإلمام بكل جوانبه كي يتمكن من تقديم ترجمة أمينة إلى القارئ دون زيادة أو نقصان ومن غير تغيير أو تحوير.

إنّ لكل نص مفاتيحه التي ينبغي على المترجم البارع الإمساك بها حَتى يتمكن من أن يفتح ما استغلق من أبوابه كي يلج عالمًا متفردًا ولد في لحظة إبداع لن تتكرر، لحظة خاصة تنثال فيها الأفكار والصور ويحلق فيها الخيال بعيدًا في عالم بكر لم تطأه قدم ولم يلمحه بصر من قبل. على المترجم أن يعيش مع المبدع الأصلي، ينطلق معه يدًا بيد، يشاركه في رحلته الإبداعية وفي فك طلاسم التجربة وإزالة حجب الزمان والمكان ولذلك كانت مهمة المترجم أصعب بكثير من مهمة المبدع الأصلي، فالمبدع يكتب بلغته منطلقًا من تجاربه، تقوده موهبته، أما المترجم فهو ناقل للتجربة التي يعكسها نص كتب في لغة ما، ولذلك لا بُدَّ له من أن يتقمص روح المبدع الأصلي ويحاكيه مقتفيًا أثر أقدامه في مسيرة رحلته أو تجربته التي عاشها في لحظات خاصة تستحيل على المحاكاة أو التقليد، ملتقطًا كل ما يضمره النص من أفكار وصور وإحالات ونسج متكامل غزلته أصابع الكاتب الأصلي مستعينًا بما تتيحه له لغته من أساليب ومفردات وتقنيات خاصة بتلك اللغة.

تتجسد خصوصية النص الفلسفي في دلالاته الفكرية وطرق عرضها وإيصالها إلى القارئ حَيثُ تتنوع تلك الطرق وتتفاوت من موضوع إلى آخر ومن كاتب إلى آخر. يتميّز النص الفلسفي بطرح الحجج والإثباتات للفكرة التي يعرضها ويدافع عنها، ما يجعل من لغة الفلسفة لغة مكتنزة الدلالات والتأويلات، إذ تختزل في طياتها أفكارًا كثيرة أو فكرة واحدة معقدة لها أكثر من تفسير وتأويل، وأنا هنا أتحدث عن ترجمة النص الفلسفي من اللغة الإنجليزية إلى العربية، وبحسب تجربة شخصية وجدت فيها أن النص الفلسفي الإنجليزي يمتاز برشاقة لغوية تختزل الكثير من المعاني والدلالات التي لا تفتح مغاليق أسرارها ولا تبوح بمكنوناتها إلّا لمترجم متخصص في الفلسفة أو لمترجم قريب من المؤلف ليسأله عن هذا المقصد أو ذاك، وهذا من بعض مصاعب ترجمة الفلسفة وتحدياتها. فضلاً عن ذلك، تتميز الفلسفة بلغة متفردة مع عمق وتعدد في الأفكار ناتج عن تداخل الفلسفة مع بقية العلوم. فالفلسفة تسعى للإجابة عن كل الأسئلة التي تراود العقل البشري، ولذلك

وصفت بأنّها التفكير في التفكير وهكذا فقد ارتبطت بوشائج قوية مع الرياضيات والفيزياء ومع الدين والسياسة وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها من العلوم البشرية المختلفة، وهو ما سوف يتلمسه القارئ في هذا الكتاب.

ثَمَّةَ سؤال جوهري يطرحه عدد من المتخصصين ألَا وهو، هل يمكن لترجمة النصوص الفلسفية أن تتم بمعزل عن مخاض فلسفي؟ يقودنا هذا السؤال إلى أحد أهم شروط ترجمة الفلسفة، وهو وجود حراك فلسفي وفكري يجعل من الترجمة قادرة على استيعاب الأفكار والتصورات والرؤى التي يضمها النص الفلسفي. فالتحدي الأول في الفلسفة هو الأفكار الفريدة والتصورات الشخصية التي لا بُدَّ من فهمها فهمًا كاملاً من المترجم كي يتسنى له استيعابها على أكمل وجه ومِنْ ثَمَّ نقلها إلى اللغة الهدف. ولا شك في أن وجود حراك فلسفي وثقافي يساعد على استيعاب ما يطرحه الآخرون وهضمه وتمثله. ولعل هذا ما تسعى إليه دار الكتب العلمية ودار معنى وصاحبهما الأستاذ عبد الوهاب الراضي رئيس اتحاد الناشرين العراقيين، من وراء ترجمة كتب منتخبة في الفلسفة، كهذا الكتاب، فضلاً عن كتب قيّمة وأسفار جليلة أخرى في مختلف مجالات الثقافة والمعرفة.

ختامًا، أود أن أتقدم بشكري الجزيل وامتناني الكبير إلى الصديق المثقف الموسوعي الكبير والإعلامي المعروف أحمد الهاشم الذي رشحني لترجمة هذا السفر العظيم، ومن طريف الأحداث أنّ أول نص فلسفي ترجمته في حياتي كان بتشجيع من الأستاذ أحمد الهاشم في عام 1995، يوم قدم لي نصًا فلسفيًا عن التأويليّة، وأغراني بترجمته إلى العربية. فله كل المحبة الشكر والتقدير، علمًا أن الفصول الأربعة الأولى من هذا الكتاب كانت من ترجمة الأستاذ أحمد الهاشم.

ربيع الطربوش

بغداد 2020

مقدمة

الفلسفة موضوع ممتع أيّما إمتاع، فهي تطرح أسئلة صعبة، قد يبدو بعضها، باديءٍ ذي بَدء، صعبًا تتعذر الإجابة عنه، لكن ما إن يجريَ تعلّم مناهج تفكيك المشكلة حَتى تغدوَ المتعة بالتشويق، ففكرة تقود إلى أخرى، وتتوالى لحظات مثيرة من الإلهام. إضافة إلى أنّ الفلسفة تمثل تحديًا لحلّ بعض الطلاسم، فإنها تلامس كل الأمور التي تعنيك حقًا، وتشغلك. يصبح معظم الطلبة المهتمين بمبحث الفلسفة منجذبين إلى مجال واحد، أو مجالين، لكن من الأجدر الإبقاء على إطار أوسع للرؤية. وذلك ما يقدّمه هذا الكتاب.

يقدم كتاب (الفلسفة)، ضمن سلسلة (كل ما تحتاج معرفته عن...)، عَرضًا جميلاً للفلسفة في مجلد واحد. ويتناول الكتاب المباحث الأساسية للفلسفة الغربية، مع تركيز بسيط على الموروث الفكري باللغة الإنجليزية حينما يتعلق الأمر بمفكري العصر الحديث. ويعاد سرد التاريخ المذهل للفلسفة في باب خاص عند نهاية كل فصل يصف الظهور التدريجي لمجالات فكرية جديدة، كما يصف النساء، والرجال الذين شكلوا صورة المبحث الفلسفي الذي تناوله الفصل. وتتضمن أقسام الكتاب لمحات مصورة للشخصيات الشهيرة في الشأن الذي نتناوله، بَيْدَ أنّ اختيار المفكرين الأحدث لا بُدّ من أن يكون انتقائيًا.

يركز كل فصل على مبحث واحد. يبدأ الكتاب بمباحث عامّة نظرية، ثُمَّ ينتقل إلى بحث القضايا المتعلقة بالكائنات البشرية وسلوكها، وينتهي بالنظر إلى الطبيعة، والعلو Transcendence. يمكن قراءة فصول الكتاب بأي ترتيب يشاءه القارئ، كما يمكن قراءة كل قسم على حدة.

عندما نقدم مبحثًا ما، نشرح القضية وملابساتها، ونقدم شتى الحجج على جانبيها. ويجب أن نعيَ أنّ تلك الملابسات بداية للنقاش، وليست مجمل الصورة. وإذا كنت ترغب في المضي قُدُمًا في الفلسفة، فثَمَّةَ مفردات يجب تعلّمها على غرار معظم المباحث، والكلمات الأكثر أهمية الواردة في النص. وفي الكتاب، أيضًا، نشرح المصطلحات المتخصّصة (التقنية)، حيثما استدعت الضرورة لها.

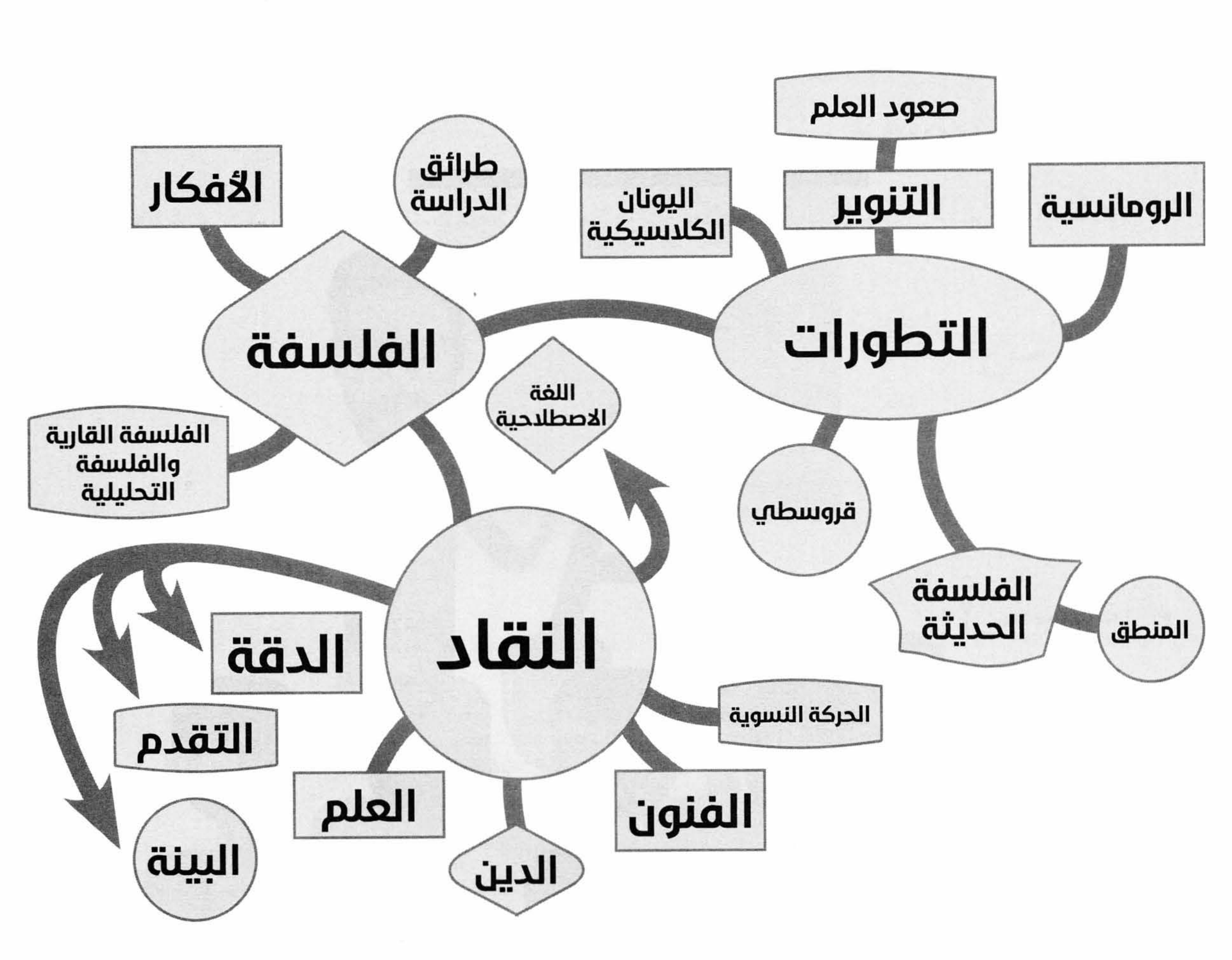
لا يَرد إلّا على نحوٍ وجيز ذكرُ حياة الفلاسفة الذين تناولوا هذه المباحث، لذا يمكن أن يظل التركيز قائمًا على الأفكار، وليس على الأشخاص.

تدرس الفلسفة فئة متفرّدة من المشكلات بطريقة متفرّدة. وليست المشكلات التي استطاع الفلاسفة تشخيصها سوى أهم القضايا، وأعمقها. لقد تناولوا بالبحث الطبيعة البشرية، كما الطريقة التي نفكر بها، وطبيعة الواقع، وقدرتنا على معرفته. وسنعرض هذه الأسرة المتداخلة من المشكلات عرضًا نسقيًا كلما تقدمت في قراءة الكتاب.

تؤلف طرائق دراسة هذه المشكلات مجموعة دقيقة من أدوات الاستدلال، وتستعمل هذه الطرائق، أو المناهج في كل مجال من مجالات الفكر البشري، لكن الفلاسفة حدّدوها تحديدًا أكثر دقة ووضوحًا عمّا هو قائم في التخصصات الدراسية الأخرى. وعليه فإن من فوائد دراسة الفلسفة أنها توفّر لنا مجموعة أدوات للتفكير قابلة للتطبيق على مجالات أخرى من الحياة. وينبغي عليك في أثناء قراءة هذا الكتاب استيعاب طرائق التفكير هذه تدريجيًا.



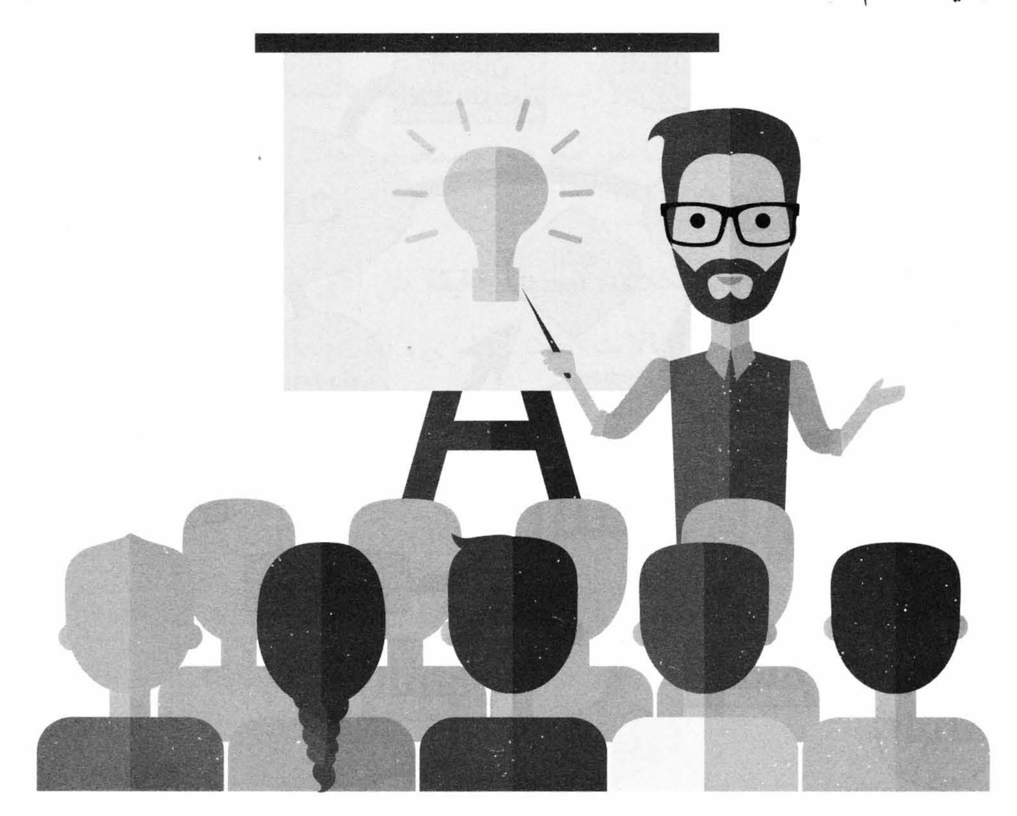
ما الفلسفة؟



صعود العلم
الأفكار
طرائق الدراسة
اليونان الكلاسيكية
التنوير
الرومانسية
الفلسفة
التطورات
اللغة الاصطلاحية
الفلسفة القارية والفلسفة التحليلية
قروسطي
الفلسفة الحديثة
المنطق
النقاد
الدقة
التقدم
الحركة النسوية
العلم
الفنون
البينة
الدين

تعريف الفلسفة

إذا كنت تجلس بهدوء في الجزء الخلفي من صفّ الفلسفة، فستسمع أناسًا يعبرون عن آراء بشأن مسائل مجردة تمامًا، بَيْدَ أنّ الأمر ليس مجرد تبادل آراء. لا يقتصر الأمر على أن المستمعين يطالبون بتعليلات، أو مسببات لوجهات النظر المطروحة، وإنما يركّز المتحدثون أنفسهم على تعليلاتهم أكثر من تركيزهم على آرائهم، بل قد يوجهون اعتراضات على منظوراتهم. إنّ تمحيص التعليلات الخاصة بالآراء هو في صميم الفلسفة.



الفلاسفة الناشئون في الصف الدراسي يطرحون تعليلات لآرائهم، وحَتى اعتراضات عليها

النقاش العقلاني

من نافلة القول أنّ نقاشًا عقلانيًا حول قانون ما، أو موضوع يتعلّق بالبستنة، يهتم، أيضًا، بالتعليلات المعطاة للآراء، بَيْدَ أنّ للفلسفة موضوعًا مميزًا، فالفلاسفة يحاولون فهم العالم. مع ذلك فإن العديد من التخصصات الأخرى مثل الفيزياء، والكيمياء، والإحصاء، وعلم الأحياء، والأدب، والجغرافيا، والتاريخ، تسعى إلى الأمر نفسه.

أسئلة الفلاسفة

يتخذ الفلاسفة خطوة إلى الخلف حيال تلك التخصصات الدراسية، ويقدمون أسئلة أكثر شمولية:

- ما الموضوع؟
- ما القانون؟
- ما العدد؟
- ما الحياة؟
- ما الشخص؟
- ما المجتمع؟
- ما القصة؟
- ما الحدث؟

يأخذ المتحدثون العاديون، المتصورات من باب المسلم به والمفروغ منه، ريثما يحين التساؤل عمّا يعنيه بالضبط كل واحد منها، وهنا تبدأ الألغاز، والالتباسات، والغموض. لا بُدَّ للتخصصات

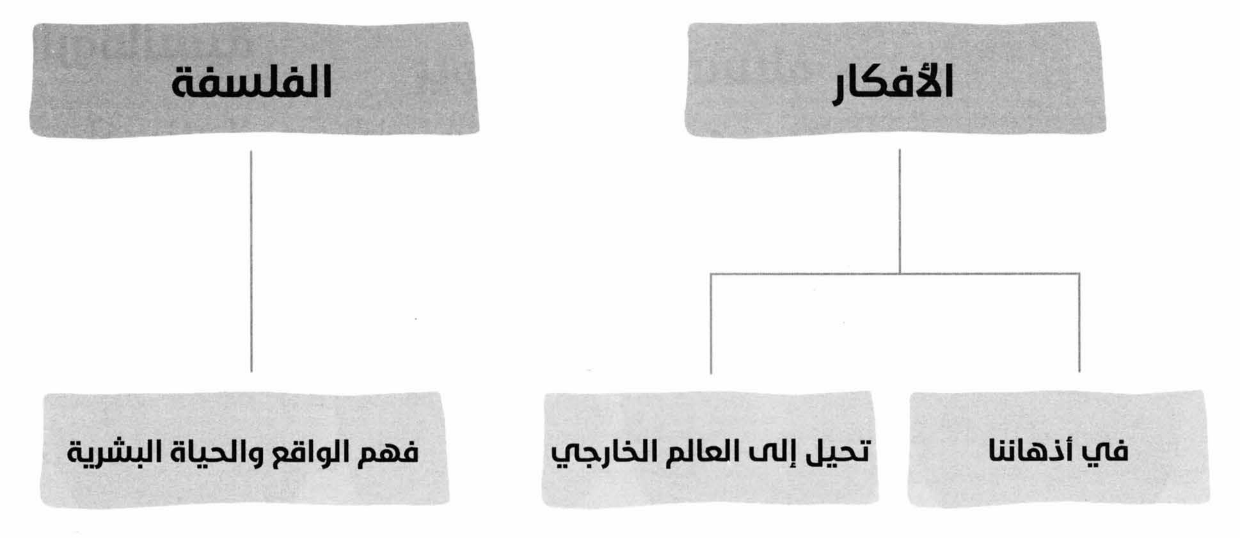
الدراسية الأخرى من أن تتعامل مع هذه المصطلحات العادية بوصفها مفروغًا منها، لكن الفلسفة تحاول أَلّا تعدّ أيّ شيء من المسلمات.

منذُ قرابة مئتي سنة، تنقسم الفلسفة الغربية على معسكرين. ترى المدرسة القارية التي ازدهرت في المانيا وفرنسا خصوصًا، أن الفلسفة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأدب، وعلم النفس، وتركز على متصورات رئيسة تقدم رؤى واسعة. أما المدرسة التحليلية السائدة في المملكة المتحدة والولايات المتحدة، فتولي اهتمامها الأكبر للعلوم المادية، والمنطق، وتسعى إلى الدقة والوضوح بوضع التعريفات والبراهين.

الأفكار

يركز الفلاسفة على المتصورات المفتاحية التي تُعَدّ أسس تفكيرنا. ولا تقتصر الفلسفة على دراسة الطبيعة الإشكالية للأفكار العادية. إن الأفكار في أذهاننا، لكنها تحيل إلى العالم الخارجي، والمبتغى هو التفكير على نحو أوضح منْ أَجل فهم العالم فهمًا أدق. إِذ ترمي الفلسفة إلى الوضوح، لكن ملمحها الأساسي هو طبيعتها الشمولية الرفيعة. يبحث المتخصصون في العالم المادي في كيفية تحسين حياتنا العملية، غير أن الفلسفة تهدف إلى أن تنال إطارًا لفهمنا الصائب. نريد جميعًا أن نقوم بالأمور الصائبة، وأن نصبح أناسًا صالحين خيّرين، لكن ما الذي يجعل أمرًا ما صائبًا، أو خيّرًا؟ نريد جميعًا أن نعيش في مجتمع عادل، لكن ما العدالة؟

لذا قد يحقّ لنا أن نُعرِّف الفلسفة بأنها مسعى لفهم الواقع، والحياة البشرية بمفردات، أو مصطلحات شاملة للغاية، من خلال دراسة الأفكار المفتاحية في تفكيرنا لتكوين لوحة تسترشد بتعليلات وجيهة. تستقيم معظم المؤلفات الفلسفية الشهيرة مع هذا الوصف، بصرف النظر عن بعض الاختلالات. وينزع الفلاسفة إلى وضع كل شيء موضع تساؤل، حَتى طبيعة موضوعهم.



التنوير

تُعَدّ السنوات من 1620 إلى 1800 حقبة التنوير الأوروبي وتسمى أحيانًا عصر العقل. إذ أنّها تمثل عصر المدرسة الكلاسيكية في فن العمارة، والابتكارات التقنية الجديدة في الصناعة. وعلى الرغم من أنّ بعض الفلاسفة، مثل ديفيد هيوم، كانوا متشائمين بشأن قوة العقل، إِذ إن المنظور السائد حينها كان مفاده أن فهمنا، وطريقة حياتنا في مقدورهما أن يكونا أكثر عقلانية. لقد بيّن إسحاق نيوتن حركة المنظومة الشمسية في معادلة موجزة واحدة، وبدا أنّ تفسيرًا عقلانيًا لمناحي الواقع كلها بات في المتناول. في الثمانينيات من القرن الثامن عشر قدّم عمانويل كانط إسهامًا بارزًا باستحداث نظرية للأخلاق تقوم على الاتساق، والعقلانية في مبادئ سلوكنا.

نالت الفلسفة، في عصر العقل، حظوة كبيرة. وعندما تحالفت الفلسفة مع العلم الجديد، بدا الأمر وكأن فريقًا رابحًا يستطيع أن يجعل الحياة البشرية مسألة عقلانية.

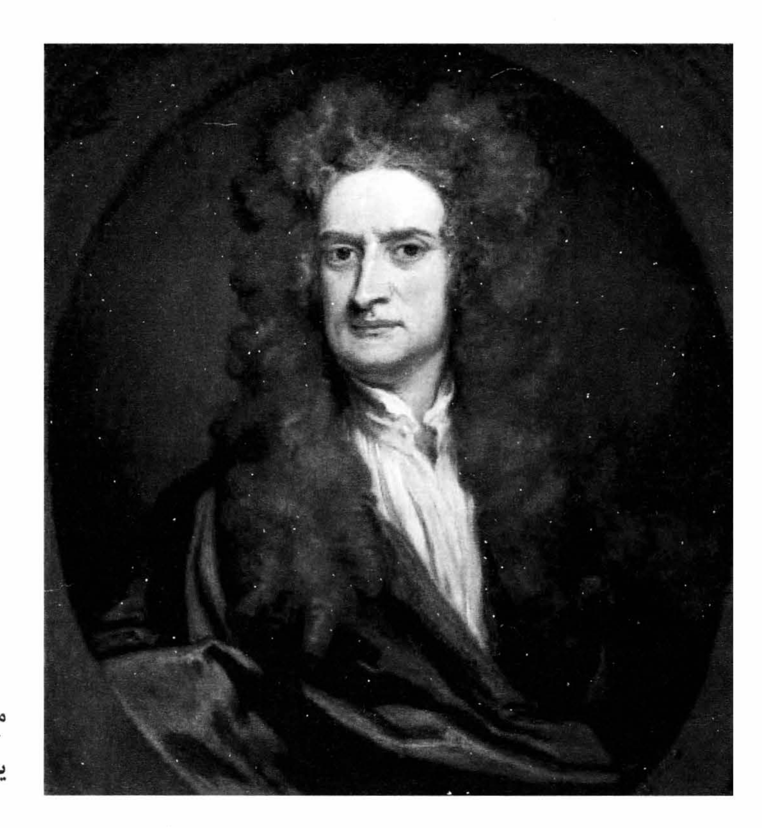
الرومانسية

لكن ما إن لاح تهيؤ الفلسفة العقلانية والعلمية للنصر حَتى تعالت أصوات التمرد، خصوصًا في صفوف الفنانين والكتُّاب. إذ بدا أن نزعة الحياة المنطقية، والاتجاه الكلاسيكي البارد يهملان الشطر الأهم من حياتنا – مشاعرنا. استمرت أفكار كبار الفلاسفة في بواكير القرن التاسع عشر بالازدهار، لكن بحذر أكبر من سابقيهم التنويريين الأكثر جرأة.

عصر العقل

. . . .

ديفيد هيوم: متشائم
إسحاق نيوتن: معادلة للمنظومة الشمسية
عمانؤيل كانط: نظرية عقلانية للأخلاق



مع اكتشافات إسحاق نيوتن بدا كأن كل شيء يمكن تفسيره حينها بمصطلحات عقلانية

فلاسفة عصر التنوير



نساء الفلسفة

مما لا شك فيه أن تاريخ الفلسفة يهيمن عليه الرجال. كانت هيباتيا، من مدينة الإسكندرية، فيلسوفة بارزة في العالم القديم، وفي عصر التنوير انخرط عدد من النساء في مراسلات فلسفية رفيعة المستوى، وألّفْنَ كتبًا مهمة. وفي القرن التاسع عشر، شرعت بالظهور فكرة ضرورة تمتع النساء بالمساواة التامة بوصفهن مواطنات، ونشطت نسوة في الكتابة في هذا الموضوع. وبالرغم من ذلك، لم يحققن إسهامات أساسية في الفلسفة إلّا حين حصلن على حق الدراسة في الجامعات. وفي الوقت الحاضر صار متاحًا للنساء، في الأقل، في الحدود الشكلية، الإسهام في مجالات النشاط الفلسفي برمته.

الجامعة

في الجامعات الحديثة، ثَمَّةَ تركيز أقل على اعتماد منظورات أوسع للمعرفة، لأن المتخصصين يبحثون في جوانب أصغر للمشروع قيد البحث، بَيْدَ أنّ كل فيلسوف تظل تحفزه اهتمامات أوسع من التخصصات الضيقة، ويضعها دائمًا في اعتباره. وحَتى في المقدور أن نحسب الفلسفة طريقة حياة، وليست موضوعًا أكاديميًّا، غير أنّ الهدف يظل وضع حياة المرء في لوحة أكبر.



كانت هيباتيا الإسكندرية فيلسوفة رائدة في العالم القديم (نحو 350 – 415)

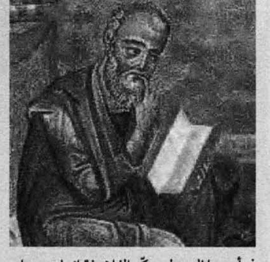
مناهج الدراسة

يتفق معظم الفلاسفة على الحاجة إلى العقلانية، والمتصورات الجلية، والحقائق الشاملة، واللوحة الكبيرة، لكنهم يختلفون بصدد المناهج المناسبة.

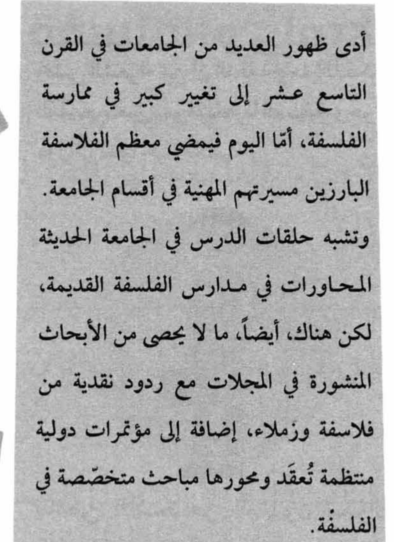
في اليونان القديمة، كان يجري تدريس الفلسفة من خلال المحاورة، غالبًا، في المدارس الشهيرة، كما تجري الاستعانة بالكتب كمنتجات ثانوية عرضية.

كان التركيز الأساس على شرح النصوص الشهيرة القديمة الباقية، لَا سِيَّما نصوص أرسطو. مع ظهور الطباعة، صار ممكناً أن تنتشر الكتب الجديدة على نطاق واسع، وصار محور الفلسفة هو النقاش المكتوب بين كبار رجال الدين الذين عاشوا عادة بمعزل عن بعضهم.

أشاع صعود العلم، الانقسام بين الفلاسفة، إِذ تلقّى بعضهم الاكتشافات الفيزيائية الجديدة بصفتها توسعاً للفلسفة التقليدية، في حين شدّد آخرون على انفصال الفلسفة، واهتمامها بالفكر، والتجريدات، والحقائق الازلية.



في أوروبا الوسطى ركّز الفلاسفة انتباههم على النصوص القديمة التي ظلّت محفوظة.



أدى ظهور العديد من الجامعات في القرن التاسع عشر إلى تغيير كبير في ممارسة الفلسفة، أمّا اليوم فيمضي معظم الفلاسفة البارزين مسيرتهم المهنية في أقسام الجامعة. وتشبه حلقات الدرس في الجامعة الحديثة المحاورات في مدارس الفلسفة القديمة، لكن هناك، أيضاً، ما لا يحصى من الأبحاث المنشورة في المجلات مع ردود نقدية من فلاسفة وزملاء، إضافة إلى مؤتمرات دولية منتظمة تُعقَد ومحورها مباحث متخصّصة في الفلسفة.

تتمثل الخطوة الأخيرة في تغيير مناهج الفلسفة في ظهور المنطق الصوري الحديث. ابتكر أرسطو المنطق الصوري، لكن ظلت هذه الصنعة على هامش الفكر الفلسفي، حَتى القرن العشرين. وحالما صارت اللغات الرسمية أقوى تعبيراً، وأكثر تمكّناً، رأى الفلاسفة المختصون في الموروث التحليلي أن اللغات أدوات لتوسيع نطاق الفكر العقلاني إلى أصقاع جديدة، مع إضافة نوع من الدقة التي كانت تقتصر، عادة، على الرياضيات.

الانتقادات

للفلسفة الغربية موروث يمتد إلى ألفي سنة ونصف، وما زالت في طور الانتعاش. غير أنها لطالما كانت، ولا تزال، عرضة لانتقادات النقاد وشكوكهم التي تنصبّ على ما يحاول الفلاسفة إنجازه. وتتأتى الشكوك النمطية بصدد الفلسفة من رجال الدين، والشعراء، والعلماء، والحركات النسوية، وعامة الناس المهتمين، والأشخاص العمليين.



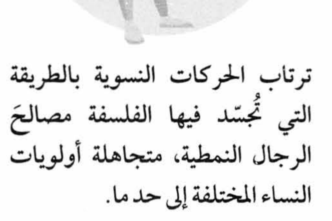
يخشى رجال الدين من أن التساؤل الدائم يقوّض العقائد الراسخة التي لا بُدَّ من أن يقوم عليها الدين.



يظن العلماء أن البحث المادي الحديث ترك الفلاسفة وراءه، لأنه يتعذر على من يكتفي بالتأمل على كرسي أن يثبت الحقائق.



يخشى الشعراء من أن الدقة الجامدة للتفكير الفلسفي تعيق نمو مشاعرنا العميقة، وتحول دون أن نحيا حياة مكتملة.



ترتاب الحركات النسوية بالطريقة التي تُجسّد فيها الفلسفة مصالحَ الرجال النمطية، متجاهلة أولويات النساء المختلفة إلى حد ما.



عادة ما يصاب عامة الناس بالإحباط بفعل تلك الأمور التي يصادفونها بتواتر في الفلسفة – تقعّر المصطلحات، والجمل الطويلة، والادعاءات الغامضة، والافتقار إلى أمثلة ملموسة – ويرتابون من أنها مؤامرة نخبوية.

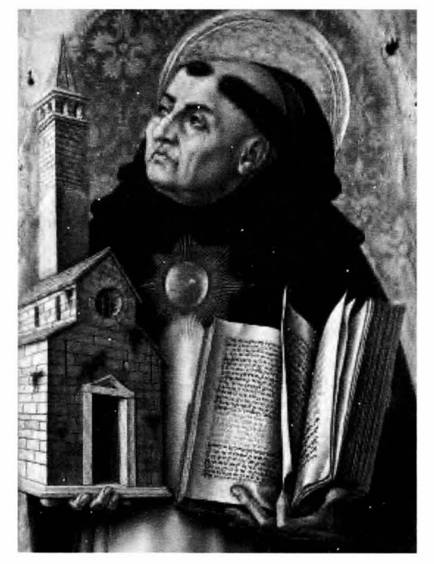


يناهض الأشخاص العمليون انعزال الفلاسفة المثير للغيظ، وانسحابهم إلى المعاهد، والجامعات في وقت يُرتجى منهم أن يوظفوا ذكاءهم توظيفاً عملياً أفضل بكثير.

المعضلات الدينية

أقامت الأديان الكبرى علاقة متأرجحة بين الكراهية، والمحبة مع الفلسفة. فما أن تترسّخ ديانة ما في معتقداتها الرئيسة، وينتشر أتباعها على نطاق واسع، حَتى تعمد، عادةً، إلى بناء منظومة دينية متماسكة جامعة مانعة للإجابة عن أسئلة المؤمنين بها. وذلك هو نظير ما تعرضه الفلسفة تحديدًا من خلال طرائق لإزالة التناقضات، وإيجاد إطار محكم للمتصورات. ويظل التساؤل المتواتر: هل يتسنى التوفيق بين إله الفلاسفة العقلاني النائي، وبين إله الدين الشخصي الذي يتخلل الحياة البشرية. وبالطبع يتمثل المشكل الأساس في أن الفلسفة لا تتوافر على قاعدة تقول بوجوب توقف التساؤل الشكوكي حين يغدو مثار إزعاج.

الإيمان والفلسفة



شكّل التوفيق بين الفلسفة واللّاهوت الذي قام به القديس توما الأكويني أسس عقيدة الكنيسة الكاثوليكية

اهتم العلماء المسلمون، في القرن التاسع الميلادي، أشدّ الاهتمام بالفلسفة اليونانية، لكن بحلول القرن الثاني عشر الميلادي تلاشى هذا الاهتمام، وعاد الولاء للنصوص المقدسة يهيمن مرة أخرى. صار المفكرون المسيحيون مستثارين عندما بدؤوا بقراءة أرسطو في القرن الثاني عشر، وسعت أجيالٌ عِدة من رجال الدين البارزين المسيحيين إلى التوفيق بين أنساق الميتافيزيقا، والأخلاق في الفلسفة اليونانية، وبين تعاليم العهد الجديد. وتزايد استقلال المذاهب الجديدة وعنفوانها، حَتى أقدم زعماء الكنيسة على وضع حدٍّ لها بفظاظة مباغتة (في العام 1347)، وتعرض رجال الدين للاضطهاد، وتفرق جمعهم، بل

التهم الموجهة للفلسفة

- تقوض العقيدة.
- تخفق في إحراز تقدم.
- تفتقر إلى الدقة.
- لا تراعي البراهين.
- تتجاهل المشاعر.
- تجسد اهتمامات ذكورية.
- تكتظ بالرطانة.
- مؤامرة نخبوية.
- لا فائدة عملية منها.

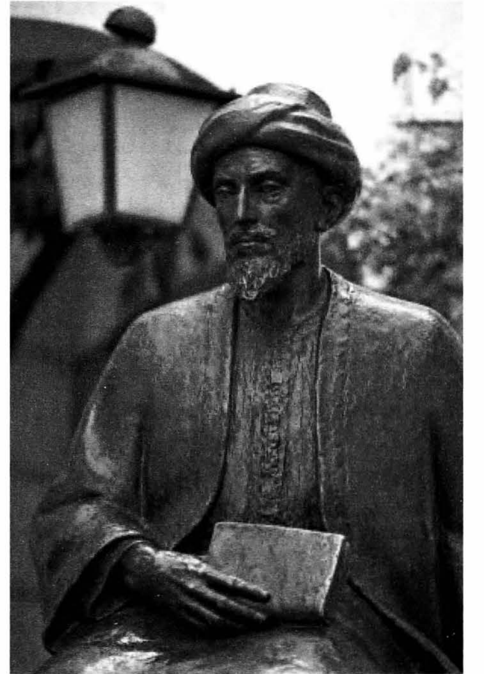
إنّ التشديد على الإيمان الخالص صار أقوى مع الإصلاح البروتستانتي (ابتداءً من العام 1517)، على الرغم من أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ظلت تولي اهتمامًا كبيرًا بالمواءمات التي حققها مفكرو العصور الوسطى مثل توما الأكويني. من جانبها كان لليهودية لاهوتيون متفلسفون كبار في القرن الثاني عشر، على غرار موسى بن ميمون (المشهور في الغرب باسم ميمونيدس)، ظل اهتمامهم كبيرًا بالتوفيق بين القضايا الفلسفية، والشرائع الواردة في النصوص الدينية القديمة.

تفاعلات الفلسفة والدين

الفلسفة اليونانية ← القرن التاسع في العالم المسلم

أرسطو ← القرن 12 في العالم المسيحي

الفلسفة اليونانية ← القرن 16 عهد الإصلاح الديني



كان موسى بن ميمون (1135 – 1204) من رواد الفلاسفة اليهود

اللّاهوت والعلم

طفقت الفجوة بين اللّاهوت والفلسفة تتسع اتساعًا مطّردًا منذُ القرن السابع عشر الميلادي حينما أدى صعود العلم الحديث، والانشغال المتجدد بالنزعة الشكوكية القديمة إلى أسئلة أساسية أكثر تحديًا، وبدا أن ظهور الإلحاد الصريح في القرن الثامن عشر قد أدى إلى خلق فجوة يتعذر ردمها، بَيْدَ أنّ مقاربة جديدة للدين (على يد الفيلسوف الوجودي كيركغارد مثلاً) أبقت القضايا الدينية حية في مضمار الفلسفة، وتعدّ فلسفة الدين، في الوقت الحاضر، مبحثًا مزدهرًا في معظم أقسام الفلسفة.

لا يزال اللاهوتيون المعاصرون منشغلين بالحجج الشكلية عن وجود الإله، ومدى صحة الاعتراضات التي يوجهها المشككون بشأنها. ولا مناص للّاهوتيين من معالجة مشكلة الشرّ لأنها غالبًا ما ترد بوصفها علّة الإلحاد.

مع ذلك يتعلق التركيز الأكثر شيوعًا في اللّاهوت الحديث بطبيعة الإله الذي يُعدّ غالبًا جانبًا من جوانب النفس، وطريقة ارتباطها بالدنيا وليس كأقنوم أعلى Supreme person. وتبدو النزعة المادية من المنظور الحديث بلا روح، وتنقصها الغاية.

الهجوم من العلم



أسهم فرانسيس بيكون في إطلاق العنان للعلم التجريبي

لطالما كان يُطلق على العلم تسمية (الفلسفة الطبيعية)، وكان من المتعذر الفصل بين المبحثين، لكن عندما أسهم فرانسيس بيكون في إطلاق العنان للعلم التجريبي الحديث (حوالي في عام 1610) فإنه ربط الأمر بالهجوم على مبحث ما وراء الطبيعة التقليدي الذي كان مثل تمثال تسمّر في مكانه، ولم يسبق له قطّ، أن تحرك في أي اتجاه. وأدى ذلك إلى توجيه ثلاثة انتقادات للفلسفة:

- إنها تخفق في إحراز تقدم.
- إنها تفتقر إلى الدقة.
- إنها تُولي اهتمامًا قليلاً بالبراهين.

في الآونة الأخيرة أوحى التقدم العلمي الهائل في العديد من المجالات إلى أنه قد يتكفل أخيرًا بحل المشكلات الفلسفية الأصيلة جميعها. فأطلق الفلاسفة مصطلح (العِلمَوْيّة) Scientism لوصف هذا الادعاء المتحمس.

يتقبل بعض الفلاسفة هذه الفكرة، وصاروا متشائمين بشأن موضوعهم. فمنْ أَجل فهم الذهن وتفكيره، والسلوك البشري، والمادة، والزمان، والمكان، وكيفية اكتساب المعرفة، قد تكون مواكبة الأبحاث العلمية الحديثة أكثر أهمية من الجلوس متأملاً.

المتفائلون

- يظن المتفائلون أنّ العلم والفلسفة يظلان جزءًا من مشروع واحد (مع بقاء تخصص الفلاسفة بالشطر الأكثر شمولية وتصورًا).
- يرى المتفائلون أنّ العلم ليس وثيق الصلة بالفلسفة، كما يرون أنّ الانشغالات بالعالم المادي هي تفاصيل ضئيلة، في حين أن المشكلات عظيمة الشأن تكمن في مستوى من التفكير مختلف أشدّ الاختلاف.

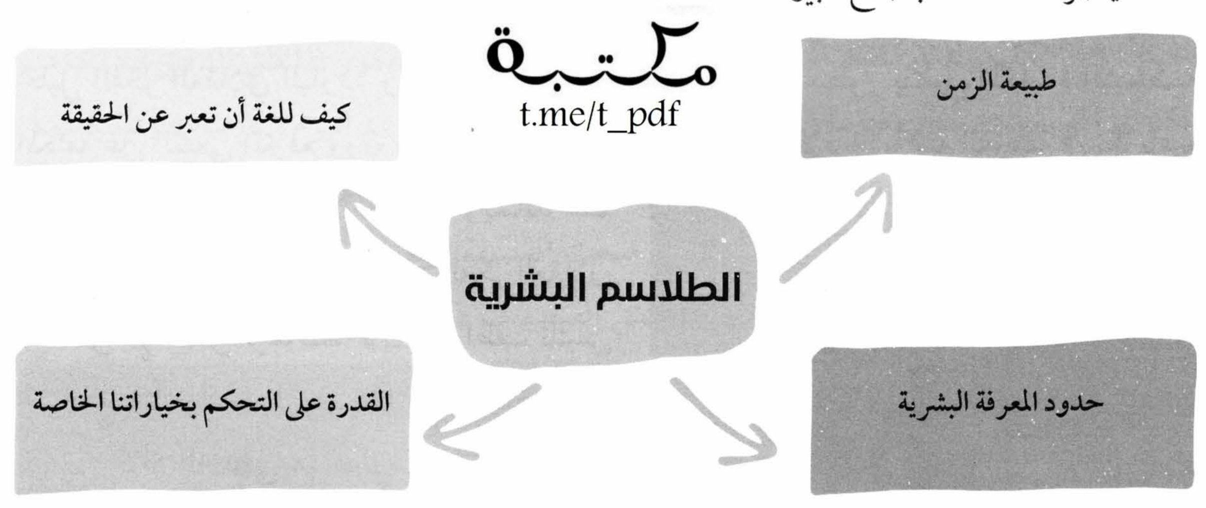
المتشائمون

- يظن المتشائمون أنّ الفلسفة مصابة بالالتباس التصوّري، وهو أمر لا بُدَّ من تبيانه ثُمَّ التخلي عنه.
- كما يظنون أنّ ضرورة فهم العالم فهما أفضل تقتضي مواكبة الأبحاث الحديثة بدلاً من الجلوس، والانغماس في التأمل المغرق بالتجريد.

التقدم

من الشائع اتهام الفلسفة أنّها لم تحرز تقدمًا، بما أنّها ظلت تواجه المشكلات نفسها لقرون عديدة، وأخفقت في حلّ أي من تلك المشكلات. من الممكن القول جوابًا عن ذلك إنّ بعض المشكلات جرى حلها (مع أنّ الحل الصحيح لم يكن محط تقدير بالكامل)، أو أنّ الهدف لم يكن، قطّ، حلّ المشكلات. يرى المنظور الثاني أنّ المشكلات كناية عن ألغاز متواصلة ستظل دائمًا تواجه الجنس البشري.

يتمثل المبتغى في فهم الألغاز فهمًا كاملاً، ورسم ملامح الحجج الممكنة، والحجج المضادة، وهو هدف ينجزه الفلاسفة بنجاح كبير.



المقدمة

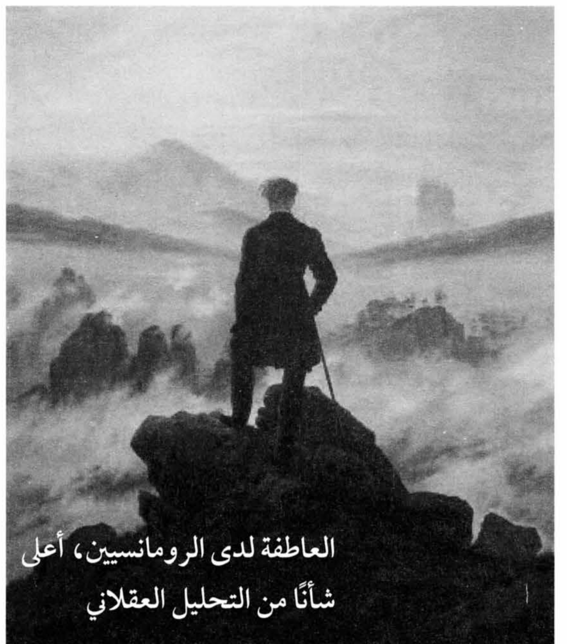
إنّ التهمة القائلة إنّ الفلسفة تفتقر إلى الدقة يقابلها استعمال المنطق بوصفه أداة للتثبّت، وهو الأمر الذي يمنح الدقة مؤكّدًا، والدليل المحكم. بَيْدَ أنّ ثَمَّةَ خلاف مفاده: هل أن هذه الأداة المنضبطة تتناسب مع مشكلات ملتبسة، ومستعصية كهذه؟

البيّنة

من المعتاد أنّ تهمة عدم مراعاة الفلسفة للبينة، أو الدليل تواجه فلاسفة يتقبلون ضرورة أن تكون لديهم دراية بالعلم. ومن الطبيعي أن يكون لدى الفلاسفة دراية فاعلة بشأن النظرية النسبية، ونظرية الكم (الكوانطا)، وعلم الأحياء، والدماغ، والنموذج القياسي للمادة الفيزيائية، ونظرية التطور. لا تحل دراية كهذه محل الفكر الفلسفي، لكن مراعاة الحقائق الراسخة لا غنى عنها.

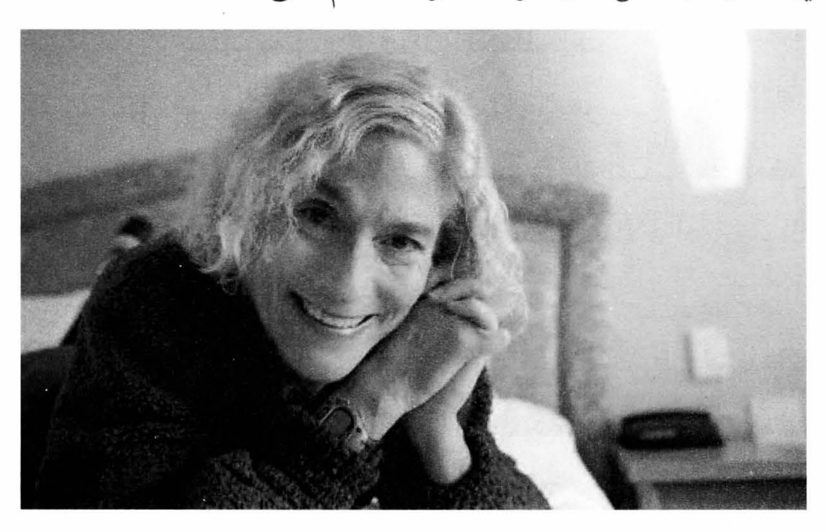
اعتراض الشاعر

ظهر لون جديد من الاعتراض على الفلسفة يفضل الموسيقى المؤثّرة، والشعر العاطفي على تحليل الفكر العقلاني البارد. وما زال هذا المنظور يعيش معنا، منظور يفضّل المكابدة الشخصية المكثفة على السعي المترفع وراء الحكمة. ردّ الفلاسفة الحديثون بالإقرار بأهمية العاطفة في نظرياتهم بشأن الذهن، ومبحث الأخلاق. ويساند علم الأعصاب الحديث منظورًا مفاده أن الفكر العقلاني الخالص هو محض ترهات، لأن العواطف تلتبس حَتى مع اشتغالاتنا الأكثر عقلانية ومنطقية. إنّ غياب الحافز العاطفي هو فجوة واسعة في العديد من النظريات الأخلاقية. في مقدورنا بلورة ضوابط مثيرة للإعجاب بشأن حسن التصرف، ولكن لماذا علينا أن نزعج أنفسنا كي نساير ضوابط السلوك؟ تُولي التفسيرات الجديدة للحياة الصالحة اهتمامًا أكبر لدور الحب، والرغبات الأنانية.


العاطفة لدى الرومانسيين، أعلى شأنًا من التحليل العقلاني

الحركة النسوية

لدى مفكرات الحركة النسوية هواجس شتى. إنّ ألفيّ سنة من الفلسفة الذكورية الخالصة، تركت بصماتها على الشأن الفلسفي (على غرار مجالات أخرى في المجتمع)، وتسهم الفيلسوفات في الحركة النسوية اليوم، إسهامًا جليًّا في تفكيك تلك النظريات والأفكار الذكورية. وخير مثال على ذلك هو فلسفة الأخلاق، إذ تتسم النقاشات الذكورية بطابع قانوني للغاية، وتسعى إلى وضع ضوابط محددة لتوجيه السلوك وتقييمه. وما زلن النسوة في طليعة إحياء مكانة الفضيلة في مبحث الأخلاق، إذ ترى النسوة أن تربية الأطفال، (التي يبدو ذكرها في النقاشات السابقة)، هي في صميم الحياة الأخلاقية. ولدى المفكرات النسويات شكوك بصدد ولع الذكور بالمنطق الدقيق، والمفاهيم الكبرى المهيبة التي تُنحّي جانبًا التفاصيل الرقيقة للحياة. تُعدّ النساء، اليوم، لاعبات رئيسيّات في مجالات الفلسفة المتعارف عليها، إذ يسهمن إسهامًا عظيم الشأن في فلسفة المنطق، والرياضيات، والعلم، إضافة إلى الجوانب الأكثر إنسانية في مبحث الفلسفة. يبدو أنّ ما من سبب يمنع أنّ تغدوَ الفلسفة، في المستقبل القريب، غير مكترثة بجنس الفيلسوف ذكرًا كان أَم أنثى.



فيلسوفات مثل مارثا نوسباوم يسعين إلى وضع الموروث الفلسفي الذكوري موضع تساؤل

الإرباك بفعل تَقعُّر المصطلحات

من لا يألف الفلسفة، غالبًا ما يصاب بالنفور من غموضها الظاهر. لا يتأتى ذلك من الإفراط في التأملات في الفلسفة فحسب، وكثرة المفردات المتخصصّة، وإنما لأن ثَمَّةَ، غالبًا، تركيز مستدام على قضايا مغرقة في التفاصيل الدقيقة لا يضيّع عامة الناس وقتهم فيها.

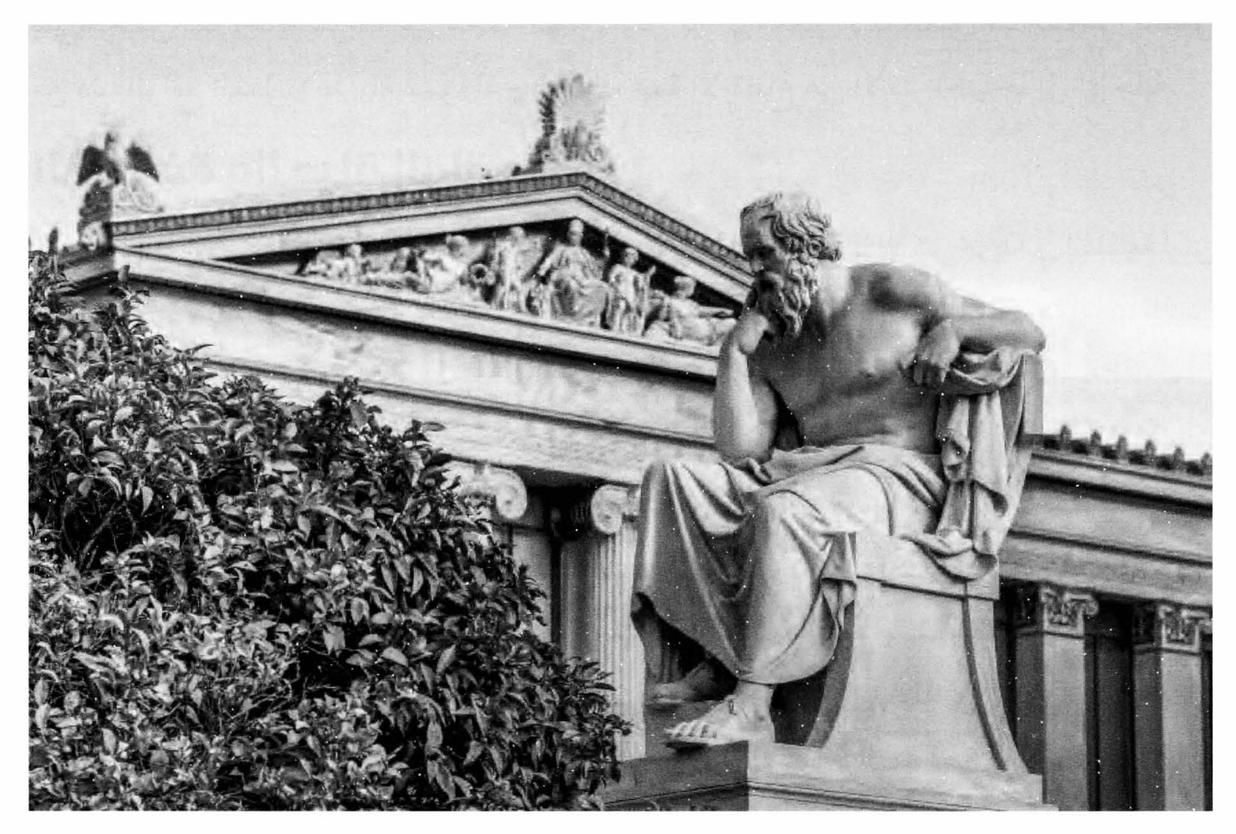
للرد على ذلك نقول: إنّ سائر مناحي العلم، ولنأخذ الكيمياء مثلاً، هي معقّدة غامضة، وملؤها المصطلحات المقعرة، وتنشغل بأدق التفاصيل حين ندرسها في مستوياتها الدراسية العليا، فلِمَ لا تكون الفلسفة على غرار ذلك؟ قد يرد المنتقد بالقول إنّ هاجس الفلسفة الأكبر هو التعاطي مع ما مرّ على البشر من تجارب متعارف عليها قد نأمل جميعًا الانخراط فيها. يستطيع الفلاسفة أن يستمروا في القول إنّ المصطلحات المقعرة تظل ضرورية حَتى عند الحديث عمّا هو يومي وعادي، لكن أغلب الظنّ أنّ عليهم الاعتراف بأحقيّة بعض الانتقادات.



تزايدت المصطلحات المقعّرة في النصوص الفلسفية منذُ الفلسفة اليونانية وما تلاها

كانت الفلسفة ولا تزال عسيرة، لأنها تطالب الأفراد بإنعام النظر كثيرًا في كل شيء. ومن المؤكد أنّ نصوص الفلاسفة الإغريق كانت أكثر صعوبة من مروياتهم التاريخية، وأدبهم. مع ذلك، صار الأسلوب الفلسفي في كتب الفلسفة منذُ عهد الفيلسوف كانط (نحو 1790) فصاعدًا، أكثر عسرًا على نحو ملحوظ، وتزايد استعمال المصطلحات المتخصصة.

من المتعذر تلافي شطرًا من هذا الأمر بحكم تراكم الاطلاع على الفلاسفة السابقين، وضرورة أن يكون الدارسون الجدد على دراية بمتصورات أسلافهم، ونظرياتهم، وشروحاتهم الشهيرة. بَيْدَ أنّ رهطًا كبيرًا من الفلاسفة الحديثين يساورهم القلق بشأن صورة الفلسفة التي اتسمت بسمة نخبوية، وحصرية طوّرها مبحثُها. إنّ السعي إلى الوضوح في كل مبحث أكاديمي أمر حيوي، لكنه مهم على نحو خاص في الفلسفة، لأنّ من السهل للغاية إدراج مفردة تقنية متخصصة لم تترسخ في العالم المادي.



تطرق سقراط إلى الخطابة، والفلسفة في محاورة جورجياس

لا طائل منها عمليًّا

في كتاب أفلاطون (محاورة جورجياس)، يدخل سقراط في حوار بصدد المزايا النسبية للخطابة الهادفة إلى الإقناع، والفلسفة الحقيقية. في أثناء المحاورة يقدم أفلاطون شخصية تدعى كاليكلس الذي ينتقص من الفلاسفة وانشغالاتهم. وكان ما يزعجه في الأخص هو انقطاع الفلاسفة عن الحياة العملية، وهم يضفون المثالية على متصورات الخير والفضيلة، في حين أنّ الحياة مجرد صراع قوة، وهي تغصّ بالرابحين، والخاسرين. والفلاسفة جديرون بالازدراء وغير مسؤولين، ولا صلة لهم بشيء. ليس ثَمَّةَ إجابة سريعة عن هجمة كهذه، لكن بما أنّ معظم الأكاديميين قد انسحبوا بالفعل من دنيا الواقع العملي (بطريقة مسؤولة جدًّا) فإنّ تهمة الانقطاع هي الأكثر احتياجًا إلى الإجابة.

الفلسفة والحياة الواقعيّة

ما صلة الفلسفة بالحياة الواقعية إذًا؟ يُقرّ معظم الفلاسفة أنّ القضايا الأكثر تجريدًا في الفلسفة ليس لديها بصورة مباشرة سوى صلة واهية بالحياة الواقعية، وحَتى النقاشات الأقرب إلى اهتمامات الناس عن الأخلاق، والسياسة النظرية ليس لها صلة مباشرة بكيفية عيشنا اليومي، لكنهم ما زالوا يعتقدون أنّ الفلسفة، على المدى الطويل، تحظى بأهمية هائلة. ليس من اليسير تسويغ هذه القناعة، إلّا أننا إذا تفحّصنا المعتقدات الراسخة التي تشكّل صورة المجتمع الحديث، وتساءلنا عن مؤدّاها ندرك أنّ تلك المعتقدات تطورت كخليط من الاستجابات للمواقف العملية في العالم، وتأثير المفكرين المهيمنين من الأجيال السابقة. إنّ مبادئ منظومتنا القضائية، وقيم الديمقراطية الليبرالية، والمباحث، والثقافات التي نتعلمها في المدارس، لم تأت بمحض المصادفة. يعيدنا تاريخ أفكار كهذه إلى رؤى شاملة من الماضي. يتأتّى معظم هذه الأفكار من محاربين، واقتصاديين، وزعماء كاريزميين، وكتّاب الخيال، ولكن الفلاسفة لهم القدح المعلّى في التأثير. في مقدور الفلاسفة أن يُحدثوا تأثيرًا ضخمًا في هذه الدنيا، غير أنّه تأثير بطيء أشدّ البطء.

الفلسفة قبل سقراط والسفسطائيين

شرعت الفلسفة اليونانية بالبحث عن تفسير راسخ للطبيعة Phisis بَدءًا من طاليس الملطي (624 – 546 ق.م) الذي قال إنّ كل شيء نراه هو صورة للماء. وتلته آراء أخرى تقول إنّ عماد الطبيعة هو الهواء، والنار، والتراب. كل واحد من هذه العناصر (بضمتها الماء) ضرورية للحياة، لذا قالت نظرية لاحقة إنّ هذه العناصر الأربعة جميعها هي ما يكوّن الطبيعة. بالنسبة لـ (امبيدوقليس) (490 – 430 ق.م) إنّ الطبيعة حصيلة عناصر تجمعها المحبة، وتفرقها الكراهية. أمّا هيرَقليطس (535 – 475 ق.م) فكان يرى أنّ الطبيعة تتغير باستمرار بحَيثُ يتعذر إدراكها أبدًا. ورأى انكساغوراس (510 – 428) الذي دافع عن أهمية الذهن في أسس الطبيعة. من جهته اقترح ديمقريطيس (460 – 370 ق.م) أنّ كل شيء مكوّن من ذرّ آتٍ، وهو ما أفضى إلى النزعة الفيزيائية الحديثة.

بارمنيدس (516 –؟ ق.م) منح دفعة كبيرة للميتافيزيقا، أو ما وراء الطبيعة حينما تساءل عن الوجود في ذاته (الكينونة)، وكان يرى أنّ تقلبات الطبيعة الظاهرة مجرد وهم. أمّا فيثاغورس (570 – 495 ق.م) فكان مولعًا بالنِّسب العددية في الطبيعة، وخَلُصَ إلى أنّ أساس الطبيعة هو الرياضيات، ونظرًا إلى أنّ الكينونة، والرياضيات لا يدركهما غير العقل، وليس عن طريق التجربة الحسية، فقد وضع هذان المفكران خط الشروع للتراث العقلاني.

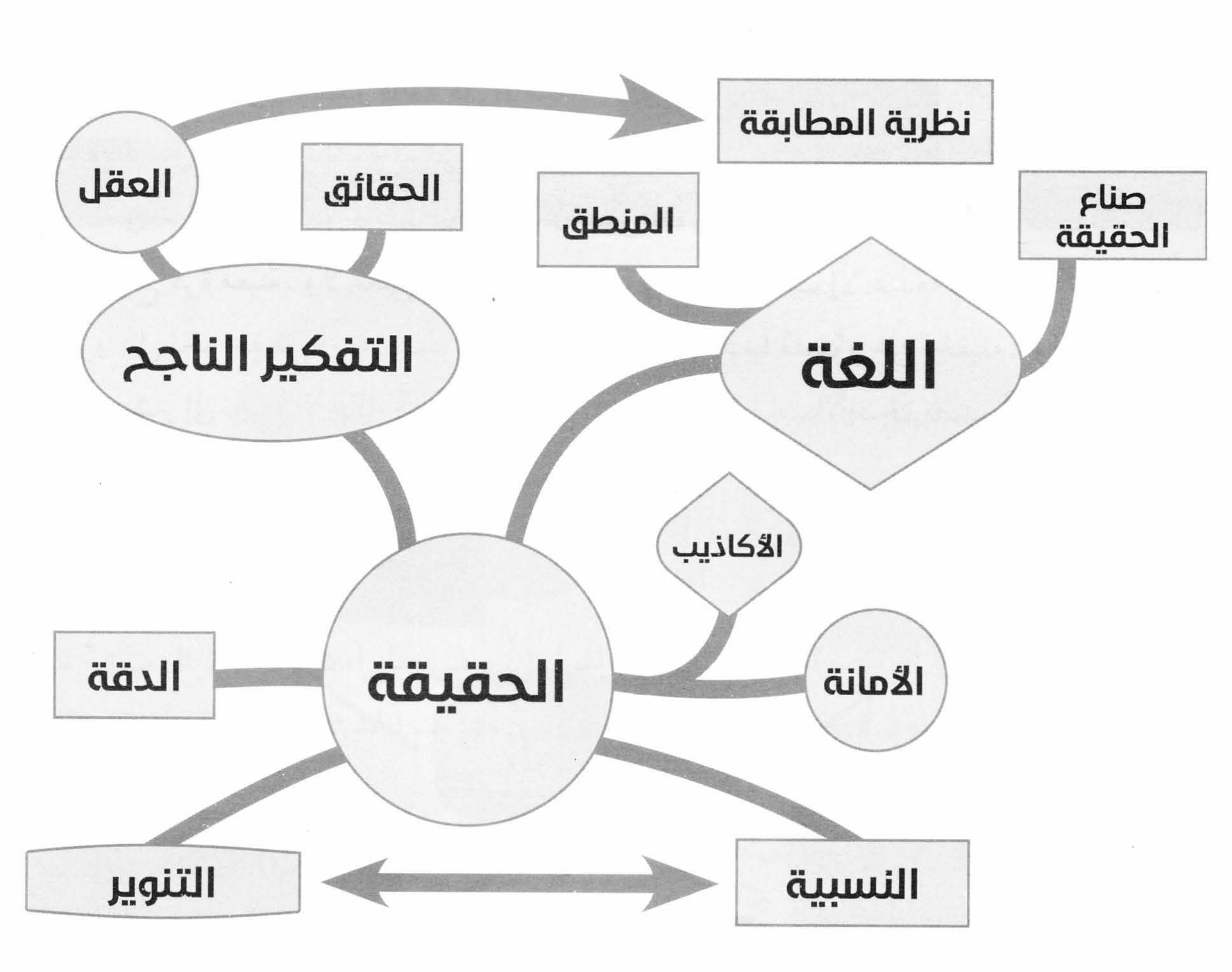
بدَت الطبيعة مصدر الحقائق قاطبة، والمتحكم بالحياة البشرية. بَيْدَ أنّ انقلابًا فلسفيًّا قرر أنّ معظم الحقائق والشؤون البشرية هي مجرد أمور تتعلق بالقانون، أو العُرف، أو النّاموس (Nomons). فتح هذا النقاش بصدد ناموس الطبيعة الباب لموضوعات كبيرة في الفلسفة: هل اكتشفنا ناموس الطبيعة أم ابتكرناه؟

وما زلنا في الالتباس نفسه، فهل أنّ الرياضيات، والمنطق، والأخلاق، وقوانين الطبيعة، ومعارفنا المفترضة كلها هي حقائق على الأرض، أم من بنات أفكارنا؟ وذهب السفسطائيون (وتعني الحكماء في اليونانية) إلى أنّ كل ما نعتقده هو تقريبًا نتاج ما تواضعنا عليه، وليس حقائق. واستهل بروتاغوراس (490 - 420 ق.م) النزعة النسبية، ورأى أنّ الحقائق المفترضة كلها مجرد وجهة نظر لشخص ما. أمّا جورجياس فذهب إلى نزعة شكيّة أكثر تطرفًا، واضعًا ما يسوغ أن لا شيء يجدر تصديقه فعليًا.



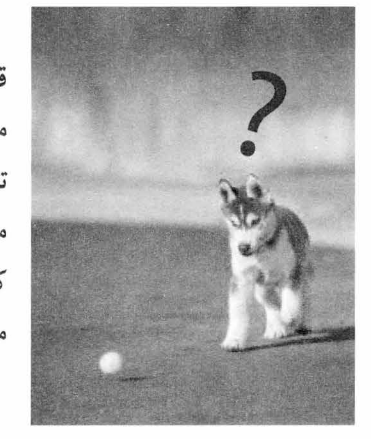
كان ديمقريطس، وهرقليطس من الفلاسفة البارزين قبل سقراط

الحقيقة


نظرية المطابقة
العقل
الحقائق
المنطق
صناع الحقيقة
التفكير الناجح
اللغة
الأكاذيب
الدقة
الحقيقة
الأمانة
التنوير
النسبية

طلب الحقيقة

الحقيقة هي محور الحياة البشرية، وفي صميم الفلسفة. ولا معنى للفلسفة إلّا إذا سعى مفكروها إلى تجنب ما هو خطأ. قد تكون الحقيقة هي القيمة العليا للفلسفة إذا ما صدقنا رأي أفلاطون أنّ «الحقيقة تتصدر قائمة كل الأشياء الخيرّة بالنسبة للآلهة كما بالنسبة للبشر».



قد تفتقر الحيوانات إلى متصور الحقيقة، لكنها تعرف الوقوع في الخطأ، مثلاً من الممكن أن يكون كلب ما مشوشًا بشأن موقع كرة معينة

لدى الحيوانات حدس بالخطأ أيضًا قبل أن يخطئ قطّ في تقدير قفزة، أو حين يكون كلب ما مشوشًا بشأن موقع كرة معينة. ولا معنى لسلوك الحيوانات في هذه المواقف إلّا عندما تدرك أنّها تعاملت مع الأمور على نحو حقيقي أو على نحو خاطئ. قد لا يكون لديها مُتصوَّر عن الحقيقة، ولكن المتصوَّر البشري يشير إلى نجاح الأحكام أو فشلها، ومن المؤكد أنّ الحيوانات الأضخم تصدر أحكامًا.

الحقيقة

نتوق إلى زعماء سياسيين جديرين بالثقة

تهدف المحاكم القانونية إلى الكشف عمّا حدث فعلًا منْ أَجل إصدار أحكام عادلة

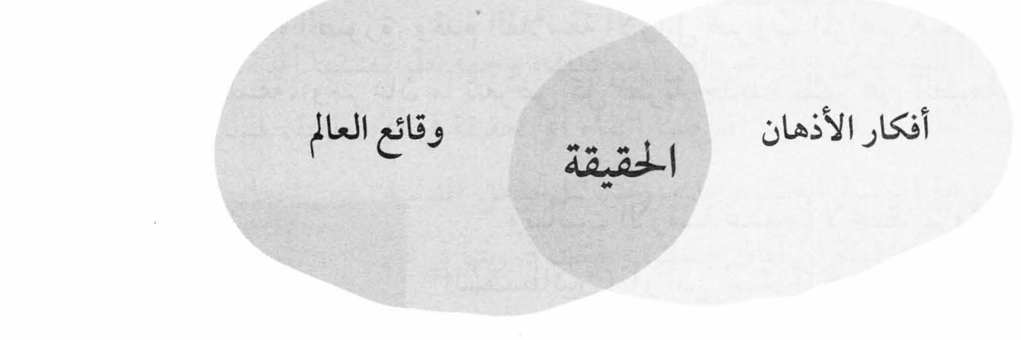
نريد أن يتحدث الآخرون بصدق وبوتيرة ثابتة

يجري تقييم التجارب العلمية من خلال دقة اكتشافاتها

ما الحقيقة؟

في المحادثات اليومية نقول (الحقيقة موجودة)، أو (نحتاج إلى كشف الحقيقة) لكن الفلاسفة يفضلون الحديث عمّا هو موجود بوصفه وقائع Facts، ويحتفظون بمفردة الحقيقة، أو الصواب لوصف الأفكار بدلاً من وصف العالم. لذا فإنّ الرأي المعياري مفاده لو لم يكن هناك أذهان في العالم لكان هناك الكثير من الوقائع - وليس حقيقة. بعبارة أخرى، تُفهَم الحقيقة بوصفها العلاقة بين الذهن والوقائع «علاقة أفعلها على نحو صائب».

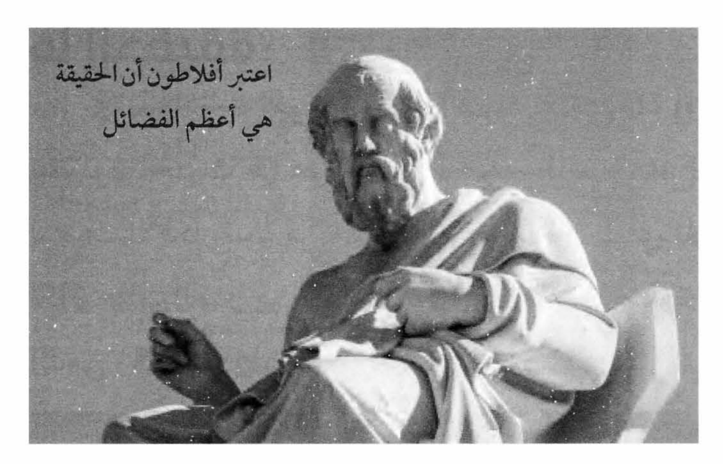
الحقيقة: علاقة بين الذهن والوقائع



قد نلتقط الحقيقة، أو الصواب في جملة، وقد نقول إنّ بعض جمل أفلاطون لا تزال صائبة على الرغم من أنّ ذهن أفلاطون لم يعد معنا. ومن هنا تتمحور النقاشات الحديثة غالبًا حول اللغة. ولكن لا حقيقة إذا كان ذهنٌ ما غير منخرط في موضع ما في السّيرورة.

ونظرًا إلى أنّ التفكير الناجح هو التفكير الحقيقي، فإنّ المتصوَّر، ودوره في الفلسفة يجب أن يكونا بسيطيْن إلى حدّ ما، وبديهييْن. لكن، للأسف، ليس الأمر على هذا النحو، فإزاء كل فيلسوف يؤيد تقييم أفلاطون المتفائل، كان هناك، عادة، فيلسوف آخر يشكك فيه. وعلى الجانبين كان ثَمَّةَ

فلاسفة ضحوا بكل شيء منْ أجل السعي وراء الحقيقة (سقراط وسبينوزا على سبيل المثال)، غير أنّ ثَمَّةَ فلاسفة مثل بروتاغوراس، ونيتشه شككوا بقيمة الحقيقة، بل حَتى بوجودها ذاته.


اعتبر أفلاطون أن الحقيقة هي أعظم الفضائل

النزعة النّسبية

الحقيقة هي الفكر الناجح، ولكن إذا انعدم وجود نجاح (أصيل) من هذا القبيل، فلا يوجد شيء اسمه الحقيقة، وتمثلت الشكوك الأبكر تاريخيًّا على هذه الصورة. وقدم الفلاسفة الأوائل ضروب المزاعم جميعها، لكنّ الخلاف هو القوة المحركة للفلسفة، وسرعان ما تتعرض كل نظرية جديدة تظهر عن الطبيعة، والأخلاق إلى اعتراضات.

وتأتّت الأزمة عندما لاحظ بروتاغوراس (أحد السفسطائيين) أو من يُسمّون (الحكماء)، أنّ تلك الحجج المستمرة، والحجج المضادة لها يلغي بعضها بعضًا. وينقل الفيلسوف سينيكا عن بروتاغوراس قوله: « من الممكن الدفع بحجج متساوية القوة بصدد كل جانب من جانبي مسألة ما،


إنّ كلاً من الحياة الاجتماعية والفلسفة هما مجرد معارك منْ أَجل الغلبة بين عقائد متنافسة حَيثُ تهيمن قوى الإقناع الانفعالية على ساحة المعركة بدلاً من الموضوعية والعقل

حَتى مسألة افتراض أنّ بإمكان أحدهم أن يدفع بحجج متساوية لمصلحة أيّ من جانبي مسألة ما ». وإذا كانت الأطراف المتعارضة في كل حجة متساوية بالقوة فعلاً، فستكون معرفة الإجابة الصحيحة بعيدة المنال دائمًا، وبالإمكان أن تكون الحقيقة موضع إهمال. حينها كل ما يتبقى هو الحجج المتنافسة، وكل منها تمثل وجهة نظر شخص ما، يعبّر عن ذلك بمقولة « الإنسان مقياس كلّ شيء ».

النزعة الشكّية المتطرفة: يعني هذا المذهب الاجتماعي، أنّ كلًّا من الحياة الاجتماعية، والفلسفة هما مجرد معارك منْ أَجل الغلبة بين عقائد متنافسة حَيثُ تهيمن قوى الإقناع الانفعالية على ساحة المعركة بدلاً من الموضوعية والعقل.

المدافعون عن الحقيقة

ظلت النزعة النسبية لدى بروتاغوراس، مع ذلك، وجهة نظر تعتنقها أقليّة. وكانت ردة الفعل المشتركة هي قلب الطاولة، وإنّنا إذا افترضنا انتفاء أيّ حقيقة في أيّ نظرية، فذلك يعني أنّ ما من حقيقة حَتى في النزعة النسبية أيضًا، وعليه، يحقُّ لنا تجاهل النسبية. مع النجاحات المبكرة للعلم الحديث، ارتقت مكانة الحقيقة إلى آفاق جديدة وبلغت ذروتها في عصر التنوير.

لطالما سار التفاؤل بالحقيقة، والتفاؤل باحتمالات التوصل إلى توافق عقلاني جنبًا إلى جنب، ولا يزالان يلهمان العديد من المفكرين. لكنّ التحديات لّما تنتهِ بعْد.

أقوال فلاسفة التنوير عن الحقيقة

جون لوك: « لا شيء يضاهي قيمة الجمال بالنسبة للعين مثل الحقيقة بالنسبة للعقل ».

سبينوزا: « يتوافق البشر دائمًا، وحتمًا بعضهم مع بعض ما داموا يحيون مسترشدين بالعقل ».

النزعة النسبية في عصر العلم

جاء عصر العلم بموقف تبجيلي من الحقيقة، لكن في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، شكّك فريدريك نيتشه بادّعاء اكتساب الحقيقة هذه الهالة المقدسة:

- بعد كل شيء، تعيش الحيوانات بنجاح دون أن تنشغل بالحقيقة.
- تقوم العديد من الثقافات البشرية على الأساطير، والأوهام الغريبة المغلوطة على نحو سافر.
- لا يحتاج الأقوياء في المجتمع إلى الانشغال كثيرًا بالحقيقة، لذا تبدو مناصرة الحقيقة شعارًا يفضّله المضطهدون، وليس هدفًا محايدًا للفكر.

استحدثت هذه الإشارات موقفًا عصريًا يرى أنّ الحقيقة أقلّ من مثالية مطلقة يسعى إليها الجميع، وأكثر من حلم منسوج بمهارة في الثقافات الحديثة. وطوّر علم الاجتماع والدراسات الثقافية هذا الرأي الذي هو أقرب إلى النزعة النسبية لدى بروتاغوراس منه إلى مثل أفلاطون، وسبينوزا. ربما صارت النزعة النسبية شائعة أيضًا، لأنّها تشجع، كما يبدو، على التسامح، لكنّ ذلك سوء فهم، لأنّ النزعة النسبية المخلصة لمبدئها تتطلب التسامح مع عدم التسامح أيضًا.

تحدّى فريدريك نيتشه هالة التبجيل التي تحيط بالحقيقة

نظرية الاتساق: ليست الحقيقة أكثر من اندراج في ترسيم تصوري مثل تركيب قطعة في لعبة الجغسو.

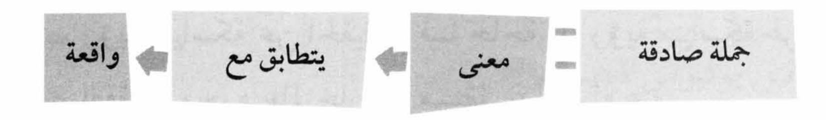
يقدم بعض الفلاسفة نظرية الاتساق بصدد الحقيقة لدعم مقاربة النزعة النسبية بقولهم إن الحقيقة ليست أكثر من اندراج محكم في ترسيم تصوري مثل تركيب قطعة في لعبة الجغسو Jigsaw. إن القول بأن الحقيقة هي مجرد اندراج محكم يحظى بمقبولية ظاهريًا، أي اندراج في ترسيم تصوري واسع، ومفصل، وناجح على غرار الكيمياء الحديثة، لكنه يبدو خاطئا عندما يكون الترسيم التصوري محدودًا جدًا مثل الانسجام مع مزاعم من قبيل أن الأرض مسطحة، أو مع عوالم متخيلة أدبيًا مثل حكايات شارلوك هولمز.

المطابقة-توافق المكونات

احتاج المدافعون عن الحقيقة إلى نظرية أوضح بشأن طبيعتها. وهنا تطورت فكرة المطابقة وهي تفترض تطابقًا مضبوطًا بين مكونات الفكر، أو الجملة اللغوية الصادقة، ومكونات الواقعة التي تؤكدها.

نظرية المطابقة: ثَمَّةَ تطابق مضبوط بين مكونات الفكر، أو الجملة اللغوية الصادقة، ومكونات الواقعة التي تؤكدها.

في العام 1912 ذهب برتراند رسل إلى أن الأسماء، والأفعال في الجملة الصادقة تجاري على نحو مضبوط الأشياء، والأفعال لحدثٍ قيد الوصف، وعليه يتوافقان مثل مثلثين متطابقين، وعلى غرار تطابق خريطة مع المنظر الطبيعي الذي تمثله. تظل نظرية المطابقة الأكثر شعبية لدى أولئك الذين يَعدّ ون الحقيقة متصورًا متماسكًا، على الرغم من المشكلات اللاحقة التي تحفّ به.



إذا كان معنى جملة صادقة بسيطة يتطابق مع واقعة ما، فكيف يجب أن نفهم متصورات من قبيل (المعنى)، و(المطابقة)، و(الواقعة)؟ وإذا استعملنا هذه المتصورات في تعريف الحقيقة، فحينها من الأجدر بتعريفات المتصورات أن تفترض ضمنا حقيقة ما، أو أن النظرية بمجملها تدور في حلقة مفرغة ميئوس منها.

المعنى

إذا كان معنى الجملة الصادقة يتطابق مع الوقائع، فما هو (المعنى)؟ تقول النظرية الأكثر شيوعاً إن معنى جملة ما هو ظروف صدقها، أي الكيفية التي تبدو عليها الأشياء إذا كانت الجملة صادقة، لكن كيف نعي أن الموقف الموصوف بصدق في الجملة إذا كنا لا نفهم لحد الآن ما هو صادق. من هنا يكون تعريف الصدق أو الصواب حلقة مفرغة، ويلزم أن يكون مفهوم المعنى منقطع الصلة بالحقيقة، وهو ما يبدو غير مرجح.

المطابقة

يمكننا أن نلحظ كيف تتطابق نقاط في مثلث، أو خريطة مع نقاط موجودة في موضع آخر، لكن التطابق بين كلمات ومتصورات، والوضع الذي تصفه، هو تطابق أكثر غموضا بكثير، لأنها أنماط من الأمور مختلفة اشد الاختلاف (إنها تشبه السؤال كيف تتطابق الموسيقى مع فن العمارة). وبالمثل، من العسير تعريف التطابق من دون الإشارة إلى أن التماثل يجب أن يكون دقيقاً، وينطوي ضمنا على الحقيقة. إذا لم نقم بإضافة هذا التحديد، فقد تعرض خريطة فرنسا لتطابق خريطة المانيا.

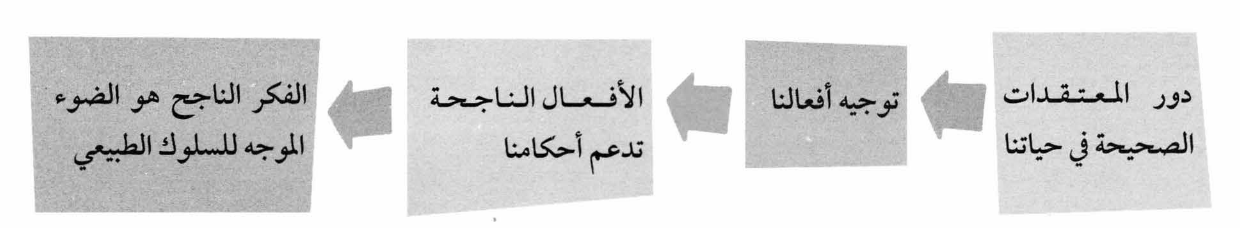
الواقعة

من المحال تحديد الواقعة المطابقة من دون التعبير عنها في جملة، لكن هذه الواقعة قد تكون، سلفاً، جملة في موضع بمحاورة. وهكذا، إذا كانت الجملة (القطة على الحصيرة) صادقة، فمن المفترض منطقيا أنها تتطابق مع الواقعة. ولكن ما الواقعة هنا؟ هل تعني الواقعة (أنْ القطة) فصيلة السّنور تقبع على الحصيرة الصغيرة أمام الباب؟ من المنطقي أكثر أن يكون منطوق الواقعة هو جملة (القطة على الحصيرة)، أو عندما نحاول التعبير عن الوقائع بهذه الطريقة، وإذا ما تبين أنها جملة صادقة، فإن نظرية المطابقة لا تخبرنا بشيء.

وفي سبيل تقديم رؤية متماسكة عن الحقيقة، فبنا حاجة إلى رؤية متماسكة عن الوقائع، الأمر الذي يستلزم إحالة صادقة إلى وجود عالم خارجي مستقل عما نقوله عنه.

الحقيقة العملية

بالنظر إلى المصاعب المتعلقة بتعريف ما هو صائب، بدا من المغري ان نقول فقط كيف يؤثر متصور الحقيقة في سلوكنا، أو كيفية استعمال المفردة في اللغة. اعتمدت البراغماتية الأمريكية (أواخر القرن 19)، المنهج الأول. فإذا كانت الحقيقة مثالاً مجردا، فهي تبدو نائية، ومحيّرة، ويتعذر تعريفها لذا فإن هدف البراغماتيين إعادتها إلى الحياة الواقعية.



من البيّن أن شرح المشكلة من خلال خبرتنا العادية أمر جذّاب، بيد أن البراغماتيين لا قِبَل لهم على إنكار أن النجاح في العمل لا يعني ضمنًا الحقيقة على الدوام، لان بعض الأشخاص المخدوعين للغاية يظل في مقدورهم تسيير حياتهم بنجاح كبير. تقدم البراغماتية رؤية للحقيقة من باب الفائدة والمنفعة، لكن على حساب جعلها اقل تماسكًا من نظرية المطابقة، وجعلها اقرب بكثير إلى النزعة النسبية.

النهج اللغوي

بدأ النهج اللغوي باعتراض فرانك رامسي Frank Ramsey في عشرينيات القرن العشرين القائل إن كلمة الحقيقة عند تمحيصها في الممارسة تبدو بلا معنى.

تشير نظرية الإسهاب Redundancy Theory هذه إلى أن لا فرق كبيرًا ما بين القول:

- (بروتوس قتل يوليوس قيصر).
- (إنه لمن الصدق أن بروتوس قتل يوليوس قيصر).

لا تفعل الجملة الثانية سوى تكرار الجملة الأولى، أو تقولها بصوت أعلى. وصارت الحقيقة في دائرة الأزمة مع عجز نظرية المطابقة عن تعريف الحقيقة تعريفًا واضحًا، وإعادتها إلى الحياة اليومية على يد البراغماتيين، وإلغائها من نظرية الإسهاب. فإما أنها في طريقها إلى الانمحاء كمتصور، أو أن تذوب في الدراسات التاريخية والثقافية.



تنص نظرية الإسهاب على أن لا فرق بين القول (بروتوس قتل يوليوس قيصر) والقول (من الصحيح أن بروتوس قتل يوليوس قيصر)

لغة الأشياء واللغة الشارحة

جاء المسمار الأخير في نعش الحقيقة في ثلاثينيات القرن العشرين عندما تأمّل الفريد تارسكي في القول (هذه الجملة كاذبة) (وهي كاذبة إذا كانت صادقة، وصادقة إذا كانت كاذبة)، واثبت أن من المحال منطقيًا تحديد متصور الحقيقة في لغة دقيقة. الخبر السار هنا أن يظل في الإمكان تقديم إحاطة دقيقة للحقيقة من خلال الخروج من اللغة والدخول في اللغة الشارحة. وهي لغة منفصلة تُستَعمل لوصف اللغة التي تهتم بها. لا يحق استعمال اللغة الإنكليزية اليومية للقول إن جملة إنكليزية ما هي جملة صادقة. فعليك أن ترتقيَ إلى مستوى لغوي منفصل في اللغة الإنكليزية، وهو المستوى الذي يلجأ إليه اللغويون للحديث عن اللغات. يمكنك من هذا المنظور الأعلى تحديد الجمل الصادقة في اللغة المعبرة عن الأشياء. وهكذا نبلغ المنطوق المحيّر قليلاً: « الثلج ابيض جملة صادقة إذا كان، وفقط، إذا كان الثلج ابيض ». من الأوضح قليلا إذا قلنا باللغة الفرنسية: (الثلج ابيض) جملة صادقة، إذا، وفقط، إذا (الثلج ابيض)، إِذ اللغة الشارحة (الإنكليزية) يجري استعمالها لإثبات أن الجملة الفرنسية صادقة، ما دام من المسموح القول إن الثلج ابيض في اللغة الإنكليزية.

'la neige est blanche'
الثلج أبيض (باللغة الفرنسية)

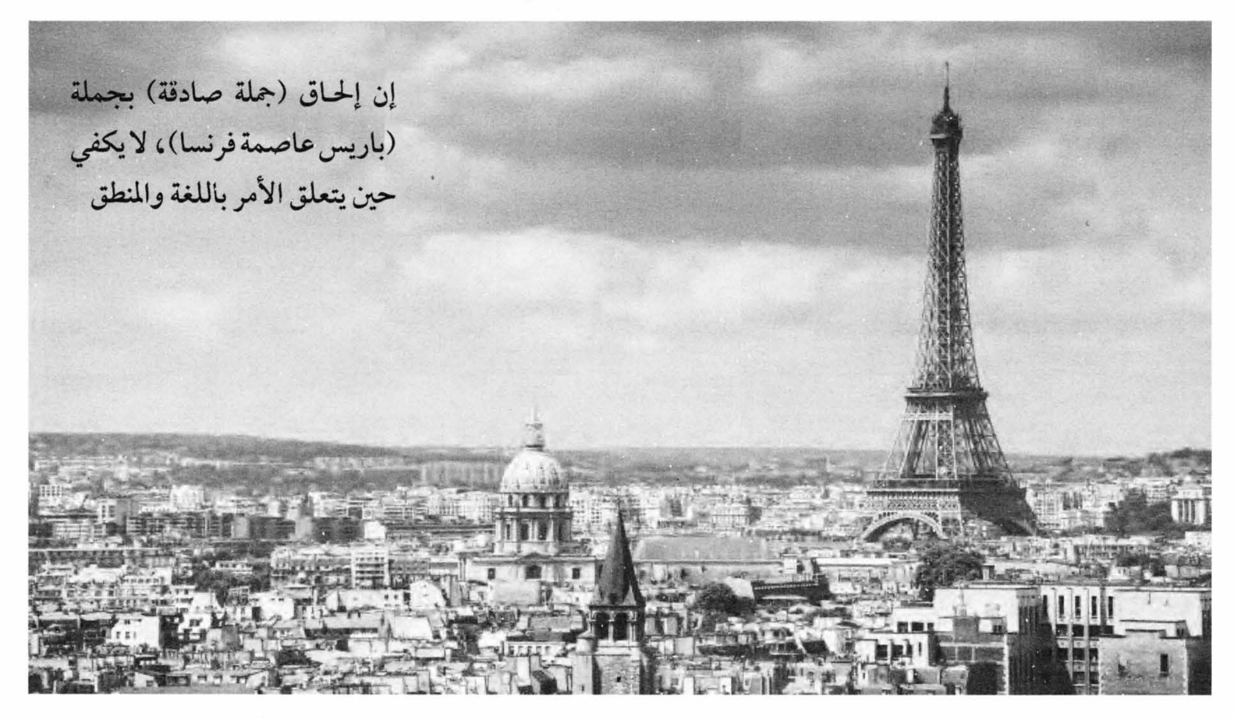
snow is white
الثلج أبيض (باللغة الإنكليزية)

الحقيقة

الحقيقة والمنطق

بناء على هذه الفكرة البسيطة السابقة، في المقدور وضع فهرس نظري يضم الجمل المسموح بها جميعًا في لغة الأشياء، بحَيثُ يضاهي كتابًا سميكًا يعرّف الحقيقة بالنسبة لتلك اللغة. ومن منظور المناطقة كانت الأهمية حينها تكمن في أن ما هو (صادق) صار من الآن فصاعدًا دقيقًا بما يكفي كي يشير إلى الكيفية التي انتقل بها داخل البراهين المنطقية.

في الإمكان القول إذا كانت A صادقة، وأن A تعني B فإن الأخيرة صادقة.



إن إلحاق (جملة صادقة) بجملة (باريس عاصمة فرنسا)، لا يكفي حين يتعلق الأمر باللغة والمنطق

نظرية الحد الأدنى أو النظرية الانكماشية من دون متصورات الحقيقة والخطأ فإن المنطق هو مجرد لعبة لا معنى لها مع الرموز، ولكن صار من الممكن الآن ربط المنطق بالعالم عن طريق الرمزين T أي الحقيقي والصادق و F وتعني الكاذب والخطأ.

كانت هـذه أنبـاء سـارة بالنسبة إلى المناطقة، لكن قـد تكـون هنـاك شكوك بصدد مـا إذا كنا نفهم الآن فهما أفضل ما تعنيه الحقيقة والكذب (نظرًا لكونهما يعدّان أمرًا مفروغًا منه في اللغة الشارحة). من الآن فصاعدًا يمكن أن ننسب الحقيقة والخطأ إلى جمل في المنطق بالطريقة نفسها التي ننسب فيها رقم واحد وصفر إلى تشكيل في الحاسوب.



ليس بالإمكان أن تعرف أن باريس عاصمة إسبانيا لان ذلك ليس بحقيقي

يتيح ذلـك بعض العمليات الحسابية المهمة التي قد تفضي إلى نتائج مذهلة في مختبر فيزيائي، على سبيل المثال، ولكن القول إن الحقيقة يمكن التعبير عنها مثلما نعبر عن رقم واحد في الحاسوب، ليس ما كان في ذهن افلاطون عندما أعلى من شأن الحقيقي بوصفه مثالا. وأقر تارسكي نفسه بان ما كان يثبته لا يتعدى الكيفية التي نستعمل بها (الحقيقي)، وانه لم يكن يقول لنا ماذا كان يعني ذلك. بالنسبة لبعض الفلاسفة الحديثين، فان الآثار المترتبة على تفسير تارسكي ناجعة، ويمكن التخلي عن النظريات الأكثر صلادة لمصلحة نظرية مدرسة الحد الأدنى أو الانكماشية Minimalist or Deflationary Theory عن الحقيقة. في الواقع، ليس التوصيف (حقيقي أو صادق) زائدًا عن الحاجة، لأنه مفيد عندما يحيل المرء إلى جمل من دون التعبير عنها، كما الحال مع جملة (ما قلته أمس صادق)، أو القول إن « كل جملة في هذا النص المقدس هي جملة صادقة »، بيد أن ذلك يعزز، فقط، اكتشاف تارسكي بأن من اللازم الابتعاد عن اللغة منْ أَجل الإفصاح عن الحقائق التي تتضمنها.

إن السبب وراء عدم كفاية هذا الإدراك للحقيقة بالنسبة للفلسفة يتجلى عندما نأتي إلى دراسة اللغة والمنطق. نبحث في اللغة عن تفسير كيف لأجزاء من جملة يمكن أن تحيل إلى كيانات واقعية في الدنيا، ثُمَّ نربط بها (مسندات Predicates) أو (صفات) ما يعني ضمنًا نوع النجاح والفشل الذي قد يحتاجه متصور متماسك عن الحقيقة. في المعرفة أحد أهم الافتراضات الأساسية مفاده أن من المتعذر مطلقا أن تقول انك تعرف شيئًا غير حقيقي، لا أحد يعرف أن باريس عاصمة إسبانيا، حَتى لو كانت لديه أدلة على ذلك، لأن باريس ببساطة ليست عاصمة إسبانيا. ومن المتعذَر أن نحسن التعبير عن هذه المسألة، إذا اكتفينا بالقول إن حرف (T) مختصر صفة حقيقي (True) يمكن أن يقترن بجملة (باريس عاصمة فرنسا).

صناع الحقيقة

ثَمَّةَ فكرة حديثة مثيرة للاهتمام توظف مفهومًا صلدًا عن (الحقيقي) تقوم على الزعم بان كل جملة حقيقية يجب أن يكون لها (صانع للحقيقة)، أي يجعلها حقيقية. يبدو هذا المقترح مقبولاً تمامًا بالنسبة للمنطوقات البسيطة المتعلقة بالوقائع المادية. إن جملة (القطة على الحصيرة) هي جملة صادقة إذا كانت القطة موجودة بالفعل على حصيرة، وإذا ما قمت بسحب الحصيرة من تحت القطة، فهو أمر يجعل الجملة فورًا كاذبة. إن حقيقة الجملة تستجيب مباشرة للوضع الفعلي. وتلك الواقعة المتفردة هي ما يجعل الجملة صحيحة، وعليه فلدى الجملة صانع للحقيقة. يتمثل المقترح الجريء، والمثير للجدل في أن الجمل الحقيقية كلها من هذا القبيل. إذا كان لكل حقيقة بالفعل صانع للحقيقة، فإن ذلك سيبعث المسرة لدى المدافعين عن النظريات الصلدة لان صنّاع الحقيقة وقائع جوهرية، أو ظروف، وليس مجرد إثباتات في لغة شارحة.

لامناص من أن ثَمَّةَ حالات شائكة لا يكون فيها الزعم بوجود صانعي حقيقة واضحًا للغاية:

- « تميل القطط إلى الجلوس على الحصائر » – في وسعنا أن نحاول تحديد صانع الحقيقة لكل حالة، غير أن ذلك لن يكون وضعًا منتظمًا.
- « القطط من فصيلة الثدييات » – ستعمل القطط الحالية جميعها بوصفها صانعة للحقيقة، لكن المنطوق يحيل إلى قطط في المستقبل لم توجد بعد، وهو منطوق أقل تماسكًا إلى حد ما من وضع واقعي.
- « لا يوجد قط على حصيرتي » – إِذ من الجليّ أن السجادة فارغة، لكن من غير الجلي سبب ارتباط الواقعة بالقطط.

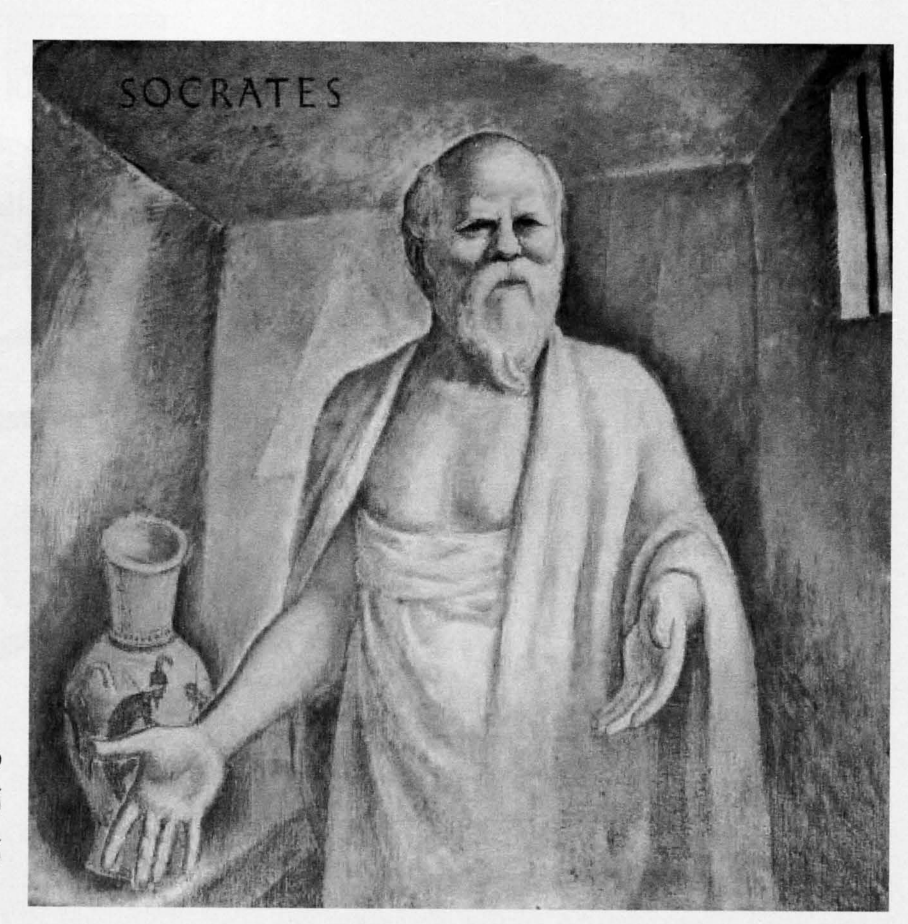
يبذل المدافعون عن فكرة صانع الحقيقة أقصى جهدهم حاليًا محاولين تفسير هذه الحالات الشائكة بطرق تستطيع أن تحتفظ بفكرة صلدة عن الحقيقة بوصفها علاقة ناجحة بين الذهن والواقع.

القطة الجالسة على الحصيرة هي صانعة للحقيقة بالنسبة لجملة (القطة على الحصيرة)، ولو سحبنا القطة من الحصيرة فلن تكون الجملة صادقة



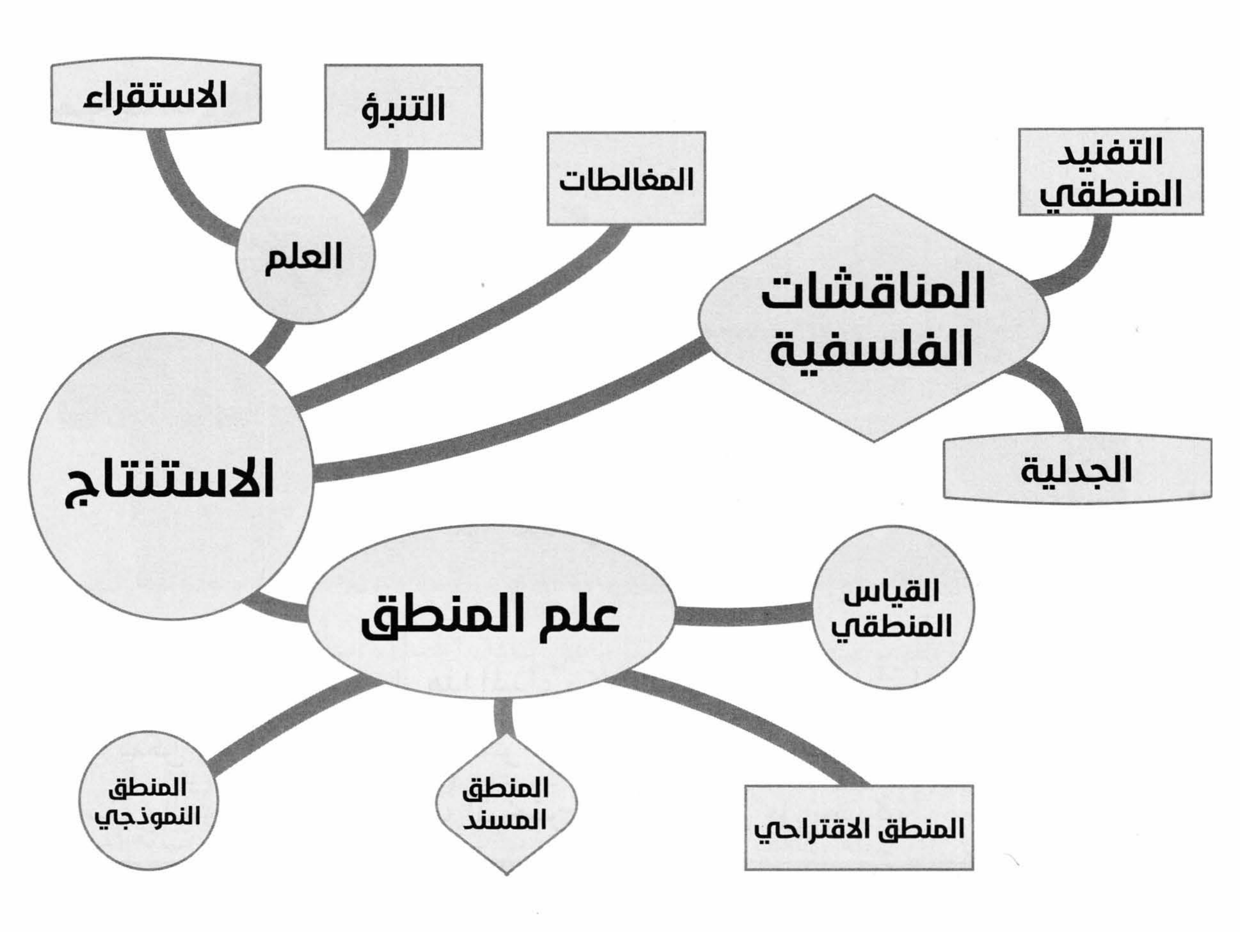
أحدث سقراط (469 – 399. ق.م) ثورة في الفلسفة اليونانية عندما قدّم مبحثًا جديدًا، فقال لا يهم جوهر الطبيعة، إنما السؤال المهم هو كيف يجب أن يحيا البشر حياتهم. وهكذا صارت الأخلاق والسياسة جزءًا من الفلسفة، كما أحدث ثورة في الطريقة التي تشتغل بها الفلسفة، فالهدف الرئيس للأخيرة هو أن نحدد تحديدًا جليًّا متصوراتنا الأساسية. وعلى غرار المحكمة القانونية حَيثُ يجابه المتحدثون بحيثيات ويطلب منهم تسويغها، أو الإقرار بأنها مغلوطة. وهنا فإن الاستعداد للتسليم بمسألة ما هو أمر حيوي، والجدل هو حينما تتنامى بنجاح محاورة على هذا النحو. ورأى أن العقل والحقيقة هما الأداتان الرئيستان لتحقيق ذلك. ويُعَدّ سقراط بطلاً بالنسبة للفلاسفة قاطبة لأنه مات دفاعا عن حرية الفكر.

لم يكتب سقراط شيئًا، لكن محاوراته المبهرة حافظ عليها تلميذه وصديقه افلاطون (427 – 347ق.م)، أسسّ افلاطون مدرسة في أثينا هي (الأكاديمية)، وظهرت أيضًا مدارس أخرى منافسة. كانت مؤلفات افلاطون على شكل محاورات، وجلّ اهتمامها هو محاولات لتحديد متصورات مهمة من قبيل المعرفة، والعدالة، والشجاعة، والكينونة والفضيلة. تقبل افلاطون معظم تعاليم سقراط، لكنه أضاف إليها بعضًا من عنديّاته، خصوصا نظريته في المُثُل. وذهب إلى القول إن المثل العليا مثل الخير، والجمال، والحقيقة، والرقم ليست مجرد نواميس بشرية، لكنها أسس أبدية وثابتة للطبيعة. إن الهدف من الجدل هو الارتقاء من مظاهر العالم السطحية لبلوغ الحكمة من خلال فهم المُثل. ويقول افلاطون في كتابه العظيم (الجمهورية) إن الذين يسلكون هذا الدرب ليسوا فلاسفة خيرين فحسب، وإنما يجب أن يكونوا حكّام المجتمع. وما من موضوعة مهمة في الفلسفة الغربية، تقريبًا، إلّا وقد تطرق إليها افلاطون في موضع ما من كتاباته، وتُعدّ أساس المبحث الذي تتناوله، (ويُعزى ذلك جزئيًا إلى كونها ظلت محفوظة، ولم تطلها يد الزوال).



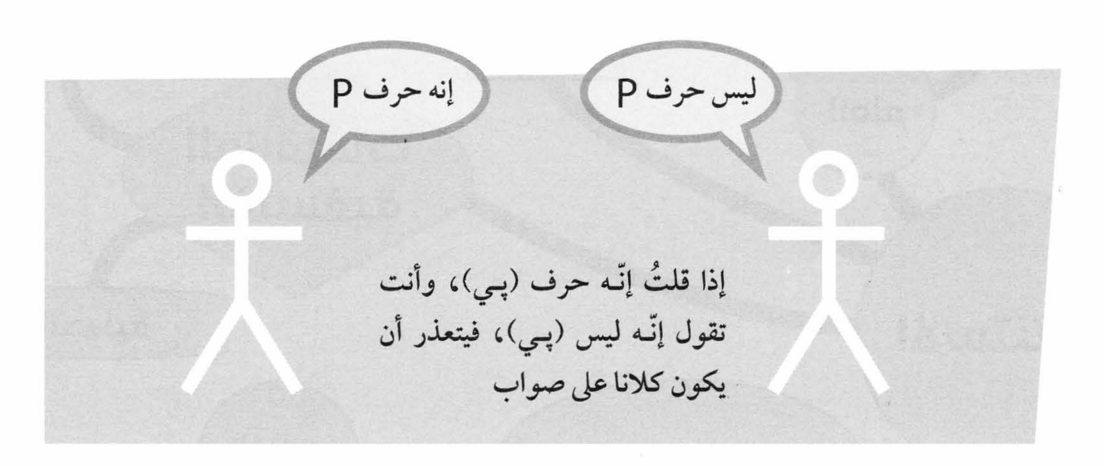
رأى سقراط أن على الفلاسفة
أن يدرسوا كيف ينبغي للبشر
أن يحيوا حياتهم

الاستدلال


الاستقراء
التنبؤ
المغالطات
التفنيد المنطقي
العلم
المناقشات الفلسفية
الجدلية
الاستنتاج
علم المنطق
القياس المنطقي
المنطق النموذجي
المنطق المسند
المنطق الاقتراحي

البحث من خلال المحاورة

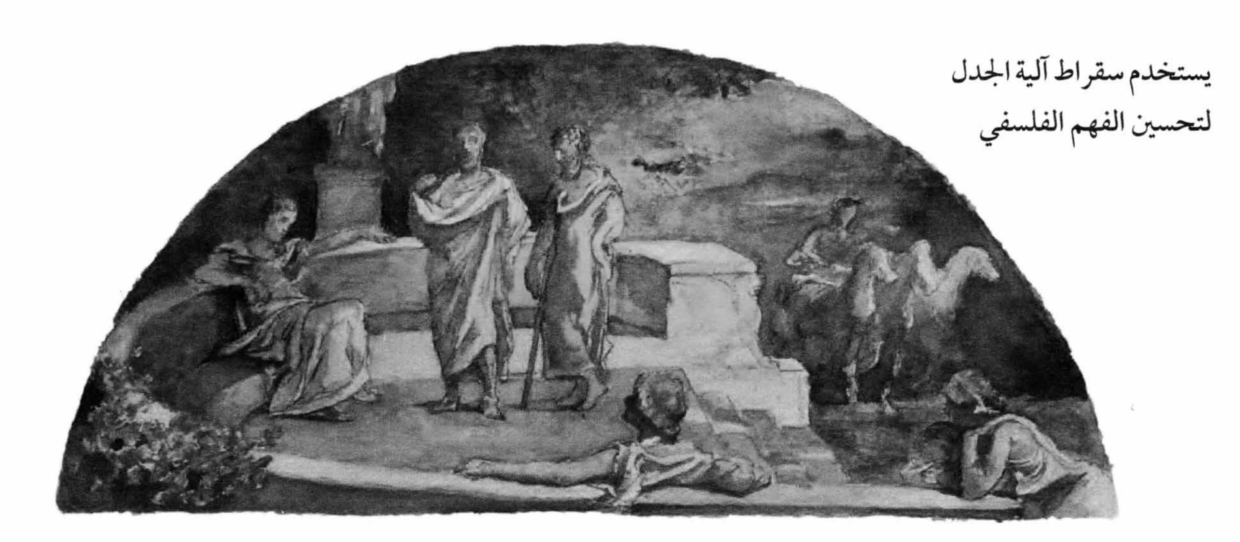
إنّ أكبر تطلع للفلسفة هو أن تكون عقلانية تمامًا. كان البحث في المراحل المبكرة، يقوم على أساسًا على المحاورة، لذا كانت أساليب النقاش موضع تمحيص. كانت الخطوة الأولى الحيوية هي الحقّ في الاعتراض على الإثباتات الغامضة، أو المشكوك فيها، وصار من الواضح أنّ التناقض هو في صميم العقلانية، فلا قانون للفكر أكثر أهمية من قانون عدم التناقض، إِذ يتعذر علينا القول أنّ القضية صادقة وكاذبة في آن واحد.



إذا وافق طرفا المحادثة على هذا المبدأ، وكان لديهما ما يكفي من التواضع للتسليم بمسألة ما، فحينئذٍ يمكن إحراز تقدم عبر تبادل متواتر للآراء والاعتراضات. في مقدور هذا الإجراء، عبر الممارسة، والذي يطلق عليه الجدَل، أن يحسّن فهمنا الفلسفي على نحو كبير.

الجدل: يحرز تقدمًا عبر تبادل متواتر للآراء والاعتراضات.

بادئ ذي بَدء، لا يعني الجدل أكثر من محاورة، بَيْدَ أنّ أهميته تتزايد بالتدريج. ما يهم هو محاورة رصينة، ويجب أن تكون مثيرة للاهتمام وهادفة، ومركزة، وتفضي إلى موضع ما. وتؤدي المحاورات العظيمة إلى الحكمة، وتحتاج إلى أشخاص ينخرطون في الاستدلال، بدلاً من مجرد تبادل الآراء.



يستخدم سقراط آلية الجدل لتحسين الفهم الفلسفي

الجدل السقراطي

ولكن من أين تبدأ؟ رأى سقراط (بحسب ما يذكره تلميذه أفلاطون) وجوب البَدء مما يعتقده الناس فعليًّا، وتطوير منهج استجواب يقوم على تبادل الجدل. اسأل شخصًا ما عن متصَوَّر مهم – من قبيل العدالة، والشجاعة، والقانون، والمعرفة، والصداقة، والجمال – ثُمَّ قم بدعوته إلى تعريف ذلك المتصَوَّر. وقدّم له أمثلة لا تستقيم مع تعريفه، واطلب منه إعادة تعريفه. في النهاية سيصل ذلك الشخص إلى نقطة يتناقض فيها مع نفسه، ومِنْ ثَمَّ عليه العودة إلى افتراضاته المسبقة، وأن يحفر حفرًا أعمق. إنّ النتيجة المعتادة للمحاورات الأفلاطونية الشهيرة هي فهم أعمق للمسألة التي غالبًا ما تقترن بالتباس يتعذّر حلُّه.

الجدل السقراطي: منهج للاستجواب يتضمن الطلب من شخص ما تعريف متصَوَّر مهمّ، ثُمَّ تقديم أمثلة لا تستقيم مع التعريف، ما يجبره على تقديم تعريف جديد.

كتب أفلاطون زُهاء ثلاثين محاورة تجسد الجدل السقراطي، ويظهر في معظمها سقراط. الأكثر شهرة من بين تلك المحاورات:

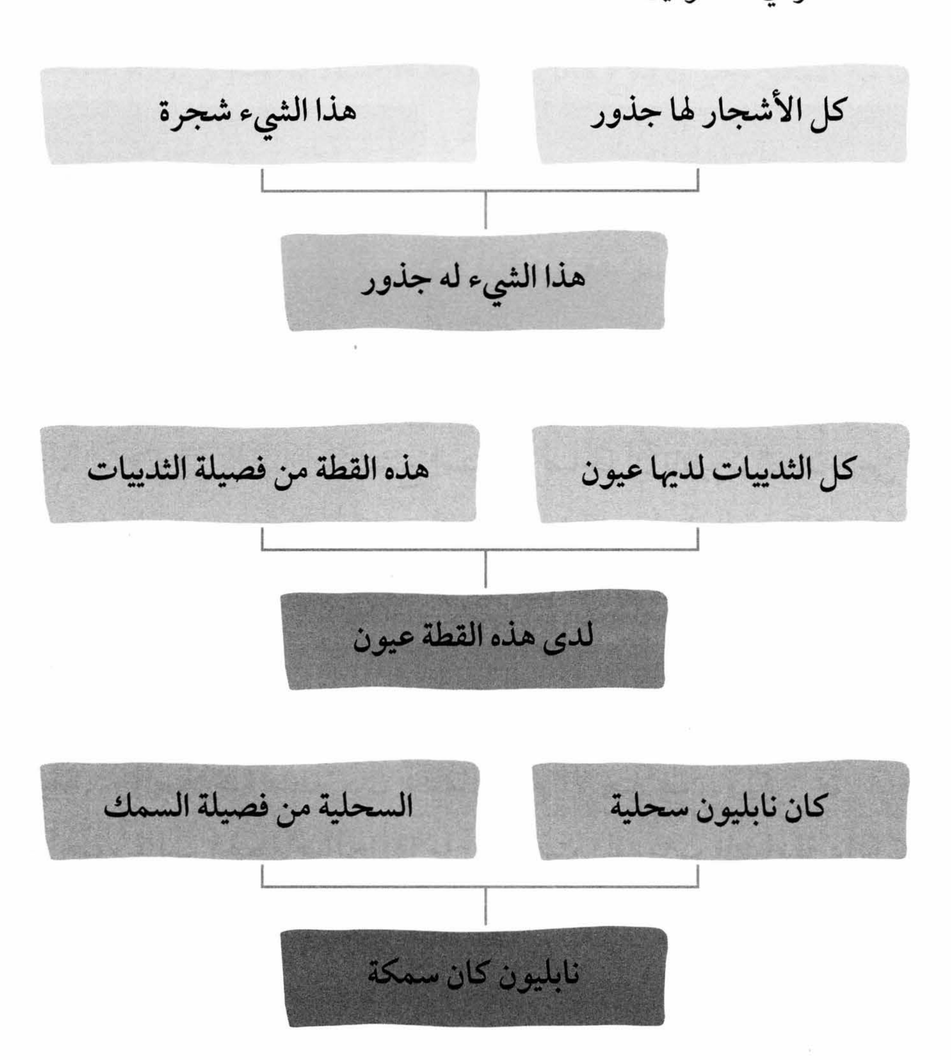
- جورجياس
- فيدون
- الجمهورية
- المأدبة
- تيماوس

جاء أرسطو (384 – 322. ق.م) إلى أثينا من شمال اليونان في سن المراهقة للدراسة في أكاديمية أفلاطون. درس فيها مدة عشرين سنة قبل أن يغادرها ليباشر مدرسته الفلسفية (ليسيوم). وطوال مساره الحياتي كان له تأثير في مجالات متنوعة مثل علم الأحياء، والخطابة، والسياسة، ومبحث الأخلاق، واللّاهوت، وعلم النفس.

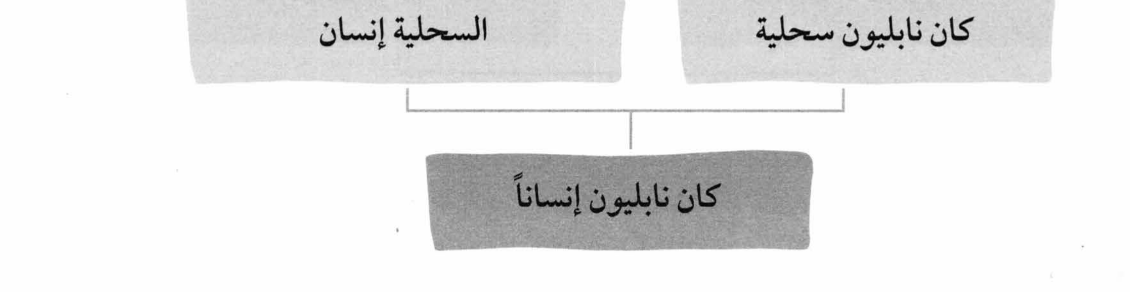
كان أرسطو أحد تلامذة أفلاطون. مضى إلى مدى أبعد بكثير في تحليل اشتغالات الفكر العقلاني. كان في أكاديمية أفلاطون يصغي بانتباه شديد للحجج الرائجة حينها، وهو يلحظ القوالب المكونة للاستدلال الناجح والفاشل. كان نفاذ بصيرته الرائع يتمثل في معرفة أنّ بإمكانك أن تدع التفاصيل، وأن تصف القوالب فحسب عن طريق وضع حروف لمكوناتها، تمامًا كما هو الحال مع الجبر. لقد سلط أرسطو الضوء على القواعد التي يسترشد بها المستدلون، ثُمَّ استكشف العديد من السبل التي يتسنى من خلالها استعمال تلك القواعد لوصل تلك القوالب وتحويلها. وهكذا ابتكر المنطق الصّوري.

المنطق

إنّ أساس منطق أرسطو هو القياس المنطقي الذي يضع جملتين ثُمَّ يستنبط منهما جملة ثالثة.
وهكذا إذا أنعمنا النظر في المنطوقين:



نرى أنّ القياسات المنطقية الثلاث تحمل القالب نفسه. حين نلاحظ المثال الأخير، لا بُدَّ من أن نستنتج أنّ نابليون سمكة (في حين أنّه ليس كذلك). كل واحد من تلك القياسات هو قياس صالح لأنّ خطوات الاستدلال سليمة. مع ذلك، في المثال الثالث، كلتا المقدمتين كاذبة، وكذا الحال مع النتيجة المستخلصة منهما كاذبة أيضًا. لنلاحظ لو أنّ المقدمتين كانتا على هذا النحو:



في وسعنا، انطلاقًا من ذلك، أن نستنتج استنتاجًا صالحًا أنّ نابليون إنسان (على الرغم من أننا انطلقنا من مقدمتين كاذبتين). لذا لا بُدَّ لنا من أن نفرز بوضوح الجمل الصادقة عن الحجج الصالحة. إذا كنت تؤمن بالهراء فيمكنك أن تستنتج منه بطريقة صالحة الصدق والهراء.

المنطوقات ذوات الاستدلال السليم التي فيها مقدمات صادقة ستقود دائمًا إلى نتائج صادقة.

إنّ الحقيقة، والصلاحية متصَوَّران مختلفان تمام الاختلاف، ولكن يحق توظيف الصدق لتحديد الصلاحية. قالب الحجة صالح إذا ما استلزمت المقدمات الصادقة دائمًا نتيجة صادقة. والحجة غير صالحة إذا كانت المقدمة الصادقة تؤدي إلى نتيجة كاذبة. يمكن أن يحاجَج الكذّابون، والأنذال بطريقة صالحة، ولكن إذا ما انطلقوا من الأكاذيب فلا يمكننا أن نقول إن كانت نتائج حججهم صادقة أم كاذبة.

ما يهم الفلاسفة هو أنك إذا كنت متيقنا من أنّ مقدماتك صادقة، ثُمَّ طبقت قالبًا للحجة معروفًا بصلاحيته، فذلك يضمن صدق النتائج الجديدة حَتى لو لم تفكر قطّ فيها من قبل. لقد شخّص أرسطو 256 قالبًا للقياس وقرر أنّ 19 فقط من بينها تتمتع بالصلاحية.

عـدّل بعض المناطقة الحديثين ما توصل إليه أرسطو، لكن اكتشافه الأسـاس ظل من دون تغيير – وهو أنّ من الممكن اختزال تنوع هائل من أوجه الاستدلال البشري إلى قوالب قليلة، ويمكن أنّ نبيّن ما إذا كانت صالحة أم لا، من دون الخوض في التفاصيل. لذا في وسع الحواسيب التعامل مع الكثير من التفكير المنطقي (ما دامت القوالب دقيقة)، وكان منهج القياس مناسبًا على نحو ممتاز. وهكذا ابتكر أرسطو أداة متمكّنة جديدة للاستدلال لتضاف إلى منهجي الجدل والجدال السقراطي.

منطق القضايا

يحلل القياس الأرسطي العلاقات بين عنصرين (أو حدّين) لجمل بسيطة تحمل الشكل (ألف هي ياء)، على سبيل المثال (الأشجار لها جذور). بَيْدَ أنّنا نتفكر بـصـدد جمـل كاملة وعـلاقـات، وإمـكـانـات. وبحث الرواقيون العلاقات بين الجمل الكاملة. لقد تعرض جزء كبير من كتاباتهم إلى الضياع، لكن المنظومة الكاملة (المسماة منطق القضايا) أوضحها، وحسّنها جورج بول في القرن التاسع عشر.

بيّن جورج بول نسق منطق القضايا عبر تقديم تعريفات دقيقة لمجموعة من العوامل المنطقية

منطق القضايا: النسق المنطقي للعلاقات بين الجمل الكاملة.

جداول الحقيقة

جرى اختزال الارتباطات المنطقية إلى مجموعة صغيرة جدًا فمفردة مثل (لكنّ) لها المعنى المنطقي نفسه مثل (واو العطف and)، و(لا النفي not)، ثُمَّ تمّ إضفاء تحديدات دقيقة على هذه الارتباطات. وإذا انطلقنا من جملتين هما، P، وQ، إذن:

- P (أو) Q صادقة إذا كانت إحداهما في الأقل صادقة.
- P ليست صادقة إذا كانت P كاذبة.
- إذا كانت P، ومِنْ ثَمَّ Q صادقة، إذا كانت P الصادقة لا يمكن أن تشير إلى Q كاذبة.

إذا أضفنا T وF، للتعبير عن الصدق والكذب، فسيكون في وسعنا أن نضع تحديدات ضمن جدول الصواب.

الرموز الشكلية بالنسبة للارتباطات بين الجمل هي:

- • للتعبير عن (و)
- V للتعبير عن (أو)
- ¬ للتعبير عن (لا)
- × للتعبير عن (إذا ... إذن)

جدول الحقيقة	if-P-then-Q P×Q	not-P ¬P	P-or-Q PvQ	P-and-Q P.Q	Q	P	
المخرجات	T	F	T	T	T	T	المدخلات
	F	F	T	F	F	T	
	T	T	T	F	T	F	
	T	T	F	F	F	F	

يقدم لنا ذلك لغة منطق القضايا، وهو أسهل مناحي المنطق على الفهم. ويستعمل في الإلكترونيات حَيثُ يجري استخدام الرقمين (1) و(0) بدلا من الرمزين T وF (اللذين يدلان على الصواب، أو الصدق، والكذب، أو الغلط)، منْ أَجل تشغيل الدوائر الإلكترونية تلقائيًّا، وإيقافها. فحالما يجري تحديد تلك الروابط، فمن الممكن إثبات مجموعة من المنطوقات القائمة على حقائق بسيطة. يمكنك إثبات أنّ منطوقًا ما صائب أو صادق في المنطق من خلال تبيان أنّك إذا افترضت أنّه منطوق كاذب فسينتهي بك الأمر إلى التناقض. وهكذا إذا افترضت أنّ البشر من فصيلة الأسماك، فهذا يعني ضمنًا أنّ لدينا زعانف، بَيْدَ أنّنا نعلم أن ليس لدينا زعانف، ولذا فإنّك قمت بافتراض كاذب.

منطق المحمولات

كانت الحاجة لا تزال قائمة للمنطق لوصف الاستدلال الرياضي. في العام 1879 تمكن كوتلوب فريج من تقديم ذلك المنطق لعلماء الرياضيات، إِذ تم التعامل مع الأرقام والعناصر الأخرى على أنّها أشياء لها خصائص مختلفة (أو محمولات لغوية) حَيثُ تستخدم الحروف لتمثيلها.

(a, b, c ...) تمثل الأشياء الثابتة

(x, y, z ...) تمثل الأشياء المتغيرة

(F, G, H ...) تمثل خصائص الأشياء (الموجودات)

(يمكن الاستمرار في استخدام الحروف إلى ما لا نهاية: a1, a2, a3 ... x1, x2, x3). لو كتبنا (Ga) فهذا يعني بأنّ الشيء له الخاصية G. أما إذا كتبنا (Gx) فهذا يعني بأنّ شيئًا ما (X) له الخاصية G.

تضمن المنطق الجديد روابط المنطق الافتراضي. لذلك لو كتبنا Gx ¬ Hy، فهذا يعني (إذا كانت x هي G، فإن y ليست H) على سبيل المثال (إذا كان الباب مغلقًا، فإنّ الغرفة ليست باردة).

إننا عادة ما نحدد أو نفترض مجالاً تندرج فيه الأشياء أو تُصنّف على أساسه (مثل الأبواب التي في المبنى أو الأرقام الأولية). يتم إضافة رمزين آخرين، لمعرفة ما إذا كانت العبارة تشير إلى المجال كله، أو إلى جزءٍ منه.

- الرمز ∀ هو محدد كمي كلي، أمّا (∀x) فإنها تمثل كل (x ...).
- الرمز ∃ هو المحدد الكمي الوجودي، أمّا (∃x) فإنها تعني «يوجد في الأقل x واحد كما في ... ».

ترد في الكتابات الفلسفية التقنية التي تستخدم لغة الرموز والمعادلات. يمكن أن نقرأ هذه المعادلة كما يأتي: $xy((Fx.Gx)\rightarrow Hy)$

« فيما يتعلق بجميع رموز x، ثَمَّةَ y واحد في الأقل بحَيثُ إذا كانت كل x هي F وG، فإنّ y هي H » على سبيل المثال « إذا كان الفريق بأكمله يتمتع باللياقة البدنية والصحية فإنّ واحداً من المشجعين في الأقل يكون سعيدًا » (حَيثُ يمثل x كل عضو في الفريق، ويمثل y أحد المشجعين).

إتقان الرموز

تبدو هذه اللغة الرمزية، لمن يطالعها أول مرة، لغة عسيرة صعبة، بَيْدَ أنّها ضرورية لإماطة اللثام عن الجوانب الأكثر دقة من الفلسفة التحليلية. على القارئ أن يتقن الرموز أولاً، ثُمَّ يتعلم ترجمة هذه اللغة الرمزية إلى اللغة اليومية. ولكي يمضي القارئ قُدُمًا فعليه أن يجمع الأدلة ويمضي معها حَتى النهاية ليرى أين تمضي به. إلّا أنّ القليل من الفلاسفة أنفقوا وقتهم في البحث عن الأدلة والبراهين. يُستخدم منطق المحمولات بشكل أساسي للتعبير عن العبارات بدقة منعتقًا من الغموض.

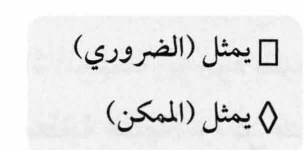
ما إن استقر المنطق المحمول، حَتى أصبح موضع نفع وثقة يعول عليها لدرجة أنّه أصبح يشار إليه الآن باسم (المنطق الكلاسيكي)، بل إنّ ثَمَّةَ من يدافع عنه باعتباره المنظومة الوحيدة الصحيحة

للتفكير المنطقي؛ فهي تنظر إلى العالم على أنّه مجموعة من أشياء ذوات خصائص معينة، وتعول، على نحو قاطع، على حقيقة أن كل افتراض إما أن يكون صواباً، أو خطأً. بَيْدَ أنّ هذا يجانب الصواب في حياة الناس اليومية لأن بعض الأشياء والمحمولات يشوبها الإبهام والغموض، فضلاً عن ذلك فإنّ بعض الافتراضات التي لا تشوبها شائبة لا يتضح لنا إن كانت صحيحة أم خاطئة (وأحيانًا قد يكون الافتراض صحيحًا وخاطئًا في الوقت نفسه). لقد استنبطت متغيرات المنطق الكلاسيكي المناظرة للتعامل مع هذه المشكلات وأمثالها.

المنطق الصوري

ثَمَّةَ منطق سليم، في ضوئه نفسر الكلام والأشياء ذوات الخصائص، لكن ما زالت الحاجة قائمة إلى بلورة، أو صياغة ميادين أخرى من ميادين التفكير المنطقي. يمكن إضافة العلاقات بين الأشياء إلى المنطق المحمول من خلال مصطلح مثل (Lxy)، حَيثُ إنّ (x على يسار y)، لكي نتمكن من كتابة (LxyŃRyx) لذا (وعليه فإنّ y على يمين x).

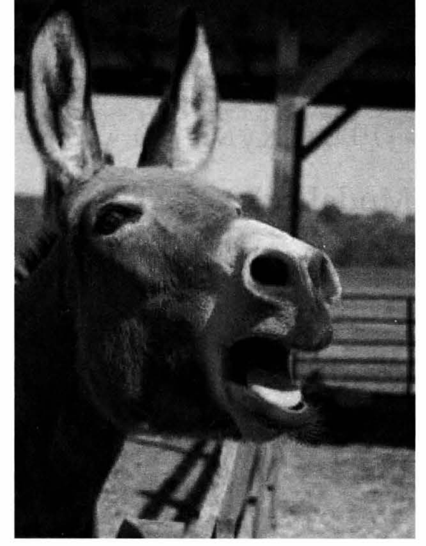
تمثل النمذجة (Modality) ميدانًا مهمًا من ميادين الفكر الفلسفي هي الطريقة، وهي الأفكار المتعلقة بما هو ممكن أو مستحيل أو ضروري. لذلك تم استنباط المنطق الصوري (Modal Logic) من خلال استخدام رموز ترمز لما هو (ضروري) وما هو (ممكن):



علم الدلالة، عندما نقول بأنّ ذلك (صحيح بالضرورة) فإنّ هذه العبارة هي نفس عبارة (ربما لا يكون ذلك خاطئًا)، وعبارة (ربما كان ذلك صحيحًا) هي نفس عبارة (ليس بالضرورة باطلًا)، لذلك يمكن أن نعرف الضروري والممكن من خلال بعضهما البعض. إنّ كلمة (مستحيل) هي نفس

عبارة (ربما لا يكون ذلك صحيحًا). يمكن تداول تلك الرموز مرفقةً بمصطلحات بسيطة، مثل (Gx) ويعني بأنّ (شيئًا ما قد يكون G)، أو من الممكن إضافة تلك الرموز إلى جمل كاملة، مثل (E x Gx. Hx)، وهذا يعني (لا بُدَّ من وجود x وهو G و H في الوقت نفسه) يمكن استخدام هذه الرموز الجديدة للتوصل إلى تفسير دقيق للجمل الشكلية (أو المشروطة Modal Sentences) والأدلة المتعلقة بها، تمامًا كما يحدث ذلك في المنطق المحمول.

ثَمَّةَ جانب مهم من جوانب المنطق الصوري هو تفسيره الذي ينطلق من حَيثُ ما هو محتمل أو غير محتمل. كل منظومة من منظومات المنطق لها لغتها الاصطلاحية، ودلالاتها، وهي الطريقة التي من خلالها نحكم بصحة الشيء أو عدم صحته. تحاول جداول الحقيقة السابقة إعطاء دلالات عادية للمنطق الافتراضي.



عندما نقول بأنّ (الحمير قد تتكلم) فإنّ ذلك يعني في المنطق بأنّ « ثَمَّةَ عالمًا محتملًا تتمكن فيه الحمير من الحديث »

- لو قلنا مثلاً: « من الممكن أن تتكلم الحمير »، فإنّ التعبير المعياري عن ذلك هو: « ثَمَّةَ عالم محتمل تتمكن فيه الحمير من الكلام ».
- لو قلنا بأنّ: « المربع يجب أن يحتوي على أربع زوايا »، فإنّ ذلك يعني بأننا نقول بأنّ « المربع له أربع زوايا في جميع العوالم المحتملة الوجود ».

يمكن تعريف العلاقات بين العوالم المحتملة الوجود بطرق متنوعة، الأمر الذي يؤدي إلى أنظمة منطقية مختلفة، ولكل منها نقاط قوة مختلفة، تتناسب مع الاستدلال في مواضيع مختلفة، مثل الوقت أو الالتزامات. على الرغم من أنّ وجود عوالم محتملة يشكل إطارًا يجد فيه أهل المنطق ضالتهم في البحث والدراسة،

إلّا أنّه في الفلسفة أمر مثير للجدل والاختلاف. ومع ذلك، فإنّه مفيد بلا شك عند الخوض في ما هو ضروري أو محتمل.

المنطق العلمي وتمحيص الأدلة

ثَمَّةَ الكثير مما تفرضه العقلانية، وليس المنطق فحسب. ما يهمنا هو تمحيص الأدلة وتقييمها. حَتى الحيوانات، عندما تبحث عن مأوى أو طعام، أو عندما تحاول تجنب المخاطر فإنّها تبحث وتمحص. المعروف عن مشاهير محققي الشرطة بأنّهم خبراء في تمحيص وتقييم التفاصيل الدقيقة في ما يقع بين أيديهم من أدلة، وهذا أمر في غاية العقلانية والحصَافة وهو ما يعبرون عنه بكلمات وتعابير عُرِفت عنهم مثل « ثَمَّةَ شيء غير طبيعي هنا ». تمثل العلوم الطبيعية أعظم إنجاز تمخض عنه التمحيص العقلاني للأدلة.

تمحيص الأدلة والبراهين هو مما يتطلبه المنهج القائم على العقل، بَيْدَ أنّ الأمر ليس كذلك في مجال المنطق



الاستقراء والطبيعة

بالنسبة للعلماء يتجسد الدليل القاطع في أنماط النشاط التي يشهدها العالم الطبيعي. قد تكون الصدفة هي التي شكلت أو أنتجت حدثًا ما (على سبيل المثال، كلب يقترب من قطة)، وقد تكون ميزة كائن واحد محض حادث ليس إلّا (مثلاً، عنكبوت ذو خمس أرجل). إنه تكرار لأنماط بعينها من الوقائع، أو ميزة مشتركة بين جميع الكائنات من نوع واحد، أو تشابه منتظم بين الوقائع أو المميزات، التي يمكن أن تبوح لنا بالكثير الكثير عن الطبيعة. لو قطعنا بأنّ بعض التكرار في الطبيعة ينطوي على حقيقة عامة أو كونية، فإنّ هذا المنطق يسمى الحثّ. عندما نقول بأنّ « الجاذبية تسير باتجاه مركز

الأرض »، والسماء العاصفة هي التي تبرق برقًا شديدًا فإنّ القوليْن كليْهما مستمدان من ملاحظتنا المتكررة على مدى أوقات طويلة من الزمن. إنّ العقل يحكم، بعد ملاحظة حالات لا تعدّ ولا تحصى من الصواعق الناشئة عن السحب، بأنّ هذا هو الحال دائمًا، وقد يكون



هذا نوعاً من المنطق. لو قلنا بأنّ الاستقراء هو مجرد (التعلم من التجربة)، فإنّ ذلك منطقي للغاية. إنّ الاستقراء نافع للعلم إن كان استقراءً دقيقًا، مثل المنطق، بَيْدَ أنّ هذا سوف يتمخض عن مشكلات معروفة. « لماذا نستطيع التوصل من خلال آلاف الوقائع أو الكائنات إلى قرينة ما لا نستطيع استنتاجه من واقعة واحدة، أو كائن واحد؟ »، (وهو السؤال الذي أثاره ديفيد هيوم في العام 1748). ليس ثَمَّةَ منطق دقيق يمكنه أن يخبرنا بعدد ومضات البرق التي يجب أن نراها قبل أن نتقبل القاعدة العامة. بل، حَتى بعد ألف ملاحظة، قد نكون مخطئين، لأننا لم نتمكن من رؤية الصورة الأكبر.

فاعلية التنبّؤ

تمثل القدرة على التنبؤ وسيلة نافعة مفيدة تضاف إلى الاستقراء. إنّ من المفيد التنبؤ، مثلاً، بوقت حدوث البرق (أو الزلازل)، فذلك أمر مثير للإعجاب أكثر من مجرد جمع ملاحظات. ومع ذلك، لا تعد تلك القدرة أداة دقيقة بنفس درجة الدقة التي يتصف بها المنطق؛ بوسع الكثير من الأشخاص التنبؤ بوقوع الأشياء بحكم العادة على التوقع ليس إلّا، كما يحدث عندما تتوقع، مثلاً، مرور شخص

من الجوار اعتاد المرور من أمام نافذتك على نحو دوري. إنّ التنبؤات المثيرة للإعجاب هي التنبؤات المعقدة والمدهشة، لأنّها تنطوي على فهمٍ وبصيرة حقيقيين، وليست عادة مستمدة من تكرار الأفعال. إنّ من السهل التنبؤ بظهور مذنّب (هالي)، (فذلك يحدث كل 76 عامًا)، أمّا التنبؤ بالزلزال القادم فهو التحدي الحقيقي، وهو انتصار كبير للاستدلال المبني على جمع الأدلة وتمحيصها.

إن التنبؤ بحدوث زلزال أصعب من التنبؤ بظهور مذنب هالي

يتطلب فهم ظاهرة الزلازل ما هو أكثر من رصد وتسجيل نمط وقوعها ضمن إطار زمني محدد. نحن اليوم نمتلك نظرية خاصة بالصفائح المتحركة أثبتت نجاحها، ولدينا معلومات هائلة حول جيولوجيا الأرض، فضلاً عن نظريات الميكانيك الرياضية. لقد استطاع العلم أن يقدم لنا إنجازات كثيرة جاءت نتيجة لتضافر جهود العلماء في مجالات العلم المختلفة وميادينه المتنوعة، وعليه فإنّ المنطق الدقيق الذي ينطوي عليه الاستقراء يبدو لنا الآن عقبة يسهل تجاوزها. التفسير هو الذي يهمنا، وليس التكرار، والهدف الحقيقي هو إيجاد التعليل أو التفسير الذي ينسجم مع طيف واسع من المعلومات المتنوعة. لقد باتت التنبؤات الصحيحة منتجًا ثانويًّا نافعًا، وطريقة من طرق اختبار النظرية.



الاستقراء الفلسفي

يعير الفلاسفة اهتمامًا كبيرًا للأدلة لأنّها تمكنهم من معرفة الواقع، أمّا المنطق فهو مهم لمن يريد أن يكون تفكيره وخطواته دقيقة. لقد طور الفلاسفة أساليبهم وطرقهم الخاصة بالاستقراء منطلقين من تقنيات الخطاب في الديالكتيك والمطلوب.

المفارقة

تمثل المفارقة خللاً أو (عُطلًا) في الاستقراء ما يحفز على التفكير بطريقة جديدة. المفارقة التي ترتبط بالشخص الكذاب تتعلق بصحة هذه الجملة التي نقولها حينما يخبرنا ذلك الكذاب بشيء ما: (هذه الجملة زائفة). بشيء من التروي نستطيع أن نكتشف بأنّ الجملة إن كانت صحيحة فهي زائفة، وإن كانت زائفة فهي صحيحة. كان هذا لغزاً غريباً مستمرًا منذُ ألفي عام، ما حفز الفريد تارسكي على طرح نظريته الجديدة عن الحقيقة. ثَمَّةَ مفارقة تسمى (مفارقة الكدس أو الكومة) تقول بأنّ حبة قمح واحدة أو حبتين ليست بكومة، لكن لو واصلنا إضافة حبوب القمح فإنّها سوف تتحول إلى كومة؛ لكن أي حبة، (أو مجموعة حبوب) التي يصير لدينا، بعد إضافتها، كومة من حبوب القمح؟ عادة ما نركز على مثل هذه المفارقات عندما نفكر في أشياء غامضة أو مبهمة. في مفارقة (اليانصيب) لدينا أدلة دامغة على استحالة الفوز من بين الملايين من الأشخاص الذين يشترون تذكرة اليانصيب، ومع ذلك من يدري؟ فلعل الفوز بالجائزة ممكن. هذا الأمر مصدر إثارة لطلاب المعرفة الذين يدرسون التبريرات التي تقدمها المعرفة.

عادة ما يسأل الفلاسفة هذا السؤال: ما هو رأيك لو ...، يليه موقف له علاقة بنظرية يؤمن بها، أو يسعى للترويج لها. إنّها تجارب فكرية، نال بعضها شهرة عالمية.

- كيف تتصرف لو كان لديك خاتم سليمان الذي يُمكِّنك من الاختفاء، والهرب بعد ارتكاب عدد من الجرائم؟
- ما رأيك لو أنّ شخصًا فقيرًا، أميًّا اكتسب فجأة عقل أمير محيط بالعلوم والمعارف؟
- ماذا ستفعل لو كان بإمكانك تغيير مسار قاطرة لتقتل شخصًا واحدًا منْ أَجل إنقاذ خمسة أشخاص آخرين؟

لقد وُضعت هذه الأسئلة بطريقة تستكشف، أو تتفحص وجهة نظر أخلاقية معينة، أو شخصية معينة. يمكن ضبط التفاصيل، كما هو الحال في تجارب الفيزياء، لمعرفة طريقة تأثير ذلك في ما نخرج به من استنتاجات.

التجربة الفكرية: وضع سيناريو محتمل والتفكير في النتائج.

لعل الأداة الأكثر شيوعًا في الجدل الفلسفي هو المثل المضاد، الذي يساعد على تقويض حقائق عامة مزعومة. لو دافعنا عن القاعدة الذهبية الأخلاقية التي تقول (عامل الآخرين كما تحب أن تعامل)، فهذا يعني أنّك سوف تهديني في عيد الميلاد الهدية التي ترغب أنت في تلقيها بدلاً من الهدية التي أرغب أنا في تلقيها. عندما قال فلاسفة اللغة لهيلاري بوتنام بأنّ جميع المعاني تنشأ في ذهنه، ردّ عليهم قائلاً بأنّه استخدم عبارة (شجرة الدّردار) دون معرفة معناها الدقيق الذي يترك تحديده للمتخصصين في الأشجار. إنّ إلقاء الضوء على مشكلات من هذا النوع يعدّ من المهارات المهمة في الفلسفة.

المثل المضاد: يُستخدم لتقويض ما يُسمى (حقائق عامة).

مغالطات الاستقراء

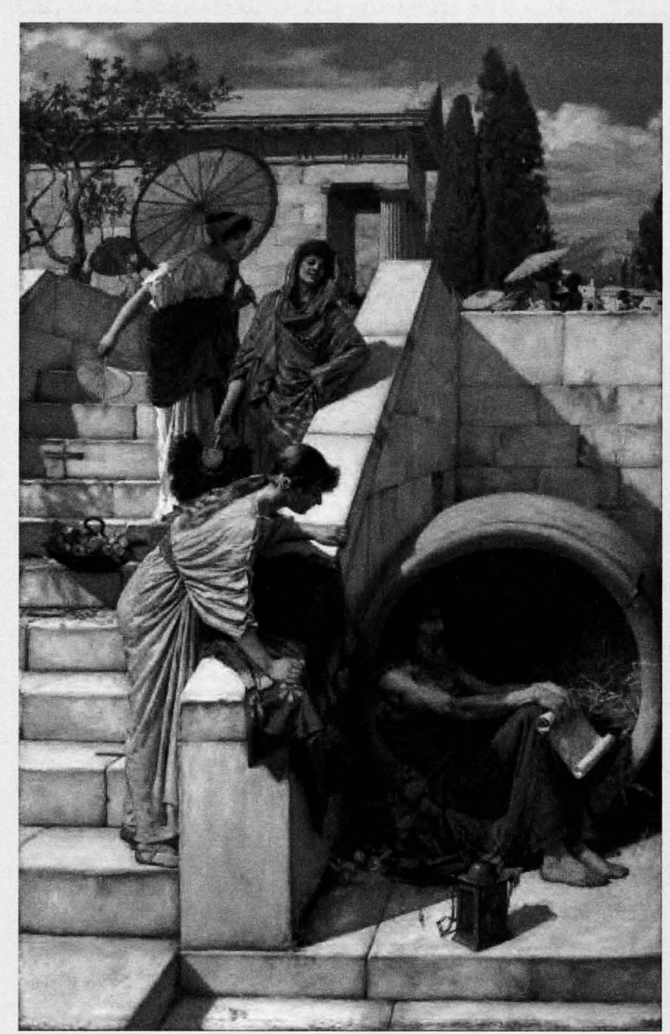
- إن كان تفسيرك يتطلب، دائمًا، تفسيرًا إضافيًّا فإنّ ذلك نكوص، وتراجع لا نهائيّان.
- إن كان تفسيرك ينطوي على تسليم بموضوع التفسير فإنّك كمن يحاول كسب رضا من يؤمن به.
- إن كنت تستخدم A لتفسير B ثُمَّ تستخدم B لتفسير A فإنّك تدور في حلقة مفرغة.
- إن كنت تهاجم آرائي من خلال التسقيط الشخصي فإنّها مغالطة، وهجوم غير موضوعيّ.
- إن كنت تسأل عن مصدر السعادة في حفل زفاف فإنّ الخطأ هنا في اختيار المكان والزمان غير المناسبين.


من الممكن استخدام عبارة (شجرة الدردار) دون معرفة معناها الدقيق الذي لا يعرفه إلّا المتخصصون في الأشجار

من تاريخ الفلسفة

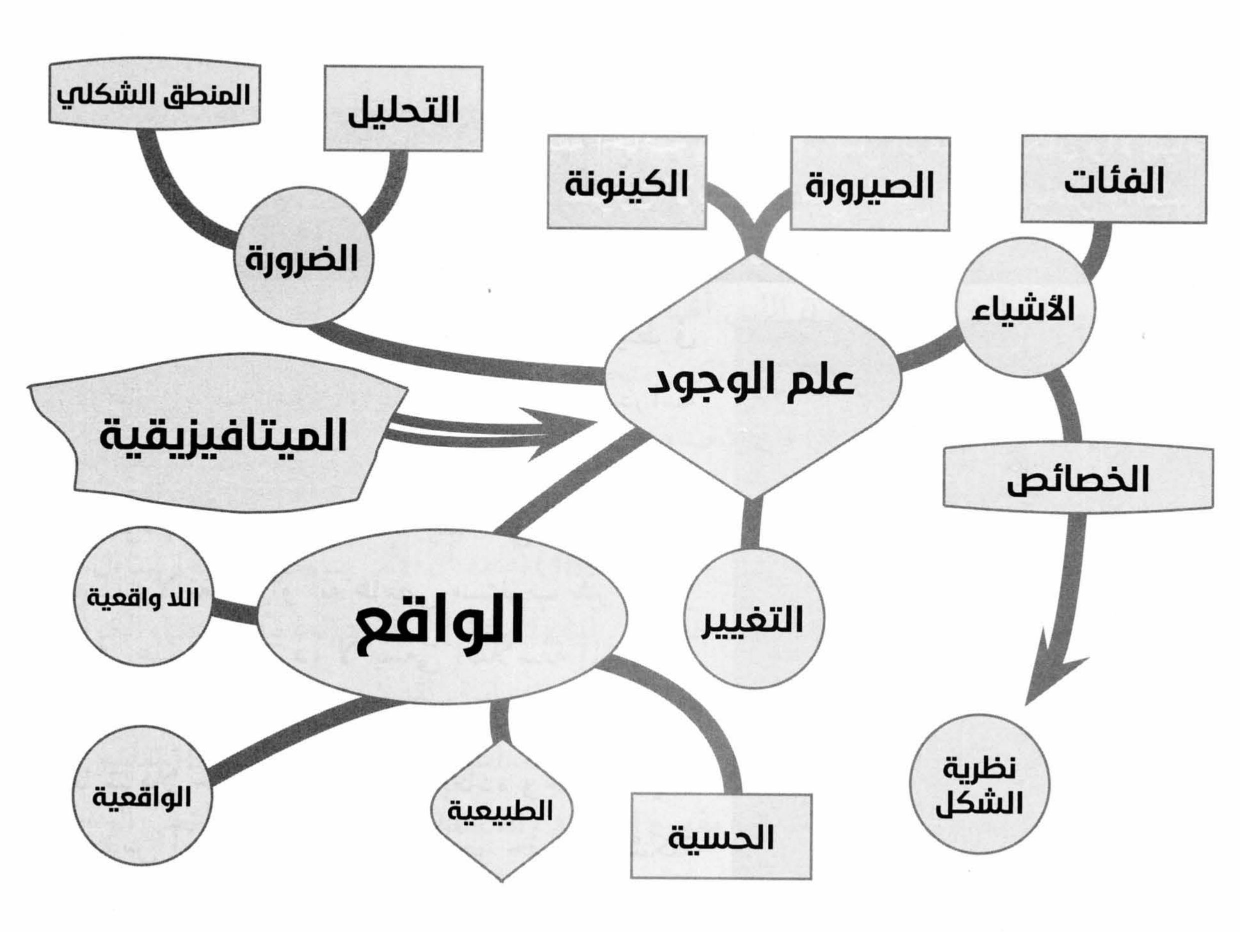
التحق أرسطو (384 – 322 ق. م) عندما كان يافعًا بأكاديمية أفلاطون في أثينا، وظل فيها مدة 20 عامًا يعكف على الدرس والتحصيل العلمي ليصبح واحدًا من أعظم فلاسفة التاريخ. كان إنكارُه لنظرية أستاذه، (نظرية المُثل)، الخطوةَ الأساسية التي اتخذها في حياته مستلهمًا الطبيعة، وعناصرها الأساسية المتنوعة المختلفة. درس أرسطو الحيوانات وأسس علم الأحياء. ووضع، بجهوده وبمفرده، منطقًا منهجيًّا، موضحًا تراتبية أو هيكلية الحجج المقنعة التي تقع في ثلاث مجموعات تشكل علم القياس المنطقي. يُعدّ كتابه (الأخلاق) من أفضل ما كُتِب في الفضائل الإنسانية. أمّا في السياسة فقد درس واستعرض أنواعًا مختلفة من الدساتير، ودافع عن الديمقراطية في عصره. إضافة إلى ذلك، كتب أرسطو كتابًا في الفيزياء (أنكر فيه المذهب الذري)، وكتب كتابه (حول الروح) الذي يُعَدّ دراسة للعقل (الذي كان أرسطو ينظر إليه على أنّه جوهر الجسد). غادر أرسطو الأكاديمية ليصبح مدرسًا شخصيًّا للإسكندر الأكبر عندما كان شابًا في مقتبل العمر. ثُمَّ أسس أرسطو مدرسته الخاصة المعروفة بمدرسة ليسيوم. كان أرسطو يحظى بالتقدير والإجلال في خلال العصور الوسطى، وكان يُعرَف بأنّه (سيد العلماء والعارفين). بَيْدَ أنّ منزلته العلمية لم تعد في عصر النهضة على ما كانت عليه بسبب أخطائه العلمية، لكننا ننظر إليه الآن على أنّه فيلسوف من كبار الفلاسفة. كان الأفلاطونيون هم أبرز أتباع سقراط ومريديه، وكان الكلبيون معجبين بأسلوب حياته البسيطة، وموقفه من مواطنيه والنقد الذي يوجهه لهم. كان ديوجين السينوبي (412 – 323 ق. م) شخصًا سيّئ السمعة في بلده اليونان القديمة حَيثُ عاش حياة التسكع، والمجون يجاهر بها دون حياء، وكان ينتقل من مدينة إلى مدينة واصفًا نفسه بأنّه (مواطن العالم). عاش في أثينا وكان منزله فيها برميلَ نبيذٍ فارغًا في السوق. لقد كان فيلسوفًا جادًّا وكان طلبه الأوّل من الناس أن يفكروا تفكيرًا نقديًّا.

ركزت النقاشات الأخلاقية على المزاعم، والأفكار المختلفة المتعلقة باللذة والفضيلة، وكان القورينائيون هم أبطال مذهب اللذة. كان كل من أريستيبوس الأكبر (حوالي 455 - 366 ق. م) وحفيده أريستيبوس الأصغر (حوالي 380 قبل الميلاد؟) يعتقدان بأنّ كلّ شخص قادر على أن يكون فاضلاً غير أنّ اللذة هي ما يهم معظم الناس.



عاش ديوجين السينوبي حياة التشرد، واتخذ برميل نبيذ من الطين منزلاً له

الوجود

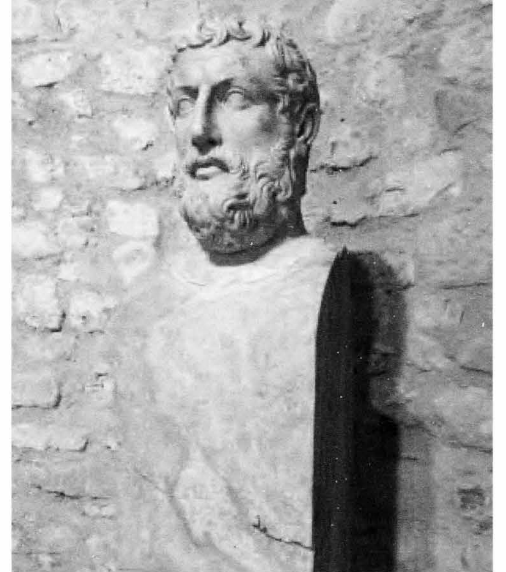

المنطق الشكلي
التحليل
الكينونة
الصيرورة
الفئات
الضرورة
الأشياء
علم الوجود
الميتافيزيقية
الخصائص
اللا واقعية
الواقع
التغيير
الواقعية
الطبيعية
الحسية
نظرية
الشكل

علم الوجود (دراسة الوجود)

الحقائق العامة هي مدار الفلسفة وميدانها، أمّا الميتافيزيقيا فإنّها تركز على جوانب من الإدراك البشري تتسم، أكثر من غيرها من جوانب أخرى، بصفة الشمولية لأنّها تتعلق بالافتراضات المسبقة الخاصة بالفيزياء، مثل الزمان والمكان والأشياء والقوانين، والافتراضات المسبقة المتعلقة بشؤون الإنسانية، مثل العقل والأشخاص والقيم، والاعتقاد بالخوارق والغايات، أو الأهداف الكبرى في الوجود.

الميتافيزيقيا: تركز على الافتراضات المسبقة الخاصة بالفيزياء، مثل الزمان والمكان والأشياء والقوانين، والافتراضات المسبقة المتعلقة بشؤون الإنسانية، مثل العقل والأشخاص والقيم؛ والاعتقاد بالخوارق والغايات أو الأهداف الكبرى في الوجود.

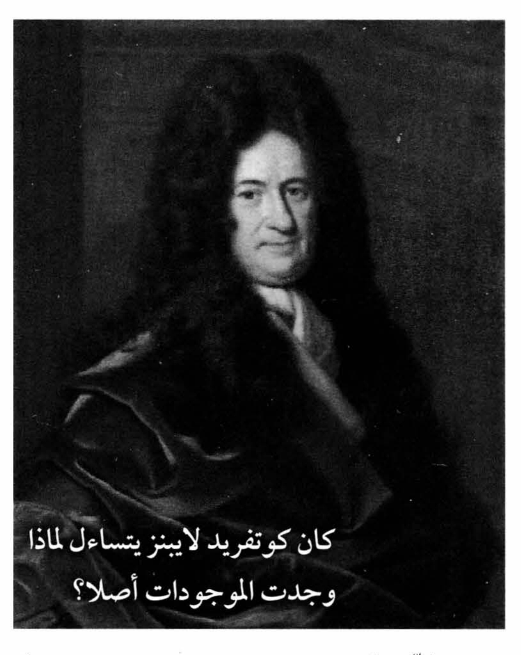
علم الوجود علم شحيح محدود بَيْدَ أنّه يتطرق إلى موضوع واسع المجال رحب الأفق ألَا وهو دراسة الوجود نفسه. ثَمَّةَ حقيقة مطلقة ألَا وهي أنّ أيّ شيء في الوجود إمّا أن يكون واضحًا جليًّا حَتى إنّه لا يتطلب تفسيرًا، ولا تعليلاً أو أنّه غامض مستغرب يثير الذعر فينا. في علم الوجود، لا يسعى الفلاسفة إلى تفسير الوجود، وإنّما هم يتطلعون إلى بحث الموضوع بحثًا دقيقًا شاملاً حَتى يلمّوا بجميع أبعاده وجوانبه. يُعَدّ بارمنيدس أوّل من تناول، على نحو حقيقي، مشكلة الوجود في قصيدة لم يتبق منها إلّا مقاطع، إِذ يتطرق



لم تبق من فلسفة بارمنيدس إلّا سلسلة من مقاطع كانت جزءًا من قصيدة كاملة

المقطع الأول، وهو مقطع كامل غير منقوص، إلى تفسير طبيعة الواقع على حقيقته، أمّا المقطع الثاني، الذي لم يتبق منه إلّا سطور، فهو عن الأوهام التي تتمخض عنها تجارب البشر.

الكينونة



كان كوتفريد لايبنز يتساءل لماذا وجدت الموجودات أصلا؟

الكينونة هي جوهر كل ما هو موجود. لقد كان التناقض بين الكينونة واللا كينونة، وضرورة وجود شيء ما، والتناقض بين الكينونة التي لا تتغير والصيرورة (becoming)، والانسجام والتماسك الذي تنطوي عليه الكينونة المتباينة المظاهر مصدر دهشة كبيرة للفيلسوف اليوناني أفلاطون الذي أضاف فكرة مهمة ألَا وهي أنّ الكينونة لا بُدَّ لها من أن تكون متحركة فعالة، وإلّا لما استطعنا أن نشعر بها ونكتشف وجودها.

لم ينل موضوع الكينونة الجوهري اهتمامًا كبيرًا أو إضافيًّا من الفلاسفة القدماء، غير أنّ لايبنز (في عام 1697) اعتقد أنّ الأمر يستحق العناية وتساءل قائلًا لماذا ثَمَّةَ شيء ما، وليس لا شيء؟. كانت الإجابة التي قدمها تستند إلى وجود إله، بَيْدَ أنّ علماء الكونيات الفيزيائية الحديثة وجدوا في الموضوع ما يستحق البحث والدراسة. لقد شهدت أروقة مدارس الفلسفة الأوروبية بعد عام 1800 إقبالًا على تدارس موضوع الكينونة. استطاع هايدكر في عام 1927 تقديم حافز جديد لدراسة موضوع الكينونة من خلال مفهوم الوجود (Dasein) وهي كلمة ألمانية تعني الوجود، أو أن يكون موجودًا، وهو مفهوم أساسيّ في الفلسفة الوجودية لمارتن هايدكر، وخاصة في كتابه العظيم (الزمن والوجود) وهو الوجود الذي يعيشه الأفراد، ويتسم بوعي ذاتي متميز.

الأشياء

زعم أرسطو، عندما تناول مشكلة الوجود، بأنّ موضوع وجود الأشياء هو موضوع واعد مقارنة بموضوع الكينونة، وقد ذهب إلى القول بذلك معظم علماء الكونيات اللّاحقين. لعلّ شرح طبيعة الأشياء ومعرفة كنهها تجعلنا، في الأقل، قادرين على تفسير لغز الوجود الأكبر. فالأشياء متنوعة، ومختلفة على نحو هائل.

ومن الخصائص التي تتطلبها الأشياء:

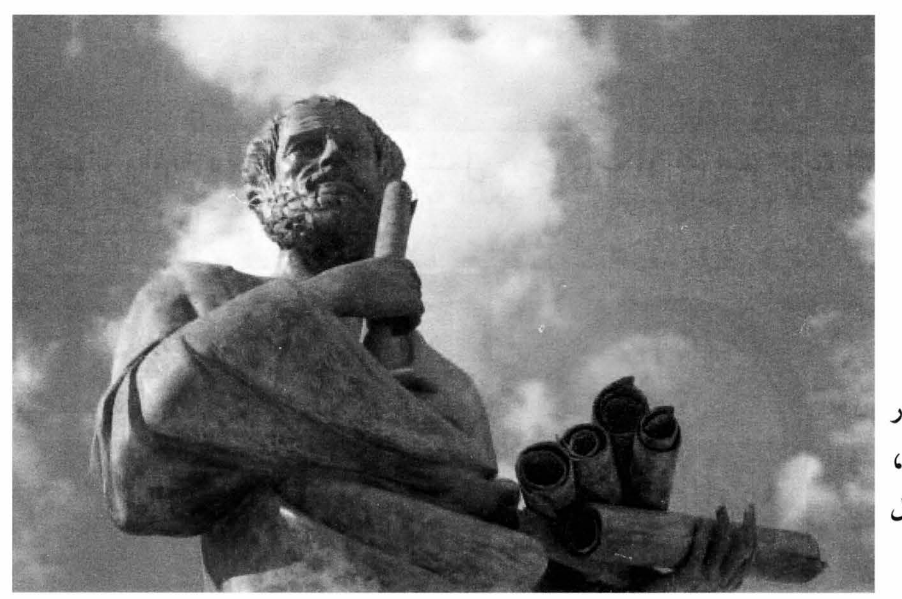
- الوحدة أو التكامل.
- السلوك المميز.
- النمط أو نوع بعينه.

شرح أرسطو هذه الحقائق الثلاث كلها مفترضًا أنّ كلّ شيء له جوهر (أي ماهية كنه ذلك الشيء بالذات).

الأشياء: للأشياء جوهر وسمات، وهي تتطلب انسجامًا أو وحدة وسلوكًا مميزًا، ونوعًا، أو نمطًا بعينه.

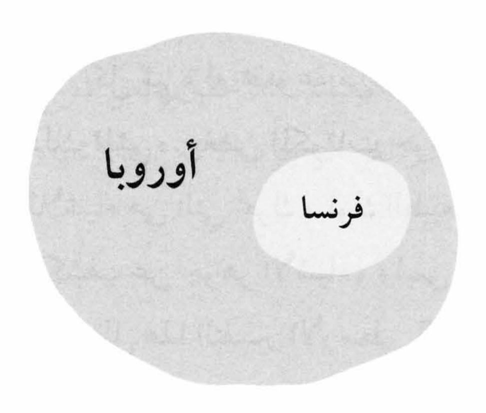
كل شيء له مجموعة من السّمات (أو الخصائص) التي ما وُجدت إلّا لأنّها جزء من مكونات ذلك الشيء. بعض المكونات جوهرية وضرورية، وبعضها الآخر عرَضي. هذه الطبيعة الأساسية للأشياء هي التي تحرك سلوك الطبيعة. يفسر العلماء، الذين ينهجون نهج أرسطو، الطبيعة من خلال الكشف عن جوهر الأشياء، وليس من خلال تقديم تفسيرات حديثة تستند إلى القوانين العادية.

ظل هذا التفسير الأرسطي لمكونات الوجود سائدًا في الأوساط العلمية إذ كان هو الرأي الذي يستند إليه العلماء حَتى عصر انبلاج العلم الحديث. كانت المخلوقات الحية، حسب ما ذهب إليه أرسطو، هي الأشياء الأكثر وضوحًا في الطبيعة، فالكائن الحي جسم واحد متكامل، أمّا الكائنات الأخرى غير الحية فإنّها تثير في وجه الميتافيزقيين كلّ أنواع المشكلات، وصنوفها المختلفة:

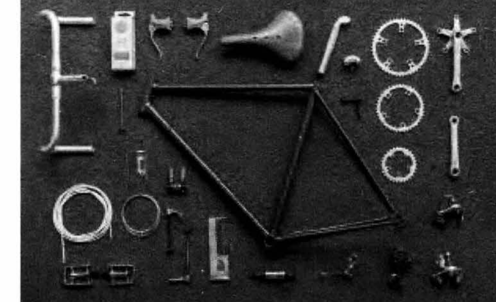


زعم أرسطو بأنّ الإنسان قادر على تفسير وحدة، وسلوك، ونوع شيء ما من خلال معرفة جوهره

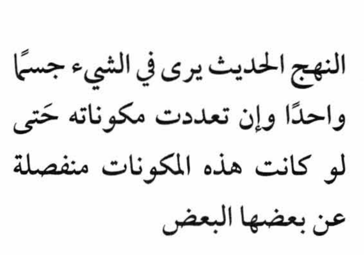
- الدراجة هي شيء، لكن هل تظل (شيئًا) لو قام أحدهم بتفكيكها (حَتى لو كان من المستطاع إعادة تركيبها مرة أخرى)؟
- هل أنّ التداخل بين شيء وآخر أمر ممكن؟
- هل يمكن أنّ نعد فرنسا وأوروبا من جملة الأشياء (خصوصًا أنّ فرنسا جزء من أوروبا)؟
- هل يُعدّ الجيش شيئًا أو جسمًا واحدًا في حالة احتوائه على قدر كبير من المكونات، أو الأقسام المتغيرة؟
- هل يعد الإلكترون شيء إن تم تعريفه، أو تحديده من خلال الإحصاءات، وليس من خلال حدود جسمه؟



ثَمَّةَ منهج حديث يرفض رأي أرسطو جملة وتفصيلاً، إِذ يزعم المنهج المذكور بأنّ أيّ مكونات، إن فكرنا بطريقة أرسطو، قادرة على أن تشكل شيئًا ما بغض النظر عن إمكانية تفكيكها أو توزيعها. منهج آخر يزعم بأنّ أيّ جزء من الزمكان يمكن أن يُعدّ شيئًا، لكن عندما يواجهنا الإلكترون بطبيعته الغامضة فإننا نتخلى تمامًا عن مفهوم (الشيء). لقد توسعت كلمة (شيء)، في العصر الحديث، في دلالتها، والمعاني التي تعبر عنّها لتشمل موجودات أو مفاهيم مجردة مثل الأرقام التي غالبًا ما يتم التعامل معها على أنّها أشياء.







النهج الحديث يرى في الشيء جسمًا واحدًا وإن تعددت مكوناته حَتى لو كانت هذه المكونات منفصلة عن بعضها البعض

الخصائص

إنّ الشيء المادي، بحسب المفهوم التقليدي، هو كيان مضمر، له خصائص تجعله مرئيًّا، وله تفرّده، بَيْدَ أنّ الميتافيزيقيا الحديثة ترى أنّ هذه الصورة مشوشة إلى حدّ ما.

إذا كانت جميع الخصائص مرتبطة بما يكمن وراءها من كيان مضمر (ركيزة الشيء)، فهذا يعني أنّ الركيزة ليست لها خصائص أو ملامح خاصة بها، إذن فما هو الشيء؟ لا يمكن للشيء أن يوصف بأنّه موجود دون خصائص تميزه، كما إنّه بدون ركيزة، يكون مجرد مجموعة من الخصائص. ولكن لمن هذه الخصائص، وما هي الرابطة التي تربط بينها لتكون حزمة واحدة موحدة؟ الحقيقة، ليس ثَمَّةَ إجابة مرضية. ومع ذلك، فإننا جميعًا نرى، ونفهم بأنّ الجسم الكروي الأحمر الثقيل الساخن له بعض الخصائص، وإننا نستطيع أن نناقش هذه الخصائص مستقلة عن الشيء، فثَمَّةَ أشياء أخرى لها نفس الخصائص أيضًا.

نظرية المُثل لأفلاطون: للخصائص (وغيرها من المفاهيم المثالية الأوسع) وجود خاص بها، حَتى عندما لا تكون متجسدة في شيء مادي منظور.

توضح لنا نظرية المثل الأفلاطونية السبب الذي يجعلنا قادرين على مناقشة الاحمرار دون الإشارة إلى شيء ما أو أشياء معينة. كما إنّها، أيضًا، توضح لنا نسق الكون، لأنّها، على عكس العالم المادي، جُبِلت على أن تكون سرمدية. رأى أرسطو بأنّ نظرية المُثل أمرٌ غير محتمل الوقوع، ولا يمكن تصديقه، فليس من الواضح كيف يمكن تجسيد (الاحمرار) المجرد في شيء مادي، أو كيف يمكننا حَتى معرفة ما هو الاحمرار إذا لم يكن له قدرة أو قوة ما، سببت وجوده. يدافع أصحاب المدرسة الأفلاطونية الحديثة، في بعض الأحيان، عن الوجود المستقل للرياضيات، ولكن الخصائص الفيزيائية تبدو أكثر واقعية.

ومع ذلك، ثَمَّةَ ما يدعم رأي أفلاطون في استخدامنا للغة. ماذا تعني كلمة (أحمر)؟ إنّها كلمة تشير إلى لون مألوف، لكنها لا تشير إلى شاهد، ومثال يدلان عليها. بوسعنا أن نطلق كلمة (حمراء) على أشياء اختفت منذُ فترة طويلة، أو أشياء مستقبلية، أو أشياء محتملة الوجود، وبوسعنا أن نتحدث عن اللون بحد ذاته مستقلاً عن غيره من الأشياء. إنّ كل كلمة يستخدمها الإنسان بحاجة إلى معنى متماسك متجانس، وإلّا فلن يستطيع الناس التحدث مع الآخرين. (الأحمر) هو مثال على مفهوم عام شامل جامع: هي كلمة يستخدمها الناس لوصف مفهوم واحد من خلال أمثلة عديدة.

ماذا تعني كلمة عام (شامل أو جامع): هي كلمة تشير إلى مفهوم ينطبق على حالات متعددة.

بَيْدَ أنّنا نستطيع أن نناقش اللون الأحمر بمعزل (أو مستقلاً) عن الشيء نفسه.

لو أنكرنا ما ذهب إليه أفلاطون من أنّ الاحمرار موجود على نحو مستقل من تلقاء نفسه، فإنّ علينا توضيح ذلك. إذا كان الاحمرار يشير إلى مجرد فكرة، فهل أنّ ذلك يدفعنا إلى الاعتقاد بأنّ خاصية (الاحمرار) غير موجودة؟ لعل الحالات أو التدرجات المختلفة التي تدل على اللون الأحمر ليست كلها سواء؛ بل إنّ كل حالة، أو تدرّج هو شيء محدد يشبه ما سواه من أشياء حمراء أخرى. أو ربما ليس ثَمَّةَ ما هو أكثر من اللغة، وأنّ الخصائص والصفات ليست إلّا محض كلام. في هذه الحالة فإنّ عبارة (ليس أحمر) هي خاصية، مثلُها مثلُ كلمة (أحمر)، وإنّ عبارة « يبعُد عشَرة أقدام عن شيء أحمر » قد تكون هي أيضًا خاصية من الخصائص.



اللون (الأحمر) خاصية من خصائص شيء ما

الفئات

إنّ الاحمرار صفة تشترك فيها العديد من الأشياء، وعليه نستطيع أن نصنف هذه الأشياء كلّها ضمن مجموعة واحدة ألَا وهي (أشياءٌ حمراء). لكن هل إنّ هذه المجموعات، أو الفئات سمة من سمات الواقع؟ ليس الأمر كذلك دائمًا، لأننا نستطيع أن نشكّل، أو نكوّن فئات، ولعلها تكوّن فئات في منتهى الغرابة (كالأشياء التي تحتويها دولايب المطابخ المعلقة في باريس). بعض الفئات ليست إلّا انعكاسًا لرغباتنا أو مصالحنا، وليست انعكاسًا لنسق العالم وبنيته.

الآراء الثلاثة حول فئات الواقع الثابتة:

- هي غير موجودة (لكننا نجد فيها نفعًا وفائدة لنا).
- هي طبيعية، وهي تعكس على نحو صحيح، تركيبةَ العالم وبنيته.
- إنها تعكس تركيبة العقل البشري وبنيته، ولا يسعنا إلّا أن نفرض هذه التركيبة على الأشياء.

إنّ إنكار الفئات الواقعية هو من الأمور المتعارف عليها بين الفلاسفة الذين يعتقدون بأنّ اللغة تشكّل أساسًا من أُسس الفلسفة. تبدو الفئات البديهية الظاهرة للكائنات الحية وكأنّها جزء من الطبيعة، وذلك لأنّ الأنواع التي تندرج تحتها واضحة تمام الوضوح. عندما نصنف الغيوم (إلى قِزَع، أو سَحَاب، أو مِزَن، ... إلخ) فإنّ طريقة التصنيف تكون على قدَر محدود من الدّقة، وعندما يتم تقسيم مناطق البحر لتيسير مهمة المتنبئين بأوقات الشحن فإنّ ذلك يصب في خدمة مصالح الناس ولا توجد في الواقع حدود حقيقية بين تلك المناطق على الإطلاق. إنّها مجرد مسألة كلمات. يفضل المدافعون عن وجود الفئات الطبيعية التركيز على النوع الحيواني، وذلك لأنّ العناصر التي يضمها الجدول الدوري (الجدول الدوري ترتيب مجدول للعناصر الكيميائية، مرتبة حسب عددها الذري، والتوزيع الإلكتروني، والخواص الكيميائية المتكررة، والذي يُظهر هيكله اتجاهات دورية)، تمثل حالة واضحة تعكس الفئات الطبيعية الحقيقية، شئنا ذلك أم لم نشأ. إننا نعد جميع ذرات الذهب

متطابقة، ومِنْ ثَمَّ لا يمكن إنكار أنّ تلك الفئات تمثل فئة قائمة بنفسها إذ إنّ النقاد يقولون أن كل غلاف إلكتروني ذري يمثل في الواقع حالة مختلفة، لكننا نتجاهل ذلك عن قصد عندما نتعامل مع الذهب على أنّه معدِن له عنصر وطبيعة واحدة موحدة.

يمكن النظر إلى هذه الفئات على أنّها إبداعات (تشترك في بناء العالم كما نراه ونعرفه)، أو قيود (تدفعنا إلى تبني وجهة نظر محددة). على سبيل المثال، يرى الفيلسوف كانت بأنّ وحدة الشيء لا تنبثق من جوهره المضمر بل من حاجة الإنسان إلى جعل الأشياء موحدة. يعتقد الناس بأنّ البرق هو ما يؤدي إلى الرعد إلّا أنّ ذلك ليس سببًا حقيقيًّا، بل هو سبب مفترض غير موجود بالفعل، فرَضَهُ العقلُ البشري.

إنّ تقسيم البحر على مناطق ملاحية لا يعني وجود حدود حقيقية على أرض الواقع، وإنّما هي تقسيمات تصب في مصالح البشر

إنّ علم الوجود لا يبحث في ما هو موجود فحسب، بل إنّه يدرس نسق الوجود وتركيبه، وعليه فإنّ الفئات والعلاقات ضمن الوجود لها من الأهمية ما للأشياء والخصائص من أهمية.

التغير: مسارات صيرورة الواقع.

يتصدى علم الوجود لدراسة الأشياء والخصائص والفئات كما لو كانت ثابتة أبدية خالدة، لكنها في الواقع العملي تتغير باستمرار. كان رد هيرقليدس على ذلك هو « إننا لا نخوض في النهر نفسه مرتين » ما يعني بأنّ الأنهار (التي نصفها على أنّها أشياء) في تغيير مستمر حَتى يتعذر أن تكون لها كيانات حقيقية. استند بعض علماء الوجود إلى هذه الفكرة، ونظروا إلى الواقع على أنّه (مصنوع) من مسارات أو (عمليات) وليس من أشياء، حَتى الجبال المكونة من صخور صلبة يمكن النظر إليها على أنّها مجموعة عمليات تغيير بالغة البطء لأنّ الصخور تتآكل وتغيّر أماكنها.

الواقع: يتكون من عمليات وليس من أشياء.

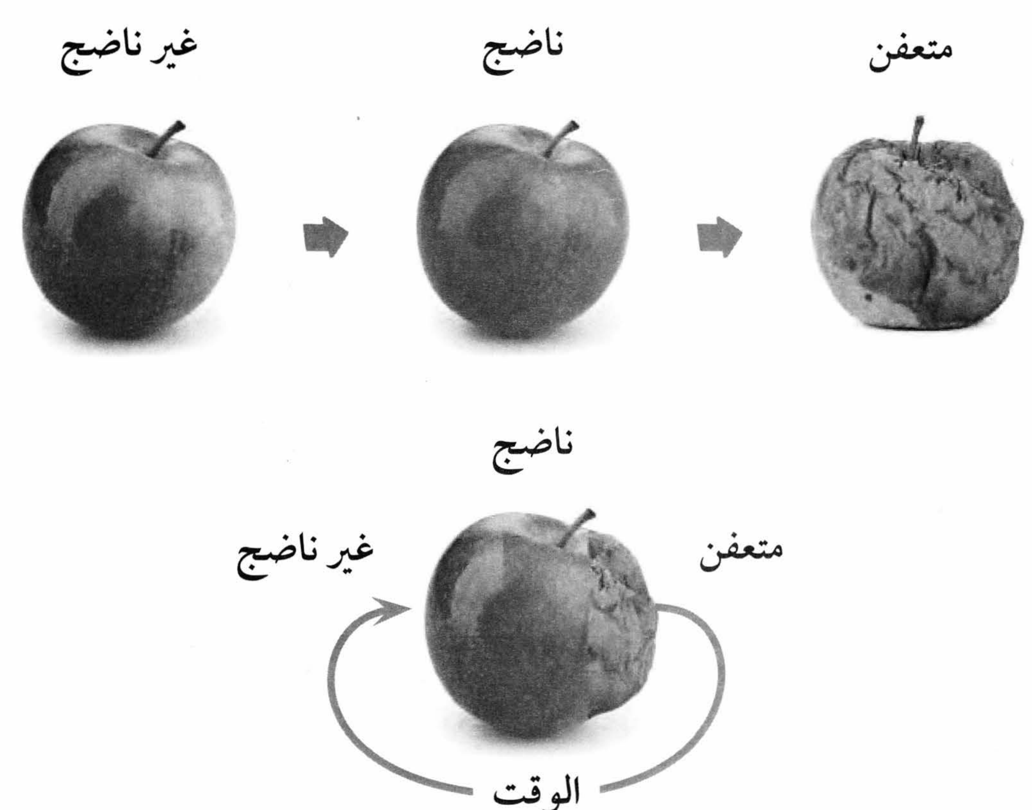
تبدو الأشياء وهي في طور التغيير - كالفاكهة التي هي في طور النضج - واضحة ثابتة في خلال حياتنا اليومية بَيْدَ أنّ عملية النضج تنطوي على بعض الألغاز المحيرة.

لكي يكون هذا صحيحًا لا بُدَّ من وجود شيء ما يبقى كما هو في أثناء التغيير. إذا نظرنا إلى تفاحة على أنها (ركيزة) لها خصائص، فإنّ الركيزة تبقى كما هي بينما تتعرض بعض خصائصها إلى التغيير. من النادر جدًّا أن نجد ركيزة بلا خصائص. إذا كانت التفاحة مجرد مجموعة من الخصائص، فإنّ التغيير يجعل تلك المجموعة مختلفة، أيْ إنّ التفاحة هي حزمة من متغيرات. في الحقيقة، يتعذر علينا أن نقرر إن كانت التفاحة قد تعرضت إلى تعديل أم تغيير حَتى صارت شيئًا آخر ليس تفاحة ما لم نعلم ما الذي جعلها تفاحة في البداية.

يتغير
التفاح ← تفاح ناضج

لا يتغير
التفاح ← برتقال

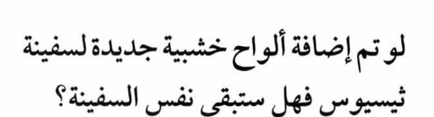
ثَمَّةَ رأي حديث يقول بأنّ التفاح والسّفن تشغل حيزًا في الفراغ وتستغرق فترات زمنية حَتى تكتمل. وحسب هذا الرأي أو النهج رباعي الأبعاد فإنّ التفاح يكون غير ناضج في وقت ما وناضجًا في وقت آخر، تمامًا مثل وجود كدمات على أحد جوانب الوجه بينما الجانب الآخر يكون نظيفًا وصحيا خاليا من أي كدمات. إذن، عندما ينظر أحدنا إلى تفاحة ناضجة فإنه لا يرى إلّا جانبًا واحدًا من جوانب التفاحة، أو جزءًا منه: إنه يرى شريحة زمنية، أو طورًا زمنيا من ذلك الشيء. إن التغيير، على حسب هذا الرأي الذي تعززه النظرية النسبية، ليس سمة من سمات تفاحة إن نظرنا إلى التفاحة من منظور صحيح متحرر من قيد الزمن وإطاره.



تجربة فكرية: سفينة ثيسيوس

تمّ الاحتفاظ بسفينة البطل ثيسيوس في أثينا لكنّ شروط الصيانة تتطلب استبدال ألواح السفينة القديمة بانتظام. السؤال هو: هل يمكن في هذه الحالة أنّ نستمر باعتقادنا أنّها بقيت نفس السفينة؟

نعلم أنّ الأشياء تتكوّن من أجزاء، وهذه الأجزاء تتعرض إلى تغييرات صغيرة جدًا نقبلها دون تعليق، ولكن ماذا لو تغيرت جميع الأجزاء، ألَا يتمخض ذلك عن شيء جديد؟ فلو جمعنا الألواح الخشبية المهملة، وصنعنا منها سفينة ثانية، فهل ستكون هي السفينة المرشحة لاعتبارها السفينة الأصلية؟ هل ينبغي علينا أن نتخلى عن فكرة أنّ السفينة هي شيء، أو نصر على أنّ الأجزاء الأصلية فحسب هي التي تشكل تلك السفينة المقصودة؟



لو تم إضافة ألواح خشبية جديدة لسفينة ثيسيوس فهل ستبقى نفس السفينة؟

الواقعية واللا واقعية

نستطيع أنّ نطرح نظريات حول جوانب الواقع الحي، بَيْدَ أنّنا أيضًا نطرح نظريات تتعلق بجميع جوانب الواقع.

الواقعية

لا يوجد واقع فحسب وإنّما يوجد أيضاً ما نبذله من محاولات للتفكير بالواقع، وهي محاولات ينتهي بها المطاف في مكان ما بالقرب من المفاصل الحقيقية للواقع. استناداً إلى هذا الرأي، يمكن تقديم تأكيدات إيجابية حول طبيعة الواقع. يفترض معظم العلماء بأنّهم دائماً ما يصفون الواقع، على الرغم من أنّ الفيزياء الكمية تميل إلى اللا واقعية مقرة بكل ما تقوله الرياضيات.

اللا واقعية

يشكك أصحاب هذا الاتجاه في حقيقة وجود الأشياء، والخصائص والصفات، وهم بين متشدد ومعتدل:

• يقول المتشددون منهم بأنّ علينا أن نكف عن الحديث، أو الإشارة إلى (الواقع) وأنّ علينا أن نكتفي بانتظام أفكارنا وما تحققه من نجاح عملي، وأن نهتم بالمفاهيم والتجارب واللغة ضاربين صفحاً عمّا يفترض أن تشير إليه.

• أمّا المعتدلون فإنّهم أجازوا الإشارة إلى (الواقع) لكنّهم يعتقدون بأنّ طريقتنا في (تقطيع الطبيعة إلى مفاصل) (بحسب تعبير أفلاطون) لا يكشف إلّا عن نمط تفكيرنا وليس عن الجِبِلّة الحقيقية التي يعجز إدراكنا عن الإحاطة بها.

المواقف الرئيسية من الواقع

الحسية

يزعم الحسيون بأنّ ما موجود هو مسلّمات الفيزياء فحسب، ولا شيء غير ذلك، أيْ أنّ كل شيء على الإطلاق هو مادي حسيّ، وأنّ الحكم على شيء بأنه (مادي) أم لا، يرجع إلى علماء الفيزياء. كان أتباع الأديان أشد المعارضين لهذا المذهب لأنّ الأديان تؤمن بوجود حيز روحي يشكل جزءاً من الواقع، فضلاً عن وجهة نظر أفلاطون التي تقول بوجود جميع أنواع الحقائق التي تتعلق بالرياضيات والمنطق والضرورات، وحَتى القيم الأخلاقية التي تنزوي بعيداً خارج أطر العالم المادي. ثَمَّةَ من يدافع عن وجهة النظر القائلة بأن العقل، بطريقة أو بأخرى، ليس شيئاً ماديًّا في موقف معارض لموقف المذهب الحسي المادي.

الطبيعية

يرى أصحاب هذا المبدأ بأنّ كل ما هو موجود (ما يحيط به علمنا) هو جزء مما نسميه (الطبيعة)، وليس ثَمَّةَ ما هو خارج. يبدو هذا الرأي وكأنّه إنكار صريح لأشياء عدة منها، على سبيل المثال، الأشباح التي عادة ما تعدّ من الخوارق، لكن رُبّ قائل يقول بأنّ الأشباح ليست إلّا جزءاً من الطبيعة.

الضرورة والاحتمالية

بالإضافة إلى الحقائق الأنطولوجية عن الواقع، ثَمَّةَ حقائق شكلية أيضًا تتعلق بما يفترض به أن يكون صحيحًا، وما قد يكون صحيحًا، وما لا يمكن أن يكون صحيحًا عن الواقع. إننا نستطيع أن نتحدث عن مادة الشيء، وما يتصف به من خصائص، ونستطيع، أيضًا، أن نناقش صورة الشيء، وشكله الخارجي، ونقصد به مجموعة الاحتمالات المرتبطة بالشيء. فعلى نطاق واسع، يمكن أن نأخذ بنظر الاعتبار جميع الخصائص الشكلية للواقع التي إمّا أن تكون صحيحة، أو خاطئة، بغض النظر عن ماهيتها.

يقول أحدهم، مثلاً، لا بُدَّ لي من ركوب آخر قطار ينطلق من المحطة، وهذا يجعلنا نستنتج وجود ضرورة ضمن زمن محدد، وضمن مكان أو مدينة يقطنها هو. وبالطريقة نفسها، يمكننا أن نزعم بثقة «بأنّ الوجود كلّه خير بالضرورة»، ما يعني - إن كان زعمنا صحيحًا - بأنّه قول صحيح في كل مكان وفي كل الأوقات.

يمكننا تحديد ما هو ضروري بطريقتين:

- كلّ ما يدخل ضمن نطاق الضرورة.
- كلّ ما يؤدي إلى الضرورة.

وبصرف النظر عن الضرورات المتلازمة، أيْ وجوب القيام بشيء ما إذا أردنا إنجاز شيء آخر أو الحصول على شيء آخر، فإنّ الفرق الرئيس في نطاق الضرورة هو ذلك الفرق بين الضرورة الميتافيزيقية، والضرورة الطبيعية. اقترنت الضرورات الميتافيزيقية بمفاهيم، ومزاعم أكبر، أمّا الضرورات الطبيعية فقد اقترنت بمفاهيم، أو أفكار، مثل الجاذبية، تبدو صحيحة على وفق قوانين الطبيعة (التي قد تكون مختلفة في واقع آخر).

ثَمَّةَ ضروريات ترتبط بالقطارات أو تنجم عنها، ولعلّ كلّ واقع ممكن له ضرورات ميتافيزيقية. إذا قلنا بأنّ P يستلزم، أو يعني Q، وإنّ Q تستلزم أو تعني R، إذن فإنّ P بالضرورة تعني R. هذه هي الضرورة المنطقية، لأنّها نابعة من طبيعة اللزوم وهي سمة أساسية من سمات المنطق. ثَمَّةَ ضرورة لمنطق الحس السليم (وجبة غداء لأربعة ضيوف تستلزم أربعة كراسي)، وكذلك لمنطق المحمولات الكلاسيكي. على أيّة حال، ثَمَّةَ العديد من أنظمة المنطق، ولكلّ منظومة منها ضرورياتها المميزة، والجملة التي تكون ضرورية في منظومة ما قد لا تكون كذلك في منظومة أخرى.

حقائق شكلية

- ما ينبغي أن يكون صحيحًا.
- ما يمكن أن يكون صحيحًا.
- ما لا يمكن أن يكون صحيحًا.

الضرورة الميتافيزيقية: تنبثق الضرورة الميتافيزيقية من المزاعم الأهم، والأكبر، وتكون صحيحة في كل مكان، ومجتمع.

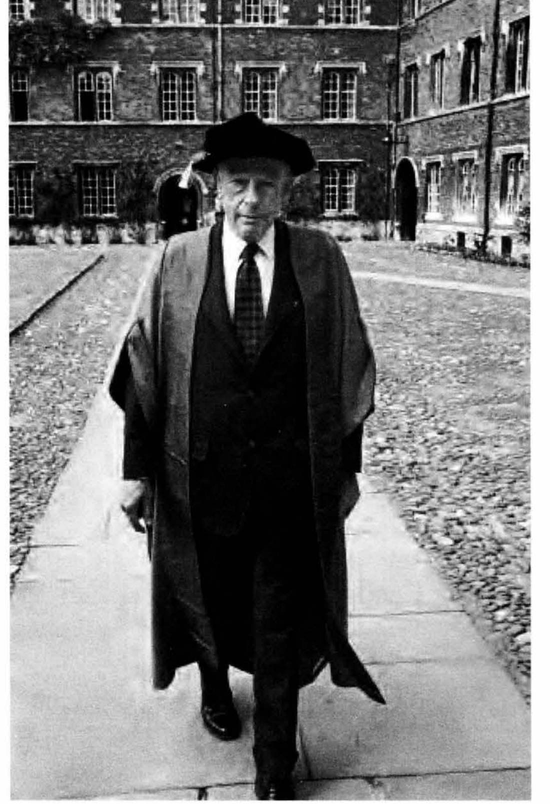
الضرورة الطبيعية: تنبثق من قوانين الطبيعة، الجاذبية على سبيل المثال.

الضرورة التحليلية: تنبثق عن معاني الكلمات والمفاهيم.

الضرورة التحليلية

تنبثق الضرورة التحليلية من معاني الكلمات والمفاهيم، فعندما نقول (زوج من الأحذية) فإنّ العبارة بالضرورة تشير إلى فردتين، وكذلك عندما نقول محيط فإنّه بالضرورة يعني الماء، لأنّ هذا هو ما يدل عليه معنى الكلمة. لعل طريقة وصف الحقائق هي التي تحدد ما إذا كانت الحقائق ضرورية

أم لا. إنّ من الصحيح أن نقول: « سبعة بالضرورة أقلّ من ثمانية »، ولكن قد لا نستطيع أن نقول: « إنّ عدد أيام الأسبوع بالضرورة أقلّ من ثمانية ». نعم، إنّ أيام الأسبوع المتعارف عليها هي أقلّ من ثمانية أيام لكن لاشيء يحول دون اتفاق الناس على جعل أيام الأسبوع عشرة أيام مثلاً. يقول ويلرد كوين بأنّ الضرورات تعتمد دائمًا على طريقة وصفنا لها، لذا فإنّ مفهوم الضرورة هو مفهوم يعتوره الشك. يميل التجريبيون المعاصرون إلى القول بأنّ الضرورات الوحيدة هي الضرورات التحليلية، لأنّ الضرورات المنطقية هي الضرورات التحليلية المقنعة، أمّا الضروريات الطبيعية والميتافيزيقية فهي أكبر من أن تحيط بها خبرتنا. يبدو أنّ المزاعم الميتافيزيقية الكبرى حول الضرورة تعتمد على رؤى عقل محض. يؤيد الفلاسفة العقلانيون هذا الرأي أمّا التجريبيون فإنّهم غالبًا ما ينظرون إليه باستهجان واستخفاف.



كان ويلرد كوين يشك في مفهوم الضرورة لأنه مفهوم يعتمد دائماً على طريقة وصفنا للضرورة

لطالما بذل الفلاسفة، على مر العصور، جهودًا كبيرة لفهم أنماط الضروريات، والتقاط أمثلة مختلفة منها، كان ذلك من أكبر ما طمحت إليه الفلسفة. لكن، وبرغم ذلك، فإنّ الاحتمالات الممكنة هي ما يثير اهتمامنا في الحياة الواقعية أمّا الضرورات (التي لا مفر منها) فإنّها لا تلقى منّا إلّا التجاهل عادة.

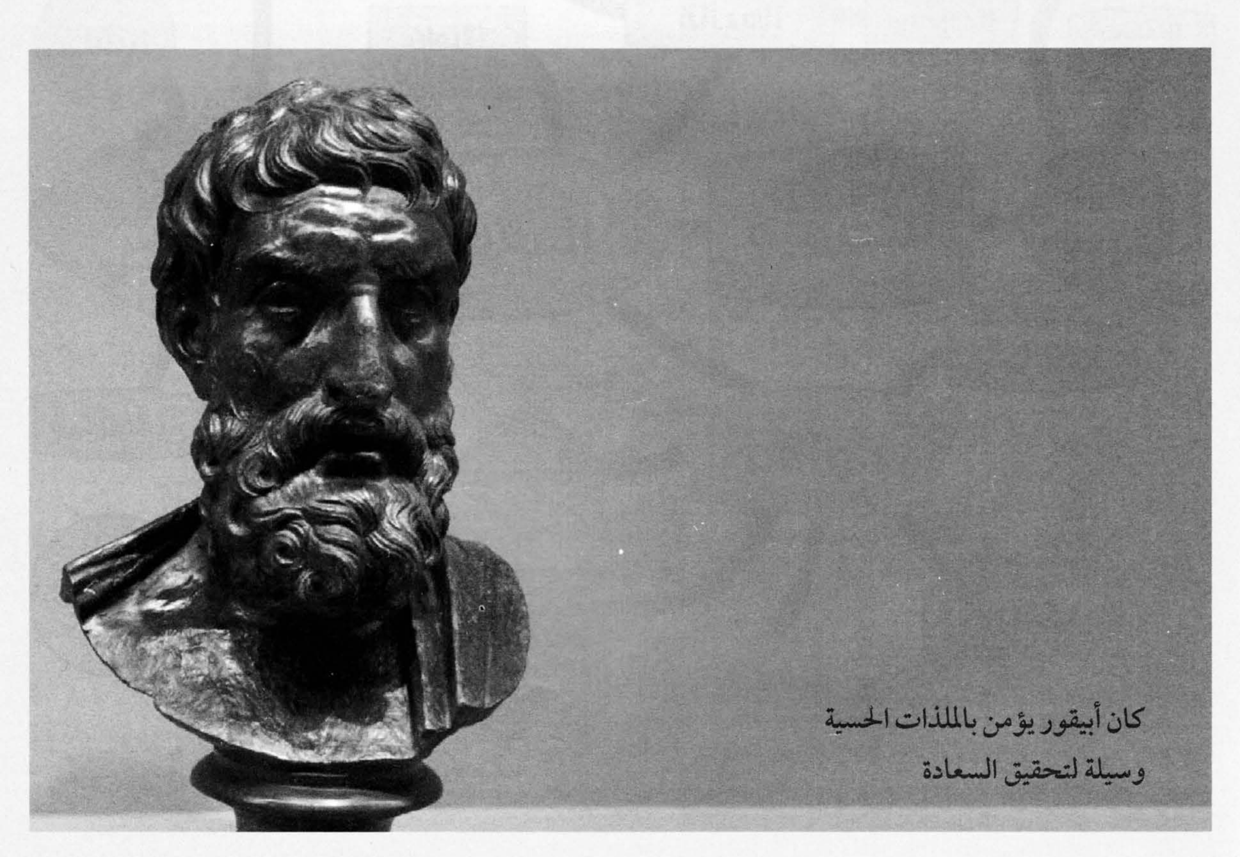
الأبيقوريون والرواقيون والمتشككون

أربع مدارس تصدرت المشهد الفلسفي في أثينا بعد وفاة أرسطو. حافظت الأكاديمية على تعاليم أفلاطون، إلّا أنّها بعد ذلك تبنت وجهات نظر متشككة للغاية. أمّا الأبيقوريون فإنّهم اتخذوا من الخبرة الحسيّة، والمتع المتحفظة مذهبًا لهم، وظلّ أصحاب المدرسة المشّائية يتعهدون تعاليم أرسطو تداولاً وحفظًا لها. أمّا الرواقيون فإنّهم كانوا يعلّمون الناس أنّ الفضيلة الخالصة هي المبدأ الأهم.

أنكر أبيقور (341 - 270 ق.م) على أفلاطون مُثُلَهُ وإيمانه بالنقاش الجدَلي، وركّز على الاستخدام الواضح للكلمات. تهدف مدرسة أبيقور إلى تحقيق السعادة في الحياة والتوسل إليها بالمتع العقلانية الحصيفة المتزنة (خاصة الصدَاقة)، ومحاولة القضاء على الخوف من الموت، لأنه ليس هو الأفظع إذا ما قورن بوقائع ومصائب أخرى في الحياة. كتب الشاعر والفيلسوف الروماني تيتيوس لوكريتيوس كاروس (99- 55 ق.م) كتابه الموسوم (حول طبيعة الأشياء) وقدم فيه صورة كاملة عن الآراء العلمية الأبيقورية القائمة على المذهب الذري. تذهب هذه الآراء إلى أنّ الإنسان مخلوق ماديّ حسيّ يتمتع بإرادة حرة وليس للآلهة إلّا دور محدود للغاية.

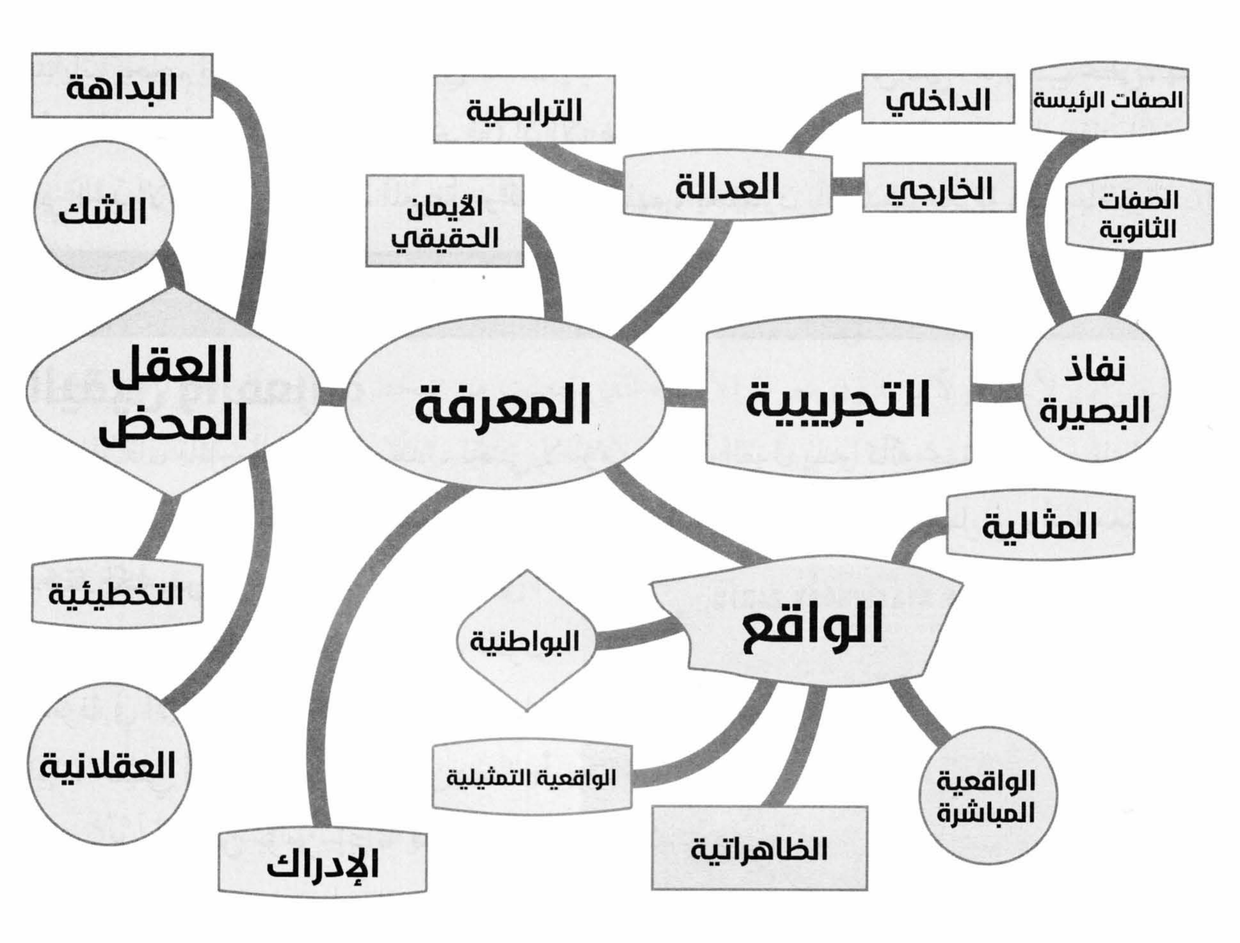
أُسِّسَت المدرسة الرواقية على يد زينون الرواقي (بحدود 334 - 262 ق.م) وكان أعظم فلاسفتها خريسيبوس (بحدود 279- 206 ق.م) الذي ضاعت جل أعماله. ركزت هذه المدرسة على الطبيعة والفضائل، وكذلك على تقنيات الخطاب العقلاني. كان أرسطو يشرح المنطق بين ثنايا جمل، أمّا الرواقيون فإنّهم أضافوا منطقًا جديدًا بين ثنايا جمل كاملة. كانوا يعتقدون بأنّ الإنسان قادر على تحقيق المعرفة (من خلال المظاهر وشكلها البارز للعيان)، وآمنوا بالفضيلة التامة الكاملة لدرجة أنهم كانوا يعتقدون بأنّ الشخص الفاضل يكون سعيدًا حَتى لو كان تحت التعذيب. لقد فُقِدت معظم كتابات وأعمال فلاسفة هذا المذهب غير أنّ تعاليمهم كانت شائعة في الإمبراطورية الرومانية.

أمّا مدرسة الشك فكان مؤسسها بيرو (أو بيرون) من أليس (بحدود 360 – 270 ق.م) وهو أشهر الفلاسفة الذين اتخذوا الشك مذهبًا لهم، وكان من رواد فلسفة الشك. تخصص بيرو في كل ما ينطوي على رفض أو نفي من حجج أو استدلالات مبتدعًا أنماطه العشرة التي تمثل أسباب رفض المعتقدات الجازمة الواثقة، خاصة تلك التي تعتمد على الإدراك. بل، وحَتى أكاديمية أفلاطون أعلنت عن شكوكها عندما كان كارنيديس (حوالي 214 – 129 ق.م) على رأس تلك الأكاديمية. لا يزال بين أيدينا العديد من الكتب التي كتبها سيكستوس أمبيريكوس (حوالي 160 – 255 ب.م) وهي كتب حافلة بالحجج المتشككة القديمة.



كان أبيقور يؤمن بالملذات الحسية
وسيلة لتحقيق السعادة

المعرفة


البداهة
الشك
العقل المحض
التخطيئية
العقلانية
الإدراك
الإيمان الحقيقي
المعرفة
الترابطية
العدالة
الداخلي
الخارجي
الصفات الرئيسة
الصفات الثانوية
نفاذ البصيرة
التجريبية
المثالية
الواقع
البواطنية
الواقعية التمثيلية
الظاهراتية
الواقعية المباشرة

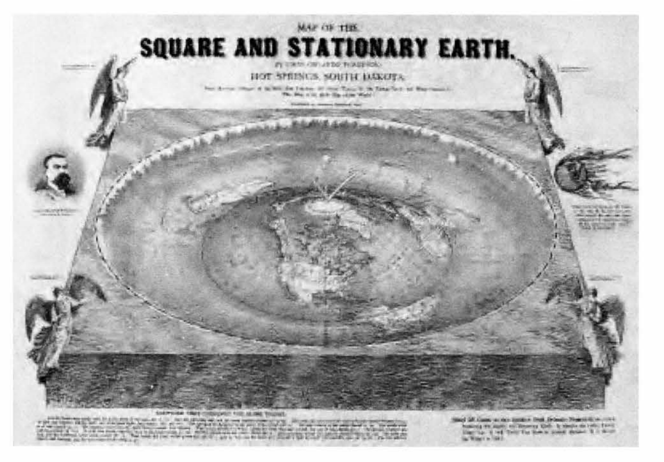
طبيعة المعرفة

لعل الفلاسفة يؤكدون حقائقَ معينة تأكيدًا جازمًا، ويحدثوننا عن طبيعة الوجود، ولكن أنّى لهم معرفة مثل هذه الأشياء التي يتحدثون عنها؟ يعتمد الإنسان في حياته على ما يعرفه مستعينًا بالعلم الذي قدّم للبشرية معارفَ كثيرة رائعة. ومن هنا أصبحت نظرية المعرفة أحد مواضيع الفلسفة الرئيسة وهو موضوع يتمحور حول أساس وموثوقية المعرفة التي يعتقد الإنسان بأنه يمتلكها. عادة ما تكون بداياتنا بحجم النجاح أو الفشل الذي أفضت إليه معتقداتنا. إن كنت تؤمن بشيء ما وأنت مخطئ، إذن فأنت لا تمتلك معرفة. لا يمكن (معرفة) أنّ الأرض مسطحة إن لم تكن مسطحة. وعليه، فإنّ الحقيقة هي الحدّ الأدنى من متطلبات المعرفة، والعلماء، جُلهم، يعتقدون بأنّ لديهم معرفة وثيقة بالحقيقة.

علم المعرفة (الإبستمولوجي): هو دراسة المعرفة.

اليقين والمعرفة

لو قال قائل: إنني أعرف هذا، لكنني لا أؤمن به فإنّ القول يبدو كأنّه يحمل شيئًا من التناقض، لذلك فإنّنا عادة ما نقول بأنّ اليقين، كالمعرفة، يصنع التغيير. رُبَّ شخص يحمل في رأسه معلومات دقيقة لكنه موقن بها، ولا يفهمها حَتى، لهذا فإننا عادة ما نقول لا بُدَّ من أن تكون المعرفة في الأقل (يقينًا حقيقيًّا) أو تستند إلى إيمان حقيقيّ أو تعبر عنه.



رُبَّ شخص يؤمن إيمانًا قاطعًا بكل ما يتعلمه من أمّه من معلومات، وعقائد وكان معظم ما تقوله الأم صحيحًا باستثناء

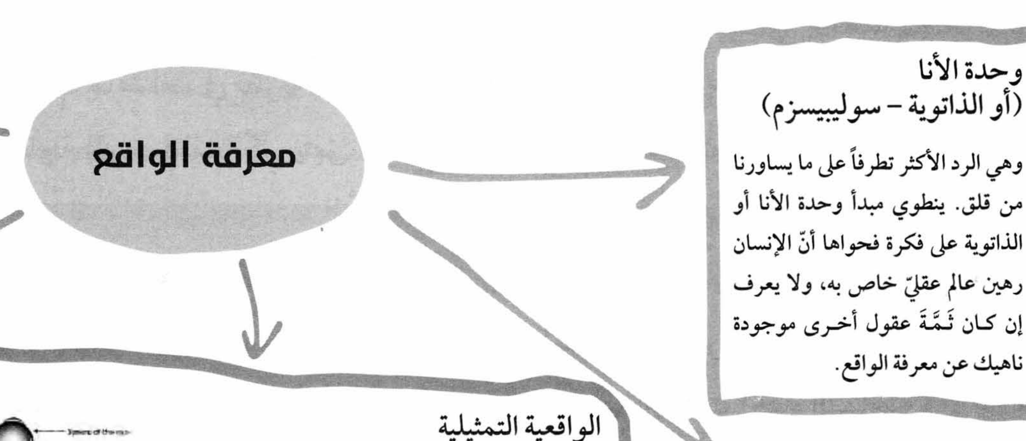
بعض المعلومات أو العقائد الخاطئة، عندها سيحمل هذا الشخص الكثير من المعتقدات الصحيحة، بالإضافة إلى الخاطئة منها بَيْدَ أنّه لا يستطيع أن يفرق بين ما هو صائب وما هو خاطئ. قد يتعلم هذا الشخص من أمّه أسماء خمسين عاصمة، ثمان وأربعين منها صحيحة، واثنتين خاطئتين، لكنّه لا يستطيع أن يعرف ذلك، وعليه فإنّ المعلومات الصحيحة التي يحملها هذا الشخص كانت مسألة حظ. إنّ هذا الشخص لا يعرف ذلك حق المعرفة، لذا تحتاج المعرفة إلى ما هو أكثر من مجرد اعتقاد حقيقي.

تركز معظم المناقشات في نظرية المعرفة على ما هو أكثر من مجرد اعتقاد حقيقي، وعلى طبيعته. إنّ المعرفة بحاجة إلى ضمانات لكي يتفق الجميع عليها، وعلينا أيضًا أن نقبل بسلطة الخبراء. الكثير من الموسوعات تضم قوائمَ بعواصم الدّول ولكن كيف نضمن بأنّ من جمَع المعلومات كان واثقًا من دقة معلوماته؟ هل زار كل هذه البلدان، وتعرّف عليها؟ يتأتّى علماء المعرفة في توجيه الأسئلة إلى الخبراء، لأنهم أولاً يريدون معرفة الأشياء التي جعلت من شخص ما خبيرًا. لقد باتت الخبرة والتضلع من المعارف في وقتنا الحالي أمرًا في غاية الأهمية في مختلف مجالات الحياة السياسية والإعلامية والعلمية والقانونية، ... إلخ.

إنّ الفوز في المسابقات التلفزيونية لن يجعل من الشخص خبيرًا، فالأمر المهم في الخبرة هو البصيرة، واستيعاب المواضيع. يعتنق الإنسان الكثير من المعتقدات الصحيحة التي تستند إلى حجج وبراهين قوية، إلّا أنّ الإنسان يحتاج إلى القدرة على الاستيعاب والبصيرة ليتمكن من الربط بين هذه المعتقدات ويحتاج إلى القدرة على التفسير والاستنتاج، أو التكهن. لكن من المتعذر على الإنسان أنّ يتحلى بالاستيعاب والبصيرة دون معرفة معينة محددة تشكل مفهومًا جليًّا واضحًا، علماً بأنّ علم المعرفة عادة يركز على المعرفة.

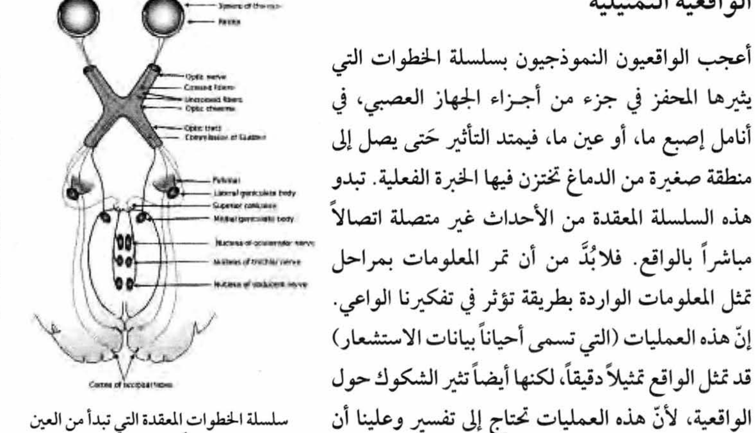
معرفة الحقيقة

تُطلعنا الميتافيزيقا والأنطولوجيا على ما هو موجود، ولكن كيف نعرف بأنّ هذا الاعتقاد صحيح؟ ربما نستطيع أن نشكك في حواسنا، وعقلنا، ومعنى لغتنا وموثوقية مفاهيمنا الأمر الذي من شأنه أن يتيح المجال لحدوث الأخطاء. نحن نعلم، على سبيل المثال، بأنّ بعض الناس مصابون بعمى الألوان، وأنّ الحشرات ترى من الألوان ما لا يعرفه البشر، لذلك فإنّ حقيقة الألوان تعتمد جزئيًّا على من ينظر إليها.



وحدة الأنا
(أو الذاتوية – سوليبيسزم)

وهي الرد الأكثر تطرفاً على ما يساورنا من قلق. ينطوي مبدأ وحدة الأنا أو الذاتوية على فكرة فحواها أنّ الإنسان رهين عالمٍ عقليّ خاص به، ولا يعرف إن كان ثَمَّةَ عقول أخرى موجودة ناهيك عن معرفة الواقع.



الواقعية التمثيلية

أعجب الواقعيون النموذجيون بسلسلة الخطوات التي يثيرها المحفز في جزء من أجزاء الجهاز العصبي، في أنامل إصبع ما، أو عين ما، فيمتد التأثير حَتى يصل إلى منطقة صغيرة من الدماغ تختزن فيها الخبرة الفعلية. تبدو هذه السلسلة المعقدة من الأحداث غير متصلة اتصالاً مباشراً بالواقع. فلابُدَّ من أن تمر المعلومات بمراحل تمثل المعلومات الواردة بطريقة تؤثر في تفكيرنا الواعي. إنّ هذه العمليات (التي تسمى أحياناً بيانات الاستشعار) قد تمثل الواقع تمثيلاً دقيقاً، لكنها أيضاً تثير الشكوك حول الواقعية، لأنّ هذه العمليات تحتاج إلى تفسير وعلينا أن نأخذ بها ونؤمن بها على أساس الثقة فحسب.

سلسلة الخطوات المعقدة التي تبدأ من العين إلى الدماغ مروراً بالجهاز العصبي ما يدل على اتصال غير مباشر مع الواقع

المثالية

وهي وجهة نظر أقلّ تطرفاً، فهي تعترف بوجود عقل آخر لكنها تزعم بأنّ الواقع ليس إلّا خلاصة تجاربنا، لأننا لا نملك دليلاً على ما هو أكثر من ذلك. إنّ ما نسميه واقعاً ليس إلّا صورة رسمها العقل، وليس حقيقة موضوعية خارجية.

الظاهراتية

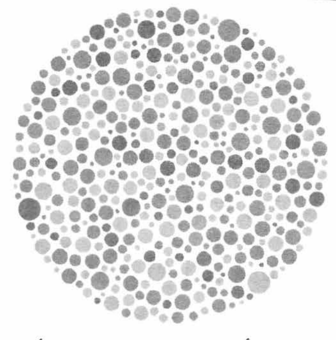
تتفق الأراء الأساسية على وجود واقع أو حقيقة ما، لكنها تختلف حول مدى قرب الناس من ذلك الواقع واتصالنا المباشر به. لو سلمنا بما قاله المثاليون من أنّ هذا الوجود هو مجرد تراكمات للتجربة الإنسانية، فهذا يعني بأننا لا نستطيع أنّ نفترض أنّ القطة موجودة عندما تكون خلف الأريكة. لكن إنّ نظرنا خلف الأريكة، فإننا سوف نكتسب تجربة ترتبط بالقط، الأمر الذي يبدو منطقيًّا أكثر من غيره، أيْ إنّ القطة موجودة، لكن على شكل تجربة محتملة، أو كامنة. يتسم هذا الرأي، الذي يسمى بالظاهِراتية، بالمحافظة على النزاهة الفكرية للمثالية، وذلك من خلال عدم الابتعاد عن التجربة، أو الانعتاق منها، بَيْدَ أنه يضيف سمة طبيعية أَلَا وهي أنّ وجود قطة ما هو أمر غير مذبذب، أو غير منقطع. تبقى الظاهراتية شكلاً من أشكال اللا واقعية، فهي تزعم بأنّ الواقع (بالنسبة لنا) ليس إلّا بُنيَة نسجها العقل جملة، وتفصيلاً.



تزعم الظاهراتية بأنّ القطة موجودة وإن كانت مختبئة، ولا نستطيع رؤيتها، ولذلك لا بُدَّ من وجود ما هو أكثر من التجربة البشرية

الواقعية المباشرة

ثَمَّةَ آراء أخرى وجيهة عن الواقعية. تعتنق الواقعية المباشرة رأياً متفائلاً يرى بأنّ التجربة هي التي تدلنا على الواقع، وتكشفه، وتميط اللثام عنه.
إننا ننظر إلى عمى الألوان على أساس أنّ اللون هو مجرد جانب من جوانب الطريقة التي نعيش الواقع من خلالها. ذلك يعني أننا نريد القول بأنّ الشخص يفقد قدرته على إبصار الواقع المرئي إذا كان يعاني من تشوش في بصره، لكننا لا نتجاهل، في الوقت نفسه، أنماط التجارب الأخرى غير العادية. لو ردمت الفجوة بين العقل والواقع بهذه الطريقة، فإنّ الفلسفة سوف تقترب أكثر فأكثر من الفطرة والحس السليم.



عمى الألوان هو نمط غير عادي من أنماط التجربة بَيْدَ أنّها لا تحول دون معرفة الواقع

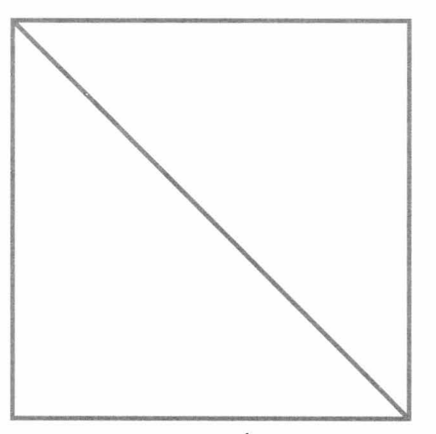
البداهة

بغض النظر عن التجارب التي يمر بها الإنسان، ثَمَّةَ حقائق عن الرياضيات والمنطق وما يجب القيام به يعرفها الإنسان من خلال التفكير المحض. هذه معرفة مسبقة، ما يعني أنّها معرفة يمكن أن يكتسبها الإنسان دون أن يخوض تجارب، أيْ إنّها حقائق لا تتأثر بالتجربة البتّة.

لكي نعرف بأن 7 + 5 = 12، فإنّ ما نحتاجه، فحسب، هو التفكير في هذه الأرقام، وأيّ تجربة أخرى تناقض ذلك فإنّها تُستبعَد، فلا بُدَّ من أنّها تمثل سوء فهم. إن كانت المعرفة تمثل اعتقادًا حقيقيًّا يحظى بالتأييد والدّعم فإنّ المعرفة المستقاة من التجربة تقوم على الاستدلال والحجّة والدليل؛ لكن ما هو الدليل أو البرهان الذي تستند إليه المعرفة المسبقة، أو البداهة؟ لا يمكننا القول هنا إلّا أنّها (البديهة) فهو أمر (جليّ ومميز) إِذ نضع أيدينا على ما يتجلى من (نور طبيعي يشع به العقل)، أو (فطرة الإنسان أو الحدس).

البداهة: هي المعرفة التي لم تتمخض عن تجربة.

آراء متناقضة


تقدم لنا بعض الأشكال الهندسية حقائق بديهية

التناقضات هي ما لا يقبله العقل المحض بلا تردد، فلا شيء أوضح من ذلك بالنسبة إليه. إنْ تَناقَضَ رأيان، أو موقفان مع بعضهما البعض، فلا يمكن أن يكون كلاهما على حق. وعليه، فإننا نعرف بأنّ ثَمَّةَ شيئًا ما لا بُدَّ له من أن يكون صحيحًا إن كان ما يناقضه ينطوي على تناقض؛ الأمر الذي يعزز القناعة بوجود معرفة مسبقة لدى الإنسان مستمدة من بداهته أو فطرته. يمكن النظر إلى الحقائق المسبقة الأخرى

(المكتسبة بفعل البداهة) من المفاهيم ذوات العلاقة. إنّ المربع الموجود في الصورة يمكن أن يُقسم على مثلثين متساويين في المساحة. الحقائق البديهية، أو المسبقة الأخرى هي عموميات لا يمكن إنكارها، تم اكتسابها بفعل التجربة مثل: إنّ أحداث الماضي لا يمكن تغييرها، أو إنّ المسافات الأطول تستغرق وقتًا أطول في السفر.

الأفكار الفطرية

تبدو بعض الأفكار فطريّة، أيْ إنّها انطلقت من العقل على نحو طبيعي، ولم تكتسب من خلال الخبرة. وهذا ما ينطبق بكل بساطة على مفاهيم الحساب والهندسة، وحَتى الأفكار الأكبر، مثل مفهوم الخير، أو الكائن الأسمى، فهي كلها أفكار فطرية. إذن، إن كان الأمر كذلك، يستطيع الإنسان الحصول على أفكار مسبقة حول هذه المفاهيم، وقد يتمكن من استنتاج حقائق نظرية، أو دينية، أو أخلاقية أساسية دون البحث عن برهان، أو دليل.

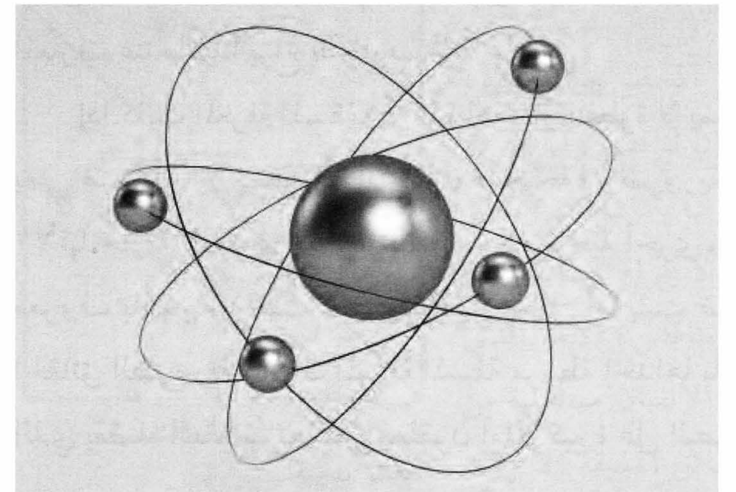
يشكك التجريبيون في الأفكار الفطرية (لأنّ كل المعرفة كما يعتقدون تجريبية)، فهم يرون بأنّ العقل يربط بين التجارب، ثُمَّ (يستخلص) الأفكار منها، والعقل بالنسبة إليهم صفحة بيضاء يختزن المعارف عندما تبدأ يراع التجارب تخطّ عليها.

إذا كانت المعرفة المسبقة، أو البداهة، أو الفطرة لا يمكن أبدًا أن تتعارض مع أي تجربة، فهذا يعني ضمنًا أنّها لا يمكن إلّا أنْ تكون صحيحة، وضرورية. فهي، من ناحية، قد تكون ضرورية، (لأنّها حقيقة نابعة من أفكار محضة)، ومن ناحية أخرى، قد يكون الشيء ضروريًّا فحسب لأنه معروف بالبديهة (حَيثُ لا يوجد دليل يمكن أن يثبت ضرورته على الإطلاق). وهذا يعني أنّ الحقائق الضرورية وأنماط المعرفة المسبقة مرتبطة إحداها بالأخرى ارتباطًا وثيقًا، وهذا هو الرأي الذي يفضله العقلانيون الذين يعلقون آمالاً كبيرة على البصيرة العقلانية.

شككت الآراء الحديثة في بساطة هذه القرينة ذات الاتجاهين. رأى البعض بأنّ العلماء قد أسهموا في اكتشاف بعض الضروريات، مثل الأعداد الذرية للعناصر، وبالتالي فإنّ هذه الاكتشافات تمثل استدلالات لاحقة (Posterori) أكثر منها بداهة (A priori).

الاستدلالات اللاحقة: هي المعرفة التي تستمد من التجربة.

تقول الآراء الحديثة الأكثر تحفظًا بين أصحاب هذا المذهب بأنّ العقل المحض، وما يتفتق عنه من بصيرة، قد يُخطئ، وعليه فهو لا يصلح لأن يكون أساسًا تبنى عليه معرفة الضرورات، بل إنّ الآراء الأكثر تشككًا لا ترى في البداهة، أو المعرفةِ المسبقة إلّا مزجًا بين مفاهيم من صنع الإنسان واللغة. فإذا كان الأمر كذلك، فإنّ أصحاب هذا المبدأ يعتقدون بأنّ معرفة مساحة المربع، والعلاقة بين الأرقام، بل حَتى الحقائق العامة عن الدين، والأخلاق ليست سوى شروح، وأوصاف لمفاهيم اخترعها الإنسان لحاجته إليها.



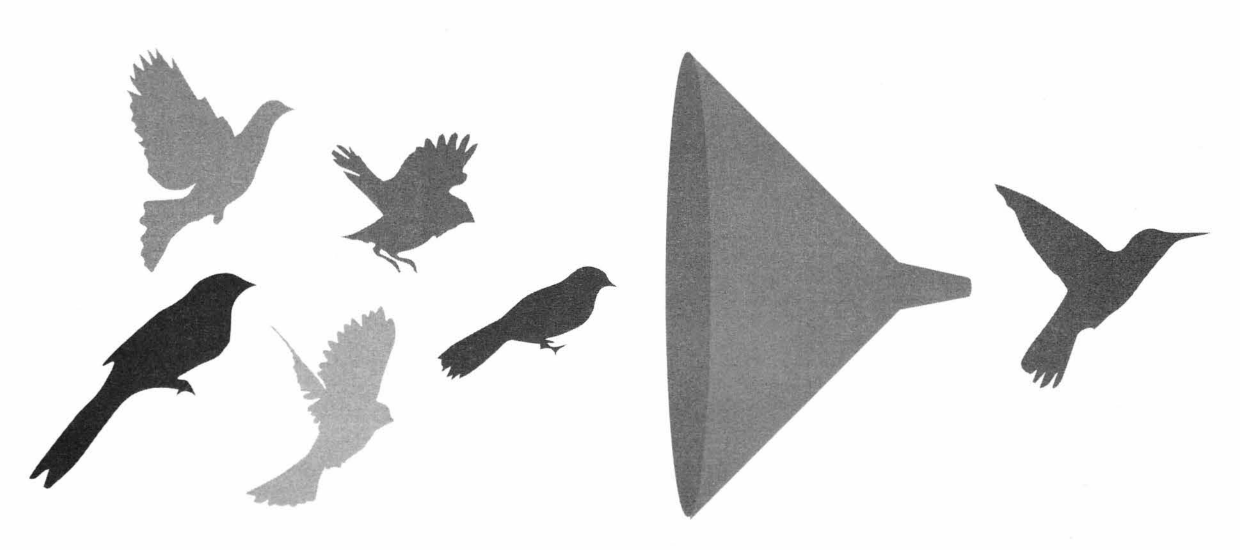
العدد الذري لعنصر من العناصر ليس إلّا حقيقة من حقائق الاستدلالات اللاحقة

الفطنة والإدراك

يأتي الوعي المباشر بالواقع من خلال التجربة التي تعتمد على الفطنة، والإدراك. إنّ البصر مهم، وحيوي بشكل خاص، لكنّ حاسة التذوق تختلف من فرد لآخر، أمّا حاسة اللمس فإنّها تكون أقرب إلى الواقع. إنّ المسألتين الرئيسيتين فيما يتعلق بالإدراك هما:

- هل يقربنا الإدراك من الواقع فنكون قادرين على صلة وثيقة للغاية به؟
- ماهو حجم التعديل والتغيير الذي يطرأ على المعلومات الخارجية الصرفة بفعل تأثير مفاهيم العقل وعمليات المعالجة العقلية؟

إذا كان بإمكان الإنسان أن يعول على الفطنة، أو الإدراك في اكتساب معلومات موثوقة حول الحقائق الخارجية، فإنّ هذا يوفر أساسًا صحيحًا سليمًا، لكن إذا كانت المعلومات عرضة للكثير من التفسير، والتأويل فإنّنا نكون بحاجة إلى نهج مختلف.



تتجسد أبسط مستويات الإدراك في لمحات الحركة، أو اللون في محيط الرؤية. لكن إذا لم نتمكن حَتى من أن نشرع في تحديد الشيء، فإنّ هذا يدخل في إطار الحس، وليس (الإدراك)، وهو لا يتضمن شيئًا من المعرفة. تولد المعتقدات من طبيعة العلاقات بين الأشياء، لَا سِيَّما إذا ما أضيفت إليها المفاهيم والفئات، بَيْدَ أنّ الإنسان، قدر تعلق الأمر بالإدراك الطبيعي، ليس على دراية بما يضاف من مفاهيم. عندما يرى شخص ما طائرًا، فإنه يراه مباشرة طائرًا، وليس شيئًا آخرَ، وهذا ما يعرفه بحكم التجربة، فهو قد رأى من قبل طائرًا بصورته الكاملة الآنية. إنّ مفهوم (الطيور) متأصل فينا، ويفترض به، كمفهوم، أنه تطور، وتراكم في لغتنا من خلال التصورات العديدة عن الطيور. ومن المعتاد لدى الإنسان البالغ دمج المفاهيم دمجًا كاملاً مباشرًا بتصوراته حَتى إنّه لا يكاد يلاحظ ذلك.

إنّ رؤية العنكبوت، بالنسبة لمعظم الناس، تشبه رؤية الطيور، لكنّ الأشخاص الذين يعانون من رُهاب العناكب لديهم شعور مختلف. ثَمَّةَ قوالب كثيرة تسهم في قولبة مفاهيم الإنسان وتشكيلها: ما يحب، وما يكره، تجاربه السابقة، ثقافته، واللغة التي يتكلمها؛ كلّ هذه العناصر تؤثر في صياغة مفاهيم الإنسان.



قد تثير العناكب الخوف لدى بعض الأشخاص، لكن ليس الجميع لديهم هذا الإحساس بالخوف

الصفات الأساسيّة والثانويّة

عندما نرى جسمًا، أو شيئًا مربعًا فإننا سوف نشعر أيضًا بأنّه مربع. أمّا أحجار البناء الملقاة على قارعة الطريق فإنها تبدو ثقيلة جدًا، وتُولِّد في داخلنا انطباعًا، وإحساسًا بالثقل. أمّا إذا أردنا أن نعرف طعم العسل، أو رؤية اللون البنفسجي فلا مناص من اللجوء إلى تذوق العسل لمعرفة طعمه، ورؤية اللون البنفسجي لكي نتعرف على ذلك اللون فلا سبيل إلى معرفة ذلك إلّا عن طريق حاسة التذوق، وحاسة البصر.

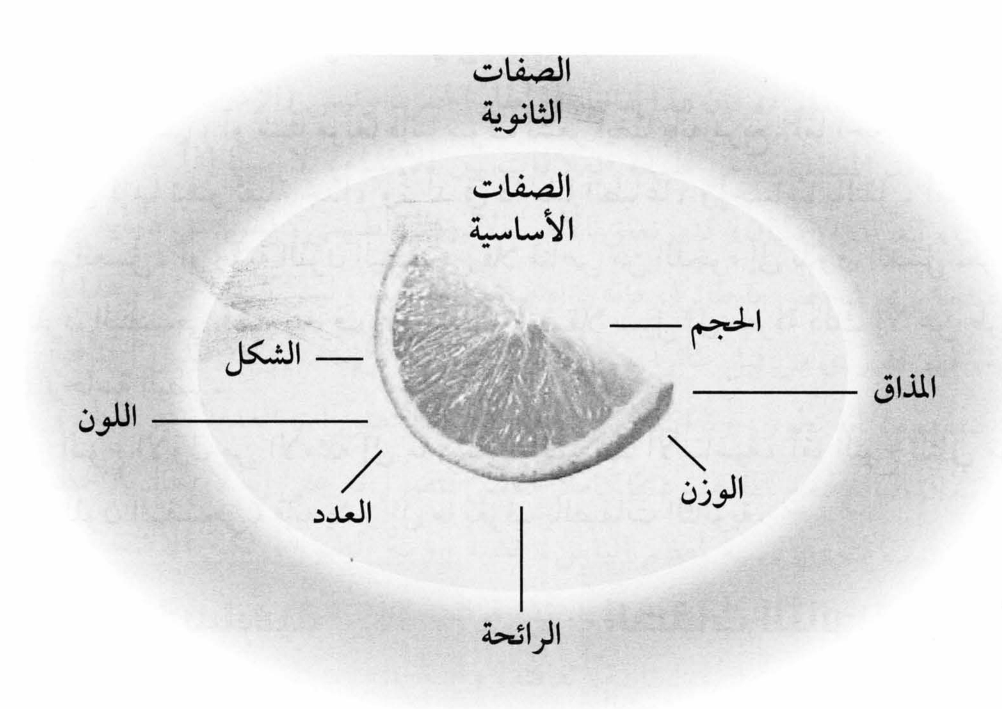
يشير النوع الأوّل من الأمثلة إلى ما يسمى بالصفات الأساسية، أمّا النوع الثاني من الأمثلة (العسَل واللون البنفسَجي) فإنّه يشير إلى ما يُعرف بالصفات الثانوية.

الصفات الأساسية

الصفات الأساسية هي التي تدخل في إنتاج المعرفة الموضوعية. حواس الإنسان هي التي تؤكد التصورات، فضلاً عن إجماع أغلب الناس عليها؛ فربما كان البعض منهم مصاباً بعمى الألوان، أو له مذاقه، وإحساسه الخاصان به ويختلفان عن مذاق وإحساس الأغلبية. يركز العلم على الصفات الأساسية التي هي محل إجماع بين الناس ويمكن أيضاً التعامل معها حسابياً.

الصفات الثانوية

الصفات الثانوية (مثل الألوان، والتذوق والشم) تمثل معلومات حقيقية أو واقعية، لكنها تتسم بأنّها ذاتية أكثر من الصفات الأساسية. إنّ التمييز هنا مهم، على الرغم من رفض النقاد له، لَا سِيَّما النقاد اللا واقعيون، بحجة أنّ الصفات الأساسية هي حصيلة الصفات الثانوية.



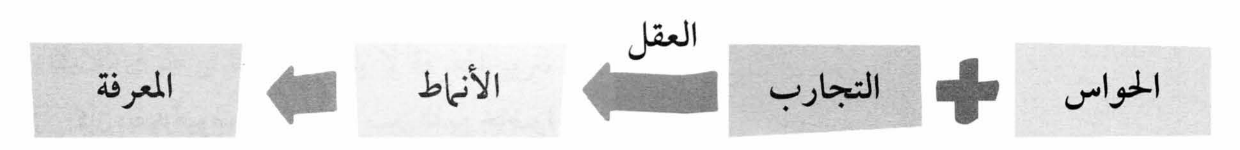
العقلانية والتجريبية

ثَمَّةَ موقفان أو رأيان رئيسيّان متناقضان حول أساس المعرفة والعقلانية والتجريبية. يقول العقلانيون إنّ الحكم بعد إنعام النظر هو ما يحوّل ارتباك وتشوش معتقداتنا ومفاهيمنا وتجاربنا الخام إلى معرفة.

العقلانيون: إنّ الحكم بعد إنعام النظر هو ما يحول تشابك المعتقدات والمفاهيم والتجارب الخام إلى معرفة.

استخدم ديكارت مثال ذوبان الشمع لشرح كيف تأتي معرفتنا من الحكم

حاول ديكارت أن يشرح رأي العقلانيين باستخدام قطعة من الشمع قائلاً نستطيع أن نتحسس هذه القطعة من الشمع، وأن نلمسها وننظر إليها، وأن نتذوقها لكي نتأكد من أنّها شمع، وليس شيئًا آخرَ. بَيْدَ أنّ هذه القطعة من الشمع سوف تتحول إلى شكل مختلف لو قمنا بصهرها وصارت كتلة من الشمع بعد المرور بتجربة الانصهار، لكن مع ذلك، سوف تبقى شمعًا. إذن كان حكمنا على قطعة الشمع بأنّها ظلت شمعًا على الرغم من تجربة الانصهار التي غيرت من شكل قطعة الشمع وملمسها، وعليه فإنّ المعرفة يجب أن تنبع من الحكم بعد إنعام النظر.



التجريبيون: كل شيء يعتمد على حواسنا وما ندركه من خلالها، وما الأحكام التي نتوصل إليها إلّا نتيجة المقارنة بين التجارب.

يقول التجريبيون بأنّ كلّ شيء يعتمد على الحواس وما ندركه من خلالها، أمّا المفاهيم والأحكام التي يتوصل إليها الإنسان فهي من إفرازات المقارنة بين مختلف التجارب. يقدم لنا ديفيد هيوم مثالاً هو عبارة عن جبل ذهبي (جبل ذهبي صلب من عالم الخيال) لم يره أو يعرفه أحد من قبل، بَيْدَ أنّ الجميع يعرف كيف يكون الجبل، وكيف يكون الذهب، لذلك فهم يستطيعون أن يجمعوا بين الصورتين أو المفهومين لكي يتمكنوا من خلق صورة متخيلة لجبل ذهبي. يقول هيوم إنّ جميع المفاهيم تشبه في تكوينها الجبل الذهبي، والعقل هو الذي يتولى غربلة التجارب المتعددة. إنّ المعرفة متجذرة في تصوراتنا ومفاهيمنا، وليس في قدرتنا على التفكير (وهذا الرأي موضع إعجاب وإشادة العقلانيين).

بلغ هذا الجدل ذروته في عصر التنوير في أوروبا عندما كثر الأخذ والرد بين كبار التجريبيين مثل جون لوك، وديفيد هيوم، ونظرائهم من كبار العقلانيين العظماء مثل رينيه ديكارت، وباروخ سبينوزا، وكوتفريد ليبنيز. وما إن أعلن عمانوئيل كانت بأنّ التجارب متشابكة ومتداخلة بعمق مع الجوانب

كان ديفيد هيوم من كبار التجريبيين الذين خاضوا غمار الجدل الفلسفي الذي احتدم في خلال عصر التنوير

العقلانية والمفاهيمية للعقل حَتى ازداد الجدل تعقيدًا وضراوة. وعلى الرغم من ذلك، لا يزال العديد من الفلاسفة يتحزّبون لهذا الرأي أو ذاك، فهم إمّا تجريبيون أو عقلانيون، لذلك فإنّ احتدام الجدل بين الفريقين مستمر لا نهاية له حَتى هذه اللحظة. فحَتى لو كانت الحواس كلها تنطوي على تفكير وإنّ كلّ التفكير متجذر في الحواس، فإنّ معظم الفلاسفة يرون بأنّ المعرفة تستند في المقام الأوّل إمّا إلى التجربة، أو إلى الاستيعاب والفهم.

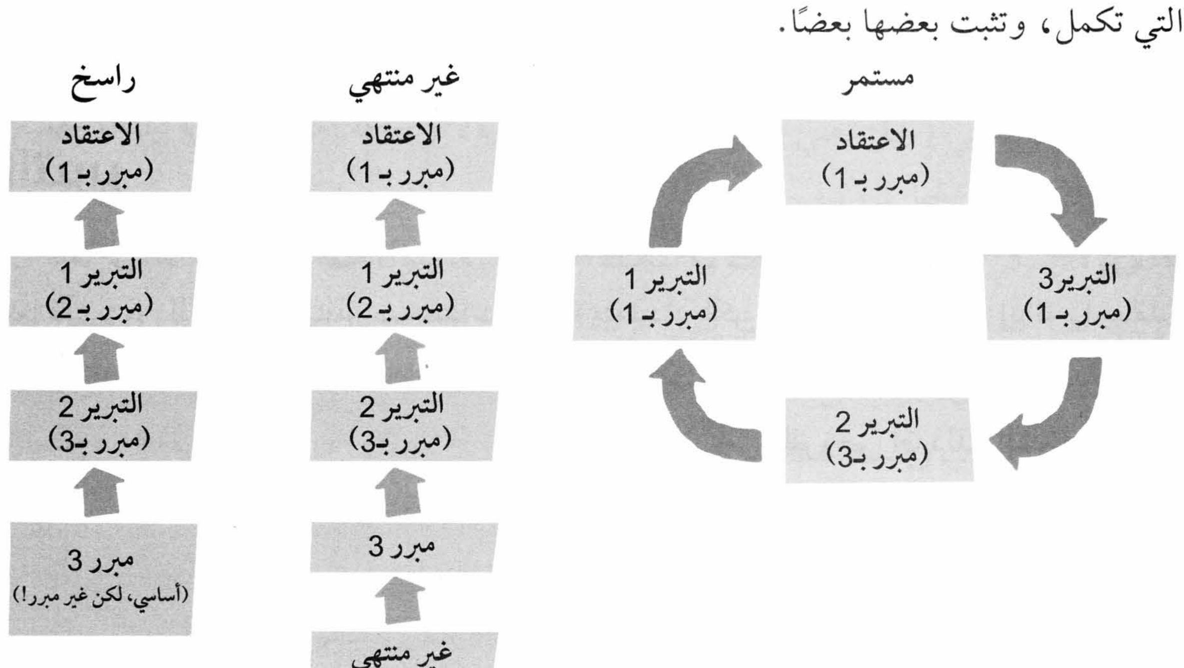
التبرير

تركز نظرية المعرفة على هذه (الإضافة القليلة) التي بفضلها يتحول الاعتقاد الصحيح إلى معرفة. يؤمن الكثير من الناس بمعتقدات مختلفة متعددة، لكن كيف يبرر الإنسان إيمانه بما يعتقد؟ خاض قدماء الفلاسفة في هذا الجدل وقد شخصوا الكثير من المشكلات العويصة. عندما يقدّم شخص ما مجموعة من الآراء والمعلومات تبريرًا لإيمانه فإنّ من المفروض أن ذلك الشخص يعرف تلك الآراء والمعلومات، لكنّ القضية هنا هي إنّ التبرير (الآراء والمعلومات) بحاجة إلى تبرير، وهكذا دواليك.

إننا نشهد تراجعًا لا نهائيًا في التبريرات. إذا كانت المبررات المختلفة تدعم إحداها الأخرى، وتكمل بعضها، فإنّ ذلك يبدو أو يتخذ شكلاً دائريًا. أو قد نقول بأنّ المعرفة تعتمد في النهاية على شيء ما لا يحتاج إلى مبرر، ولكن كيف نعرف أنه بغير مبرر؟ يبدو أنّ هذا اللغز أو المعضلة الثلاثية (معضلة أكريبا Agrippa Trilemm) يجعل من السعي وراء أساس - أو معيار - للمعرفة أمرًا ميئوسًا منه.

إنّ الهدف من اللغز هو تأكيد استحالة المعرفة لأنّ تبرير المعرفة لا يتم إلّا بإحدى طرق ثلاث، وكلها لا تسمن، ولا تغني من جوع. إنّ المبرر هنا إمّا أن يكون ثابتًا متأصلاً، أو دائميًا، أو دائريًّا

(متداولاً). فإذا انتهت سلسلة المبررات إلى ما هو ثابت متأصل فإنّ الثابت المتأصل لا مبررَ إضافيًّا له، لذلك لا يمكن أن يكون معرفة. وإذا استمرت السلسلة إلى الأبد، فلا يمكن التأكد من أيّ مبرر من مبررات السلسلة. أمّا إذا كانت السلسلة (دائريّة) متداولة فإنّها قد تكون مجموعة من الأكاذيب التي تكمل، وتثبت بعضها بعضًا.



الحلول المقترحة للتغلب على هذه المعضلة تعتمد أسسًا عقلانية، أو أسسًا تجريبية. يقول العقلانيون بأنّ أساس المعرفة هو البصيرة أو الحدس المباشر، بأنّ هذا الشيء أو ذاك هو أمرٌ صحيح، ولا غبار على صحته. فإذا كان لدينا رؤية أو بصيرة بديهية مؤكدة، فإننا نستطيع، بثقة، استنتاج المعرفة بوساطتها. كان ديكارت يقول ما دام إنه يفكر فلا بدّ من أنه موجود. تعكس مقولة ديكارت الشهيرة «أنا أفكر إذن أنا موجود» نمطًا معينًا من أنماط اليقين على الرغم من الشكوك التي قد تثار حول الشخص، واستمراره كما هو دون تغيير.

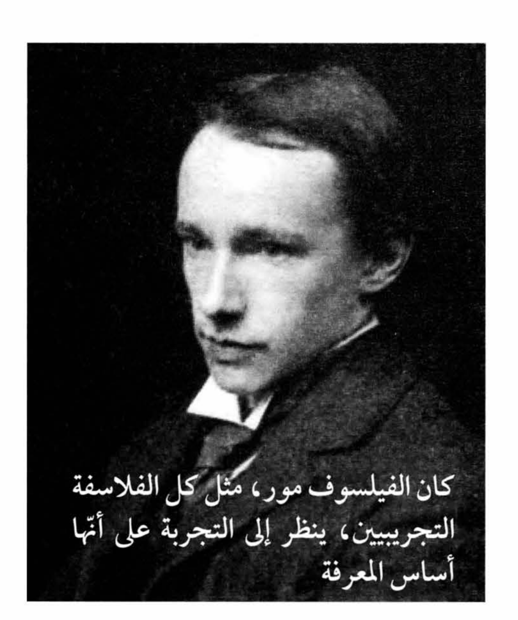
التجريبية

يستمد التجريبيون أسس فلسفتهم من التجارب. يقول ج. ي. مور، على سبيل المثال، إنّه متيقن من التجربة التي يراها بعينه، أو يشعر بها أكثر من تيقنه من كل الحجج، أو البراهين التي تساق لإنكار وجود التجربة، أو نتائجها. يقول بعض التجريبيين بأنّ التعرف على ملامح الوجه وتعابيرها، على سبيل المثال، يمكن أن يكون أساسًا من أسس المعرفة، فحَتى الرضع الصغار يستطيعون التعرف على أمهاتهم فورًا من خلال تمييز ملامحهن. في الحقيقة، إنّ كلتا النسختين من الفلسفة الوضعية تصنف معتقداتنا إلى مجموعتين، مجموعتين (أساسيتين) (سواء عقلانية أم تجريبية) لا تحتاج إلى أيّ مبرر آخر.

التجريبية: كل المعرفة تأتي من التجربة.

معضلة كيتيير

ثَمَّةَ لغز ظهر مؤخرًا، يُعرَف بمشكلة، أو معضلة كيتيير، يفيد بأنّ عقيدة الإنسان الصحيحة لا تخلو من دور للحظّ فيها، وحَتى التبريرات التي يطرحها أو يلجأ إليها الإنسان قد تنطوي هي، أيضًا، على مقدار من الحظ: فإذا كان الإنسان يعاني من تشوش، وبلبلة بخصوص الحقائق، فإنّه لن يتمكن من رؤية الخطأ الذي قد يقع فيه بسهولة. على سبيل المثال، افترض بأنّك وضعت هاتفك على طاولة، وغادرت الغرفة، فإنك تقول لنفسك «أعرف بأنّ هاتفي سيكون على الطاولة عندما أعود،



كان الفيلسوف مور، مثل كل الفلاسفة التجريبيين، ينظر إلى التجربة على أنّها أساس المعرفة

لأنني تركته هناك قبل مغادرة الغرفة » وتفترض بأنّ هاتفك سيكون موجودًا عند عودتك. وهكذا، سوف يكون لديك اعتقاد، أو يقين صحيح، ومبرر مقبول، لذلك فإنك تعرف ما تؤمن به. ولكن ربما يأتي لص، ويسرق هاتفك، وبعد بضع دقائق يشعر هذا اللص بتأنيب الضمير، فيعيد الهاتف إلى مكانه. وهذا يعني بأنّ اعتقادك صحيح، وأنّ الهاتف كان فعلاً على الطاولة، فهو المكان الذي تركت الهاتف عنده، ولكن ليس كما تظن، أو ليس حسب التفسير الذي في ذهنك، فضلاً عن وجود فجوة هائلة في التبرير الذي تطرحه. في هذه الظروف، هل كنت تعلم بأنّ هاتفك سيكون في مكانه على الطاولة؟ سوف يرد معظم الناس بأنك لا تعرف ذلك، فلديك المبرر الذي يدعم يقينك غير أنه ليس مقنعًا بما فيه الكفاية. وعليه، فإنّ مشكلة كيتيير تقدم تعليلاً أفضل لمعضلات مثل تلك المعضلة.

الترابطية

يقول المشككون بأنّ التجارب قد تكون محض أحلام، والمنطق قد يكون مضللاً، أمّا نقاد أسس المعرفة فإنّهم يقولون بأنّ تلك الأسس إمّا إنّها أوّلية وبسيطة جدًا بحَيثُ لا يمكن اعتبارها معرفة، أو إنّها معقدة للغاية، ولا يمكن فهمها إلّا بعد سوق الحجج والأدلة. وعليه، انبجس موقف آخر ألَا وهو الترابطية الذي اتخذ له نهجًا مباينًا، ومقترَبًا مختلفًا.

الترابطية: لا بُدَّ من ترابط وثيق متماسك بين التجارب والمنطق لكي ينتج لنا المعرفة.

على الرغم من أنّ حزمة المبررات التي تعزز، وتعضد بعضها بعضًا تبدو كأنّها تأخذ بزمام بعضها البعض في حلقة دائرية، إلّا أنّنا في الواقع نؤمن بالشيء إذا أثبتته الأدلة التي يكمل بعضها بعضًا مثل قطع أحجية الصور المقطوعة (أو كما هو الحال في مرافعة ناجحة أمام قضاة) لأننا هنا نحصل على المسوغ، أو الدليل الذي يقوم عليه التبرير. إنّ الصورة المتماسكة هي الصورة التي

تتشكل من المكونات العقلانية والتجريبية. أمّا التحدي الرئيس الذي يواجهه هذا النهج فهو أنّ الأدلة والبراهين قد تكون على قدر كبير من التماسك والترابط ومع ذلك فهي غير صحيحة مثل رواية أحكم المؤلف حبكتها.

التعويلية (Reliabilism): لا بُدَّ للعقائد من أن تمتّ للحقائق بأسباب يُعوّل عليها.

تركز المعتقدات الأساسيّة، وكذلك الترابط، أو التماسك على عقل المتلقين للمعرفة. ثَمَّةَ تحدٍّ برز مؤخرًا فحواه أنّ هذه الرؤية البواطنية (Internalist) مجانبة للصواب، لأنّ الذرائع المقبولة إنّما تكون خارجية، لأننا بحاجة إلى أسباب متينة تصلنا بالحقائق، وليس إلى حالات عقلية فردية. تعد التعويلية الصورة المفضلة من صور الظاهرانية (Externalism) التي تؤكد (أيْ التعويلية) بأنّ خير الأسباب التي تفضي بنا إلى الحقائق هي التي ثبت لنا جدوى التعويل عليها مثل البصر الحديد، والجدارة الفكرية، أو الأدوات العلمية الفعالة. يذهب أصحاب الاتجاه البواطني إلى القول بأنّ الإنسان يعمل على وفق ما يعرف، وعليه فإنّ القرارات النهائية تكون بواطنية بَيْدَ أنّ واقعية الظاهرانية الرصينة تتسم بجاذبية كبيرة، وتنسجم مع الآراء الحديثة المتعلقة بالعلم وموضوعيته.

البواطنية: لا بُدَّ من أن تكون القرارات النهائية بواطنية.

الموضوعية

يرى أصحاب النسبية المتطرفة أنّه لا يمكن أن تكون ثَمَّةَ معرفة، والسبب هو أنّه لا توجد (حقيقة)، ولا توجد (حقائق). وعليه فليس إلّا ثَمَّةَ معتقدات خاصة فردية، أو ربما وجهات نظر مشتركة ضمن ثقافة واحدة. بَيْدَ أنّ المعرفة تحتاج إلى معتقدات تسوغها وتبررها، والبشر قادرون على التمييز بين الصالح والطالح من المسوغات والتبريرات.

مبرر مقنع	مبرر غير مقنع
أنا أؤمن بأنّ هذا قد حدث لأنّ عشرة منّا شاهدوه وهو يحدث	أنا أؤمن بأنّ هذا قد حدث لأنني أتمنى، وأرجو حدوثه

وكما نرى، نستطيع أن نجعل معتقداتنا تتسم بموضوعية أكثر، وأن نقترب أكثر من الحقيقة أو الحقائق حَتى لو لم يكن ذلك ممكنًا على نحو تام، أو مطلق.

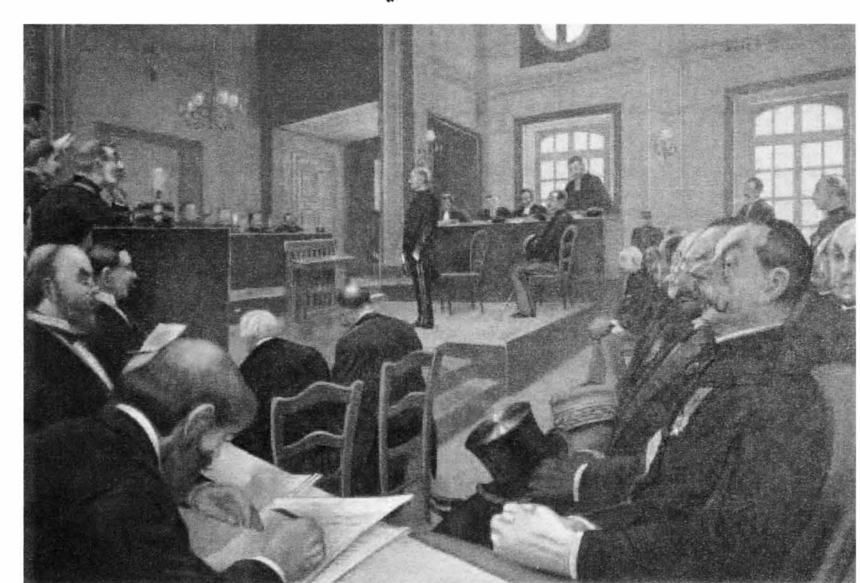
تستند النسبية إلى مبدأ الشك بالحواس والعقل واللغة. لكلّ شخص فهمه الخاص من موقعه المختلف، وله استخدامه، وتوظيفه المختلف للمفاهيم في تجربته. غالبًا ما يقال بأنّ العقل، الذي يُنظَر إليه على أنّه كليّ شامل، يتأثر بشدة بالميول والرغبات التي تمليها الثقافة العامة، والمشاعر الشخصية. ويقال بأنّ كل لغة تتغير بمرور الوقت، ولها اعتباراتها وفرضياتها الفريدة المتجذرة في أصل منظومتها الكاملة التي لا يمكن ترجمتها ترجمة دقيقة.

يبدو أننا نستطيع تحقيق قدر أكبر من الموضوعية من خلال تطابق الحواس المختلفة وتماثلها، أو من خلال تطابق مواقف مراقبين مختلفين وتماثلها. لو افترضنا بأننا نثق، ونسلم بصحة ذاكرتنا، وسلامتها (ولا مناص من ذلك وإلّا فإننا مجانين)، فإننا عندما نرى شيئًا، أو جسمًا نتذكر بأننا سبق وأن رأينا ما يطابقه شكلًا، وصورة (ما يدل على الاستقرار الموضوعي في الأشياء). إننا نجد أيضًا إحساسين مختلفين يفضيان إلى نفس المعلومات حول شيء ما (عن إحدى صفاته الأساسية)، ويمكن أن نثق في الآخرين وهم يعبّرون عن تصوراتهم التي ربما تشابه تصوراتنا، أو تكون مطابقة لها. إنّ شعار العلماء هو « إن كنت لا تصدق فأذهب، وتحقق بنفسك ».

الهوى والأحكام المسبقة

يمكن أن يخضع الاستدلال المنطقي للهوى، والأحكام المسبقة، فلعلّ الإنسان يقدم مبررات لأشياء، أو عقائد يؤمن بها، ويصرّ على الإيمان بها. تسعى علوم الرياضيات، والمنطق الرياضي أو الشكلي، ولغات الحاسوب إلى وضع حدّ لتأثيرات الهوى والأحكام المسبقة، وتحقيق نتائج لا خلاف عليها. من الصعوبة في أحيان كثيرة أن نكون موضوعيين في تقبل الأدلة، لأنّها قد تكون عرضة لتفسيرات وتأويلات مختلفة. على أيّة حال، باتت المحاكم القانونية الحديثة تستعين بالأدلة الجنائية، أو الطب الشرعي، والتسجيلات، والصور سعيًا منها للتوصل إلى إجماعٍ، حول قضية ما، يقترب كثيرًا جدًا من الحقائق.

يقول بعض علماء اللغة بأنّ الترجمة التامة الكاملة بين لغتين من الأمور المتعذرة، فلا يمكن فهم الجملة فهمًا تامًّا إلّا داخل اللغة الأصلية حَيثُ تشكل جزءًا من منظومة لغوية كلية، وكلّ لغة تجسد رؤية شاملة فريدة من نوعها. هذا يعني بأنّ من المتعذر أن نجد لغتين تعبران عن حقائق متطابقة،



إنّ السياق هو الذي يحدد الخبير المطلوب. في قاعات المحاكم، على سبيل المثال، تحديد الخبير أمر في غاية الأهمية

وأنّ الموضوعية الكاملة أمر مستحيل. غير أنّ البعض يرفض هذا الرأي قائلاً بأنّه رأي متشائم للغاية. قد تصعب ترجمة الشعر، لكنّ العلوم، وكتيبات التعليمات يمكن ترجمتها. تتسم اللغات المتخصصة بقدر أكبر من الدقة إِذ يفضل الأسلوب الرياضي العلمي على الأسلوب العاطفي.

السياقية

ثَمَّةَ رأي حديث له تأثيره الواسع في الأوساط العلمية، ألَا وهو إنّ امتلاك المعرفة، أو مقدار المعرفة أمر نسبي يعتمد على السياق المعني. فلعلّ شخصًا ما يُعدّ خبيرًا في سياق ما (أو تخصص ما)، لكنّه لا يُعدّ خبيرًا في سياق آخر. وقد يعدّ شخص ما نفسه متضلعًا في موضوع، أو تخصص ما حَتى يلتقي بمن هو أكثر منه علمًا ومعرفة. السؤال الذي قد يسأله سائل هو: هل إنّ كلمة (يعرف أو معرفة) تغير معناها على حسب السياق، أو الموقف؟ هل الحالة هي أنّنا إمّا أن نعرف، أو لا نعرف؟ قد لا نحتاج في أحاديثنا اليومية الودية، أو في خلافاتنا البسيطة إلى مسوغات، أو تبريرات جازمة حازمة كما هو الحال في مرافعات المحاكم القانونية، وعليه إذا كان أصحاب نظرية السياق مصيبين في ما ذهبوا إليه، فالموضوعية إذن لا توجد على الأغلب إلّا في سياقات معينة، هذا هو الافتراض الشائع في المجتمعات الحديثة.

التشكيكيون

يشكك النسبيون في الحقائق، وفي الحقيقة، أمّا أصحاب مبدأ الشك فإنّهم يشككون في قدرة الإنسان على معرفة الحقائق، والحقيقة حَتى إن كانت جلية واضحة. يتجسد مذهب التشكيك السائد في مختلف الأوساط والبلدان في الرأي القاضي بأنّ المعرفة الكلية أمر متعذر (ومن المفترض بأننا لا نستطيع حَتى التأكد من صحة هذا الزعم).

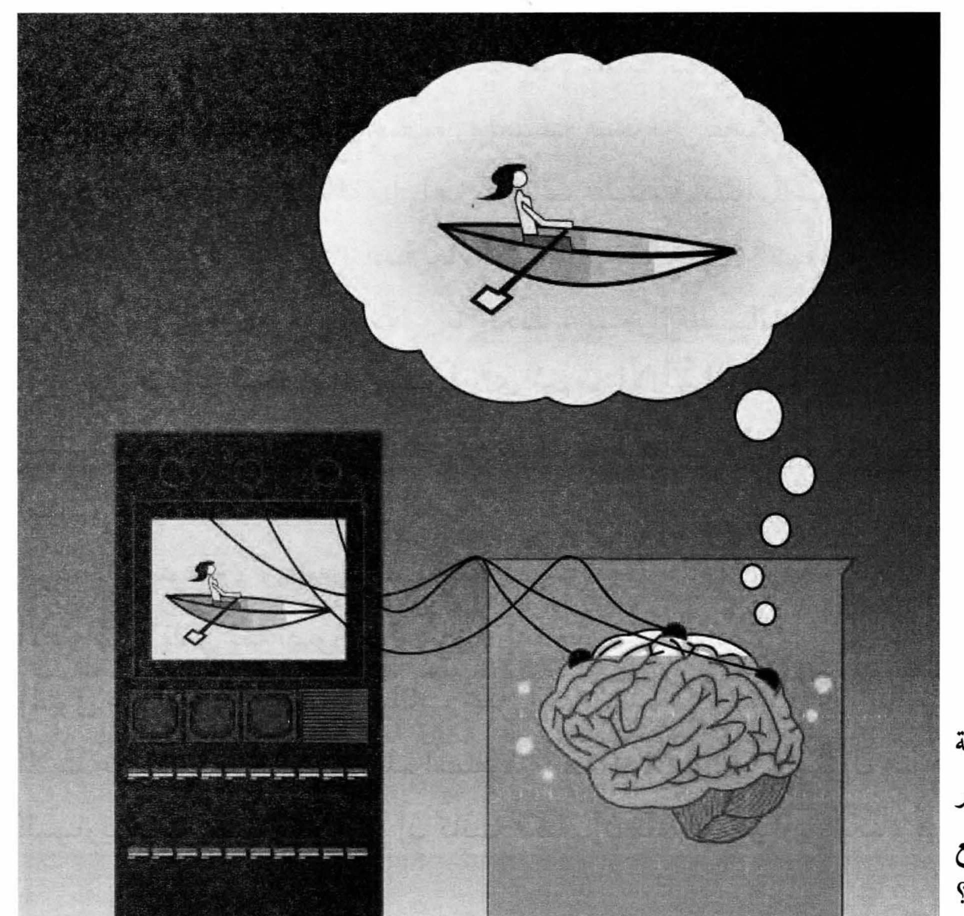
مذهب التشكيك السائد: المعرفة الكلية متعذرة.

من المفترض بأننا لا نستطيع التأكد حَتى من صحة هذا الزعم إلّا أنّ الفلسفة شهدت نزعات تشكيك طالت:

- الدين.
- القيم الأخلاقية.
- أفكار الآخرين.
- الذات.
- الضروريات.
- المعنى.
- العقلانية.
- الحسّ.
- مبدأ السببية.

من حق أيّ شخص أن يشك في أيّ شيء، إلّا أنّ الفلاسفة لديهم أسباب وجيهة تدعو إلى الشك. زعم اليونانيون بأنّ أي باطل يمكن أن يبدو حقًا، فلكل فكرة، أو مبدأ، أو عقيدة، أو رأي أسباب تعززه، وتثبته، وأخرى تفنده، وتُبطله. وقال ديكارت لا يسعنا أن ننكر أنّ الحياة قد تكون مجرد حلم متوهج، وعليه فليست حياة الإنسان إلّا حلمًا من أحلام الكرى. إن كنّا لا نتقبل هذا الافتراض، فلعلّ ثمةَ تصورًا يراودنا بأنّ قوة خارجية ما أوقعتنا في وهْمٍ خادع، أو أنّ عالمًا شريرًا قد استولى على أدمغتنا، وغذّاها ببيانات تجعل الحياة تدبّ في أوصالنا، أو أننا نعيش حياة زائفة صنعتها آلات على غرار ما حدث في فيلم المصفوفة (The Matrix). السؤال هنا هو ليس إن كانت هذه السيناريوهات محتملة فعلاً، بل إن كانت ممكنة. إن كان أي سيناريو ممكنًا، فإنّ المعرفة التي نمتلكها على كفّ عفريت.

ليست نظرية المعرفة (Epistemology) إلّا محاولات لتدارس هذه الشكوك. إذا كانت ثَمَّةَ حقائق تشكل أسسًا، أو ثَمَّةَ معتقدات أقوى من أيّ شك، إذن لنا أن نعول على المعرفة ونركن إليها. يقول البراغماتيون بأنّ العمل الناجح هو الضمان الصحيح للمعرفة. حَتى لو كان من المتعذر تفادي الشك الذي يلف بظلاله العالم بأسره، فإنّ من المتيسر لنا إنكاره على سبيل التمرين الأكاديمي، فحَتى الجهلة من الناس لا مناص لهم من الاستمرار في الحياة كما هي على الرغم من الأخطار التي تحيق بهم.



التجربة الفكرية لـ (الدماغ في وعاء) تثير هذا السؤال: هل نستطيع أن نثق في تجاربنا الخاصة؟

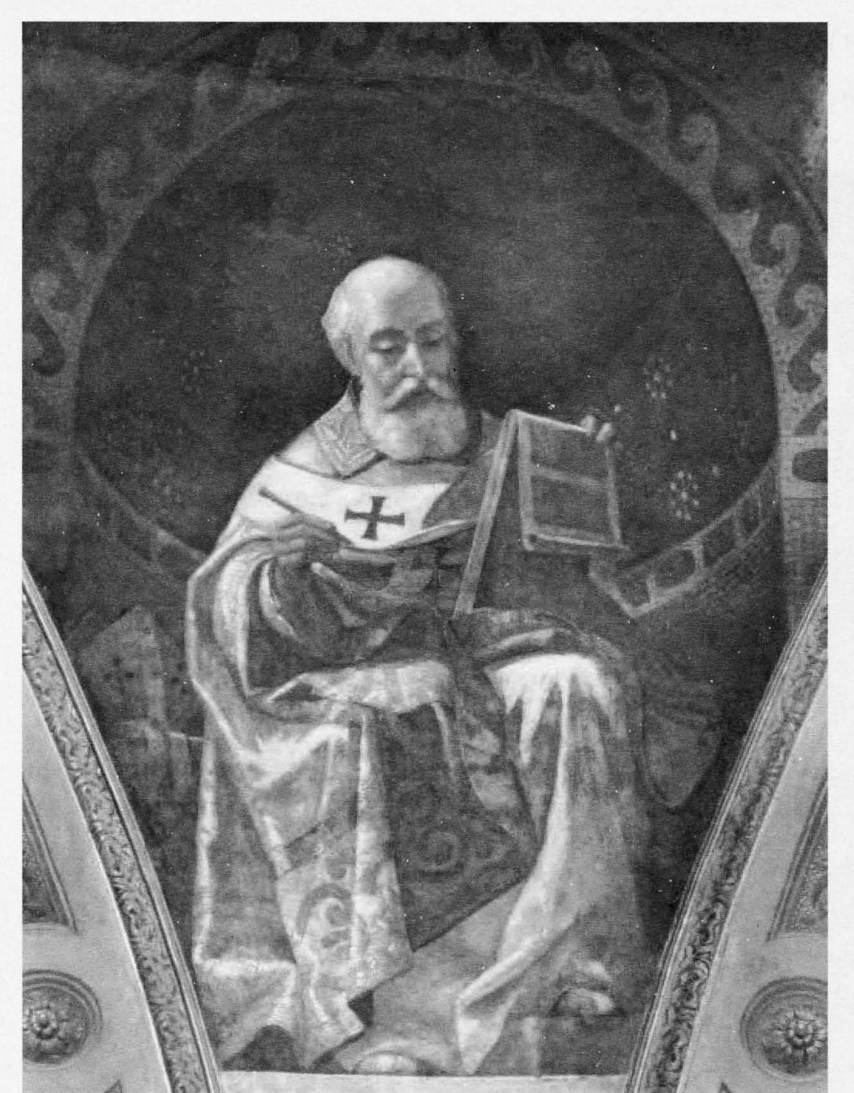
الأفلاطونيون الجدد والمسيحيون

عندما أصبح الإيمان بإله سماوي واحد منتشرًا على نطاق واسع في أوروبا، كانت أفكار أفلاطون هي الأكثر جاذبية، لأنه هو من جعل صورة الخير مثالية، فإرادة الإله هي مصدر الخير كله. عندما اعتنقت الإمبراطورية الرومانية المسيحيةَ، أصبح اللّاهوت موضوعًا رئيسًا يهدف إلى خلق الاتساق بين المذاهب. بعد ذلك، هيمن الدين على الفلسفة للسنوات الـ 1200 التي أعقبت تلك الحقبة.

قام أفلوتينوس (حوالي 205 – 270 ميلادية) بتحويل تعاليم أفلاطون إلى ما يشبه الديانة الصوفية الباطنية المبهمة، إِذ أصبح شكل الخير هو الواحد الأحد الذي لا يشير هنا إلى الإله (كما اعتقد افلوتينيوس)، بل هو مصدر كل خير في الكون. أمّا الفلسفة فقد زعموا بأنها تمثّل سعي الإنسان لتطهير العقل والاتحاد بذلك الواحد الأحد. من هنا جاء تأثير أفكار أفلاطون الهائل في اللّاهوت المسيحي. كان أوغسطين (354 – 430 ميلادية) مفكرًا مسيحيًّا عظيمًا تمكن من سبر أغوار المشكلات الفلسفية، ورأى بأنّ الوقت يمثل مفهومًا صعبًا للغاية. طور توما الأكويني (1225 – 1274 ميلادية) لاهوتًا قائمًا على فلسفة أرسطو، وكانت حكمته موضع تقدير، واهتمام على الرغم من معتقداته غير المسيحية.

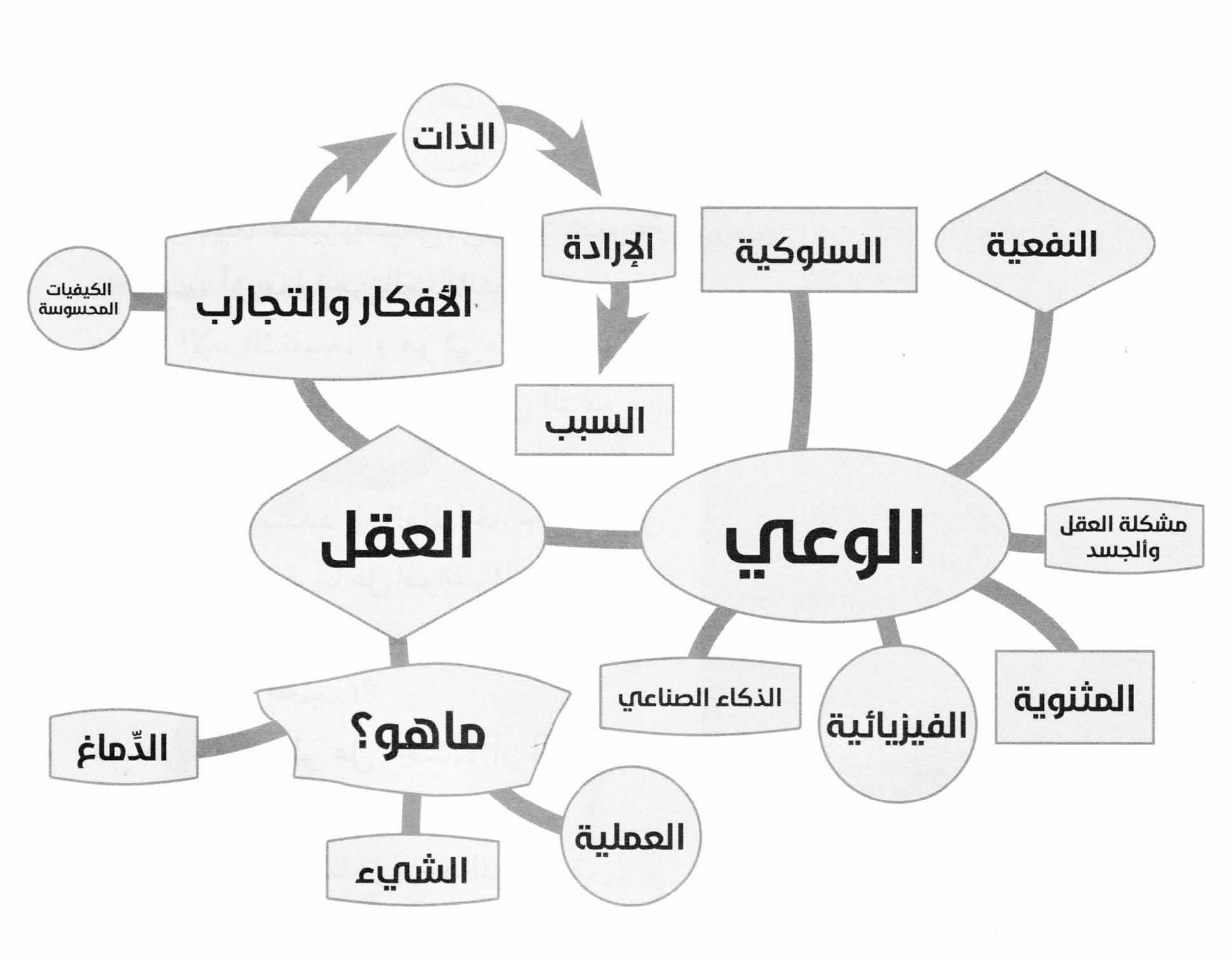
أفضى هذا الحراك إلى قرن من حراك فلسفي كثيف زادت من أواره الصعوبات اللّاهوتية مثل « هل إنّ الخبز الذي يتم تقديمه في خلال القربان المقدس يمكن أن يتحول إلى جسد المسيح؟ ». تمحور ذلك البحث المحموم حول العموميات من مفاهيم ومبادئ. قال البعض بأنّ الخصائص، أو الصفات هي سمات عامة شاملة تَسِمُ الواقع. لكن ثَمّةَ من ذهب إلى رأي مناقض مثل أصحاب المذهب الإسمِي Nominalism لَا سِيَّما ويليام الأوكامي (1285 – 1347 ميلادية) الذي أصرّ على حقيقة وجود الأشياء، ولا شيء غيرها، وأنّ العموميات موجودة في العقل البشري. وقال ويليام الأوكامي أيضًا بأنّ الفضائل هي كلّ ما أمر به الإله، ولم تنبثق من مصدر آخر، كما زعم أفلاطون.

كان الدفاع عن الإرادة الحرة قضية أساسية تعتمد على الاستقلال المتسامي للعقل البشري، أو على انفصال الروح عن الجسد (وهو أمر مطلوب في حدّ ذاته للدفاع عن الخلود). لم تشهد هذه الفترة إنكارًا للإرادة الحرة إلّا في ما ندَر.



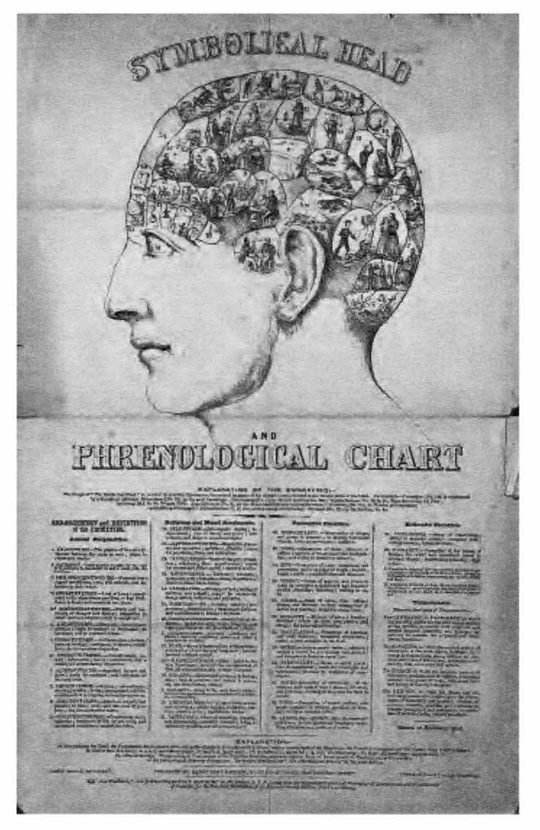
سبر القديس أوغسطينوس
ألغاز الزمن

العقل


الذات
الإرادة
السبب
الأفكار والتجارب
الكيفيات المحسوسة
السلوكية
النفعية
العقل
الوعي
مشكلة العقل والجسد
الذكاء الصناعي
الفيزيائية
المثنوية
ماهو؟
الدِّماغ
الشيء
العملية

طبيعة العقل

يعير الفلاسفة العقل اهتمامًا استثنائيًّا بسبب دوره الجوهري في المعرفة، والفهم، وكذلك دوره الفاعل في الاختيار والأخلاق، فضلًا عن العلاقة بين العقل البشري واللغة المستخدمة. ثَمَّةَ حاجة ملحة لمعرفة وظائف العقل وقدراته، وفهم العلاقة بين العقل والدِّماغ بطريقة تنسجم مع نظريات أوسع عن العالم.



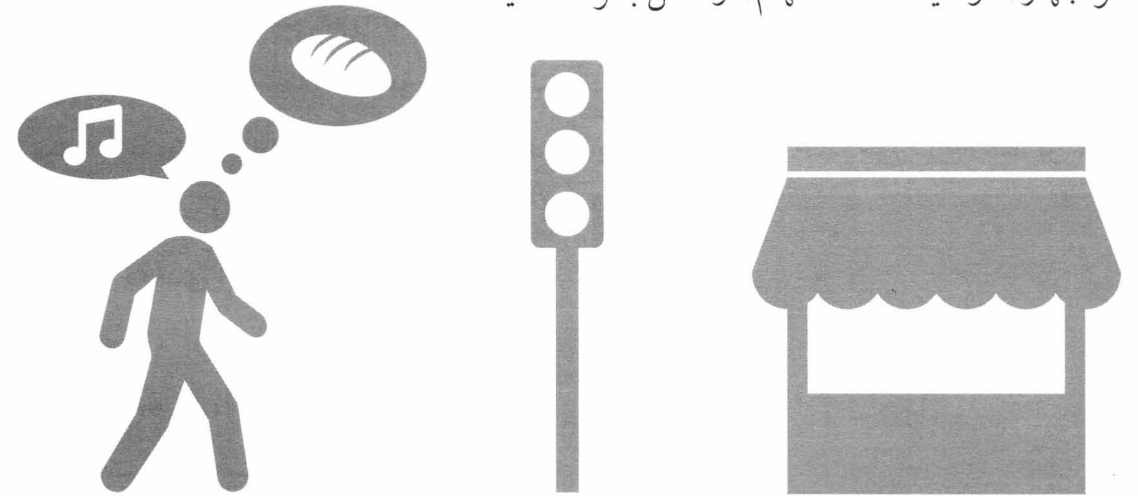
هل يمكننا حقًا أن نفهم ما يدور في عقولنا؟

ما هو العقل؟

- هل هو كيان متميز مستقل، أو هو مجموعة خطوات، أو عملية من العمليات؟
- هل هو الإدراك نفسه، أو هو شيء أكثر شمولًا؟
- هل هو منفصل تمامًا عن الجسد على الرغم من أنّه يحتويه؟
- هل يمكن أن يتمدد إلى العالم الخارجي، أو إلى المعلومات التي نخزنها على الهواتف المحمولة مثلًا؟
- هل هو مجرد مجموعة من الفعاليات البدنية الدقيقة (بمعنى صغر الحجم)؟
- هل هو من يسيطر على الجسد، أو أنّه ببساطة يستجيب إلى الجسد؟
- هل نحن نعرف عقولنا على وجه الدقة واليقين، أو أننا عاجزون عن رؤية ما يحدث بسبب انشغالاتنا؟

هذه الأسئلة، بل الألغاز تخفي وراءها بعض الأسئلة والهواجس الكبرى حول الإنسان ووضعه في الكون. إن كنا لا نختلف من حَيثُ المبدأ عن أيّ ثدييات أخرى، فإنّ العقل البشري لن يختلف كثيرًا عن عقل فأر المختبر. ومع ذلك، فإذا كنّا ننظر إلى أنفسنا نظرة أكثر إجلالًا، وتعظيمًا لأننا نمتلك أرواحًا خالدة، أو لأننا نحظى بحرية الاختيار أكثر من الفئران، أو لأننا نمتلك من البصيرة والتفكير ما يجعلنا قادرين على استنتاج الحقيقة وفهمها فضلًا عن المنطق والرياضيات وأسرار الطبيعة، فعلينا إذن أن نأخذ ذلك كله في نظر الاعتبار ونحن ننظر إلى العقل البشري.

دعونا نطرح هذا السؤال: ماهي وظيفة العقل؟ يحتاج العقل إلى الدِّماغ الذي لا يوجد إلّا في الكائنات الحية التي لديها قابلية الحركة، كلّ ضمن بيئته التي يعيش فيها. هذه نقطة بداية حسنة. المخلوقات الأكبر التي ليس لديها هذه القابلية لن تتمكن من البقاء طويلًا في عالم خطير. المطلوب إذن هو جهاز، أو آلية متعددة المهام، وتعمل بسرعة عالية.

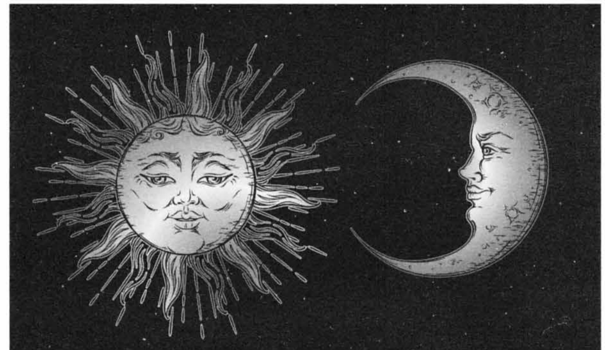


إذا كنت متجهًا إلى الأسواق التجارية لشراء الخبز، مثلاً، فيجب عليك التعامل مع أكثر من قضية: التوفيق بين الهدف وموقعه، والأسباب التي جعلتك تختار هذا الهدف، طريقة التحرك والاتجاه نحو الهدف (حركات الجسم الخاصة بك) ما يعترضك في الطريق من أشياء محسوسة، والوعي بالمخاطر وماذا ستفعل بعد شراء الخبز.

ثَمَّةَ ما يوحد بين كلّ هذه الأنشطة على نحو مدهش إِذ يتولى العقل، بسلاسة التعامل بشمولية مع مختلف الأنشطة، وجمعها ضمن إطار واحد. من الواضح بأنّ الحيوانات لديها عقول، بدرجات متفاوتة، لكننا لسنا متأكدين من مستوى الإدراك والتفكير لديها. إنّ الطريقة الوحيدة لفهم عقول الحيوانات هي البحث عن أفضل التفسيرات التي تفسر وتشرح سلوكها. تكشف لنا الأفلام التي تصور حياة الحيوانات في الحياة البرية عن صعوبات وتحديات لا يمكن التغلب عليها من دون تخطيط ومقارنات، وخرائط ذهنية للمنطقة. لا نقول بأنّ الإدراك ضروري للقيام بأنشطة مثل بناء الأعشاش، والمطاردة، ووضع مصائد ماكرة، لكن من المحتمل أنّ وجود إدراك لدى الحيوانات يساعد كثيرًا في إنجاز تلك الأنشطة.

الأفكار والتجارب

إذا جاز لنا أن نلخص دور العقل الجوهري في سؤال، فالسؤال هو: ما الذي يحتاجه العقل لإنجاز المهام المنوطة به؟ ركز الفلاسفة على جانبين اثنين. أولاً، إننا بحاجة إلى معرفة العالم لكي نتمكن من الاستجابة لما يواجهنا من تحديات أو غيرها. عندما يطأ أحدهم شيئًا حادًّا على قارعة الطريق فإنّه يبادر مسرعًا إلى إبعاد قدمه عنه. إنّ الشعور بالألم هنا يجعلنا نتفادى الشيء الحاد دونما حاجة إلى إعمال الفكر، أو استحضار عقائد نؤمن بها. تستخدم كلمة (qualia الكيفيات المحسوسة، أو الصفات المحسوسة) لتوصيف هذه التجارب الحسية المباشَرة، أيْ للإشارة إلى الخاصية أو الكيفية المؤدية للألم، (أو إلى احمرار اللون)



عندنا أفكار حول الشمس والقمر، لكنهما لا يملكان أفكاراً عنّا، لأنهما يفتقران إلى عقل

الذي يسبق أيّ فكرة تراودنا حول ما يجب فعله. من ناحية أخرى، قد يحمل عقل الإنسان العديد من المعتقدات العامة التي لا تنطوي على تجربة معينة البتة، فهي حالات عقلية تتعلق بشيء ما، إضافة إلى ذلك، يتم استخدام كلمة (القصدية) التي ترتبط بهذه القدرة على التفكير في الأشياء. إنَّ المعتقدات تتعلق بالأشياء، نقصد أنّ الشمس لا تستطيع أن تفكر بالقمر، لأنها لا تمتلك عقلاً.

الكيفيّات المحسوسة (Qualia): هي التجربة الحسية المباشرة.

القصدية: هي حالات عقلية تتعلق بالأشياء.

يمر العقل بتجارب أولية (qualia) ويحمل أفكارًا لها فحوى (القصدية)، وكِلا النشاطين يدل على أنّ العقل يمثل العالم الخارجي

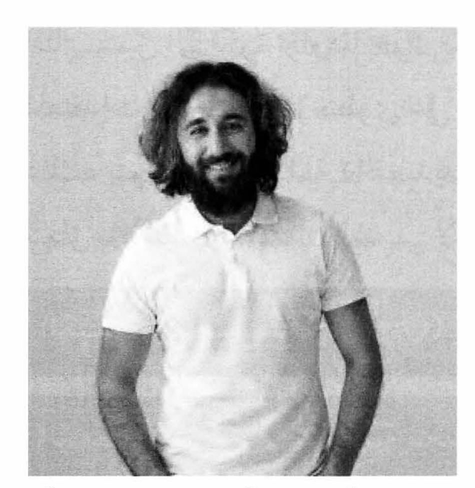




الذات

تستحضر القابليات والقدرات الذهنية
والمعلومات عند الحاجة إليها

يمتاز بنو البشر بظاهرة أخرى، هي وجود مستوى ثانٍ من التفكير، ويقصد به التفكير بالأفكار نفسها مثل: هل إنني بحاجة إلى هذا الخبز حقًا؟ أو (هل اتخذت منعطفًا خاطئًا؟).

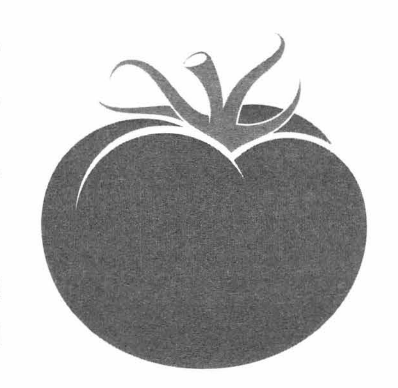


من الوارد أن تعتقد بأنك تتحلى بالإدراك أمّا غيرك من الناس فهو مجرد من الإدراك وليس إلّا زومبيًا

لدينا وجهة نظر مختلفة حول أفكار الآخر وعقله. بل قد نتساءل، أحيانًا، عمّا إذا كان لدى الآخرين عقول، وهو أمر عادة ما نأخذه على وجه التسليم، فلكلّ إنسان عقل. ولكن ما هي الأسباب التي تجعلنا على يقين من ذلك؟ ربما كنت أنت الشخص الوحيد الذي يرى بأنّك تتحلى بالبصيرة والإدراك عكس بقية الناس الذين ترى بأنّهم لا يملكون شيئًا من بصيرة أو إدراك يصفهم الفلاسفة بأنّهم زومبي « وهي الجثة التي أعيدت إلى الحياة بقوة خارقة للطبيعة ». إنّك تفسر سلوكك بما يمليه عليك عقلك، لكنّ الآخرين أيضًا يسلكون سلوكًا مماثلاً، وعليه فإنّ التفسير الذي يقدمونه لسلوكياتهم هو بلا شك نفس التفسير الذي قدمته أنت لتفسير سلوكك. لا بُدَّ من أنهم بدورهم يمتلكون دِّماغًا مشابهًا لدِّماغك. من الممكن أن تصدق بأنك الوحيد الذي يتحلى بالوعي، بينما الآخرون جميعهم ليسوا كذلك.

إنّ العقل شديد الخصوصية والذاتية، لذلك تظل مشكلة قبول عقل الآخر لَغزًا محيرًا. وحَتى لو تقبلنا وجود عقول أخرى فإنّ ثَمَّةَ سؤالاً يطرح نفسه هو هل أنّ تجارب العقول الأخرى (عقول الآخرين) مثل التجارب التي ساهمت في تكوين عقولنا وصياغتها؟ إنه لَغز الكيفية (Qualia) المقلوب. لو نظرنا، أنا وأنت، إلى ثمرة طماطم مثلاً، أو تذوقنا بعض السكر، فإنّ الإحساس الذي يثيره عندي منظر الطماطم، أو مذاق السكر قد يختلف عن إحساسك، ولعلنا لن نتوصل إلى الحقيقة ما دمنا نستعمل التوصيف المعتاد، أيْ نصف الطماطم فنقول طماطم حمراء، ونصف السكر فنقول سكر حلو المذاق، لأنني قد أرى الطماطم زرقاء اللون، لا حمراء، أمّا السكر فلعلي أجده حامضًا

وليس حلوًا، ولن أعرف أبدًا بأنّ إحساسك، أو تجربتك مختلفة تمامًا. لذلك علينا أن لا نفترض بأنّ رؤيتنا إلى الأشياء تمثل تجاربَ متطابقة، أو تثير فينا الإحساس نفسه.



لعل بعض الناس يرى هذه الطماطم زرقاء

الإدراك (الوعي)

كان النهج اليوناني في بواكيره يركز على كلمة psuché (تلفظ سَجي بالجيم الفارسية، وتعني الروح، أو القوة العظيمة أو الحياة)، التي لا تشير إلى العقل فحسب، بل أيضًا إلى شعور الجسد بأنّه ينبض بالحياة. ومِنْ ثَمَّ فإنّ هذه الكلمة (psuché) استخدمت في عالم النباتات. لم ينتبه اليونانيون لمدة طويلة إلى أنّ التفكير لا يحدث إلّا في الدِّماغ (على الرغم من أنّ إصابات الرأس أكدت ذلك). لكن ما إن اتضحت أهمية الدِّماغ حَتى أصبحت النقاشات تركز على العقل الواعي. أمّا الخطوة اللاحقة، التي كانت خطوة بطيئة، فقد كانت اكتشاف جوانب العقل غير الواعية التي يجسدها تأثير الحواس، والذكريات والرغبات والقلق والدوافع الأخرى التي لا ندرك كنهها.

PSUCHĒ: هو شعور الشخص بأنه حي يرزق.

النشاط الواعي مقابل النشاط اللا واعي

عززت الأبحاث الحديثة، على نحو كبير، من معرفتنا ومعلوماتنا حول الفعاليات العقلية اللا واعية مثل القرارات التي تتبلور في الدِّماغ حَتى قبل أن يدرك المرء بأنّه قد اتخذها. عانى المرضى

المصابون بالعمى من تلف في الدِّماغ، وأفادوا بأنهم مصابون بالعمى، إلّا أنّ الاختبارات دلت على أنهم لا يزالون قادرين على التقاط المعلومات البصرية دون أن يدركوا بأنهم قادرون على ذلك. ولا بُدَّ من أنّ هذا التدفق غير الواعي للمعلومات البصرية يحدث لنا جميعًا، وعليه فإنّ الرؤية المباشرة الواضحة أشدّ الوضوح هي أقل وعيًا مما كنا نعتقد.



يستطيع الإنسان الآلي تنفيذ المهام المختلفة دون أن يكون له إدراك، ما يجعل من الصعب تعريف كلمة (تفكير)

يبقى الوعي، أو الإدراك هو الجزء الأكثر حيوية في العقل، فهو يحظى بأهمية محورية، وذلك لتيسّر تقييمه ومقارنته وإخضاعه للتفكير، كما يمكن تناوله بالنقاش والجدل. بما أنّ الإنسان الآلي قادر على أداء العديد من المهام البسيطة دون وعي، ونحن نصف هذه الآلات بأنها آلات قادرة على (التفكير)، فإنّ تفسير الوعي البشري يوصف بأنه المشكلة العسيرة التي يواجهها الفلاسفة والعلماء. لو سأل سائل هذا السؤال: « ما هي طبيعة شعور الإنسان الآلي؟ »، فإنّ الجواب، على الأرجح، هو: (لا شيء). وعليه فإنّ اللّغز المبهم، أو التحدي الأكبر هو تفسير الأسباب التي تجعل الإنسان قادرًا على ممارسة النشاط العقلي، وليس تفسير طبيعة النشاط العقلي فحسب. وهذا يدل على أنّ شرح الكيفيات المحسوسة أصعب بكثير من تفسير القصديّة. يمكن برمجة الإنسان الآلي لصنع سيارة، أو تنظيف سلالم، لكنّ الإنسان الآلي لن يكون له عطر مفضل.

العقل والجسد

ليس من العسير علينا أن نفهم عملية التفكير، أي الطريقة التي يتضافر فيها العقل والدِّماغ، فهذه مشكلة ثانوية. يحتل موضوع العلاقة بين العقل والدِّماغ أهمية جوهرية في النقاشات التي تتناول القضايا الفلسفية الكبيرة، إِذ تتأرجح هذه النقاشات بين رأيين متطرفين. الأول يقول إنّ العقل والدِّماغ يختلف أحدهما عن الآخر اختلافًا كاملاً، أمّا الرأي الآخر فيقول إنهما اسمان لشيء واحد.

يشير الرأي الأوّل إلى أنّ العقل يختلف اختلافًا تامًّا في نمط وجوده الذي قد يكون غير مادي يتسم بوجود ضوابط، أو كوابح تختلف عن المادة الفيزيائية العادية، الأمر الذي يجعل العقل قادرًا على التحرر من رَبَقة السيطرة السببية، (وهكذا تكون الإرادة الحرّة ممكنة)، وممارسة التفكير المجرد (دونما تأثير من بيئة أو مجتمع)، فضلاً عن الوجود غير المادي (وربما الخلود). وبشكل عام، إن دل ذلك على شيء فإنما يدل وجود مستقل لعالم التفكير (الذي لعله يحتوي على الرياضيات) ما يجعل من وجود العالم الروحي أكثر احتمالاً.

أمّا الرأي الثاني، أو الموقف الثاني، فيرى أنّ العقل مجرد مكوِّن من مكونات الدِّماغ، وجوانبه المتعددة، فهو رأي تعززه الفيزياء الحديثة، وعلم الأعصاب، بَيْدَ أنّه لا يتمكن من تقديم تفسيرات مقبولة تعلل، وتفسر تجارب الإنسان المتمثلة بالتفكير، والعواطف، والاختيار، والعقل.

الفيزيائية أو الطبيعانية: ليس ثَمَّةَ ما هو غير مادي، وعليه فإنّ العقل مادي بالكامل.

تتجسد الفيزيائية بشكلين اثنين لا ثالث لهما: الاختزالية والإقصائية.

الاختزالية	الإقصائية
العقل واقع حقيقي	ما العقل إلّا نشاطًا فيزيائيًا
العقل هو مجموعة من الوقائع، أو الخطوات الفيزيائية في الدِّماغ، وليس ثَمَّةَ وجود للعقل	إنه مثل (الجو) أو (الطقس) يُفرِغ ما في جَعبته، من رياح، أو مطر، أو برد، أو حرارة

المثنوية

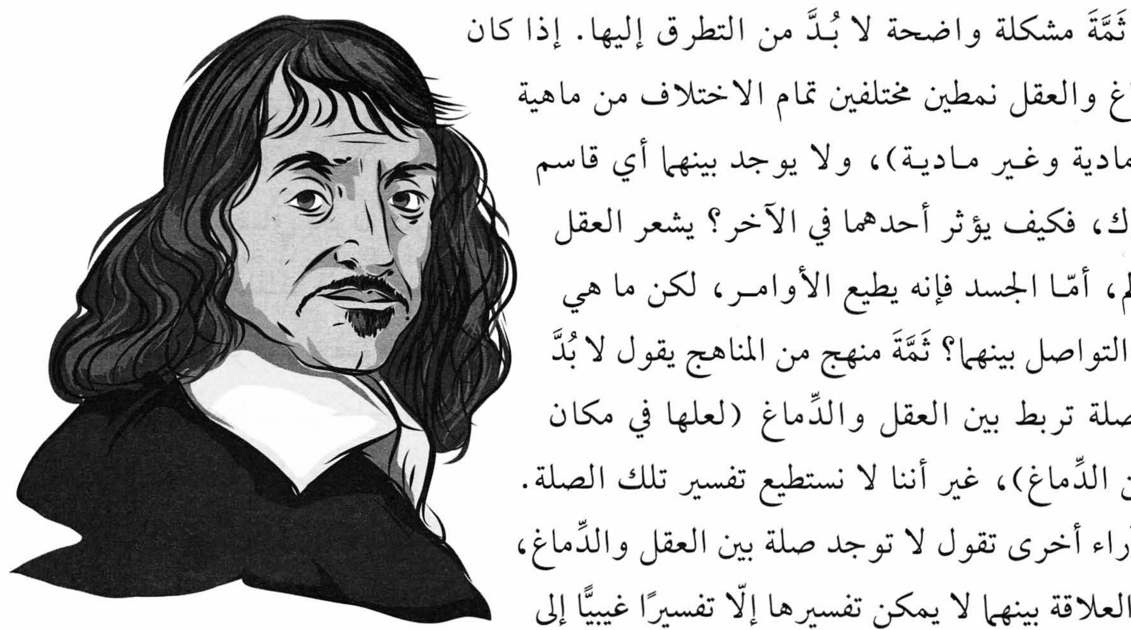
ذهب ديموقريطس إلى القول بوجود الذرات، وحركاتها فلا وجود لغير ذلك، ولذلك فقد أنكر انفصال العقل عن الجسد، بَيْدَ أنّ هذه المثنوية أصبحت تدريجيًا عقيدة.

المثنوية: الاعتقاد بأنّ العقل غير مادي.

ثَمَّةَ أسباب وجيهة تعزز هذا الرأي، فالعقل مرتبط بالدِّماغ ومتداخل معه، ويعمل على نحو روتيني لا يعكس أي علامات أو إشارات تدل على تفكير ملحوظ، فلم يكشف لنا مجهر عن خلايا عصبية في الدِّماغ. حدد ديكارت، عندما تطرق إلى العقل، عددًا من الميزات التي لا يمكن أن تكون مادية (بدنية) هي:

- العقل موحّد وحدةً كليّة، بينما يمكن تقسيم الدِّماغ على أجزاء.
- يمكن أن يراودنا الشك في وجود الأجساد (لأنها قد تكون مجرد حلم)، لكن لا يمكن الشك في العقول لأننا بحاجة إلى العقل لممارسة عملية الشك.
- يبدو أنّ العقل (على عكس الدِّماغ) هو شيء غير ملموس، وليس له حجم أو شكل أو وزن قابل للقياس. ومن هنا يبدو أنّ العقل ليس ماديًّا.

ثَمَّةَ مشكلة واضحة لا بُدَّ من التطرق إليها. إذا كان الدِّماغ والعقل نمطين مختلفين تمام الاختلاف من ماهية ما (مادية وغير مادية)، ولا يوجد بينهما أي قاسم مشترك، فكيف يؤثر أحدهما في الآخر؟ يشعر العقل بالألم، أمّا الجسد فإنه يطيع الأوامر، لكن ما هي صلة التواصل بينهما؟ ثَمَّةَ منهج من المناهج يقول لا بُدَّ من صلة تربط بين العقل والدِّماغ (لعلها في مكان ما من الدِّماغ)، غير أننا لا نستطيع تفسير تلك الصلة. ثَمَّةَ آراء أخرى تقول لا توجد صلة بين العقل والدِّماغ، وأنّ العلاقة بينهما لا يمكن تفسيرها إلّا تفسيرًا غيبيًّا إلى حد ما.



« أنا أشك إذن أنا موجود » تؤكد بأنّ القدرة على الشك تستلزم ذاتًا تمارس الشك

إفراط في اليقين وثقة أكبر زائدة: عندما يكون العقل وذرائعه من الأمور الفائضة عن الحاجة.

نقد المثنوية

يقول النقاد إنّ مشكلة التفاعل والارتباط بين العقل والدِّماغ هي مشكلة غاية في الأهمية، ولا بُدَّ من قبول مبدأ مثنوية الماهية (الجوهر). خصوصًا أنّ فهمنا المعتاد والمتعارف عليه، وهو: (أنّ الحدث المادي يؤدي إلى حدث آخر)، سوف ينهار لو أخذنا باعتقاد وجود حدود فاصلة بين العقل والجسم، وأنّ العقل ليس ماديًّا. ثَمَّةَ سلسلة من الأسباب المادية التي تتوقف فجأة (عندما ينتقل الألم من الدِّماغ المادي إلى العقل غير الفيزيائي)، ثُمَّ تعاود الظهور مرة أخرى، على نحو مفاجئ (عندما ينتقل قرار تحريك قدم من العقل غير المادي إلى الدِّماغ المادي). لعلّ الحركة تكون محددة ومحسومة، إذا كانت جميع الأسباب اللازمة لتحريك القدم واضحة للعيان في حركات الجسد، والسبب العقلي الإضافي يكون أكثر مما هو مطلوب.

بالإضافة إلى ذلك، فإنّ التقدم الكبير في علم الأحياء، وعلم الأعصاب (مثل مشاهدة الدِّماغ وهو يستهلك الكلوكوز خصوصًا في حالات التفكير العميق) أتاح لنا معرفة أبعاد العقل المادية. إن كنّا نؤمن بأنّ الإنسانية نتاج عملية الانتقاء الطبيعي، فإننا في هذه الحالة نكون أقرب ما نكون إلى الحيوانات الصغيرة التي يمكن تفسير سلوكها دون الإشارة إلى عقل مستقل قائم بذاته. وعليه، فقد باتت النظرة الثنائية للعقل غير عصرية في الوقت الحاضر حَيثُ تطورت التفسيرات التي تتعلق بالعقل وماهيته.

السلوكية: نستطيع أن نفهم العقل من خلال سلوك عام قابل للملاحظة.

ثَمَّةَ نهج يسعى إلى إعادة التفكير في ماهية العقل وطبيعته. إن لم يكن العقل شيئًا أو مادة، بل نشاطًا، أو عملية (process) من العمليات، إذن فليس لدينا كيانان مختلفان، وإنّما هو الدِّماغ،

عضو مادي له جانب تجريدي هو العقل، وكأنّه نمط من أنماط سلوك الدِّماغ. ظهرت السلوكية (Behaviourism) في علم النفس، وغايته أن يجعل من التركيز، في هذه المواضيع، على السلوك العام الذي يمكن ملاحظته ورؤيته، بدلاً من التركيز على الاستبطان غير العلمي لعقول الأشخاص. تقول الفلسفة السلوكية بأنّ علينا أن ننظر إلى العقل على إنّه نمط من أنماط السلوك، وبهذه الطريقة نتمكن من حلّ المشكلة. لم تحظ السلوكية إلّا برواج وشعبية لم تعمرا طويلاً، لأننا لا يمكن أن نستند إلى السلوك الخارجي في تفسير العقل تفسيرًا كاملاً. يستطيع الممثل، على سبيل المثال، أن يتظاهر بأنّه يعاني من ألم شديد وهو في الواقع لا يشعر بأيّة ألم. والأشخاص الأقوياء لهم القدرة على كبت ما يشعرون به من ألم فظيع فلا تبدو عليهم أيّة علامة من علامات الألم أو المعاناة. فضلاً عن ذلك، فثَمَّةَ الكثير من الحالات العقلية أو الذهنية التي يمارسها الشخص، مثل إجراء الحساب الذهني، أو محاولة معرفة، أو استذكار تاريخ مهم، والتي لا ينتج عنها عادة أي سلوك على الإطلاق.

النفعية (أو الوظائفية)

كانت النفعية هي النظرية التي تلقّت بعض التشذيب والتعديل وهي التي عززت من الفكرة القائلة بأنّ العقل هو منظومة سلوك، بَيْدَ أنّها زعمت بأنّ الدِّماغ، وليس السلوك الخارجي الذي يمكن ملاحظته، هو مأوى تلك المنظومة.

النفعية: العقل هو منظومة سلوك قاعدتها في الدِّماغ نفسه.

يشبه العقل برمجيات الحاسوب (software) التي تعمل على أجهزة أو معدات (hardware) الدِّماغ، ويمكن تصور ذلك على شكل مخطط تدفق البيانات. ثَمَّةَ نسخ متنوعة عن هذه النظرية تؤكد بأنّ الحوسبة لها دورها هنا، أو أنّ كلّ وظيفة ينظر إليها من حَيثُ دورها الفاعل، أو توضيح

الـغـرض مـن كـل وظـيفـة من الـوظـائـف. ليس ثَـمَّـةَ مـا هو غامض، أو ما هو لَغز، فالعقل ليس إلّا وصفًا تجريديًّا لنمط من أنماط العمليات التي تحدث في الدِّماغ. لعل ثَمَّةَ ما هو غير مـادي يدعم تلك العمليات، بَيْدَ أنّها مما يمكن أن يفسره علم الأحياء العادي.

الذكاء الاصطناعي

العقل

?

أجزاء الكومبيوتر

الدِّماغ

إلّا أنّ جملة من الاعتراضات أثيرت على ذلك، كان أحدها هو أنّه يمكن تصميم منظومة ميكانيكية تحتوي على جميع وظائف المترجم البارع، لكن من دون الصياغة، أو التوضيح الذي يضفيه العقل على الترجمة. يؤدي العقل وظائفَ كثيرة لكن ثَمَّةَ جوانب عديدة أخرى ترتبط بالعقل ووعيه. لو افترضنا بأنّ أحدهم يرى اللون الأحمر أزرقَ، أو هكذا يستلهم اللون الأحمر في وعيه الخاص أو تجربته الشخصية، فإنّه عندما يتحدث عن الأشياء الحمراء فهو يراها زرقاء دونما تغيير في كلامه، أو سلوكه يجعلنا نكتشف ذلك. وهكذا نرى بأنّ النفعية لا تستطيع تفسير الاختلاف والتفرد في التجربة الداخلية لذلك الشخص، فالنظرية عاجزة عن تقديم إجابة لهذا السؤال العسير: لماذا لكل فرد منّا طريقته المتفردة في الإحساس بالأشياء وفي تجربتها؟ إن كان كلّ ما نحتاجه هو معرفة الوظائف، إذن فلسنا بحاجة إلى التجارب؟ تستطيع النفعية شرح كل شيء في العقل من خلال علاقته بشيء آخر، أو ضمن إطار علاقته بشيء آخر، لذلك فهي لا تستطيع أن تأتي بأيّ شيء عن خصائص العقل الجوهرية.

مثنوية الخصائص

إن عَدَّ العقل شيئًا له خصوصيته، لكن ليس على أساس أنّه شيء غير مادي، فإنّ الرأي القائل بمثنوية الخصائص يمكن أن يُعدّ حلاً وسطاً.

مثنوية الخصائص: ينبثق العقل عن الماهية المادية للدِّماغ.

يرى دونالد ديفيدسون بأنّ إحدى السّمات الخاصة التي يتسم بها العقل هي التصرف على وفق الأسباب الموجبة، وهذا ما أدى ببعض المفكرين إلى طرح الرأي القائل بمثنوية الخصائص. إنّ تصرفاتنا وأفعالنا لا تقوم إلّا بدافع من علّة أو سبب، فالأسباب والعلل هي التي تدفعنا إلى الفعل، بَيْدَ أنّ تلك العلل والأسباب ليست عللاً، ولا أسبابًا مادية، هي بالتأكيد لا تمثل لقوانين صارمة، كما هو شأن المادة الطبيعية الفيزيائية. وعليه فإنّ العقل هو (شذوذ)، وهو خارج عن نسق الطبيعة أو تركيبتها، ومع ذلك فمن الواضح أنّ العقل يشكل جانبًا من جوانب منظومة ماديّة ألَا وهي الدِّماغ. يعتقد البعض بأنّ العقل هو نمط جديد من الخصائص، وليس مادة أو ماهيّة مختلفة، وهو نمط عرَضي، أيْ إنّه ليس جزءًا من التكوين المادي الفسلجي للدِّماغ، لكنّه ثمرة من ثمار الدِّماغ. إنّ السّمة الأساسية المنتجة هي السببية المتحدرة، أيْ إنّ العقل الحاصل أو المنتج، يتمتع بقوى سببية (أي الأسباب، أو الدوافع التي تدفعنا إلى القيام بالأشياء) لا ينتجها الدِّماغ، لكنّها يمكن أن تؤثر في الدِّماغ والجسم. يقال إنّ العقل هو الذي يوجه فعاليات الدِّماغ (في مسار لا ينبو عنه البتة)، مع الاحتفاظ بقواه وطاقاته مستقلة.

الدِّماغ ← ينتج ← العقل ← ينتج ← السببية المتحدرة ← ينتج ← توجه الجسد وتتحكم به

تنطوي هذه النظرية على فكرة تقول بأنّ العقل يمتاز بخصوصية شديدة، دون أن تبتعد كثيرًا عن وجهات النظر العلمية الحديثة. يميل المشككون في هذه النظرية إلى عدّها مثنوية تقليدية في لبوس حديث. يتميز العقل بقوى، أو طاقات سببية مستقلة تنبثق عند الحاجة إليها، ولا يمكن التنبؤ بهذه القوى، أو الطاقات من خلال ما يلاحظه الدِّماغ، ما يجعل منها لَغزًا دائمًا (بالنسبة للعلوم الفيزيائية). لذا، يبدو أنّ النظرية تبتعد عن المحاولات التي تسعى إلى فهم العقل فهمًا تامًا. تقبل بعض الفلاسفة Mysterians (الغموضيون) هذه النظرية ولسان حالهم يقول إنّ العقل لَغز يستعصي على الحلّ. ليس للعقل وعي أو إدراك مباشَر بالدِّماغ، كما إنّ الدِّماغ لا يتميز بوجود علامات واضحة على احتوائه على العقل، وعليه ليس ثَمَّةَ برهان، أو دليل يمكن أن يكون أساسًا لنظرية مقنعة.

الغموضيون: العقل لَغز يستعصي على الحل.

العقل المادي

من جانب آخر، ثَمَّةَ نظرية مادية عن العقل، وهي نظرية تنكر وجود العقل، أو تختزله في أحداث مادية بحتة.

النظرية المادية: جميع أنشطة الدِّماغ هي أنشطة مادية.

يدعم العلم الحديث النظرية الفيزيائية (Physicalism) فكلّ شيء يُفسَّر وفقًا لهذه النظرية تفسيرًا ماديًّا. فالحياة، على سبيل المثال، التي بدت في ما مضى من عصور لَغزًا غامضًا أصبحت شيئًا فشيئًا أكثر وضوحًا بفضل الكيمياء. ومع ذلك، فإنّ العديد من الفلاسفة يرفض النظرية الفيزيائية، لأنّها تمثل تهديدًا قد يطيح بأشياء ثمينة في الحياة مثل العقل، والقيم، والفن والحب؛ سوف تختفي القيم في عالم مادي بحت، ولن يكون ثَمَّةَ خيال، أو خروج على قوانين المادة، ودستورها.

ظهر الدعم الرئيسي للنظرية الفيزيائية في الاعتراضات التي أثيرت ضد مثنوية الخصائص:

- العالم المادي ليس إلّا تدفقًا مستمرًا من سبب ونتيجة، وكل شيء يمكن ملاحظته، أمّا العقل غير المادي فإنّه يمثل خرقًا في هذا التدفق يثير العجب، والحيرة.
- قوانين العلم المألوفة شاملة عامة، الأمر الذي لا تقره فكرة، أو مبدأ المثنوية، لأنّها قوانين لا تنطبق على سريرة الإنسان.

السؤال الجوهري هو هل يمكن تفسير كل حياتنا العقلية تفسيرًا ماديًّا؟ لقد تمكن البحث العلمي الحديث في الدِّماغ من التوصل إلى تفسيرات مادية شاملة إلّا أنّ بعض خصائص العقل (مثل الكيفيات المحسوسة والعقل المحض) تبدو عصية على التفسير المادي. يمكننا الحصول على المعلومات عن السطح الخارجي للطماطم، لكن كيف نتمكن من خلق تجربة الإحساس بلونها الأحمر؟

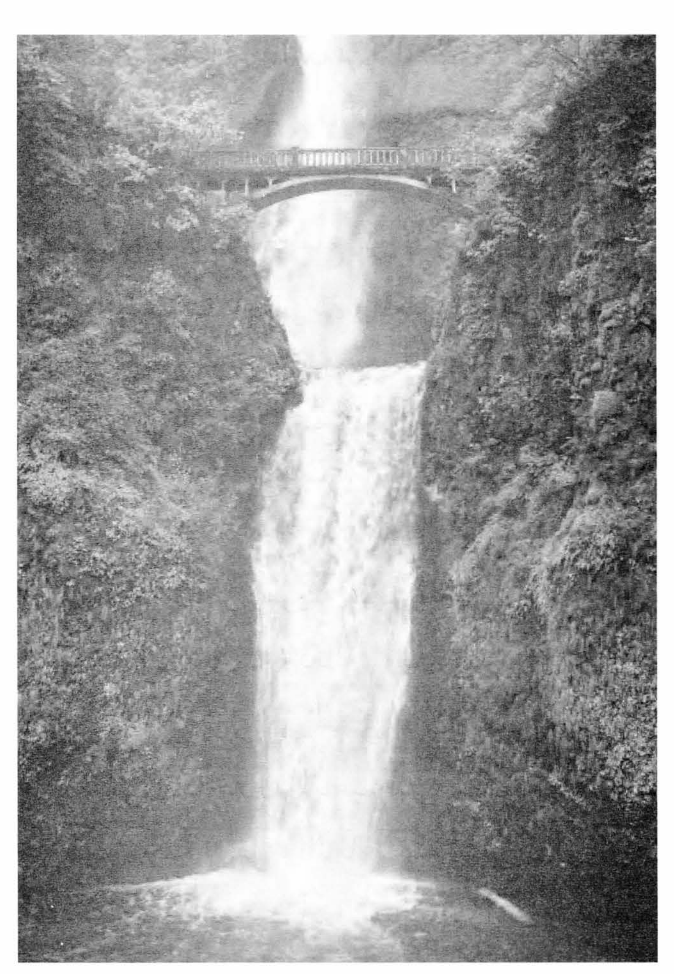
الموت

إذا توقف الدِّماغ عن العمل بسبب الموت، فإن الفيزيائيين يفترضون توقف العقل أيضًا، لذلك فإنّ أفضل طريقة لفهم العقل المادي (الفيزيائي) هي أن نتصوره على صورة مسار أو عملية (process) فعالة، ويمكن تشبيه نمط وجوده بالشلال الذي له كيانه المتميز، المثير، لكنّه في النهاية مكون من ماء عادي بخصائصه، ومكوناته المعروفة. أمّا تناولنا المثنوي السائد، المألوف فإنّنا نفسره من خلال المفاهيم التي نستخدمها، وليس من خلال الواقع المادي. لقد عجز الإنسان عن فهم وحدة العقل والدِّماغ. ثَمَّةَ أسلوبان أو نهجان مختلفان تمام الاختلاف، للحديث عنهما، وقد أضحى هذان النهجان أو الأسلوبان راسخين متأصلين في لغاتنا. أشار منتقدو الفيزيائية إلى الوعي أو الإدراك، فمن المذهل للغاية أن ينبثق ذلك الوعي أو الإدراك من مجرد مجموعة فعاليات بدنية بغض النظر عن أنها معقدة. لقد دأب هؤلاء المفكرون على تذكيرنا بأنّ العقل استثنائي في وحدته

الشمولية المستمدة من الوعي والإدراك الذي يمتاز به العقل بطريقة لا تدع لنا أن نقول إنّ هذا العقل هو مجرد مجموعة من الجزيئات.

الذكاء الاصطناعي

جاء تطوير الذكاء الاصطناعي بمثابة دعم يعزز من انتشار النظرية الفيزيائية، لأنّ الذكاء الاصطناعي يتحلى بوجود مهارات تحاكي المهارات البشرية مثل لعبة الشطرنج التي كنا نعتقد سابقًا أنّها لعبة لا تمارسها إلّا العقول العبقرية. كلما زاد تقدم وتطور الذكاء الاصطناعي في محاكاة الذكاء البشري كلما ازدادت معه احتمالية التشابه بين عقل الإنسان والحاسوب من حَيثُ طبيعتهما الفيزيائية المادية. كان رد النقاد على القائلين بذلك بأنّ هذا التقدم خادع، لأنّ الذكاء الاصطناعي له حدود، فليس من المتوقع على الإطلاق أن يكتب الحاسوب رواية جيدة، أو يخترع نكاتٍ مضحكة.



العقل مثل الشلال، فهو كيان بديع ومؤثر، بيد أنه مكوّن من شيء في غاية البساطة

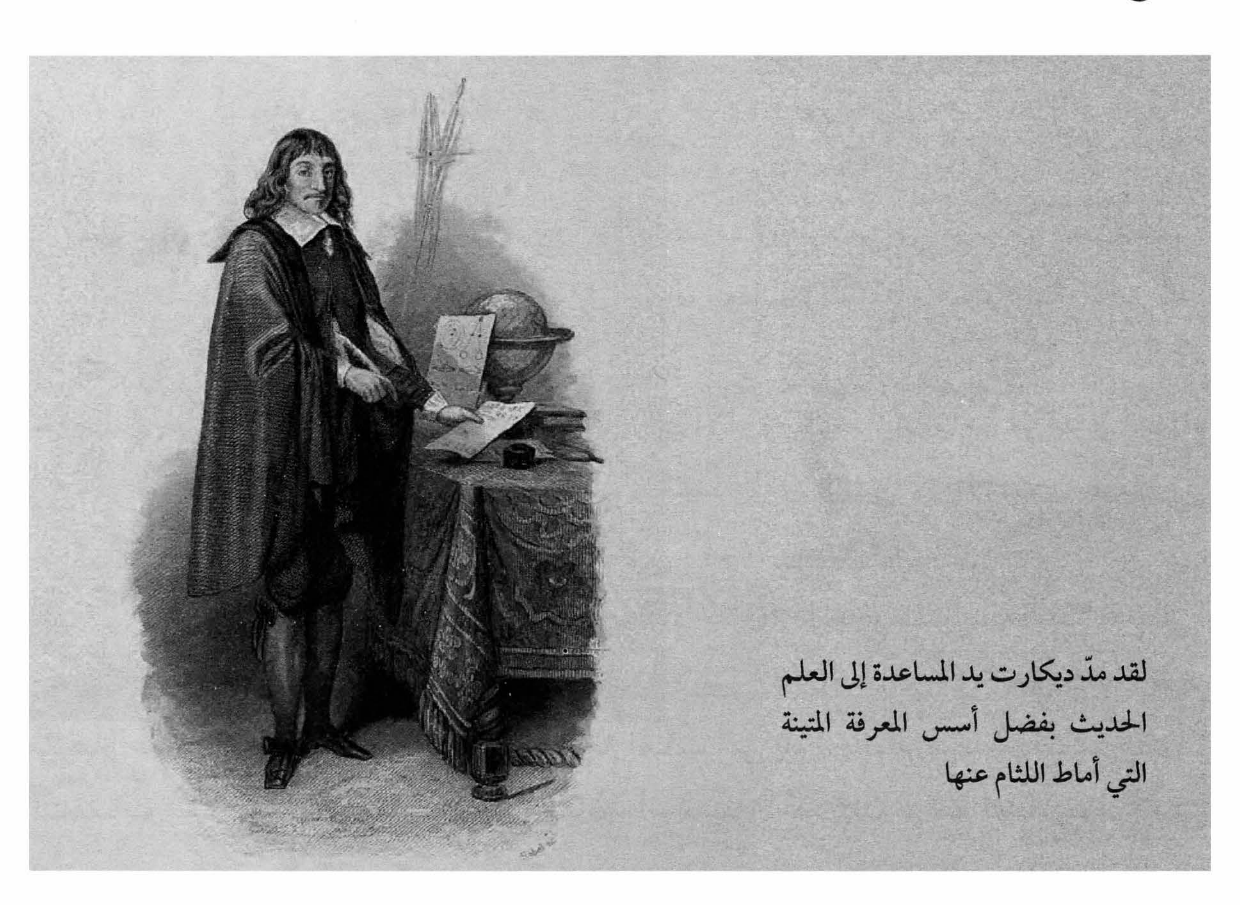
ديكارت والعقلانيون

ولدت الفلسفة ولادة جديدة مع ظهور العلم الحديث عندما شعر رينيه ديكارت (1596 – 1650) بأنّه بحاجة إلى ما يدعم بحوثه في علم الكونيات. تأثر ديكارت بمذاهب الشك القديمة، ما جعله يلوذ بالتفكير في الأُسس، والتأمل فيها، وخرج من تأملاته متسائلاً عمّا إذا كان بإمكان الإنسان أن يكون متأكدًا وواثقًا من أي شيء في الكون. لقد استطاع ديكارت، من خلال إثبات وجوده، وإماطة اللثام عن الأفكار الفطرية في ذهنه، ومِنْ ثَمَّ إثبات وجود الإله (باستخدام حجة الوجود)، أن يقدم أساسًا صلبًا للمعرفة العلمية. كان لديكارت الفضل في إطلاق العنان للعقلانية الحديثة عندما أكد بإن المعرفة تنبثق عن الأحكام، وليس عن التجربة. وكان معروفًا، أيضًا، بدفاعه عن المثنوية أيْ إنّ العقل، على عكس الدِّماغ، ليس ماهية مادية.

تعرض باروخ سبينوزا (1632 – 1677) إلى الإقصاء، والطرد من بني قومه من اليهود بسبب تفكيره المتحرر. أنكر سبينوزا مثنوية ديكارت، زاعمًا أنّ العقل، والدِّماغ ماهية واحدة، لكنّه اتفق معه في الحجة الوجودية التي أوردها ديكارت لإثبات وجود الله، بَيْدَ أنّه قدّم وجهة نظر حلولية (وحدة الوجود). ليس ثَمَّةَ إلّا مادة واحدة، لذلك فإن الإله والطبيعة كيان واحد موحّد لا انفصام لهما. لقد أصبح سبينوزا شخصية مثيرة للجدل بسبب هذا الرأي الديني غير التقليدي. فضلاً عن ذلك، أنكر سبينوزا الإرادة الحرّة (التي اعتبرها محض وهم)، واعتنق الحتمية، بمعنى أنّ كلّ شيء محدد سلفًا. سجّل سبينوزا آراءه الميتافيزيقية في كتابه (الأخلاق) على نحو دقيق بدقة النص الهندسي.

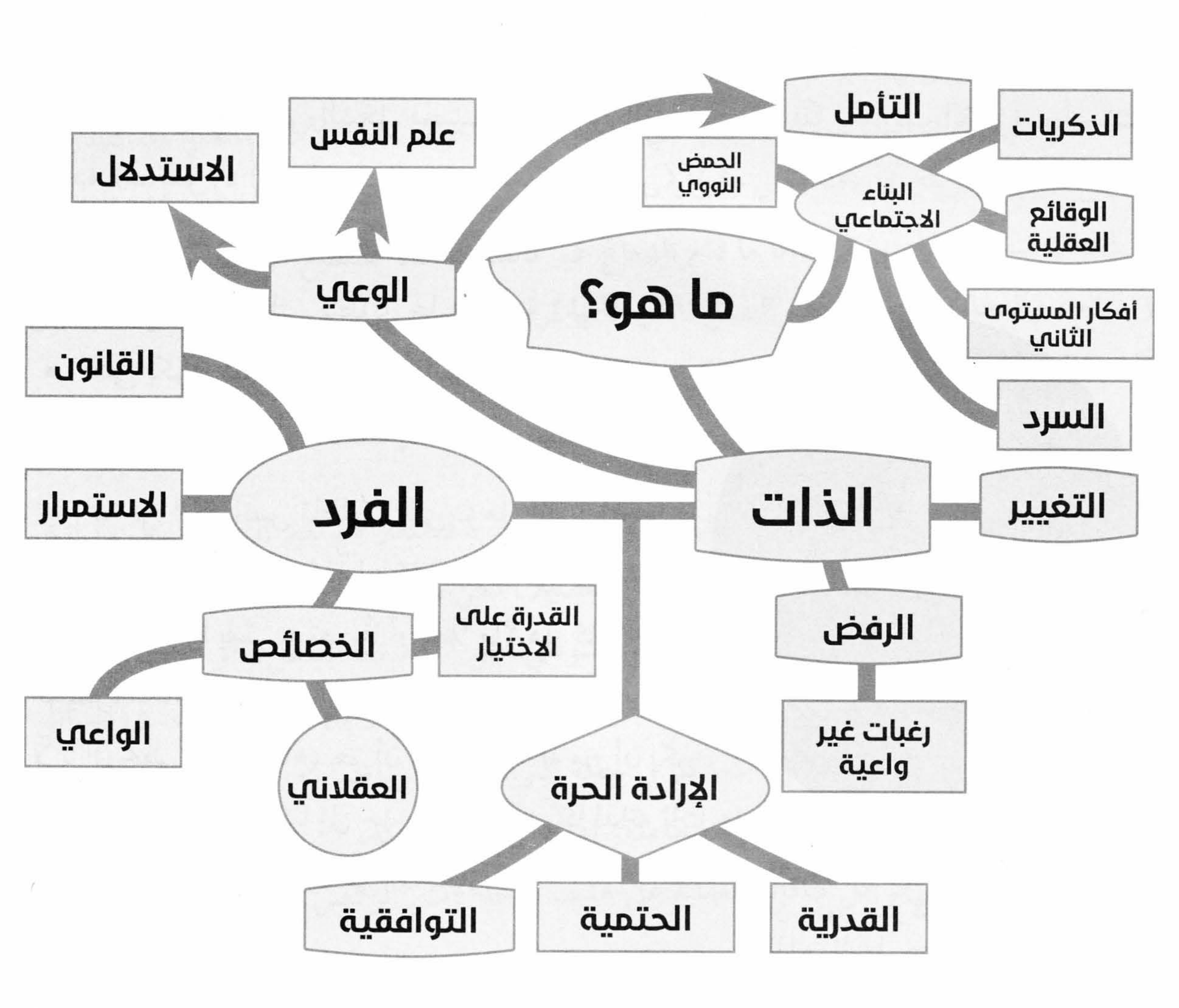
كان الرائد الثالث من رواد العقلانية هو كوتفريد لايبنيز (1646 – 1716)، الذي كان، أيضًا، من كبار علماء الرياضيات. انطلق لايبنيز من الافتراضات التي تقول بأنّ هناك سببًا لكلّ شيء، وأنّ التناقضات مستحيلة. كان ديكارت مصدر إلهامه، أمّا سبينوزا فقد كان موضع نقده. يقول لايبنيز

إنّ الإله موجود، وقد اختار، بالضرورة، أفضل عالم من بين جميع العوالم المحتملة، ما يعني أنّ قبول الشر أمرٌ لا مفرّ منه. يقول لايبنيز في كتابه (مونادولوجيا) (Monadology) إنّ الطبيعة يجب أن يكون لها أساس يتكون من وحدات، أو أحاديّات (جمع أحادية) تمثل مصادر لقوى نشطة ومتفاعلة. لا بُدَّ من أن تكون ذرات الوجود المذكورة (تسمى monads) شبيهة بالعقل، دون أن تكون عقلاً. إنّ العقل منفصل، ويعمل مع الجسد في موازاة محددة سلفًا بإرادة الخالق وقدرته. قام لايبنيز، أيضًا، بالدفاع عن وجهة النظر النسبية للفضاء على خلاف ما فعله إسحاق نيوتن.



لقد مدّ ديكارت يد المساعدة إلى العلم الحديث بفضل أسس المعرفة المتينة التي أماط اللثام عنها

الأفراد


التأمل
علم النفس
الاستدلال
الذكريات
الحمض النووي
البناء الاجتماعي
الوقائع العقلية
الوعي
ما هو؟
أفكار المستوى الثاني
القانون
السرد
الاستمرار
الفرد
الذات
التغيير
القدرة على الاختيار
الخصائص
الرفض
الواعي
رغبات غير واعية
العقلاني
الإرادة الحرة
التوافقية
الحتمية
القدرية

البشر والأفراد

يحل الكائن البشري ضيفًا على الوجود قبل أن يولد، ويبقى كائنًا بشريًّا حَتى بعد الموت. ظهرت فكرة الفرد، أو الشخص المستقل بحكم القانون وتشريعاته التي تُحمِّل الكائن البشري المسؤوليةَ القانونية عن أفعاله. عندما يرتكب شخص ما جرمًا، أو مخالفة قانونية، أو يوقّع عقدًا، فإنّه في نظر القانون الشخص المسؤول، ويبقى كذلك على مرّ الزمن. الأمر المهم هنا هو الخصائص العقلية مثل الإدراك والوعي وليس الشكل فحسب. ليس من الضروري، وفقًا للتعريف القانوني، أن تشير مفردة (شخص)، أو تدل على إنسان، فكلمة (شخص) قد تعني شركة، أو حَتى مدينة. ثَمَّةَ ثلاثة أسئلة رئيسية قد تخطر على البال هنا:

- ما هي الدّلالة التي تنطوي عليها كلمة (شخص)؟
- متى يكون شخص، ما هو (الشخص) نفسه؟
- كيف ننظر إلى، أو نصنف إنسانًا ليس بشخص؟

ما هي الخصائص المطلوبة التي تؤهل الفرد لتحمّل المسؤولية الشخصية؟ ماذا لو كان الشخص لا يمتلك تبريرًا، أو عذرًا يفسّر به تصرفًا أو فعلاً ما؟ هل كان تحت السيطرة الكاملة لشخص أو جهة ما؟ يرى جون لوك رأيًا، لا يزال يحظى بقبول عام، هو أنّ الفرد لا بُدَّ له من أن يكون واعيًا، وعقلانيًّا، وذكيًّا إلى حد معقول، مدركًا لذاته ثابتًا على ذلك ما دامت عنده القدرة على الاختيار.



قال جون لوك إنّ الشخص لا بُدَّ من أن يكون مدركًا، عقلانيًّا، واعيًا لذاته، ثابتًا في خصائصه

الفرد كما يراه جون لوك: واع، عقلاني، ذكي، مدرك لذاته، لا يتغير، قادر على الاختيار.

السؤال الأكثر صعوبة هو كيف يبقى الشخص على حاله دون تغيير؟ يولد الكائن البشري طفلاً حديث الولادة، ثُمَّ ينمو ويكبر حَتى مرحلة الشيخوخة، وهو الشخص نفسه، ولديه نفس الحمض النووي. لكن بالنسبة إلى جون لوك فإنّ بقاء الإنسان محتفظًا بالشخصية نفسها من الأمور المعضلة الشائكة، لأنّ العقل في تغير مستمر، فليس من جامع مشترك بين شخصية الإنسان في سن الرضاعة وشخصيته في ريعان الشباب، وشخصيته في شيخوخته المتأخرة. الحلّ الأسهل الذي قد يتبادر إلى الذهن حاليًّا، هو إن كان للإنسان ذات، أو نفْس، تتكون في مرحلة الطفولة، فإنّ هذه النفس، أو الذات تبقى نفسًا، وتبقى ذاتًا ما دام الدماغ غير تالف. إذن، نستطيع أن نقول بينما الأفكار، والمزاج، والتجارب تتغير، تبقى النفس ثابتة، لأنها قوام التفكير، والمزاج، والتجارب، لذلك فإنّ أغلب النقاشات التي تتناول الأفراد تركز على الذات أو الأنا.

الذات

لعلّ سائلاً يسأل هل تظل الذات كما هي راسخة مستقرة لا تتغير مع تغير الزمن ومروره؟ أنكر البوذيون الأوائل أيَّ وجود للذات، ونفوه جملةً وتفصيلاً، لكنّ ثَمَّةَ أسبابًا وجيهة تجعلنا نعتقد بوجود الذات. إنّ أفكارنا وتجاربنا لا تتدفق على نحو عشوائي، بل إنّها ترتبط بفاعل، أو بذات ما تتذكر الماضي، وتخطط للمستقبل، وتقارن بين الأشياء، وتتفاعل مع ما يعترضها من أحداث. في المسائل التي تتطلب سلسلة من الاستدلالات، كما في حالة البرهان في الرياضيات، فإنّ المفكر يحتاج إلى التفكير دونما انقطاع للإمساك بالفكرة متكاملة. إذن، في لحظة معينة، لن يكون الإنسان كتلة من أجزاء متغيرة، لأنّه يركز كلّ طاقاته العقلية على هدف واحد (مثل الركض للحاق بالقطار). بعض

الأحداث العقلية عابرة وتافهة، لكنّ البعض الآخر له أهمية كبيرة في حياة الإنسان، مثل الذكريات، والعلاقات، والمعتقدات الأساسية.

هل للدعسوقة ذات؟ أو هل أن الذات هي الحافظة الفريدة التي تحفظ إنسانيتنا؟

رُبَّ سائل يسأل هل للنبات، أو للخنفساء ذات؟ والجواب هو إنّ الكائنات الحية المتكاملة لها مصالحها، وغاياتها الموحدة، لكن لعلنا لا نعتقد بأنّ النبات له ذات، لأنّه غير واعٍ، ولا مدرك. إذن، هل إنّ الوعي ضروري لامتلاك الذات؟ إنّ الجزء البشري الذي يوحد البراهين الرياضية، ويركز على وقت وصول القطار هو الجزء الذي يحتاج إلى الوعي، لكنّ العقل اللا واعي هو جزء لا يتجزأ من شخصية الإنسان أيضًا، لذا قد لا تكون مفردة (الذات) دقيقة تمام الدقة، كما إنّ وجود ذات من عدمها ليس هو الفيصل في أن يكون الشيء (الكائن)، أو لا يكون. حَتى لو كانت الخنفساء تتصف، إلى حد ما، بوجود إدراك أو وعي، فإنّها تظل مفتقرة إلى معايير الذات الأخرى. ربما كان للخنفساء سلسلة أفكار قصيرة جدًا، وخطط قليلة، وحدّ أدنى من المعتقدات (على الرغم من أننا لسنا واثقين من ذلك البتّة). فكلما كانت الحياة العقلية أكثر تعقيدًا، زادت الحاجة إلى نقطة بؤرية دائمة. في اللغة، على سبيل المثال، لا بدّ من وجود متحدث أو متكلم ليقدم خطابًا موحدًا طويلاً.

يعترف إيمانويل كانت بأننا نعجز عن إثبات وجود ذات داخلية، بَيْدَ أنّنا بحاجة إلى مثل هذا الشيء، وهو ما يمكن أن نسميه البدَاهة.

لم يستدل الإنسان على وجود البداهة من خلال الملاحظة، وإنّما استنبطها كشرط لازم من شروط التجربة والاستدلال. لا يمكن معرفة البداهة، أو استكشافها، بَيْدَ أنّها أمر لا بُدَّ منه في حياتنا العقلية.



كان كانت يعتقد بأن الذات شرط لا غنى عنه للتجربة، والاستدلال

على أيّة حال، ركزت تلك الجدالات تركيزًا هائلًا على الحالات العقلية متجاهلة دور الجسد. قد يعتقد الإنسان في دخيلته أنّه يمتلك ذاتًا إلّا أنّ الناس يتعرفون عليه من خلال وجهه، وشكله، وهيئته العامة. ينظر المتخصصون إلى العقل في الوقت الحاضر على أنّه متحدٌ بالجسم مندمج فيه على نحو وثيق، وأنّ للفكر بُعدًا جسديًّا وطيدًا متأصلًا. لذلك لعلّ إحساس المرء بذاته يشبه شبهًا كبيرًا الصورة التي لديه عن جسده، ما يعني أنّ فقدان ساق، مثلًا، هو فقدان لجزء من الذات، وأنّ تغيير الجنس يعني أنّ الشخص أصبح شخصًا مختلفًا.

الوعي الذاتي

تستند معظم الحجج والجدالات التي تصبّ لصالح الذات إلى الاستبطان، أيْ المعاينة الذاتية، أو معاينة الفرد لعملياته العقلية. يساعدنا الاستبطان على فهم أنفسنا، وبناء أرضية صلبة تقوم عليها المعرفة. يقول العقلانيون إنّ ثَمَّةَ حقائق بديهية متاحة للتأمل، والاستبطان (بعد شيء من التفكّر والتروي)، ومن خلال تلك الحقائق يمكن استنتاج العديد من الحقائق الأخرى عندما يتم دمجها بالخبرة.

ومع ذلك، ثَمَّةَ مشكلة حقيقية في محاولة الشخص رؤية ذاته من خلال الاستبطان، فذلك يشبه قِطًّا يطارد ذيله. للأسف ليس ثَمَّةَ مرايا تعكس لنا الذات لكي نتمكن من رؤيتها. يخضع الاستبطان لكلّ أنواع الضوابط، والمحددات مثل قدرة الشخص على التمييز بين مشاعره، أو إن كان قد فهم أمرًا ما أو لم يفهمه. بَيْدَ أنّ الاستبطان، عندما نغضب، أو نفعل شيئًا ما على عجلٍ، يصبح متعذرًا. لذلك لا يمكن دراسة هذه الحالات دراسة مباشَرة. على صعيد آخر، كشفت الأبحاث النفسية الحديثة عن أنّ ما يقوله الأشخاص عن دوافعهم، ومُثُلهم العليا هو أمر لا يمكن التعويل عليه، فكثيرًا ما تناقض أفعالهم أقوالهم، وتناقض ما يزعمونه من أهداف يسعون إلى تحقيقها. بل إنّنا نلاحظ أنّ ما يقوله شهود عن حدث واحد يكون مفتقرًا إلى الدِّقة على نحو مثير للدهشة. وعليه فإنّ ثَمَّةَ كوابحَ وقيودًا تحدُّ من الاستبطان وتؤثر فيه، لذلك يجب توخي الحذر الشديد عندما نتعامل مع الاستبطان.

ومع ذلك، فإنّ إنكار الاستبطان كمصدر للمعرفة أمر ينطوي على تزمّتٍ، وتشدّد أكثر من اللازم. لعلّ أحدنا غير متأكد من وعيه لحياته العقلية، وإدراكه لها بَيْدَ أنّ تخمين الفرد وتقديره لهذا الجانب يبقيان أفضل من تقييم أيّ شخص آخر. ولن تفضي عمليات إجراء المسوحات للدماغ والتجارب النفسية إلى شيء دون معرفة التفكير الذي يمارسه الفرد عَبر استبطان المواضيع أو الأشياء. ثَمَّةَ قناعة لدى الكثير من الباحثين بأننا لا يمكن أن نغض النظر عن تجارب الطفولة، بخاصة تلك التي تبقى حية في الذاكرة، فهي أقوى، وأكثر تأثيرًا

من أن نهملها استنادًا إلى أقوال عرَضية عن تعذر التعويل على العقل. ولعلّ هذا لا يعني أننا نعرف الذات، وإنّما يعيننا على فهم طبيعتنا وثباتها.



لعلّ شاهدًا ما يرى رجلًا يحمل رغيف خبز فيبدو له المشهد وكأنه رجل يُلوّح بمسدس

إنكار الذات

التحدي الأكبر الذي واجهه من يؤمن بوجود الذات هو الرأي الذي طرحه الفيلسوف التجريبي ديفيد هيوم عندما أعلن بأنّه ما وجَدَ علامة تدل على وجود الذات عندما قام باختبار عقله. لم يجد هيوم

الشك في الذات

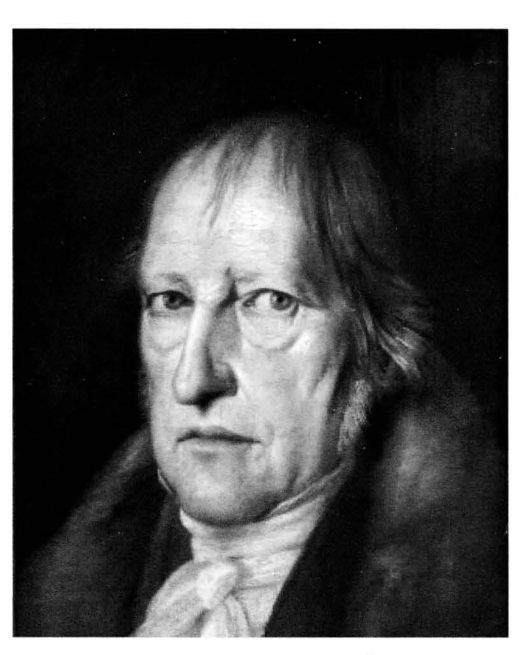
البوذيون	عمانوئيل كانت	ديفيد هيوم	فريدريك نيتشه	علم الأعصاب الحديث
ليس ثَمَّةَ ذات	يتعذر علينا استجلاء الذات بيد أننا نستطيع أن نستدل عليها من خلال تجاربنا، وقدرتنا على الاستنتاج، والتأمل	ليس ثَمَّةَ ذات، وإنما هو (رزمة) أحداث، ووقائع عقلية فحسب	ما يحركنا هو رغباتنا التي لا ندركها، وليس ثَمَّةَ كيان ثابت لا يتغير طوال الحياة اسمه (أنا)، أو (أنت)	ليس في الدماغ بنية تلعب دور (الذات)، لكن أفكار المستوى الثاني قد تشكل أساساً للذات

إلّا أحداثًا عقلية، أشار إليها هيوم بكلمة (حزمة)، وهي أحداث أو وقائع، كما قال، ملتبسة أو متداخلة على نحو غير واضح المعالم. يمكننا أن نتخيل الذات، لكن لا يوجد دليل على وجود الذات. يقدم علم الأعصاب بعض الأدلة والبراهين التي تدعم هذا الرأي، لأن الدماغ لا يحوي بنية تلعب دور الذات برغم استحالة التفكير دون تنسيق. لعلّ أفكار (المستوى الثاني)، وهي أفكار عن الأفكار، تشكل الأساس الذي تقوم عليه الذات، ذلك الجزء الذي يقرر ما هي الأشياء التي تستحق التركيز (التركيز على هذا الكتاب، على سبيل المثال)، أو ملاحظة السلوك والتصرفات الشخصية الخاصة.

يقول المشككون بأنّنا يجب أن نعترف ببطلان فكرة وجود كيان راسخ، مستقر، معرَّف، هو أنا، أو أنت، أو هو، ... إلخ. كان نيتشه أكثر تشاؤمًا من هيوم في ما يتعلق بقدرة الإنسان على معرفة ذاته من خلال الاستبطان أو التأمل. كان هيوم، في الأقل، لديه معرفة مباشَرة بما تحويه (حزمة) تجاربه، لكن حَتى هذه المحتويات تكون مضللة إذا ما كانت تعتمد كليًّا على طريقة تفسيرنا لها، وقد يتم إجهادها أو تشتيتها بفعل (محركات) عقلية لا واعية لا نتمكن من فهمها. كان نيتشه يشعر بأنّ ثَمَّةَ قوى كامنة في أعماق عقله تجرف ذاته بعيدًا.

لم يجد ديفيد هيوم داخل عقله إلّا حزمة من أحداث عقلية، ولم يجد ذاتًا متماسكة

الذات المتغيرة

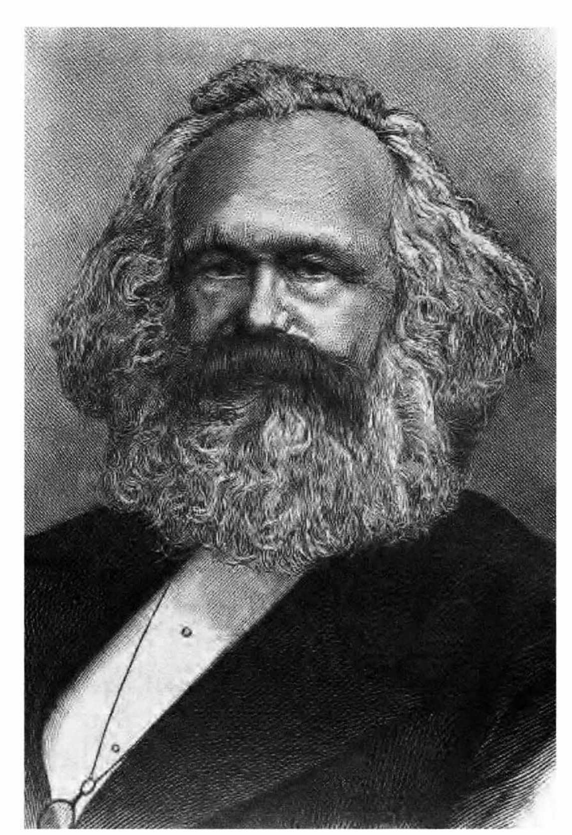


ادعى هيجل بأننا يمكن أن نفهم الذات من خلال علاقتها بالعقول الأخرى

التأثير الأكبر كان لأفكار هيجل وموقفه حين قال إنّ الاستبطان لا يميط اللثام عن الذات، لكننا نستطيع أن نفهم طبيعتنا الأساسية من خلال علاقتنا بالآخرين، وبطريقة تفكيرهم. قام علماء الاجتماع بتلقف رأي هيجل ليطوروه إلى تفسير دسم للذات باعتباره (مركبًا اجتماعيًّا). إذا كان ثَمَّةَ ذات مؤكدة راسخة ومستقرة، فما هو مصدرها، ومن أين أتت؟ يبدو أنّ الذات جاءت من العائلة، أو الأسلاف، ومن الحمض النووي، أو الدي إن أي (الطبيعة)، وربما أيضًا عن طريق التدريب في مرحلة الطفولة (التربية والتنشئة). يشعر البالغون بتأثيرات معينة في عواطفهم، وآرائهم، وخياراتهم، بَيْدَ أنّ الرأي التقليدي يقول أنّ الشخص يظل كما هو في أثناء حدوث ذلك. لكن إنْ كانت الذات مركبًا اجتماعيًّا، فإنّ كل ما ذكر آنفًا محض وهم.

قولبة الذات			
جورج فريدريك هيجل	كارل ماركس	الوجودية	فلسفة ما بعد الحداثة
لا يمكننا أن نعرف الذات إلّا من خلال تجاربنا مع الآخرين. الذات هي مركب اجتماعي	الأوضاع الاقتصادية، والسياسية هي التي تقولب عقولنا	يمكننا إعادة تشكيل ذواتنا على وفق مثلنا الخاصة	الذات هي الشخصية الرئيسية في رواية الحياة المستمرة

كـان كـارل مـاركس هـو مـن قـدم النسخة الأولى حول الرؤية الاجتماعية، إذ كان يعتقد أنّ الطبيعة الأساسية للوعي الإنساني تتشكل بتأثير الوضع الاقتصادي والسياسي المحيط بالإنسان. من يُشكّل عقول الناس هو من يتحكم بالمجتمع، وأصبح معظم أفراد المجتمع على وفق ما يحدده لهم موقعهم الاجتماعي.



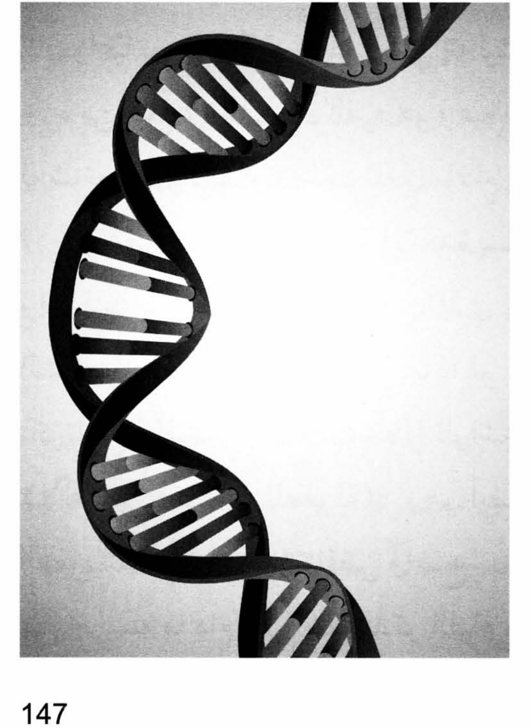
يقول كارل ماركس، إنّ ظروفنا الاقتصادية والسياسية هي التي تشكل وعينا

أمّا الوجودية فقد نهجت نهجًا يتسم بنزوع أكبر نحو الفردية، ذلك لأنّها ترى بأنّ الذات تتشكل بطرق لا حصر لها، لكنّها في الوقت نفسه تؤكد دور الفرد في التحكم بعملية تشكيل ذاته، وليس البقاء في حالة المتفرج الذي يتلقى تأثيرات المجتمع. فالإنسان قادر على صنع ذاته بنفسه مرارًا، وتكرارًا على وفق المُثل التي يؤمن بها، أو الأفكار التي يعتنقها، وذلك بفضل المستوى الثاني من الفكر الذي يتحلى به العقل البشري. ثَمَّةَ نهج حديث يربط الذات بشغف الإنسان برواية القصص والأخبار، ويعامل الذات على أنّها رواية مستمرة، أو على أنّها صورة لشخصية الإنسان التي تتطور (تقريبًا دون تفكير منّا في ذلك التطور) مع مرور الأيام من الولادة إلى الموت. إذن، حياة الإنسان تشبه رواية، أو قصة تؤدي الذات فيها الدور الرئيس، دور البطولة. وعليه فإنّها حياة من وجهة نظر سردية أو روائية، تحوي عناصر الوحدة، والغرض أو الغاية، وكل إنسان يعيش حياته أو يطورها

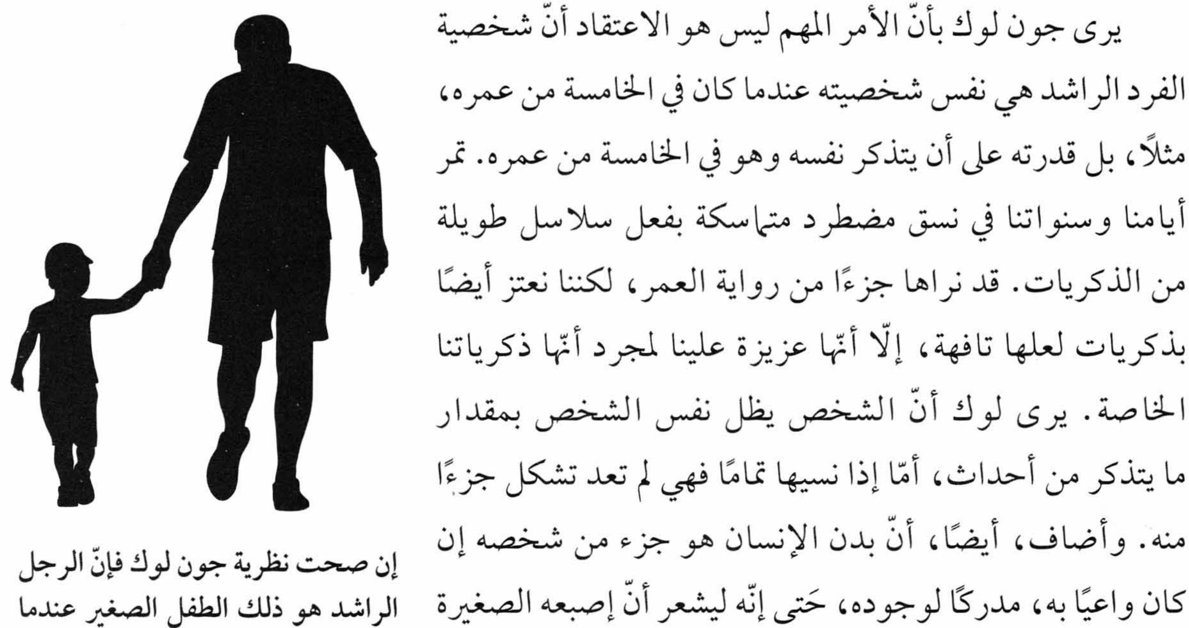
على حسب ظرفه وإمكانياته. وهكذا يمكننا القول بأنّ الذات أو الشخصية البشرية هي ثابتة مستقرة لأنّها الشخصية الرئيسة لكنّها تتغير بتغير الأحداث.

شخصية الفرد واستمرارها

ثَمَّةَ أمر أساسي في عمل المحامين مع وكلائهم، وهو أن يبقى هؤلاء الوكلاء محتفظين بذات ملامحهم، وشخصياتهم. الحقيقة، يعتقد الإنسان أنّ شخصيته تظل كما هي دون تغيير منذُ الطفولة، وحَتى الشيخوخة، ولكن كيف يحدث ذلك، والذات تتغير باستمرار متأثرة إلى حدٍّ كبير بالتأثيرات الاجتماعية؟ هل نستطيع أن نقرر وجود سمة الثبات في الذات، أو في بعض جوانبها على الرغم من التغير، والتبدل، والتقلب الذي يطرأ عليها؟ الحل المتاح هو التركيز على الجسد الذي، في الأقل، يمر بمسار متواصل متتابع بلا انقطاع عبر المكان والزمان. إن لم يكن هذا الرجل البالغ هو نفس ذلك الرضيع الذي كان قبل سنوات، فالسؤال هو متى حدث التغيير؟ علمًا بأنّ الحمض النووي ظلّ كما هو دون تغيير، وملامحه في الطفولة كما تبدو في الصور تؤكد أنّه الشخص نفسه؟ للوجود البدني، أو الجسدي أهمية كبرى، حَتى قبل أو بعد اكتساب الخصائص التي تجعل الفرد يكتسب صفة (شخص). ومع ذلك، ثَمَّةَ قواسم مشتركة قليلة جدًا بين فترة الطفولة، وفترة الرشد في حياة الشخص نفسه، لذلك فنحن لا نطالب شخصًا يبلغ من العمر 30 عامًا أن يفي بوعد قطعه عندما كان في الخامسة من عمره.



الذكريات


إن صحت نظرية جون لوك فإنّ الرجل الراشد هو ذلك الطفل الصغير عندما يتذكر نفسه في مرحلة الطفولة

يرى جون لوك بأنّ الأمر المهم ليس هو الاعتقاد أنّ شخصية الفرد الراشد هي نفس شخصيته عندما كان في الخامسة من عمره، مثلاً، بل قدرته على أن يتذكر نفسه وهو في الخامسة من عمره. تمر أيامنا وسنواتنا في نسق مضطرد متماسكة بفعل سلاسل طويلة من الذكريات. قد نراها جزءًا من رواية العمر، لكننا نعتز أيضًا بذكريات لعلها تافهة، إلّا أنّها عزيزة علينا لمجرد أنّها ذكرياتنا الخاصة. يرى لوك أنّ الشخص يظل نفس الشخص بمقدار ما يتذكر من أحداث، أمّا إذا نسيها تمامًا فهي لم تعد تشكل جزءًا منه. وأضاف، أيضًا، أنّ بدن الإنسان هو جزء من شخصه إن كان واعيًا به، مدركًا لوجوده، حَتى إنّه ليشعر أنّ إصبعه الصغيرة جزء من كيانه، وعليه فإنّ الفرد هو وعيه بنفسه، وإدراكه لذاته، له شخصية أو ذات راسخة لم تتغير ما دام يتحلى بذلك الوعي الممتد عبر الزمن.

لم تمض على هذه النظرية إلّا مدة يسيرة من الزمن حَتى رأى فيها توماس ريد بعض الثغرات. وفقًا لنظرية لوك، فإنّ الشخص الذي يظل محتفظًا بذكريات طفولته حَتى سن الثلاثين هو نفس الشخص طفلاً وراشدًا. لكن ماذا لو كان ذلك الشخص يحتفظ بذكريات الثلاثين، لكنه نسي ذكريات الطفولة؟ إذن، الشخص الراشد الذي بلغ الثلاثين من عمره ليس هو ذاك الطفل الصغير (لأنّه نسي ذكريات الطفولة)، وهو أيضًا، نفس الطفل (لأنّ الشخص الراشد هو امتداد لذلك الطفل الصغير)، وهذا تناقض واضح. بحسب نظرية لوك، كما يرى ريد، لن يكون المجرم مسؤولاً عن جريمته ما دام أنّه لم يعد يتذكر القيام بها - ما يجعل مرض فقدان الذاكرة هبة عظيمة للمجرمين.

أين تقبع الذات؟			
أين	الجسد	ذكرياتنا	أدمغتنا
مكان الذات؟	الجسد يتغير بمرور الوقت	النسيان أمر وارد، والمجرم المصاب بفقدان الذاكرة يعد بريئًا	عندما يقسم الدماغ على قسمين فإن النتيجة تبدو، وكأن شخصين يعيشان في جسد واحد

الدليل من الطب الحديث

كان النقد الذي وجهه البعض إلى هذه النظرية نقدًا حادًّا شديدًا، بَيْدَ أنّها بُعِثت في العصر الحديث بسبب ما استجد من أدلة وبراهين جديدة مثيرة للاهتمام. فقد وجد العلماء بأنّ الإنسان قادر على أن يعيش بنصف الدماغ فقط، ما دام أنّ الجسم يعمل بشكل صحيح. وعندما يقوم الجراحون (كجزء من إجراء طبي) بقطع ما يصل بين نصفي الدِّماغ، فإنّ النتيجة هي سلوك يوحي بوجود شخصين داخل جمجمة واحدة. وعليه، نستطيع أن نتخيل (وهو شيء واقعي إلى حدٍّ كبير) بأنّ نصف دِّماغ شخص ما، (س) مثلاً، يتم زرعه في جسم شخص آخر، وهنا لنا أن نسأل أيهما (س)؟ لو رغب هذا الشخص في معرفة وعيه، وتتبعه فماذا يفعل؟ سيكون عليه أن يتابع النّصفين ليرى أين يكمن وعيه، وفي أي شخصية، أو حياة يتجسد.

على الرغم من هذه الأدلة العلمية، ظل النقد الذي وجهته أقلام الكتاب إلى نظرية لوك قائمًا. لعل الذكريات والوعي الموحد متعذران دون ضابط مركزي مستمر، أو وحدة تحكم مركزية دائمة لا تقوم بتنسيق الأفكار الراهنة فحسب، وإنّما كذلك تضع خططاً مستقبلية، وتتذكر الأحداث، وتصبها في قالب سردي.

الإرادة الحرة

هل يمتلك الإنسان إرادة (حرة)، بمعنى أنّه يتحكم على نحو كامل بتصرفاته كلها؟ يعتقد العديد من المفكرين أنّ المسؤولية الأخلاقية ترتبط بوجود إرادة حرة، فلا مسؤولية أخلاقية دون إرادة حرة، فنحن عادة لا نلوم الثعالب على سلوكها، لأنّها لا تستطيع أن تسلك سلوكًا آخر. لكننا نمدح الأشخاص الراشدين، أو نلقي عليهم باللائمة بسبب سلوكهم لأنهم يتحلّون بالقدرة على التحكم في سلوكهم وأفعالهم. بادئ ذي بَدء علينا أن نسأل ما هي الإرادة الحرة بالضبط، وهل يستطيع الجميع أن يتحلى بهذه القدرة، أيْ الإرادة الحرة؟



لا نستطيع توجيه اللّوم إلى الثعلب بسبب سلوكه لأننا نعتقد بأنه غير مخيّر

أكثر الأقوال جزمًا بوجود الإرادة الحرة هي الأقوال التي ترتبط بوجود كائن أعلى. و (الكائن الأعلى) هو القادر على التحكم بالطبيعة دون أن يكون خاضعًا لقوانينها، (فهو الخالق لهذه القوانين)، الأمر الذي يتطلب القدرة على الاختيار الذي لا يخضع لأية تأثير خارجي. إذا كانت السببية هي التي تشكل سلسلة السبب، وسلسلة النتيجة، فلا بُدَّ من أنّ الكائن الحر حرية كاملة يكون قادرًا على خلق الأسباب من اللا شيء، ونتائج، أو ردود أفعال لأية حدث سابق، أو أحداث سابقة. والحقيقة، إنّ من الصعب أن نتخيل وجود كائن مادي بحت له مثل هذه القوة المتداخلة مع السببية العادية للطبيعة. لا بُدَّ لبعض جوانب العقل من أن تتحرر من الطبيعة الفيزيائية المادية، إمّا كمادة منفصلة، أو خاصية فريدة.

التوافقية: يتعذر على الكائنات المادية، أو الفيزيائية امتلاك حرية كاملة، لكن يمكن أن تمتلك القدرة على تسبيب الأسباب.

ثَمَّةَ رأي، أو اتجاه لم يستقطب اهتمامًا كبيرًا حول التوافقية التي زعمت أنّ الكائنات المادية أو الفيزيائية، على الرغم من تعذر امتلاكها الحرية الكاملة، فإنّها قادرة على امتلاك نمط متميز من السببية الطبيعية التي تتيح لها التحكم بسلوكها وأفعالها على نحو قصدي لا يشابه ما تُحدثه أنظمة الطقس. تمتلك هذه الكائنات ذلك النمط المتميز من السببية إمّا لأنها تمتلك عقلاً واعيًا، أو لقدرتها على التفكير، أو لأنّها قادرة على التفكير من المستوى الثاني.

يرى من يقول بوجود إرادة حرة بأنّ هذا الموضوع واضح، بل وفي منتهى الوضوح، فعندما نواجه خيارًا، فإننا نفكر في ما هو متاح من خيارات، ثُمَّ نفكر لبعض الوقت، وبعدها نشرع في اتخاذ الإجراءات بعد أن نقرر بأنّ هذا الخيار، أو ذاك هو الأفضل. إذن، نحن على وعي بالأمور، وندرك مسارها من الألف إلى الياء ويمكننا أن نرى بأنّ لدينا تحكمًا كاملاً في ذلك المسار.

مجابهة الغواية

الإنسان قادر على الاختيار حَتى وهو في مجابهة أشدّ الغوايات تأثيرًا وقوة:



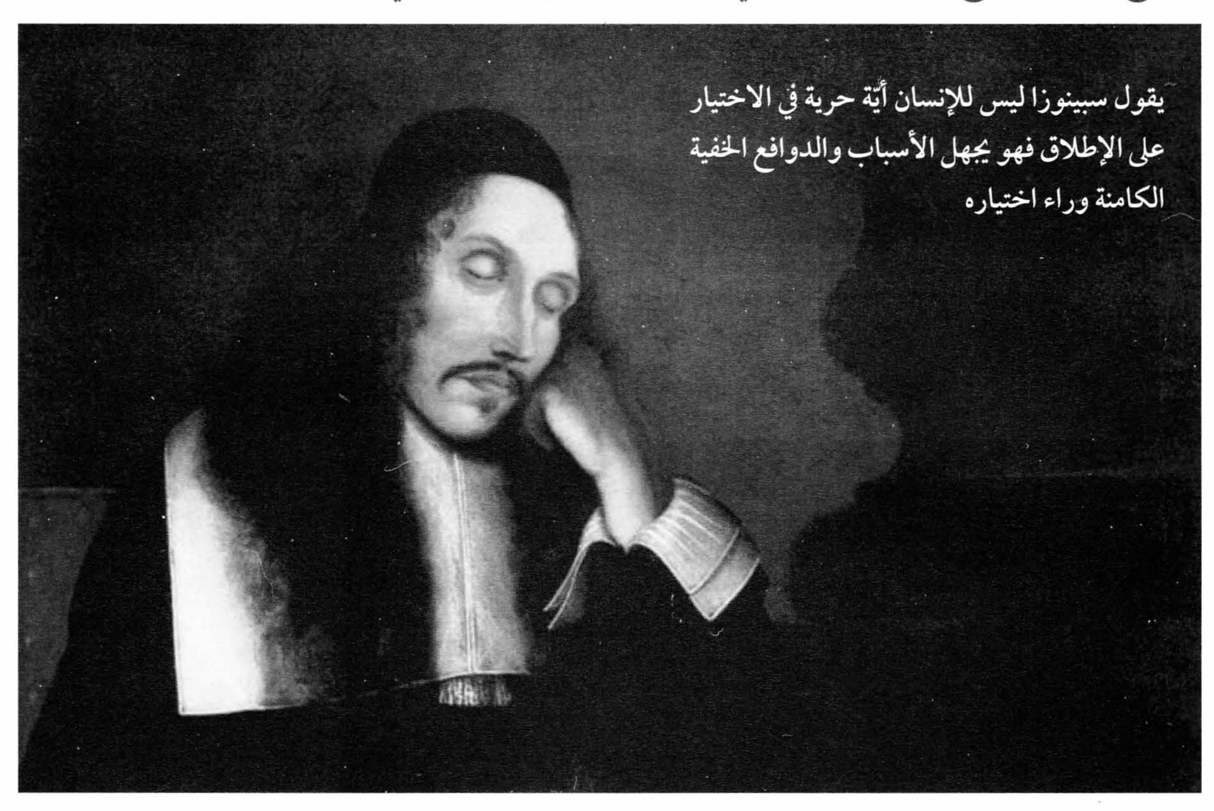
- فالمدمن على المخدِّرات قادر على الإقلاع عن هذه العادة.
- والسجين قادر على تحمل التعذيب.

ليس ثَمَّةَ معنى البتةَ، في الاستسلام للغواية، فعملية التفكير أو التأمل، والاستنتاج تمثل تعضيدًا، ومرتكزًا للإرادة الحرة. إنّ مفهوم العقل برمته يتطلب منا أن نفصله ليكون مستقلاً متساميًا عن الضغوط المعتادة، وعليه فإنّ الافتقار إلى الإرادة الحرة يعني بأننا لسنا كائنات عقلانية على الإطلاق (وهو كلام باطل كما نعرف). ما من سبب يدفعنا إلى تصرف، أو فعل ما، إلّا وكان إزاءه سبب يجعلنا نحجم عن فعل أيّ شيء، في هذه الحالة، لن يتمكن من تحطيم هذه الآصرة بين السببين المختلفين إلّا الإرادة، لذلك كان لا بُدَّ للإرادة أن تتسامى فوق كل الضغوط. وإن كان التفكير من المستوى الثاني مهمًّا، إذن حَتى التفكير في الحرية لعلّه دليل يثبت بأننا أحرار.

العقل الباطن

يعتقد خصوم مذهب الإرادة الحرة بأنّ ذلك المذهب متفائل، وما التفاؤل هنا إلّا محض وهْم. يقول سبينوزا بأنّ الإنسان يعتقد بأنّه مخيّر، يختار بملء حريته، وذلك لأنّه يجهل الأسباب والدوافع الخفية التي جعلته يسلك هذا السلوك أو ذاك. يعتقد العلماء، في الوقت الحاضر، بأنّ العقل الباطن هو المأوى الذي تنطلق منه الدوافع السرية، والأسباب الخفية، ومن المتعذر إثبات أن القوى، أو القابليات التي تجعلنا قادرين على الاختيار ليست مخفية عنّا. لو أردنا القيام بشيء ما بحرية كاملة فإننا في الواقع نجهل مصدر القرار الأخير أو دوافعه. لعلّ الإنسان يتخذ القرارات بالطريقة نفسها التي

تخطر فيها الأفكار على باله دون قصد منه، ولا تخطيط، هكذا ببساطة، وقد أثبت علماء الأعصاب أنّ الدِّماغ يبدأ بالشروع في الإجراء النهائي قبل أن يكون في حالة الوعي، أو الإدراك.



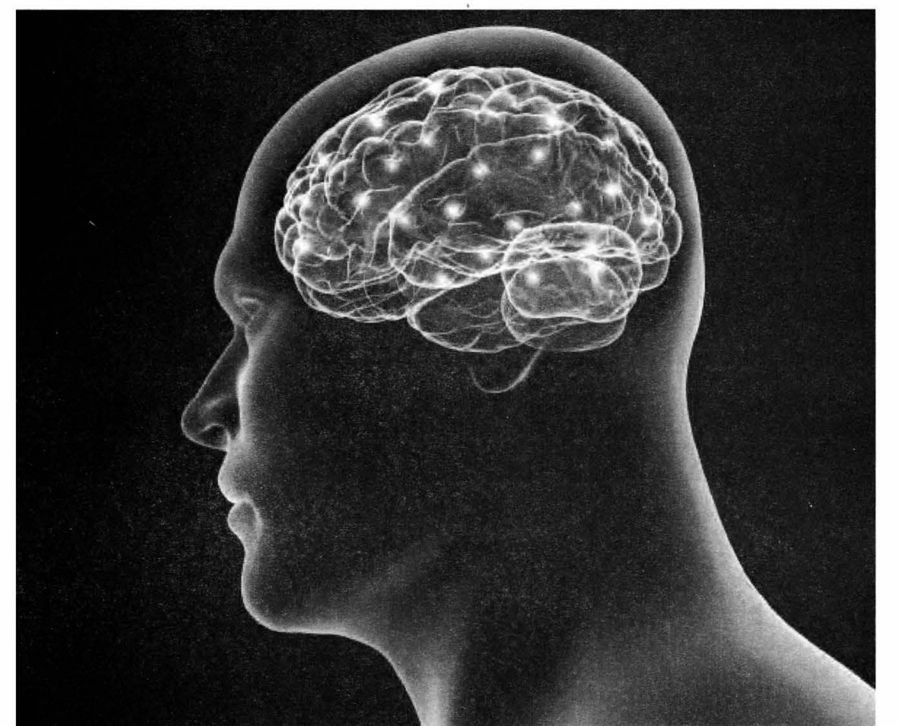
الحتمية: كل فعل أو حدث، بما في ذلك الأفعال البشرية، له سبب سابق يستوجب وقوعه.

لو أنكرنا الإرادة الحرة، فإنّ البديل هو الحتمية التي تؤمن أنّ كلّ فعل أو حدث، بما في ذلك الأفعال البشرية، لم تقع إلّا بفعل سبب مسبق استوجب وقوعها. فلا بُدَّ من سقوط المطر عندما تكون الظروف الجوية تستوجب سقوطه، والحال نفسه ينطبق على الأفكار والقرارات التي يتخذها

الإنسان. من حَيثُ المبدأ، ثَمَّةَ من يعتقد بأننا قادرون على التنبؤ بالمستقبل كلّه إن كنّا نعرف اللحظة الحالية معرفة كاملة، على الرغم من أنّ ميكانيكا الكمّ (التي تتعامل مع الاحتمالات وليس الحقائق الثابتة) قد دحضت ذلك الاعتقاد. اعتنق بعض المفكرين القَدَرية فهم يرون بأنّ قرارات الإنسان، وخياراته لا معنى لها، ولا جدوى، لأنّ مستقبله قد تقرّر سلفًا.

القَدَرية: المستقبل مقرّر سلفًا.

يسخر معظم الفلاسفة من مبدأ القَدَرية، لأنّ خياراتنا ليست إلّا جزءًا من القَدَر، ولذلك فإنّ الإنسان قادر على أن يختار ما يريد.



أثبت علم الأعصاب الحديث بأنّ القرارات تُتّخذ في الدِّماغ قبل أن يصبح الدِّماغ في حالة الوعي

التجريبيون

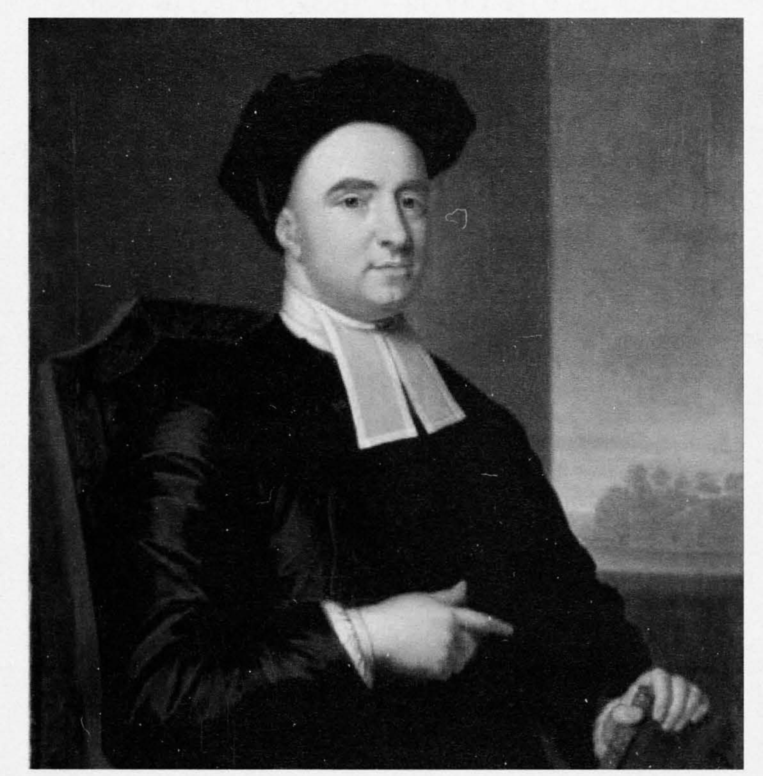
كان للعلم دور كبير في تعضيد الفلسفة التجريبية، فقد أكد توماس هوبز (1588 – 1679) بأنّ التفكير مجرد حركات مادية أو فيزيائية تحدث في الدِّماغ. وقال أيضًا بأنّ الإرادة الحرة ليس لها وجود، وكذلك القيم الأخلاقية المثالية، التي هي ليست إلّا أعرافًا اتفق الناس عليها، ولم يرَ دليلاً على وجود إله. لقد اقترح هوبز فكرة العقد الاجتماعي في السياسة، ما يعني أنّ موافقة الشعب فحسب هي ما يكسب الحكومة شرعيتها. ودافع عن النظام الملكي المطلق، باعتباره النظام القادر على تطبيق وتنفيذ الاتفاقيات الاجتماعية.

أنكر جون لوك (1632 – 1704) على ديكارت إيمانه بالأفكار الفطرية، قائلاً بأنّ العقل صفحة بيضاء، وأنّ المعرفة لا تُكتسب إلّا من التجارب فحسب. يعتقد لوك بأننا نكتسب أفكارنا عن الإله، أو المثلثات، أو الخيول من المقارنة بين التجارب وتبسيطها. وهو يفرق بين الصّفات الأساسية (مثل الشكل والوزن)، وهي سمات حقيقية، والصّفات الثانوية مثل اللون والرائحة (التي هي ذاتية ومضلِّلة). يقول لوك إنّ الكائن البشري ليس هو الشخص نفسه الذي يمرّ بمراحل مختلفة حَتى يبلغ تمام الرشد. أمّا في السياسة فقد دافع عن العقد الاجتماعي، وقال بأنّ حقوق الملكية هي أساس المجتمع.

كان جورج بيركلي (1685 – 1753) يشعر بأنّ كل ما نعرفه معرفة حقيقية هو عالمنا الداخلي الذي شكّلته التجارب، أما الحقيقة المفترضة الكامنة وراء تلك التجارب، فإننا لا نعرف شيئًا عنها. وعليه نستطيع أن نقول بأنّ معرفتنا بالشجرة، على سبيل المثال، ليست سوى إحاطة بأشكال، وألوان معينة موجودة في العقل. كان بيركلي أسقفًا يرى بأنّ الخالق هو الذي أوجد كلّ شيء، وهو المُقيت الذي يحفظ الخلق، ونحن غير قادرين على إدراك ما يجري. تمثل آراء هذا الفيلسوف النّسخة المثالية من التجريبية، لأنّ الواقع هنا عقلي، وليس ماديًّا فيزيائيًّا.

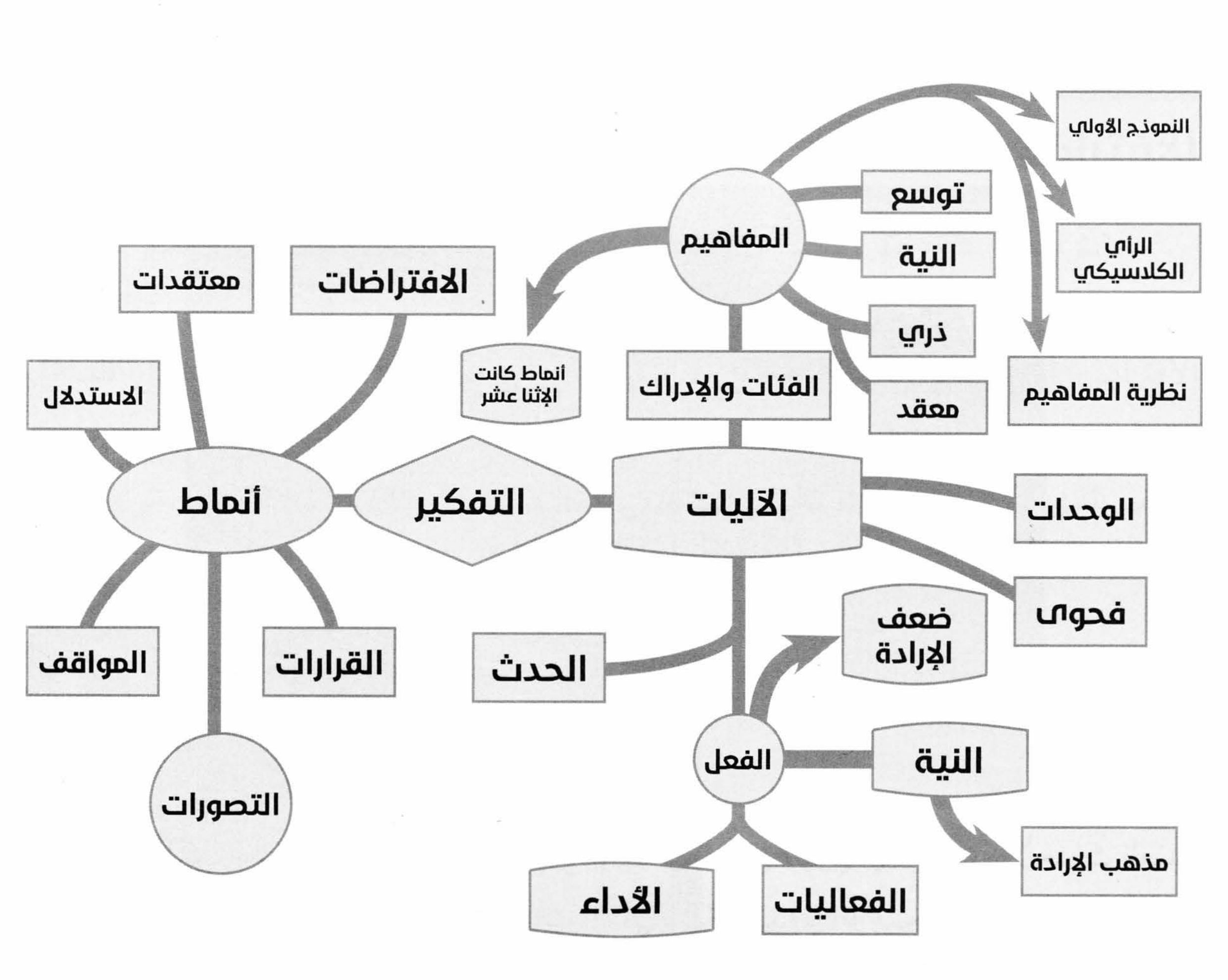
كان ديفيد هيوم (1711 - 1776) هو الفيلسوف الأكثر تشككًا من بين كبار الفلاسفة التجريبيين. لقد شكك هيوم في وجود الذات لتعذر معرفتها معرفة حقيقية، واعتبر السببية مجرد أنماط من أحداث مختلفة. كان هيوم ينفي وجود أيّ منطق في الاستقراء (التعلم من التجارب المنتظمة)، وكان مصرًا على عدم تصديق المعجزات. كان يعتقد بأنّ بالإمكان تحليل جميع أفكارنا إلى انطباعات منطقية. لقد كان لفلسفة هيوم تأثير بالغ في التجريبيين اللّاحقين.

كان جيريمي بينثام (1748 - 1832) يعتقد، باعتباره فيلسوفًا تجريبيًّا حقيقيًّا، بأنّ الفضيلة تُستمد من تجربة اللّذة والألم. ومع ذلك، فإنّ اعتناقه مبدأ النفعية لم يكن عن أنانية، وإنّما كان الهدف هو زيادة المتعة واللّذة لكلّ الناس والحدّ من حجم الألم.



رأى جورج بيركلي أنّ الربّ
هو الخبير بكل شيء

التفكير



النموذج الأولي
توسع
المفاهيم
الرأي الكلاسيكي
النية
معتقدات
الافتراضات
ذري
نظرية المفاهيم
أنماط كانت الإثنا عشر
الفئات والإدراك
معقد
الاستدلال
أنماط
التفكير
الآليات
الوحدات
فحوى
ضعف الإرادة
المواقف
القرارات
الحدث
الفعل
النية
التصورات
مذهب الإرادة
الأداء
الفعاليات

أنماط التفكير

بعيدًا عن الأسئلة التي نثيرها عن ماهيّة العقل، وعلاقته بالجسد، وما إذا كان ثَمَّةَ ذات تتحكم به، بوسعنا أن نسعى لفهم طبيعة التفكير دون أن نعير كثيرَ اهتمام لمصدر التفكير، ومن أين يأتي. يدرس الفلاسفة التفكير في إطار علاقته بالحقيقة والمعرفة، والأفعال، والقيم، وهي المجالات الواسعة التي ينصب عليها اهتمام الفلسفة.

التفكير	الطاقة العقلية
العواطف	التركيز
الفرضيات	الالتزام بالقواعد
المواقف	استخلاص خصائص الأشياء
الأحكام	التعميم
المعتقدات	التعامل مع المواضيع على أنها أشياء (مثل الاقتصاد)
التصورات	إدراك التجانس، أو التشابه مثل افتراض الصدق،
الخيال	أو الاستقامة في (سلسلة معدنية)
الذكريات	إسباغ المثالية على الأشياء
العقل	
الدوافع	
القرارات	

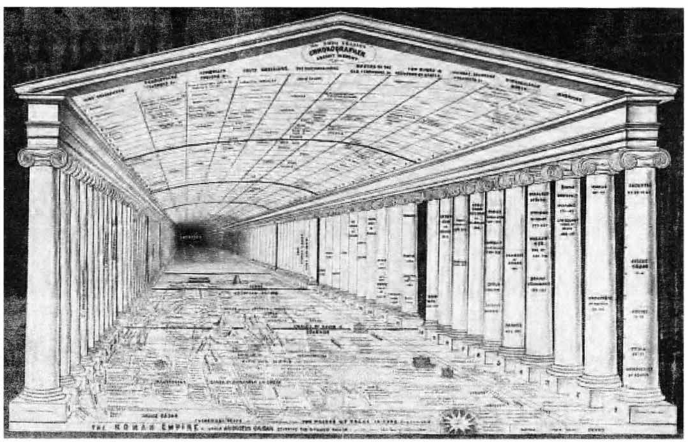
إنّ (الفكر) مصطلح مبهم يشير إلى كل ما يحدث في الوعي (وربما أيضًا بعض الأحداث العقلية اللا واعية)، لذلك لا بُدَّ من تصنيف ما يحدث إلى أنماط لكي نبدأ بداية صحيحة.

بعض العواطف، أو المشاعر تتعلق بشيء ما (مثل الخوف من الفئران)، وبعضها الآخر (مثل الكآبة) ليست إلّا أمزجة. أمّا الرغبات، التي هي جزء من الدوافع التي تحفز الإنسان، فهي تنطوي على جانب عاطفي. يخبرنا علم الأعصاب بأنّ كلّ فكرة، بما في ذلك الحسابات الذهنية، هي عاطفية بطريقة، أو بأخرى.

الافتراضات: هي أفكار يمكن أن تكون صحيحة، أو خاطئة.

الافتراضات

الافتراضات هي أفكار يمكن أن تكون صحيحة، أو خاطئة. لو تمكنت من التعبير عن هذه الفكرة (إنّ القطار متأخر) في اللغة الإنجليزية، أو الأسبانية، فإنّ الفكرة التي لم أصرح بها تكون هي الافتراض. أمّا المواقف الافتراضية فهي ردود فعل، أو استجابة الأفراد للافتراضات مثل التساؤل عمّا إذا كان القطار سوف يتأخر حقًّا، أو الإشفاق من تأخره، أو الرغبة في ذلك، أو الاستياء منه. الموقف الذي يمتاز بالجدية، أو الحماس هو تعبير عن الاعتقاد، أو الإيمان بصحة الافتراض، أيْ إن (القطار سوف يتأخر).



تملأ عقلك الذكريات، إلّا أنّها ليست واضحة ودقيقة في كلّ الأوقات

ماذا يحدث في العقل؟

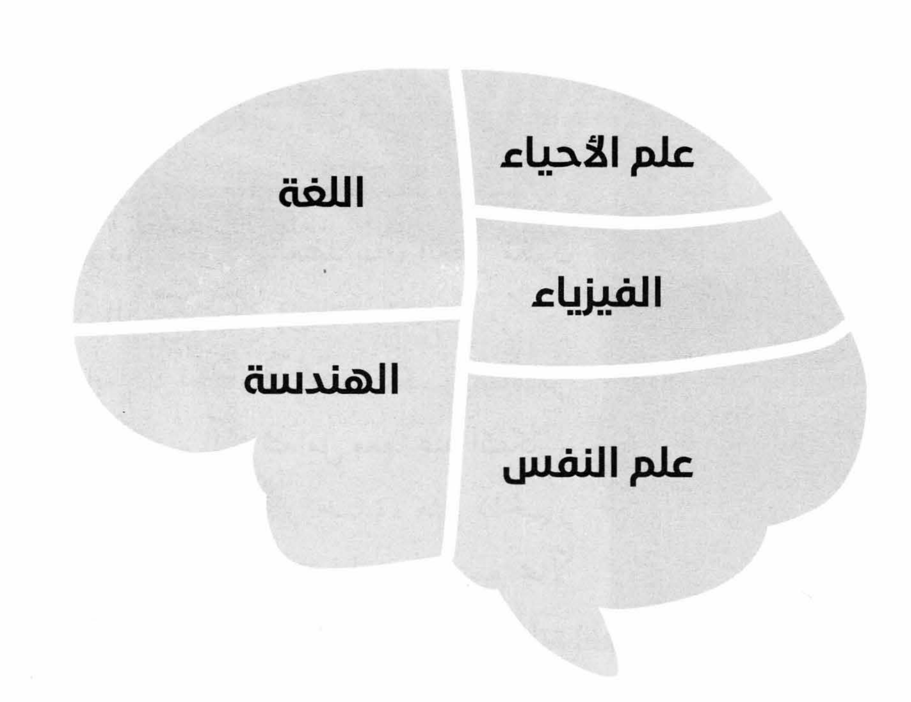
ما يجري في العقل من أحداث، أو مجريات يصدر عن تصورات. قد تكون تلك الأحداث، أو المجريات فورية، وآنية أولية، أو قد تتشكل حسب نمط المفاهيم وبنيتها. يحفل العقل أيضًا بالكثير من الذكريات. قد نعتقد بأنّ الذاكرة هي ما يمكننا أن نتذكره من أحداث، أو وقائع مضت، بَيْدَ أنّنا نتذكر أكثر من ذلك بكثير، فنحن نتعرف على الأماكن، والوجوه التي مرت بنا عندما نراها مرة أخرى، على الرغم من عدم قدرتنا على تذكرها في وقت سابق. لا يتمكن الإنسان دائمًا من التحكم بعقله فهو يكون خارج سيطرته، والدليل على ذلك هو المحاولات المستميتة التي يبذلها البعض لكي نتذكر شيئًا، أو أمرًا ما. بَيْدَ أنّ الإنسان يتحلى، أيضًا، بقدرة فذّة على تخيل أشياء لم يشهدها، أو يعرفها من قبل، ولا يتم تجميع هذه الصور، لكنّها تأتي كاملة، كما يحدث عندما نتخيل وجهًا لم يسبق لنا رؤيته قط.

الاستدلال

الاستدلال هو نمط من أنماط التفكير الرئيسية الذي يمارسه الفلاسفة، وهو يتجلى بأشكال نظرية وعملية، والغاية المتوخاة منه هي إمّا التوصل إلى المعتقدات الحقيقية، أو معرفة الإجراءات الصحيحة. اختلفت منزلة العقل من فيلسوف إلى آخر، ومن مذهب فلسفي إلى آخر، فالبعض عدَّه القيمة الأعلى، بينما قال المتشككون بأنّ للعقل نُسخًا متعددة تختلف باختلاف الثقافات ونظرتها إلى العقل. إنّ دراسة دور الاستدلال في التفكير قد تساعدنا على التوصل إلى رأي نهائي في الجدل الدائر حول التفكير.

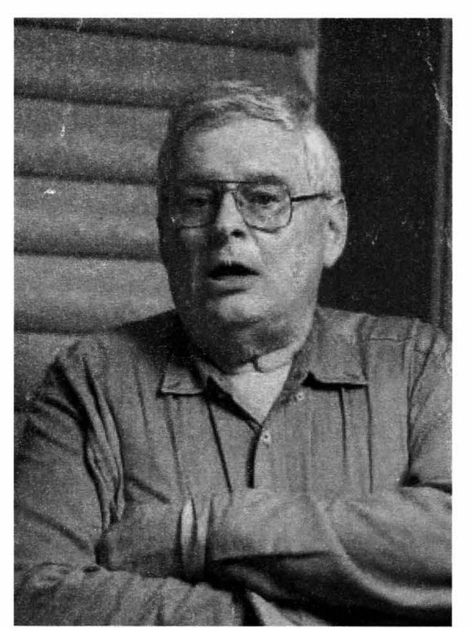
آليات التفكير

ينطلق الفلاسفة من دراسة خصائص التفكير الأساسية ليتوصلوا إلى البنية التي تكمن وراء التفكير. اقترح الفيلسوف كانت اقتراحًا قد يساعد على معرفة التفكير، وآلياته قائلاً بأنّ العقل يحتوي على « فئات أو مستويات من الفهم ». كان كانت يتساءل كيف يتمكن العقل من اكتساب



التجارب، وماهي الآليات التي تساعده على ذلك؟ صنّف كانت المفاهيم إلى اثني عشر مفهومًا تندرج كلها تحت العنوانات الأربعة: الكمّ، والنوع والعلاقة، والصيغة أو الطريقة. ولكن لا يوجد إجماع على هذا التصنيف، فقد قدّم فلاسفة آخرون، مثل أرسطو، وهيجل، أنظمة تصنيف بديلة، ولكن قد نقوم، نحن دون تفكير أو تعمّد، بفرض أنماط أو بنىً معينة على حياتنا العقلية.

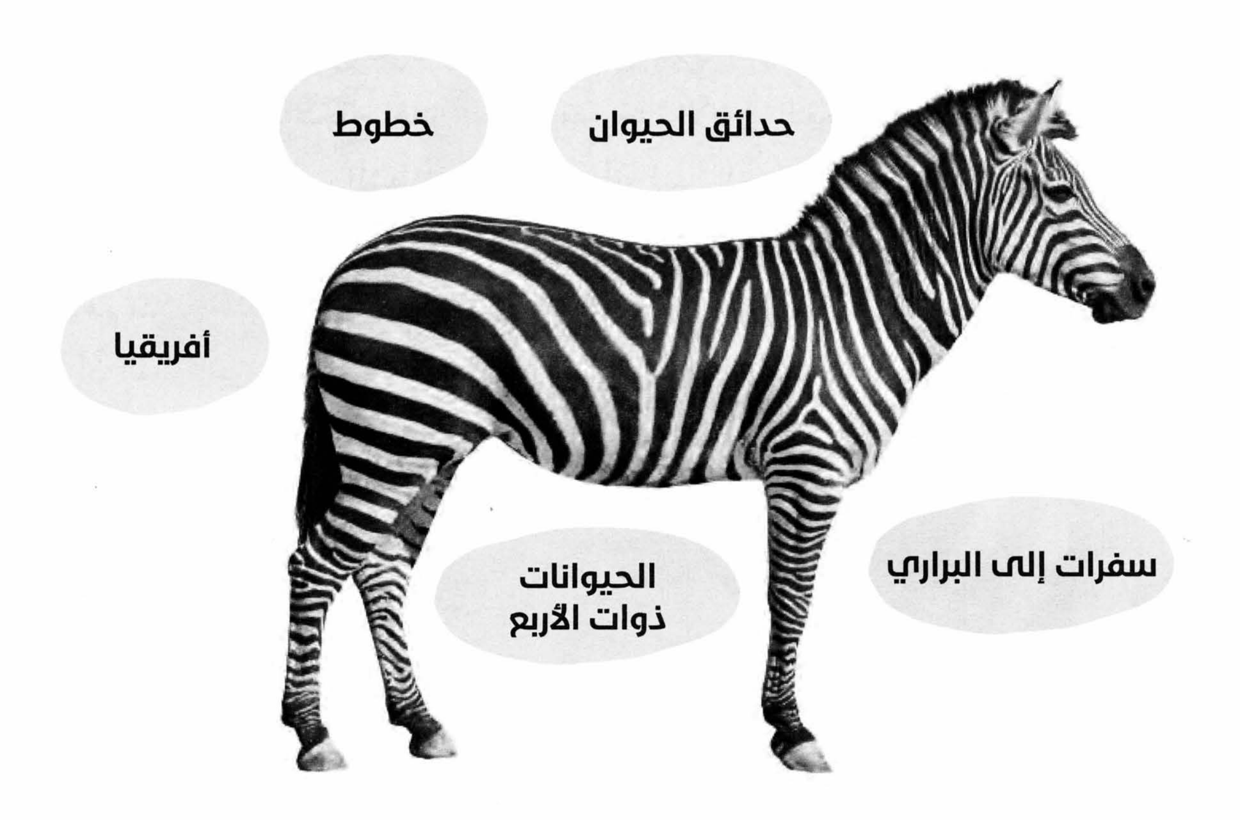
بدأت حِقبة حديثة من التطور مع بداية التفكير في طريقة اكتساب اللغة. يتعلم الأطفال، على نحو سريع، الكلام بدقة شديدة، من دون تلقّي الدروس، كما يُفترَض، ما يدل على أنّ العقل يضم وحدةً داخلية تحوي المهارات اللازمة المتعلقة بالقواعد والمفاهيم التي تتكون نتيجة التجارب، لكن إذا كان لدينا وحدة داخلية مختصة باللغة فلماذا لا توجد وحدات أخرى للقدرات العقلية التي تتعامل مع علم النفس، وعلم الأحياء، والفيزياء، والهندسة؟



اقترح جيري فودور فكرة العقل النسقي

في الحقيقة لدينا جميعًا مساعد شخصيّ داخليّ يذكرنا بأمور كثيرة مثل مكان الهاتف، ووقت الخروج. لعلّ كلّ وحدة تمثل خطوة إلى الأمام في مسيرة التطور البشري. يفترض جيري فودور، الذي يعتقد بأنّ العقل مكون من وحدات، بأنّ الدِّماغ يحتاج إلى لغة داخلية (هي لغة التفكير، أي ما يشابه رمز الجهاز في أجهزة الكمبيوتر)، منْ أَجل تمثيل الصور والمفاهيم التي نتعامل معها عند التفكير.

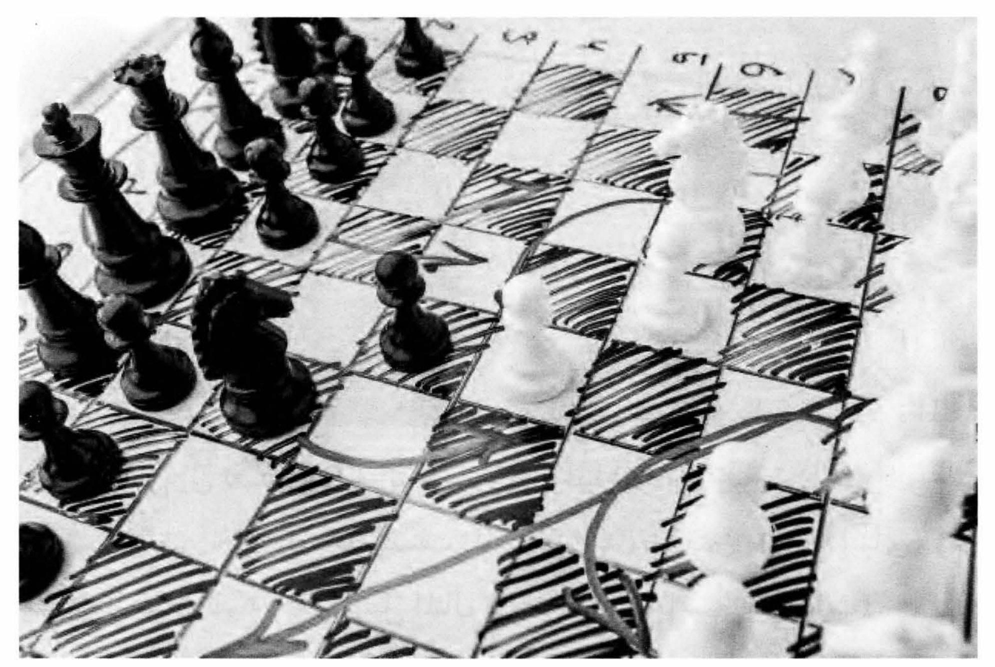
إن قال لك أحدهم كلمة واحدة، مثل (الحمار الوحشي)، فإنّ هذه الكلمة سوف تثير لدى المستمع مجالاً معرفيًّا، فكلمة الحمار الوحشي ترتبط بعدد من الصفات والمفردات مثل: حدائق الحيوان، خطوط، سفرات إلى البراري، الحيوانات ذوات الأربع، أفريقيا، ... إلخ.



يشبه الأمر تمامًا فتح ملف في منظومة بيانات مرتبة، وعليه فإنّ فكرة الملفات العقلية تساعدنا على التوصل إلى تفسير عملية التفكير. وكما رأينا آنفًا فإنّ عبارة (الحمار الوحشي) هي عنوان لملف معين. في بعض الأحيان، قد يُصنّف الملف الواحد بطريقتين مثل (مومباي) و(بومباي) أو قد نجد ملفين بالعنوان نفسه، على سبيل المثال توجد مدينتين باسم (بلايموث).

مشكلة الإطار

ثَمَّةَ نهج مختلف يسعى لمعرفة آليات الفكر من خلال محاولة صنع آلة قادرة على التفكير. يتميز الذكاء الاصطناعي بالنجاح الهائل الذي حققه حَتى الآن في التفكير الدقيق القائم على القواعد، كما هو مستخدم في لعب الشطرنج مثلاً، بَيْدَ أنّه ليس ناجحًا جدًّا في المهام التي تتطلب خلفية ما، وهو ما يُعرف بمشكلة الإطار، مثل التحدث على النحو المطلوب في تقديم العزاء عند وفاة أحدهم مثلاً. الحقيقة، ليس من الواضح بعد متى يسعنا أن نُعدّ آلةً ما (تمارس التفكير) على الرغم من أنّ القدرة على إجراء محادثة مستمرة، أصبحت واحدة من الأهداف المثالية التي يسعى إليها المتخصصون في الذكاء الاصطناعي.



أثبت الذكاء الاصطناعي فعاليته الكبيرة، حَتى الآن، في التفكير الدقيق القائم على القواعد، على سبيل المثال، استخدامه في لعب الشطرنج، لكن ليس من الواضح متى يبدأ بالتفكير الحقيقي

الفحوى والمعنى

غالبًا ما يؤمن الناس بأنّ التفكير يقبع في داخل العقل الذي يحوي المحتوى داخله، مثل الجوز الذي يحوي اللّب في داخل القشرة

يفكر كلٌّ من المُخبِر والمجرم في (الجريمة)، إنّهما يفكران في الأمر نفسه، بَيْدَ أنّ فحوى تفكير كلّ منهما تختلف عن الآخر. فالفحوى أو المحتوى هو مناط التفكير، وهو الذي حوله تدور الأفكار التي نعبر عنها بالكلمات التي يعبّر فحواها عن (المعنى) وعلى المستمع أن يفطن إلى المعاني لكي يفهم الكلمات. فكرة واحدة قد تغير فحوى الكلمات، ومحتواها مثل: (البندقية مدينة جميلة)، قبل زيارتها أم بعد زيارتها؟. عندما رأى الإنسان الخيول لأول مرة في التاريخ، هل أثار مشهد الخيل تصورًا، أو مفهومًا معينًا في ذهنه، أم تم اختراع مفهوم جديد، كما تُخترع آلة من الآلات، لكي يساعدنا على التفكير في الخيل؟ لا يمكن للعلاقة بين الأشياء والمفاهيم أن تكون بسيطة، لأنّ ثَمَّةَ مفاهيم أخرى عن الحيوانات (مثل علفها وجريها) تتداخل أيضًا مع مفهوم (خيل).

إننا نتصور التفكير وكأنّه شيء داخل العقل، محيط بالفحوى إحاطة قشر الجوز باللّب. لكنّ ثَمَّةَ رأيًا يمثل تحديًا لهذا التصور، فقد لاحظت هيلاري بوتنام أنّ العديد من الناس لا يتمكن من معرفة شجرة الدردار عن طريق البصر، لكن عند الحديث عن (أشجار الدردار) فإنّ حديثنا يشمل جميع أشجار الدردار. ونحن لن نستطيع أن نقوم بذلك إلّا إذا حدّد الأشخاص المطلعون نوع أشجار الدردار، وسوف نسمع كلامهم فهم الخبراء. يدل هذا على أنّ فحوى، أو معنى (الدردار) ليس موجودًا داخل العقل، لكنّه جزء من الطبيعة الاجتماعية للغة. يُطلَق على هذا الرأي اسم

خارجيانية (Externalism) الفحوى (أو الفحوى الأوسع). يزعم أصحاب هذا المذهب بأنّ عقولنا وأفكارنا تنتشر في العالم مع الآثار الفردية، والاجتماعية المترتبة على ذلك.

لا بُدَّ للطائر من معرفة مفهوم العُشّ لكي يركز على بنائه

المفاهيم

لا بُدَّ من استيعاب فكرة المفهوم لكي نتمكن من فهم التفكير. لا نستطيع تفسير سلوك الحيوانات إلّا إذا كانت قادرة على التفكير، إنّ الطيور لا تستطيع التركيز على العُشّ دون أن يكون لديها مفهوم للعُشّ. قد ننكر هذا الرأي، أو نستغربه، لكن علينا أن نعرف بأنّ الإنسان لديه مفاهيم، وتصورات تسبق اللغة؛ بإمكاننا أن نرى الصغار، وهم يصنفون الأشياء، أمّا البالغون فهم قادرون على صياغة مفاهيم جديدة قبل أن يفكروا في الكلمات، أو الأسماء التي تطلق عليها. وبما أنّ حديثنا وثيق الصلة باللغة فقد نجد كلمتين تعبران عن المعنى نفسه أو المفهوم مثل (Sidewalk) و (Pavement) فكلتاهما تعني (رصيف)، وقد نجد كلمة واحدة ملتبسة تعبر عن معنيين، أو مفهومين مثل كلمة (Bank) التي تعني (ضفة النهر)، وتعني (مصرف) أيضًا.

الدلالة

لكلّ مفهوم مجال، أو نطاق، أو حقل دلالي، وذروة دلالية يتجسد فيها المعنى الأدق للمفهوم. يضم النطاق أو الحقل الدلالي لكلمة (غيمة) كل غيوم فعلية أو محتملة في الواقع. أمّا ذروة مفهوم (غيمة) فهو المعايير التي تقرر ما إذا كان هناك شيء آخر ينتمي إلى النطاق الدلالي للكلمة. تركز

معظم النقاشات التي تتناول المفاهيم حول الذروة الدلالية لكنّ أهل المنطق يفضلون ما يحتويه النطاق الدلالي، لأنه يشير إلى الأشياء التي نفكر فيها، وهي واضحة ومفهومة.

المفاهيم الذرية والمعقدة

يُعبر عن المفاهيم البسيطة بأنها (ذرية) أمّا المفاهيم الأخرى فإنّها (معقدة) على الرغم من صعوبة تحديد ما هو بسيط، وما هو معقد. لعلّ لدينا عددًا قليلاً من المفاهيم الفطرية مثل (شيء أو جسم)، وهي مفاهيم متنوعة ومتعددة. يبدو أننا لا نمتلك إجابة عن السؤال الذي يقول: ما مصدر المفاهيم، ومن أين تأتي؟ لذلك كان التركيز الرئيس على الطبيعة الأساسية للمفاهيم.

إنّ جوهر مفهومٍ ما، بحسب الآراء الكلاسيكية، يحدده التعريف الدقيق لذلك الجوهر الذي يحدد أيضًا الشروط اللازمة والمطلوبة لتطبيق المفهوم؛ وعليه فإنّ (السحابة) تكون بالضرورة في الغلاف الجوي، وهي مكونة من سائل متبخر، ويكون مرئيًّا متجمعًا في قطعة واحدة، وهي ليست كبيرة بما يكفي لتغطية السماء. إذن الشيء الذي تنطبق عليه الخصائص المذكورة يكون سحابة. (لاحظ أنّ التعريفات التي يضعها الفلاسفة عادة ما تكون أكثر شمولاً من تلك الموجودة في القواميس).



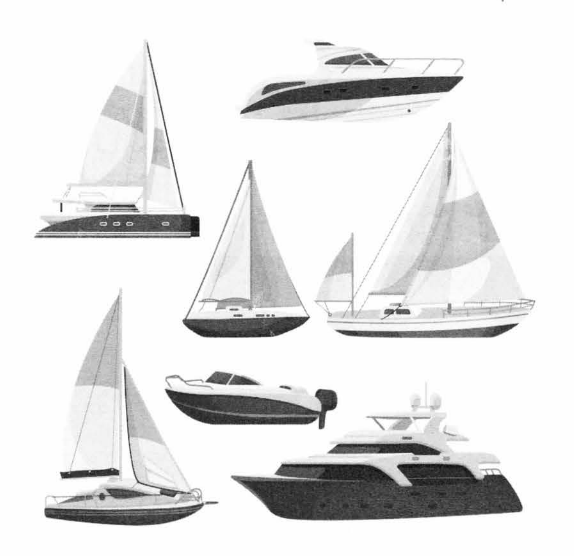
النطاق الدّلالي لكلمة (غيمة) يشير إلى جميع الغيوم الحقيقية والمحتملة

تعريف (الألعاب)

بعض المفاهيم، مثل مفهوم (اللعبة)، يتعذر وضع تعريف لها. قال فيتجنشتاين ثَمَّةَ (تشابه عائلي) بين الألعاب، لكن لا توجد ميزات أساسية مشتركة يمكن أن نخرج منها بتعريف للكلمة. قارن بين لعبة قذف القلم في فنجان قهوة، وكرة القدم الأمريكية. كلتاهما توصف بأنّها لعبة، لكن هل يوجد ما هو مشترك بينهما؟ على أيّة حال، حاول الكثير من المفكرين أن يضع تعريفًا للكلمة. هل من المحتمل أنّ فيتجنشتاين كان على خطأ؟

النموذج الأولي (الأصلي)	الأمثلة	عنقود المعرفة
للغيمة المثالية الكاملة	عينات متنوعة من الغيوم	المعلومات القياسية المعتادة عن الغيوم

لو حاولنا استبطان مفهوم (النَّمر)، فإنّنا سوف نتخيل الصورة الشائعة لهذا الكائن، أيْ النموذج الأولي الذي يمكن من خلال مقارنة خصائصه مع غيرها من الخصائص تحديد هذا الكائن. هذه طريقة تفكير بارعة تركز على جوانب المفهوم، وسماته الواضحة. ومع ذلك، فإنّ المجال يظل مفتوحًا للتساؤل حول الميزات المهمة، هل هي البقع التي تغطي جلده، أم الشوارب؟ في الحقيقة، لا تتضح لنا خصائص النموذج الأولي في كثير من الحالات. هل نستطيع أن نحدد ما هو (الأثاث)، أو ما هي (وسيلة النقل) النموذجية، على سبيل المثال؟



لو لم تعرف في حياتك إلّا القوارب وسيلة نقل فإنّ مفهومك لوسيلة النقل يكون خاصًا جدًّا

نظرية المفاهيم

ثَمَّةَ فكرة لدى البعض هي أنّ المفاهيم عبارة عن تشكيلات معرفية صغيرة (وهو ما يعرف بنظرية المفاهيم) تبتعد عن الأمثلة المتخيلة، وتؤكد بأنّ كثيرًا من المعلومات ترد إلى الذهن بمجرد تلقف مفهوم من المفاهيم: إنّ الخيول من الثدييات، وهي تتغذى على الأعلاف، وتشرب الماء، وتنام، ونستطيع امتطاءَها.

على صعيد آخر، تُعدّ هذه النظرية نظرية ذاتية إلى حدّ ما حَيثُ لا يوجد مفهوم واحد في أذهان الجميع فلكل شخص خلفيته المعرفية المختلفة بخصوص المفهوم نفسه.

لو أردنا أن نفسر مفهومًا ما، فمن الأفضل أن نضرب أمثلة عديدة لتوضيح ذلك المفهوم، والإحاطة بجوانبه. على سبيل المثال، ثَمَّةَ وسائل نقل مختلفة، فلو كنت أنا استخدم الحصان كوسيلة نقل، ولا أعرف غير الحصان وسيلة للنقل، أمّا أنت فلا تعرف إلّا القوارب وسيلة نقل، ففي هذه الحالة لدينا مفهومان لوسائل النقل يختلف أحدهما عن الآخر اختلافًا تامًّا. لعلّنا لن نتمكن من الوصول إلى التفسير الصحيح للمفاهيم إلّا عن طريق خلطة من مجموعة نظريات.

فهم الأفعال

كلّ الناس (ومنهم الفلاسفة) ينفقون وقتًا أطول في التفكير في الممارسات والسلوك أكثر مما يفكرون في النظرية، لذلك فإنّ النشاط العقلي الذي يحيط بالأفعال له أهمية كبيرة، خصوصًا عندما يتعلق الأمر بالأخلاق. نحن نخطط، ونختار ما نريد، ونحكم على الأفعال، والأحداث، ونحتاج إلى صورة واضحة تبين مراحلها ومكوناتها خصوصًا عندما نقوم بتقييم المسؤولية.

الفعل والحدث

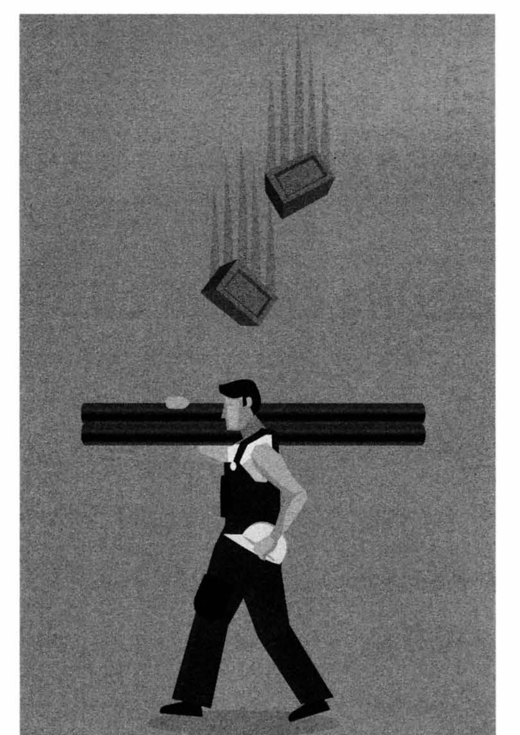
الخطوة الأولى هي أن نفرّق ما بين الفعل (أو العمل)، و (الحدث). الزلزال، مثلاً، هو حدث، وليس فعلاً، أو عملاً، لأنّ لا أحد (يفعل)، أو (يعمل) زلزالاً. ارتعاش رَجُل في نومه هو حدث، وليس فعلاً أو عملاً، لأنّ الفعل يتطلب (فاعلاً) يتخذ القرار، عادة بوجود نيّات، وأسباب، ودوافع معينة. ليس من الواضح ما إذا كان الروبوت يمكن أن يُعدّ (فاعلاً)، فنظرية الفعل تتمحور حول الأفعال البشرية الواعية، المقصودة.

الفعالية والأداء

عندما يقود أحدهم سيارته متوجهًا إلى عمله، فهل يُعدّ هذا عملاً واحدًا، أو مجموعة من عدة أعمال، أو إجراءات، أم هي سلسلة صغيرة من أفعال عديدة يتعذر حسابها؟ ما الذي نعنيه بكلمة (فعل)، وكم يستغرق من الوقت؟ هذه الأسئلة ضرورية لو أردنا تصنيف الأفعال، أو الإجراءات، أو معرفة العلاقة بين الأفعال، أو بغيرها من الأشياء، أو التنبؤ بالنتائج. دعونا نأخذ المشي على سبيل المثال، المشي فعالية من الفعاليات، أو نشاط من النشاطات، لذلك أستطيع أن أقول (لقد مشيت اليوم) بينما أنا مازلت أتمشى، أمّا الاغتسال فهو (أداء)، لذلك لا بُدَّ من الانتهاء من الاغتسال لكي أقول بأني قد اغتسلت. الأمر المهم هنا هو معرفة العلاقات السببية بين الأفعال. عادة ما نقول بأنّ حدثاً منفصلاً، أو مستقلاً قد يسبب حدثاً آخر، مثل الزلزال الذي يتسبب في حدوث تسونامي. لكن قلي بضع بيضات

لن يؤدي إلى إعداد وجبة إفطار كاملة. لو تصورنا الواقع بهيئة سلاسل مستمرة من الأسباب، فنحن بحاجة إلى فصل جميع الأفعال، كل فعل على حِدَة، بَيْدَ أنّها قد تتداخل، ولكي نفعل ذلك لا بُدَّ لنا من معرفة وصف كل فعل. رمي الكرة، مثلاً، ينتهي نهاية معروفة. لذلك فإنّ الأداء يكون أوضح.

السؤال هو هل إنّ الفعل يبدأ بقصد وغاية معينة، أو بإرادة، أو بحركة؟ إذا كانت الأفعال حركات، إذن سوف نكون قادرين على ملاحظتها وقياسها، ولكن بمجرد دخول الرغبات، والدوافع، والنيّات، والقرارات في الموضوع، يصبح من العسير وصفها وصفًا دقيقًا.



إنّ سقوط حجر بناء على ساقك ليس جريمة بحدّ ذاته إلّا إذا أسقطه شخص ما عامداً قصد إلحاق الأذى بك

الدوافع والنيّات

لو أسقط أحدهم حجرًا على قدمك، فإنّ الفعل لا يُعدّ جريمة بنظر القانون إلّا إذا كان الفعل مقصودًا، أيْ إنّ من أسقط الحجر كان لديه نيّة مسبقة بإسقاطه على قدمك. ولكن ماذا يعني هذا؟

- هل النيّة عاطفة، أو قرار؟
- هل ينبغي على الناس أن يعرفوا نيّاتهم، وأن تكون لديهم القدرة على توضيحها، وإبدائها؟
- هل تمثل النيّات جزءًا مستقلاً، (أو منفصلاً) من أجزاء التفكير؟ أو إنّها تتألف من قدرات عقلية أخرى؟ هل يمكن تصنيف النيّات إلى أكثر من صنف؟
- هل يمكن لمجموعة من الأشخاص أن تكون لديهم نيّة واحدة؟

ثَمَّةَ فرق كبير بين الدافع والنية، إذ إنّ الدافع ليس هو النية. فقد يندفع الإنسان، بسبب رغباته أو أسباب أخرى، إلى عمل ما أو فعل ما، لم يخطر بباله البتة، ولم تكن له نية أبدًا للقيام به. يمكن تعليل الفعل وتفسيره في ضوء الدوافع، وليس النيّات، فالنيّات تشكلها الدوافع ثُمَّ تتحول إلى أعمال أو أفعال. وعليه، فإنّ الدوافع تنطوي على أسباب يمكن التعبير عنها بالكلمات. قال بعض الفلاسفة بأنّ الرغبات هي الأسباب الرئيسية التي تدفع الإنسان إلى الفعل، بَيْدَ أنّ الرغبة العارمة يمكن أن تكون سببًا لعدم القيام بأيّ فعل أو تصرف (في حالة أنّها نيّات خبيثة أو تنطوي على شر). ثَمَّةَ من يعتقد بأنّ الأسباب هي الغالبة، خصوصًا إذا كان لهذه الأسباب قوى، أو فعالية سببية، لأنّ الأسباب هي التي تؤدي إلى الفعل على أرض الواقع. من الصعب بمكان مناقشة الأفعال والمسؤولية على نحو معقول دون أن نؤمن أو نعتقد بأنّ الأسباب هي التي حفزت الفاعل على القيام بأفعاله.

النيّات السابقة والنيّات المبيتة

لو فتشنا النيّات، وتثبتنا منها فلن نجد مشاعرَ خامًا مثل القلق، لأنّ النيّات تركز على نحو كبير على ما ينبغي القيام به. غالبًا ما نستطيع أن نعرف نيّات الحيوان من خلال مشاهدة ما يفعل. بَيْدَ أنّ للنيّات جوانب داخلية وخارجية، وقد تكون نيّات عُقِد العزم عليها، أو تكون فاترة غير ملحّة. كذلك، ثَمَّةَ نيّات سابقة ونيّات مبيتة، وكأنّ بعض النيّات زرّ تضغط عليه بإصبعك ثُمَّ تنطلق نحو الفعل، وهذا النمط من النيّات لا يشبه نيتك للسفر إلى مدينة البندقية مثلاً، فسوف تظل عاقد النية على السفر إليها وتبقى هذه النية قائمة ما دمت مستمرًا في خطوات السفر. ختامًا، لعلّ النيّة تشبه الوعد الذي يقطعه الإنسان لنفسه.

الأحكام والرغبات

ثَمَّةَ خلاف كبير بين من يرى في النيّات أحكامًا، أو قرارات، وبين من يجعلها رغبة أو معتقدًا. لو أنّ شخصًا ما كان ينوي إسقاط حجر، فلا بُدَّ من سبب لذلك، فالأسباب هي التي تؤدي إلى اجتراح الأفعال. ثَمَّةَ وجهة نظر أخرى تُعَدُّ منافسةً للرأي المذكور، (وهي وجهة نظر مرتبطة بفلسفة ديفيد هيوم)، تقول إنّ لدى الناس رغبات عاطفية، لا غير، ممتزجة بالمعتقدات ولا شيء مطلوب أكثر من ذلك (أي اتخاذ قرار، أو إصدار حكم). تناول البعض هذا الراي بالنقد والتمحيص قائلين إنّ الإنسان لا يستطيع أن ينوي نيّة حقيقية حَتى لو كان لديه من الرغبات والمعتقدات ما يدفعه إلى ذلك، لكن قد يحول دون ذلك أشياء تمنعنا، أو تقيّدنا (مثل الكسل أو تأنيب الضمير) وهي، أيضًا، صنف من أصناف الرغبات.

قبل أن نستبعد النيّات نهائيًا من نظرية الفعل لا بُدَّ لنا من التعرف على الخصائص الرئيسية لها. ثَمَّةَ خصائص، أو مميزات عديدة منها، على سبيل المثال، أننا لا نستطيع في وقت واحد أن ننوي الانعطاف نحو اليسار، والانعطاف نحو اليمين، ولا يمكن لأحدهم أن ينوي السفر إلى القمر على جناح طائر، لذلك يجب أن تكون النيّات متسقة مع بعضها البعض، ومتسقة مع الغاية المطلوبة، ويبدو أنّ ذلك ممكن. نستدل من ذلك عللاً أنّ النيّات عقلانية أكثر من أنّها مجرد رغبات.

لا يستطيع الشخص أن ينوي الانعطاف يمينًا ويسارًا في الوقت نفسه

لا يمكن لفرد واحد أن ينوي رفع حافلة حُشِر تحتها شخص ما، لكن يمكن لمجموعة من الناس أن تنوي فعل ذلك، إذن هل يمكن أن تنوي مجموعة من الأشخاص نيّة واحدة؟ الحقيقة في هذه الحالة إنّ كل شخص يركز على الهدف المشترك، لكن يجب على الجميع أيضًا أن يطلعوا الآخرين على نيّاتهم، لذلك ثَمَّةَ جانب جماعي للنيّات. قد يكون الهدف الجماعي قابلاً للاختزال إلى حالات فردية من حالات العقل بَيْدَ أنّ هذه الحالات أكثر تعقيدًا من أنّها مجرد رغبة لفعل شيء ما.

الأفعال الناشئة عن إرادة وتصميم

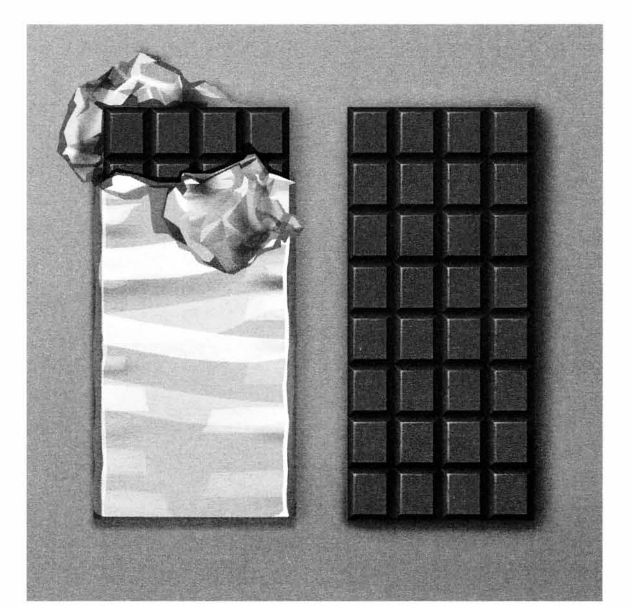
تقول التفسيرات التقليدية للأفعال بأنّها تنشأ عن الإرادة. أحد هذه التفسيرات التقليدية هي الـ Volitionism التي يمكن ترجمتها بالقصدية، التي تُعدّ من أبسط هذه التفسيرات، وهي تقول ليس ثَمَّةَ أكثر من فعل الإرادة لكي يتحقق الفعل أو العمل بَيْدَ أنّ هذا التفسير خاطئ، لأنه لا يأخذ الحركات الجسدية بنظر الاعتبار.

القصدية: الفعل = فعل الإرادة.

إنّ الرغبة في المشي ليست هي المشي، وعليه فإنّ الإرادة لها تأثيرها السببي الخاص بها (من العوامل السببية أو أحد المسببات)، وهي مستقلة عن الفعل تمامًا. جُوبِه هذا الرأي بتحديات كان أكبرها ما صرح به بعض الفلاسفة الذين قالوا لا يوجد شيء اسمه إرادة (لأنّ الاستبطان لم يؤدِ إلى اكتشاف شيء مثل ذلك)، أو أننا نخطئ في تسمية نهج التفكير، أو آخر رغبة تسبق القيام بالفعل (نهج التفكير، أو الرغبة هو من يؤدي هذه الوظيفة). على أيّة حال، لم تكن هذه الآراء نهاية للجدل المستمر حول هذا الموضوع، لأنّ علم الأعصاب الحديث يدعم فكرة مركزية التحكم بالتفكير والفعل، التي يطلق عليها اسم (إرادة). لا يكفي اجتماع النيّة والرغبة والسبب للقيام بفعل ما، بل لا بُدَّ من شرارة، أو ضغطة زر لينطلق العمل. في الواقع، تحتاج المباشرة بتنفيذ فعل ما إلى من يطلق الخطوة الأولى.

ضعف الإرادة

ثَمَّةَ أُحجيَة، أو لَغز قديم يتعلق بظاهرة ضعف الإرادة (أكراسيا) في اللغة اليونانية، وتعني (انعدام السيطرة). ما الذي يتحكم في أفعالنا؟ هل هو حكم، أو قرار نتخذه، أو رغبة تراودنا؟ لو قرر أحدهم بحزم أن يترك تناول الشوكولاتة، لكنّه، بعد مدة، يستسلم للإغراء، ويأكل بعض الشوكولاتة، فذلك يدل على أنّ الرغبة هنا هي التي أخذت بزمام المبادرة، أمّا العقل فقد أضحى تحت تأثير مصدرين متضاربين من مصادر الفعل: قرار الإقلاع عن تناول الشوكولاتة، والرغبة في تناولها. يعتقد سقراط بأنّ الأحكام، أو القرارات هي التي تؤدي إلى القيام بالفعل، وليس شيء آخر لذلك كان من الممكن أن يكون تفسيره للحالة المذكورة، أنّ ذلك الشخص الذي يحب الشوكولاتة لم يكن جادًّا في اتخاذ القرار بالإقلاع عن تناولها، ولا بُدَّ من أن يكون لديه اعتقاد خفي بفائدة أكل الشوكولاتة، أو أنّ تناولها لن يلحق به أي ضرر. يتأثر موقفنا من المسؤولية الأخلاقية برؤيتنا لطريقة أو أسلوب تصرفنا أو فعلنا، ومن المهم أن نتذكر ما لدينا أيضًا من تفكير المستوى الثاني. يمكننا أن نرغب في أن لا تكون لدينا الرغبة في شيء، وأن نحكم على أسبابنا بأنّها أسباب غير وجيهة.





عندما تتناول الشوكولاتة بعد أن قررت الإقلاع عن أكلها، فهل هو قرار اتخذته، أم إنّك استسلمت لرغبتك في تناولها؟

كانت وهيجل

كان إيمانويل كانت (1724 – 1804) يسعى إلى اكتشاف الحدود الفاصلة بين التأمل العقلاني، والشكوك التجريبية. لا بُدَّ للميتافيزيقيا من أن تحلل العقل البشري، لأنّ العقل البشري يفرض تصنيفات معينة على الواقع. إنّ معرفة الواقع أمر متعذر، ولكن لا مناص من تجربة الأشياء بطرق معينة، وأنّ أفضل ما يمكننا القيام به هو التحليل المسبق لهذه الطرق. لقد بات العقل هو المحور الذي تدور حوله الفلسفة، وتصبّ جهودها عليه. كل شيء يأتي عَبر طريقة البشر في رؤية الواقع بما في ذلك الزمان والمكان والسببية. كشفت الحجج التي ساقها كانت في جدالاته عن افتراضات مسبقة تتعلق بقدرة الإنسان على الفهم. لذلك لا بُدَّ لنا من افتراض وجود ذات وإرادة حرّة، لأنّ عقلانية الكائن البشري تتطلب ذلك. حاجة الإنسان إلى مبادئ عقلانية متسقة نابعة عن إرادة تؤدي بنا إلى استنتاج الفضيلة أو الأخلاق. تستند آراء كانت السياسية إلى العقد الاجتماعي، واحترام الكائنات التي تتحلى بالعقل، لكنّه أضاف بعدًا أمميًا، ونظر إلى الجمال على أنّه شكل فريد وعقلاني من أشكال المتعة. أنكر كانت الحجج التقليدية التي تثبت وجود الإله، بَيْدَ أنّه كان يعتقد بأنّ الربّ فرضية لا مفر منها للأخلاق. وجدت الفلسفة نفسها، بتأثير تفسيرات كانت، تتجه في طريقين. الأول هو ما يعرف بالفلسفة التحليلية، أمّا الثاني فهو الفلسفة القاريّة (في ألمانيا وفرنسا). أعجب أصحاب الاتجاه الأول بآراء كانت الأخلاقية والسياسية، وما قاله عن دور العقل في الميتافيزيقيا. أمّا أصحاب الاتجاه الثاني فقد اعتقدوا بأنّ كانت أثبت استحالة تحقيق تواصل أو صلة مباشرة بالواقع، لذلك فقد جنحوا إلى المثالية.

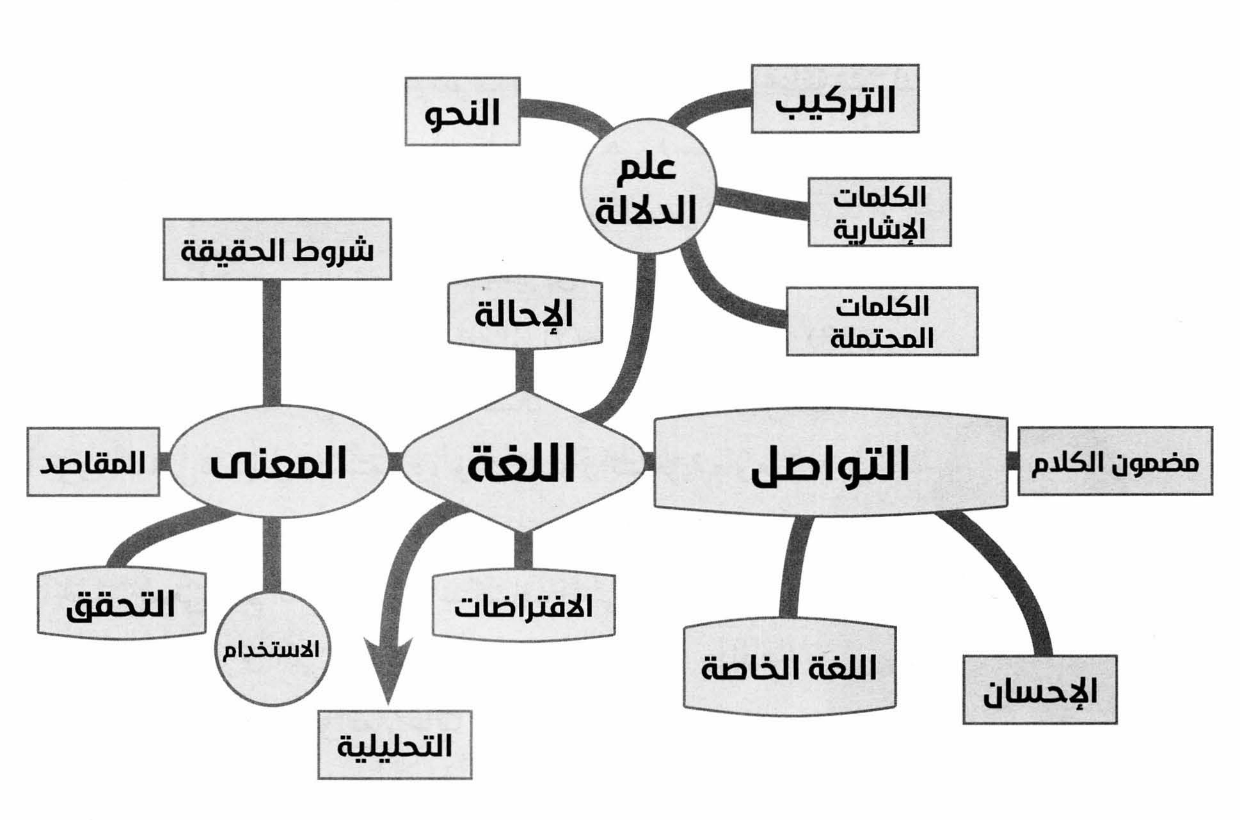
كان جورج هيجل (1770 – 1831) يسعى إلى الشروع في التفكير من غير افتراضات مسبقة، وكان الواقع هو مجال جهوده وعمله. لقد فوجئ هيجل في المراحل اللّاحقة بحجم الدور الأساس

للمجتمع، والتاريخ في أنماط الفهم. قام هيجل بتحوير فكرة الديالكتيك (الجدَل) لتدل على حتمية انبثاق المفاهيم عن بعضها البعض، وهذا هو سلوك المنهج العقلاني في الطبيعة. كان هيجل يرى بأنّ الذات ليست فردية، وإنّما موجودة ضمن إطار العلاقات الاجتماعية، أمّا المجتمع فهو كيان طبيعي أكثر من أنّه كيان قائم على عَقْد.



جورج هيجل هو الذي طور فكرة الديالكتيك

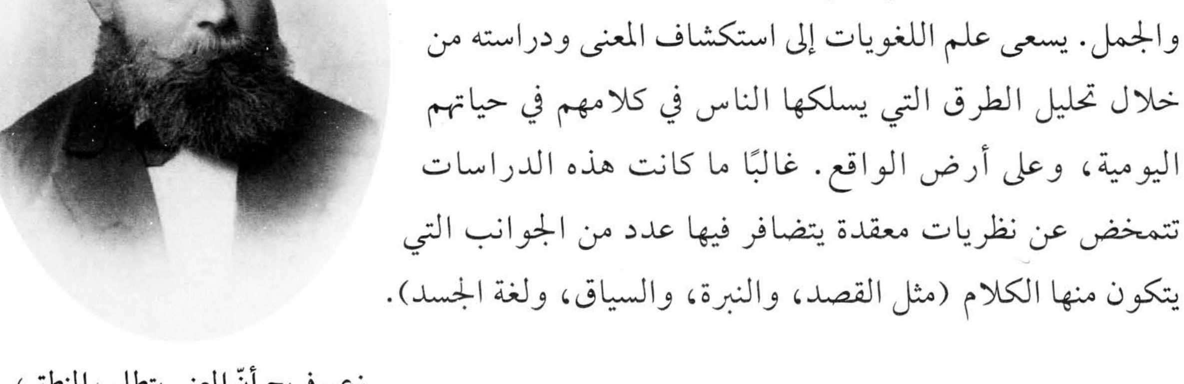
اللغة



النحو
التركيب
علم الدلالة
الكلمات الإشارية
الكلمات المحتملة
شروط الحقيقة
الإحالة
المقاصد
المعنى
اللغة
التواصل
مضمون الكلام
التحقق
الاستخدام
الافتراضات
التحليلية
اللغة الخاصة
الإحسان

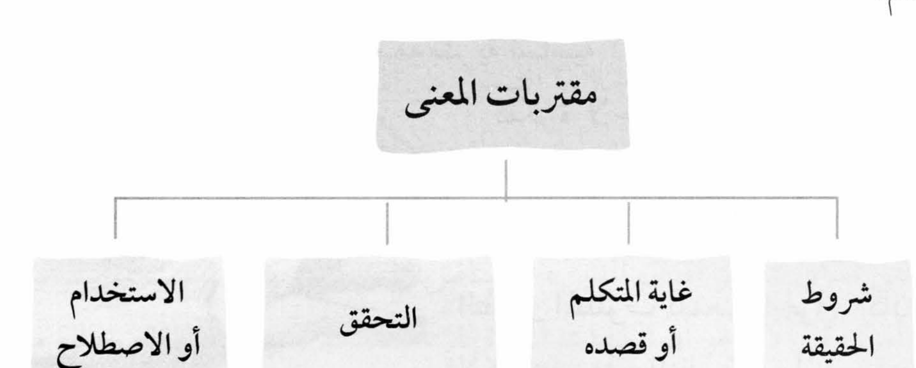
طبيعة المعنى

ركزت الفلسفة الحديثة على كيفية ارتباط العقل بالعالم أكثر من تركيزها على العالم نفسه. كانت الفلسفة تعامل اللغة على أنّها (شفافة)، تنطلق مباشرة من التفكير إلى المعرفة، إلّا أننا نرى الآن، بأنّ اللغة ليست بهذه البساطة. (المعنى) هو المفهوم الأساس، وهو ما يميز اللغة عن الضجيج، والضوضاء التي تحيط بنا. كان أقدم نهج من مناهج دراسة اللغة يرى بأنّ الكلمات ببساطة مرتبطة بالأفكار، وملازمة لها، إلّا أنّ كوتلوب فريج وجد مكونات مختلفة تشترك جميعها في تكوين المعنى. لو قلت، مثلاً، إنّ كلمة المرور، أو كلمة السّر هي (سمكة أبو سيف) فإنّ الكلمة لها معنى حرفي لا يتعدى كونها كلمة السر. أمّا إذا قلت (جيمس مريض)، فإنّ المسند أو الخبر هنا (مريض) يعطينا معلومات عن (جيمس) الذي هو اسم يشير إلى شخص ما. لذلك قال فريج إنّ المعنى يمكن أن يشمل المعنى المتمثل بفحوى الكلمات، إضافة إلى الإحالة، أو الإشارة (انتقاء فقرات أو نقاط معينة من المناقشة). فضلاً عن ذلك، ثَمَّةَ جوانب أخرى للمعنى، كما في الاستعارة، والتأكيد، والسخرية، وهلمّ جرًّا. إنّ المهمة الأولى هي فهم المعنى الحرفيّ، أو معاني الكلمات، والجمل. يسعى علم اللغويات إلى استكشاف المعنى ودراسته من خلال تحليل الطرق التي يسلكها الناس في كلامهم في حياتهم اليومية، وعلى أرض الواقع. غالبًا ما كانت هذه الدراسات تتمخض عن نظريات معقدة يتضافر فيها عدد من الجوانب التي يتكون منها الكلام (مثل القصد، والنبرة، والسياق، ولغة الجسد).



زعم فريج أنّ المعنى يتطلب المنطق، والإشارة، أو الإحالة

إنّ المنطق والحقيقة ilh أكثر ما يركز عليه الفلاسفة، وهم يميلون إلى دراسة (المعنى الدقيق والحرفي) للجمل. لذلك فإنّ المهمة الأولى هي أن نفهم المدى، أو حجم التداخل، أو التواصل المباشر، بين الكلام والعالم.



الحقيقة والكيفية

يمكن أن نشرح المقصود بعبارة (شروط الحقيقة) لجملة ما من خلال سؤال هو: لو أنّ الجملة كانت صحيحة فكيف سيكون العالم؟ إنّ معنى هذه الجملة: (إنّ الحمام يطير) يشير إلى ما نعرفه من طريقة طير الحمام في حياتنا اليومية. أمّا جملة (إنّ الخنازير تطير) فهي جملة تجعلنا نفكر كيف يمكن أن تطير الخنازير، وكيف سيكون العالم لو أنها كانت تطير فعلاً. تتميز هذه النظرية بأنّها تربط المعنى بالواقع ربطًا مباشرًا (ما يجعل من فرص التشكيك شحيحة جدًا)، لكن ليس من الواضح كيف يمكن أن تعد الأشياء المادية المحسوسة (معاني) أو تُفسَّر على أنّها كذلك.

يمكننا أن نقول، بدلاً من ذلك، إنّ شروط الحقيقة موجودة في كل ما نعتبره شبيهًا بالحمام، أو ما يمثله (وليس في حمامة حقيقية بعينها)، والتي يمكن أن تكون على هيئة صور، وإن كان ذلك يحدّ منها (فما هو عدد الحمام في الصورة؟)، ويجعل المعاني تحتل المقاعد الأخيرة بين أفكارنا، الأمر

الذي جعل النظرية تفقد أهم عناصر جاذبيتها. قد نتعلم شروط الحقيقة لجملة باللغة الألمانية دون أن نعرف على وجه اليقين ما هو معناها الحقيقي.

تُعدّ نظرية شروط الحقيقة نظرية جذابة، لأنّها تجعل من قول الحقيقة صفة بشرية أساسية (بالإضافة إلى قول الزور والأكاذيب كفكرة لاحقة)، وهي في تأكيدها الحقيقة (وليس على الاستعارات، وما يستخدم من أساليب، أو تعبيرات تعبر عن المشاعر) تقدم لنا التفسير المطلوب للمعنى الحرفي. كان الاعتراض الأكبر على هذه النظرية هو أننا بحاجة إلى معرفة معنى الجملة لكي نتمكن من تقييم شروط الحقيقة الخاصة بها (علمًا أنّ هذا الاعتراض تم توجيهه إلى الكثير من محاولات شرح المعنى).



إنّ جملة: (إنّ الخنازير تطير) تثير التساؤلات حول كيف يبدو العالم لو أنّ الخنازير كانت قادرة على الطيران

مقاصد المتكلمين

تتضح مقاصد المتكلمين من خلال اللغة باعتبارها وسيلة تواصل في المقام الأوّل، فمن خلال اللغة يحاول الإنسان أن ينقل ما يجول في خاطره إلى الآخرين. وعليه، يمكن أن نُعرّف المعنى من حَيثُ محاولة المتكلم في جعل الآخرين يفهمون ما يجول في خاطره. عادة ما تُعدّ هذه النظرية من النظريات التي تشخّص ما يرتبط بالمعنى من أبعاد نفسية هامة، لكنها تهمل الرسالة أو الأفكار التي يسعى المتكلم إلى توصيلها إلى الآخرين.

التحقق

تشترط الاتجاهات التجريبية الأكثر حزمًا وصرامةً، ارتباطَ الحياة العقلية كلّها، على نحو مباشَر أو غير مباشَر، بتجارب فعلية، ولا يُستثنى المعنى من ذلك. عرّفت الحركة المنطقية الوضعية معنى الجملة بأنّه الطريقة التي يمكن من خلالها التحقق من المعنى. لعلّ التعريف ينطوي على استثناءات معينة إلّا أنّ النظرية تقول ضمنًا بأنّ الجملة التي لا يمكن التحقق والتثبت من معناها هي جملة لا معنى لها. إذن، على حسب هذه النظرية، فإنّ ما تقوله لنا الميتافيزيقيا، والدِّين يفتقر إلى المعنى، لإنّ الأدلة التي تساق لتعزيز أقوال الدِّين، والميتافيزيقيا، أو لدحضها ليست موضوعية. لقد أكدت هذه النظرية أمرًا مهمًّا ألَا وهو أنّ الكلمات المثيرة للإعجاب قد تكون في الواقع خالية من المعنى. على أيّة حال، سرعان ما واجهت هذه النظرية عددًا من التحديات.

نظرية التحقق: تعريف المعنى من خلال طريقة التحقق منه.

المشكلة الأساسية هي أنّ بعض الجمل التي لا يمكن التحقق منها هي جمل تعبّر عن معانٍ واضحة. دعونا نتأمل هذه الجملة، ونفهمها دونما حاجة للتحقق منها: « كان سقراط يعاني من الصّداع ». كانت هذه النظرية عُرضة للكثير من النقد الذي سجّل مختلف الاعتراضات على هذه النظرية، إذ قال البعض بأنّ التحقق من أيّة جملة يتطلب أولاً أن نعرف معناها، بل إنّ النظرية نفسها لا يمكن التحقق منها. حاول البعض إجراء تعديلات على نظرية التحقق ربما من خلال وجوب التحقق (مبدئيًّا)، على سبيل المثال، لو كنت صديقًا لسقراط لكان بإمكانك أن تتحقق من ذلك، بَيْدَ أنّ التحقق يتطلب الكثير الكثير من الأشياء.

الاصطلاح

غالبًا ما يفضل الفلاسفة، الذين يعتقدون بأنّ ما يُسمّى (المعنى) هو مصطلح ملتبس غامض مشكوك فيه، تناول المعنى من خلال الاصطلاح، أو الاستخدام المتفق عليه. يعتقد فيتجنشتاين بأنّ معنى الكلمة يشبه معنى قطعة الشطرنج التي لها طريقة استخدام معينة (لا تتطلب إلّا القدرة على اتباع قواعد اللّعبة). لعلّ هذه الطريقة تبسط، إلى حدّ كبير، مسألة المعنى إلّا أنّ الموضوع لا يخلو من مشاكل حتمية مثل استخدام كلمة (آمين) بشكل صحيح دون معرفة معناها ألَا وهو (استجب). يبدو أنّ فهم اللغة يتجاوز معرفة سبل استخدامها، هذا ما يتبادر إلى أذهاننا، ونحن نلتقي بإنسان آلي (روبوت) يُحسن الحديث المثير للإعجاب.



عندما نقرأ جملة عن نابليون، فإننا سوف نفهم هذه الإحالة، أو الإشارة بفضل ما لدينا من معلومات عن الرجل

الإحالة

المقصود بالإحالة (أو الإشارة) هو الكينونة أو المضمون الذي تشير إليه الكلمة. فإذا كان للكلمة إحالة، أو إشارة ومعنى، فإنّ ذلك يوضح لنا علاقة اللغة بالعالم، ما يساعدنا على معرفة صحة الجملة من عدم صحتها. فإذا كانت المصطلحات العلمية غير متصلة، وغير مرتبطة بأيّ شكل من الأشكال، فإنّ من المتعذر إجراء المقارنة بين النظريات للتوصل إلى النظريات الأفضل. لكنّ السؤال هو هل إنّ الارتباط المباشَر بالواقع أمر ممكن؟ لو كانت الجملة عن شخص ما، نابليون مثلاً، فإنّ الجملة لا شكّ تشير إلى نابليون، وليس إلى شخص آخر. من جهة أخرى، تُعزى قدرتنا على فهم الإشارة، أو الإحالة في الجملة بسبب ما نعرفه من معلومات شخصية عن نابليون ما يعني أنّ الكينونة، أو الموجود الذي ترتبط به الإحالة ماثل في أذهاننا، وليس بسبب ربطه المباشَر بالعالم.

يُعَدّ الجدل الدائر حول الإحالة، أو الإشارة مفتاحًا من مفاتيح الفلسفة الحديثة، لأنّ المدى الذي تذهب إليه لغتنا في التعبير عن الحقائق حول العالم يعتمد على الإحالة أو الإشارة. تدفعنا نظرية الإحالة الوصفية للذهاب باتجاه النظرة اللا واقعية، المنكرة للواقع، إِذ يتعذر ربط التفكير بالواقع، أمّا نظرية الإحالة المباشَرة فهي أكثر واقعية.

الجمل الإنشائية والجمل الكليّة

إذا كانت الإحالة أو الإشارة هي التي تربط اللغة بالعالم، فالجمل، إذن، هي إنشائية أيْ يتم إنشاؤها، أو تجميعها في العقل جزءًا بعد آخر، أو مقطعًا تلو آخر. لو قرأنا الجملة الآتية: « واجه نابليون أوقاتًا عصيبة في الانسحاب من موسكو »، فإنّ الكلمات، بحسب النظرة الإنشائية، رُصِفت رصفًا كما ترصف حجارة البناء لإنشاء هيكل، أو مبنى متكامل.

ثَمَّةَ وجهة نظر أخرى مباينة لوجهة النظر أعلاه تقول بأننا نفهم الأفكار والجمل مجمَلة متكاملة، وليس وحدة بعد وحدة، أو قطعة بعد أخرى. إننا لا نفهم الكلمة إلّا من خلال سياقها داخل الجملة أو من خلال الدور الذي تلعبه في الجملة كاملة. إن كان ذلك صحيحًا، فإنّ الإحالة، أو الإشارة المرتبطة بالكلمة تكون أقلّ أهمية، ولا بُدَّ لنا من شرح طريقة ارتباط الأفكار التامة الكاملة بالواقع.

ثَمَّةَ نظريتان من نظريات الإحالة، أو الإشارة المتعلقة بالمعنى تتوافقان مع وجهتي النظر، أو الرأيين أعلاه: الرأي الإنشائي، والرأي القائل بالجملة الكاملة.

- **وجهة النظر المباشَرة**: معنى كلمة (نابليون) لا يشير إلى نابليون الرجل، أو الفرد فحسب، وإنّما يشير أيضًا إلى الدلالة التاريخية المباشَرة المرتبطة بهذه الكلمة.
- **وجهة النظر الوصفية**: الإحالة أو الإشارة إلى نابليون تنطوي على معرفة الحقائق والأوصاف التي تحدد الشخص المذكور على نحو خاص.

تستند وجهة النظر المباشَرة إلى الافتراض الواقعي، ألَا وهو أنّ ثَمَّةَ شخصًا محددًا بالفعل نعرفه من خلال ذكر اسمه. أمّا وجهة النظر الوصفية فهي تستند إلى ما نعرفه من معلومات، أو أفكار حول نابليون (التي قد لا تكون صحيحة أصلًا) التي تجعلنا متفقين حول هوية الرجل الذي نتحدث عنه.

الكلمات تُرصَف إلى بعضها البعض لتكوين الجملة على وفق ما تذهب إليه وجهة النظر الإنشائية

سلاسل السببية

سلسلة المسببات، أو السلسلة السببية هي أقوى صلة مباشَرة ترجع بنا إلى اللحظة

التي أُطلق فيها اسم (نابليون) على ذلك الطفل. لقد واجهت هذه النظرية السببية عدداً من الاعتراضات، إذ من الممكن أن توجد صلة سببية، أو علاقة سببية تعود بأدراجها إلى الطفل نابليون، ولكن ليس إلى مفهوم (وتر المثلث) (الذي لايمتلك قوى سببية لأنه مفهوم مجرد). وعليه فإنّ هذه النظرية لن تنجح في عالم الرياضيات، ويبدو أنّ الحديث عن ذي القَدَم الكبيرة (bigfoot)، يشير إلى شيء غير موجود، لذلك لا يمكن أن تكون ثَمَّةَ صلة، أو رابط سببي. إن كان ثَمَّةَ نظرية أفضل فسوف تقول ببساطة أنّ الإحالة أو الإشارة تبدأ بالاستخدام الأصلي للمصطلح، ثُمَّ تستمر من خلال استخدام المجتمع، أو المجموعة البشرية التي تستخدم ذلك المصطلح أو تلك المفردة.

وجه شاول كريبك نقدًا لاذعًا إلى النظرية الوصفية. لو قال قائل بأنّ نابليون هو من كان منتصرًا في معركة أوسترليتز، ثُمَّ أكدّ مؤرخ بأنّ (نابليون في الواقع لم يكن هو المنتصر في أوسترليتز، فإنّ ذلك تناقض واضح) أيْ إنّ (المنتصر في أوسترليتز لم يكن منتصرًا فيها). لن يتمكن أحد من إنكار جميع الأوصاف التي نستخدمها لكي تُعزى الإشارة إلى (نابليون)، لأنها ضرورية لتوضيح تحديد هوية من نتحدث عنه. في الواقع، يمكننا أن نشير بدقة إلى (ذلك الرجل الذي يحمل شراب المارتيني) حَتى لو كان الوصف خاطئًا (لأنه لا يحمل شراب المارتيني بل كوبًا من الماء)، وعليه فإنّ الإحالة لا يمكن أن تعتمد على حقيقة الأوصاف.

ترى كلّ من النظريتين، المباشَرة والوصفية، بأنّ اللغة نفسها لها خصائص إشارية (بسبب ما تتمتع به من إرث لغوي، أو وصفي)، لكن ثَمَّةَ وجهة نظر أخرى تقول بأنّ الناس، وليس الكلمات، هم الذين يشيرون إلى الأشياء. فلعلّ كلمة (نابليون) تشير إلى رجل، أو خنزير، اعتمادًا على ما يقصده المتحدث، إذ إنّ الإشارة، أو الإحالة يمكن أن تتحقق من خلال نظرة عين لها مغزى، أو بعبارة يضيفها المتكلم مثل « أنت تعرف من هو المقصود »، فضلاً عن الطرق المعهودة.



كان نابليون هو المنتصر في معركة أوسترليتز، بَيْدَ أنّ الإشارة، أو الإحالة لا يمكن أن تستند إلى هذا الوصف أو المعلومة فقد ينقض ذلك كلام لمؤرخ يثبت به العكس

علم الدلالة

ثَمَّةَ بُعدان يمكن التمييز بينهما في أيّة جملة هما (النحو)، أو بنية الجملة أو هيكلها، و (الدلالة)، أو المعنى الذي تعبر عنه الجملة. تختلف البنية النحوية للجملة عن المعنى، مثلاً: (هو يحب العنب)، (هي تحب الفراولة) لهما نفس البنية النحوية. ليس التمييز بين الأبعاد المختلفة أمرًا واضحًا دائمًا، فجملة (هو سهل الإرضاء) تبدو مشابهة في بنيتها لجملة (إنّها متلهفة للفرح)، بَيْدَ أنّ المعنى ليس كذلك. إنّ الصورة التقليدية هي أنّ النحو ميكانيكي، إلى حدّ ما، لا يكتسب الحياة إلّا عندما يقترن بدلالات معينة.

صيغة المسند إليه والمسند

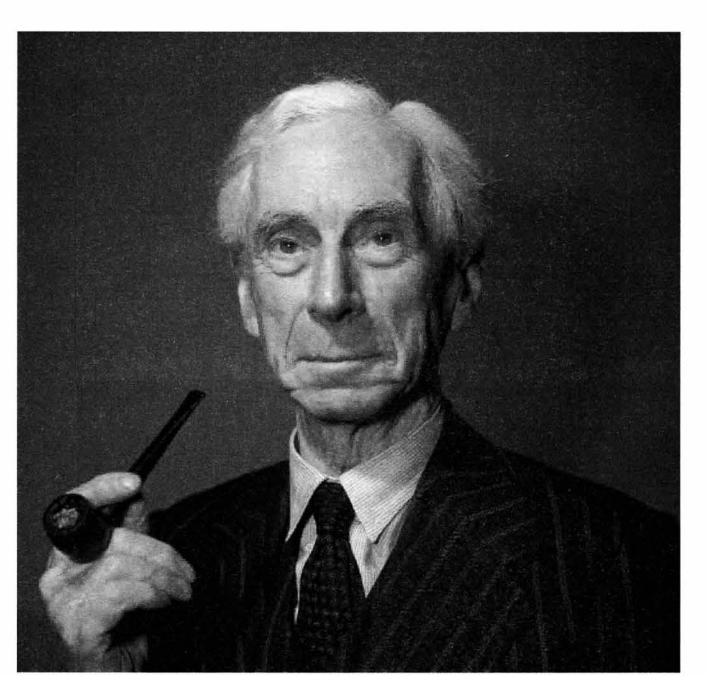
هل ينبغي أن يكون للدلالة نفس الهيكلية الموجودة في النحو؟ تحوي معظم لغات العالم صيغة المسند إليه، والمسند، إِذ تبدأ الجملة بالفاعل، المسند إليه، ثُمَّ يأتي بعده المسند كما في الجملة الآتية: « شجرة الصفصاف تسقط أوراقها مبكرًا هذا العام » لدينا في هذه الجملة دلالات الأشياء، وخصائصها تتضافر مع عناصر النحو لإيصال رسالة ما، لكن ثَمَّةَ مشاكل متعددة:

- الفاعل، أو المسند إليه في هذه الجملة، (ليس ثَمَّةَ أوراق تغلق المجاري هذا العام) لا يشير إلى شيء محدد (ليس ثَمَّةَ أوراق).
- كيف يستطيع شخص ما، آخذين بنظر الاعتبار الفرق بين المعنى الدقيق، والمعنى الواسع لفحوى الأفكار، أن يعرف المعنى الدقيق لهذه لجملة (شجرة الدردار تنمو في الغابة) إذا لم يكن قد شاهد شجرة دردار من قبل؟
- إلى أي جهة، أو شيء يُعزى إليه بيغاسوس في هذه الجملة، (بيغاسوس هو حصان مجنح)، إذا كان هذا الكائن غير موجود في العالم المادي أو الفيزيائي؟



من الصعوبة بمكان أن نتخيل بيغاسوس بصورة من الصور، أو بشكل من الأشكال، لأنّ بيغاسوس غير موجود في العالم المادي أو الفيزيائي

الشكل المنطقي للجملة


برتراند راسل هو من جاء بفكرة (الشكل المنطقي) للجملة

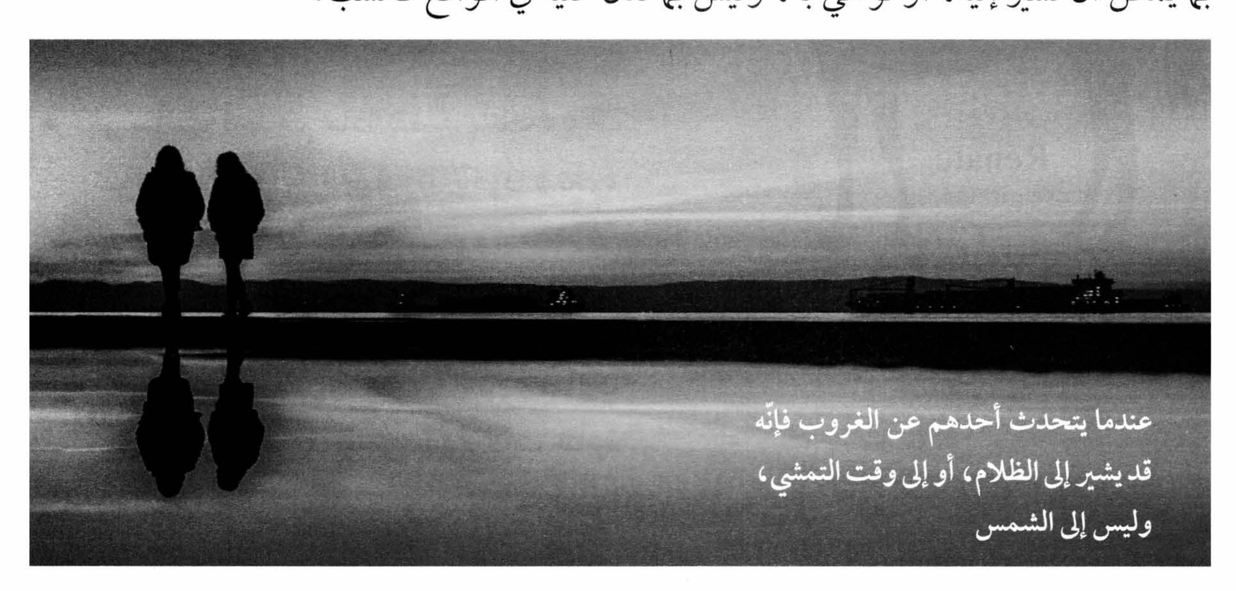
تقدّم المناطقة، مثل برتراند راسل، بفكرة الشكل المنطقي أو الصيغة المنطقية للجملة، الذي قد يكون مختلفًا تمام الاختلاف عن الشكل النحوي الظاهري. فما إن يتضح الشكل المنطقي (للأشياء الموجودة في العالم المادي، على سبيل المثال) حَتى يتيسر تحديد المعاني ومعرفتها. يمكن أن يساعدنا المنطق الشكلي في توضيح الصيغة، (أو الشكل)، المنطقية توضيحًا لا لبس فيه.

النظرة التركيبية للمعنى

تتطلب النظرة التركيبية للمعنى، (حَيثُ يتم بناء الجمل)، تكامل الدلالات، وتفاصيلها على نحو مفصل، كامل، لكن لعلّ من الأسهل أن تأتي الفكرة كلها أوّلًا، ثُمَّ نبدأ بموضوع الجملة، أو بما تعنيه الجملة، وليس ما يشير إليه المسند إليه. الجملة الآتية: « مسيرنا سوف يبدأ بعد الغروب » تشير إلى الشمس، لكن من المحتمل أن يكون المعنى المقصود هو الظلام، أو توقيتًا محددًا لانطلاق المسير. قد نتمكن من تحديد شروط الحقيقة للجملة دون عناء التفكير بالإحالة أو الإشارة المعنية، أو قد نركز على المواقف (بدون أن نذكر الحقيقة).

مفاهيم في جمل

ثَمَّةَ مشكلة أخرى تتعلق بـ (نطاق) المفهوم، أيْ الموجودات التي يشير إليها المفهوم. عندما نستخدم كلمة (Cordate) (قلب أو ورقة على شكل قلب) لنطلقها على حيوان ما، فهذا يعني أنّ ذلك الحيوان له قلب، أمّا إذا أطلقنا عليه اسم (Renate) (اسم يطلق على الإناث ويعني فائقة الجمال)، فإنّ ذلك الحيوان لديه كليتان. الحقيقة الثابتة هي أنّ الحيوانات الحية لها قلب، وكليتان، أيْ إنّ نطاق كلمة Cordate (الحيوانات التي تمتلك قلبًا) مطابق لنطاق كلمة (Renate) (الحيوانات التي تمتلك كليتين). إذن، للكلمتين النطاق ذاته، لكنّ المعاني مختلفة، وعليه لا يمكن معرفة دلالات الكلمات بمجرد تحديد الموجودات، أو الأشياء التي تشير إليها. وقد أدى ذلك إلى دلالات عوالم (أو موجودات) محتملة، ما يميط اللثام عن الفرق بين (Cordate) و(Renate) كموجودات محتملة إِذ يمكن أن يكون للحيوان قلب، لكن ليس لديه كلية، أو العكس. بمعنى، أنّ المعاني تتحقق بما يمكن أن تشير إليه، أو توحي به، وليس بما تدل عليه في الواقع فحسب.



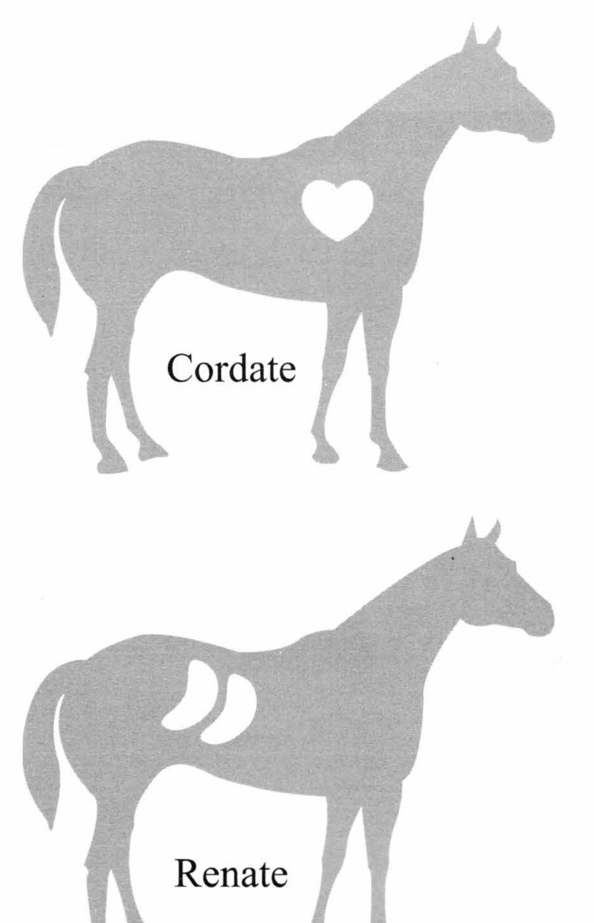
عندما يتحدث أحدهم عن الغروب فإنّه قد يشير إلى الظلام، أو إلى وقت التمشي، وليس إلى الشمس

الكلمات الإشارية

ثَمَّةَ مشكلة أخرى تتعلق بالكلمات الإشارية مثل (هُنا)، و(الآن)، و(نحن)، التي تعتمد في معانيها على المكان والزمان والمتكلم. كلمة (الآن)، على سبيل المثال، لها معنى ثابت ألَا وهو اللحظة الحالية، لكن أيّ لحظة حالية؟

للمعنى مكونان، معنى جامع كليّ، ومعنى يقصده المتكلم في مناسبة معينة. لا بُدَّ لدلالة هذا النوع من الكلمات أن يحدد:

- ماهو معنى كلمة (الآن)؟ ولعلّ الجواب هو « تشير كلمة الآن إلى اللحظة التي نطقت الكلمة بها ».
- لو سألت أحدهم ماذا تقصد بأنك سوف تقوم بذلك الآن؟ فجوابه قد يكون « نعم، سوف أقوم بذلك هذا الصباح ».

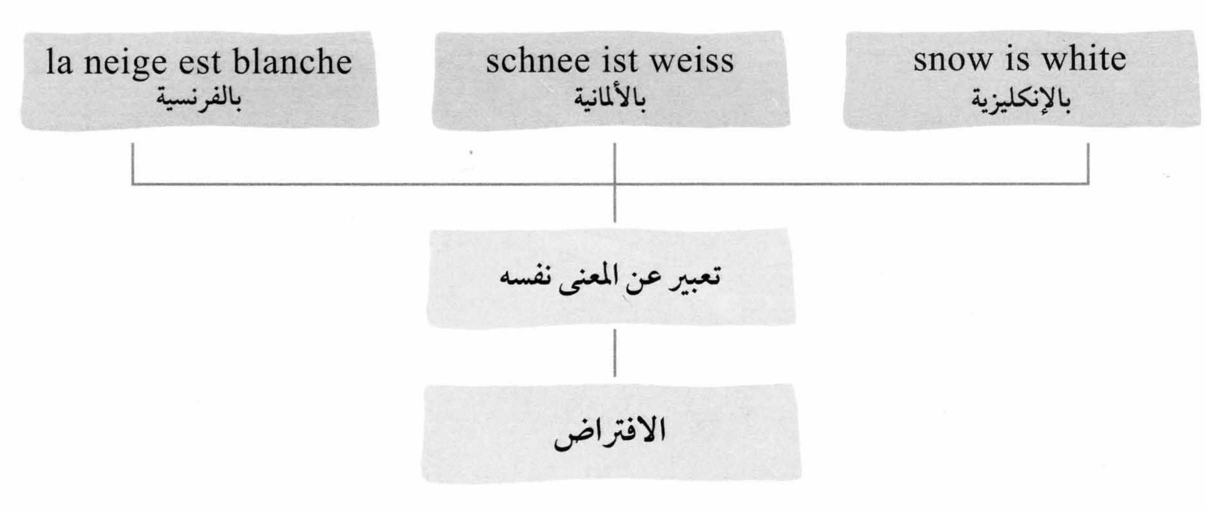


إن نطاق كلمة Cordate (مطابق لنطاق كلمة Renate. إذن، للكلمتين نفس النطاق، لكن المعاني مختلفة

لا بُدَّ من تحديد وحصر كِلا الجزأين لكي يتسنى لنا شرح استخدام كلمة (الآن). لقد أدى ذلك إلى منظومة عامة تسمى (دلالات ثنائية الأبعاد) تساعدنا على التقاط، أو ضبط الجوانب المعقدة للمعنى في اللغة.

الافتراضات

الجمل الثلاث الآتية: (snow is white) و(schnee ist weiss) و(la neige est blanche) كلّها تعبر عن المعنى نفسه ألَا وهو (إنّ الثلج أبيض)، الجملة الأولى بالإنجليزية والثانية بالألمانية أمّا الثالثة فهي بالفرنسية. هذه الجمل الثلاث تعبر عن شيء واحد يسمى افتراض (proposition)، ويقصد بهذا المصطلح (افتراض) فكرة ذات معنى كامل تام يمكن التعبير عنه بلغة ما، والذي قد يكون صحيحًا، أو خاطئًا.



يقول النقاد إنّ الجمل الثلاث حول الثلج ما هي إلّا ثلاثة ردود (متكافئة) تتعلق بحقيقة بسيطة من حقائق العالم. لماذا نضيف (افتراضات)، إذا كان بإمكاننا شرح كلّ شيء بدونها؟ يقول المدافعون عن الافتراضات إننا نحتاجها منْ أجل أن يكون ثَمَّةَ منطق في ما نكتب أو نقول، وهي مما يفرضه علم نفس التفكير والحديث، وكذلك هي ضرورية في الترجمة لكي يفهم القارئ ما يترجم له. بعض الحقائق يدعمها المنطق بغض النظر عن اللغة المستخدمة للتعبير عن تلك الحقائق. لو تم

تحديد الشكل المنطقي للجملة، وهو التفسير الدقيق للافتراض الأساس، فإنّه سوف يحظى بقبول الجميع بغض النظر عن اللغات التي يتحدثون. لعلّنا نجد معانيَ دقيقة، أو ظلالَ معانٍ في كل لغة يتعذر ترجمتها إلى لغة أخرى، بَيْدَ أنّ الافتراض هو ما ينبغي أن يكون جوهر المعنى الذي يتفق عليه الجميع. غالبًا ما نستخدم هذه العبارة: (ما قصدت قوله هو...). أو (ما أحاول أن أقول هو ...) وهذا يعني بأننا نصوغ الأفكار في أذهاننا قبل أن نجد الكلمات المناسبة للتعبير عنها. تتطلب عملية الترجمة ذاتها أن نفهم ما تقوله الجملة فهمًا دقيقًا، ثُمَّ التعبير عمّا نفهمه بلغة أخرى.

ثَمَّةَ نظريات رئيسة أربع حول الافتراضات التي يمكن عدّها:

- جوانب محددة للواقع.
- أحداث في العقل.
- موجودات مجردة بسيطة.
- مختارات من عوالم محتملة.

يقول برتراند راسل إنّ جملة ما حول (الجبل الأبيض Mont Blanc)، جبل على الحدود بين فرنسا وإيطاليا، تشير إلى الجبل الفعلي، أمّا الافتراض فهو مجموع الخصائص التي تميز الجبل مرتبة في نسق معين (الارتفاع، الخطورة، ... إلخ). الإيجابية في ذلك الأمر هي أنّ المتحاوريْن يتحدثون عن الشيء نفسه، بَيْدَ أنّ ما يتعسر عليهم هو تفسير حديث عن جبال خيالية، وهذا النوع من التفسير لا يتقبل التعميم، ولا التجريد. بَيْدَ أنّ ما يحيّر في هذا الأمر، هو لماذا تتحد هذه المكونات في افتراض واحد؟

قد تكون الافتراضات أحداثًا ذهنية، تتم صياغتها قبل أن نعبر عنها بكلمات، لكننا في الواقع غير مدركين لوجود افتراضات في أذهاننا، لأننا نركز على جوهر الافتراض، أو موضوعه وليس على

الشيء نفسه. إذا كان رأي راسل ماديًّا واقعيًّا إلى أبعد الحدود فإنّ ثَمَّةَ أفكارًا وآراءً أخرى تقول بأنّ الافتراضات تجريدية تتكون من جميع الأفكار المحتمل ورودها في الذهن. أيْ إنّ الافتراضات كثيرة جدًا، مِثلُها مِثلُ الأعداد اللا نهائية التي نتقبل وجودها. لعلّ من الممكن التعامل مع افتراض ما على أنّه مجموعة عوالم ممكنة تكون فيها جميع شروط الحقيقة محتملة. يقدم لنا هذا الرأي الافتراض بهيئة موقف من المواقف، أو حالة من الحالات، إلّا أنّه لا يبوح لنا بشيء عن بنيته وهيكله.



على وفق ما يرى بيرتراند راسل فإنّ جملة عن الجبل الأبيض تكون محتوية على الجبل نفسه

التحليلية والأفكار المركبة

التحليلية هي محاولة معرفة حقيقة الجملة فحسب عن طريق تحليل صياغتها. لايمكن معرفة الجملة إلّا من خلال معاني الكلمات كما في الجملة الآتية: (الشبرق صغير القطة). لقد استهوت الباحثين فكرة تقسيم اللغة على منظومتين: منظومة الأفكار التحليلية الخاصة بالمفاهيم (ما تحويه القواميس)، ومنظومة الأفكار المركبة عن العالم (ما تحويه الموسوعات). يرى التجريبيون بأنّ الحقائق الضرورية فحسب هي التحليلية (لأنّها صحيحة بصحة وجود تعريف لها)، أمّا الحقائق المركبة فليست ضرورية لتعذر معرفة ضرورتها عن طريق التجربة (فلا بُدَّ من ملاحظة أو استشعار كل حالة، فعليّة كانت أم محتملة). هذه القضايا كلّها تتمحور حول طبيعة حقيقة تحليلية ما فضلاً عن معرفة إن كان الفرق الكبير بين مضمونها التحليلي، والتركيبي فرقًا حقيقيًّا واقعيًّا.

أفكار تحليلية	أفكار مركبة
يمكن تحديد الحقيقة من خلال صياغة الجملة	يمكن تحديد الحقيقة من خلال علاقة الجملة بالعالم
أفكار تتعلق بمفاهيم	أفكار تتعلق بالعالم
مثال: القاموس	مثال: دائرة المعارف

قال كانت إنّ المسند (الجملة تتكون من مسند إليه ومسند)، في الحقيقة التحليلية موجود ضمنًا في المسند إليه، مثلاً كلمة (شبرق) تنطوي ضمنًا على مفهوم (قطة صغيرة). وعليه، لا بُدَّ من تفكيك محتويات، أو مكونات المسند إليه لكي نتحقق من صحة الجملة. لاتنجح هذه الطريقة إلّا بوجود مسند إليه نفكك محتوياته، ونفرغها. أمّا جمل مثل « إمّا P أو Q هو الإجابة الصحيحة، إن لم يكن

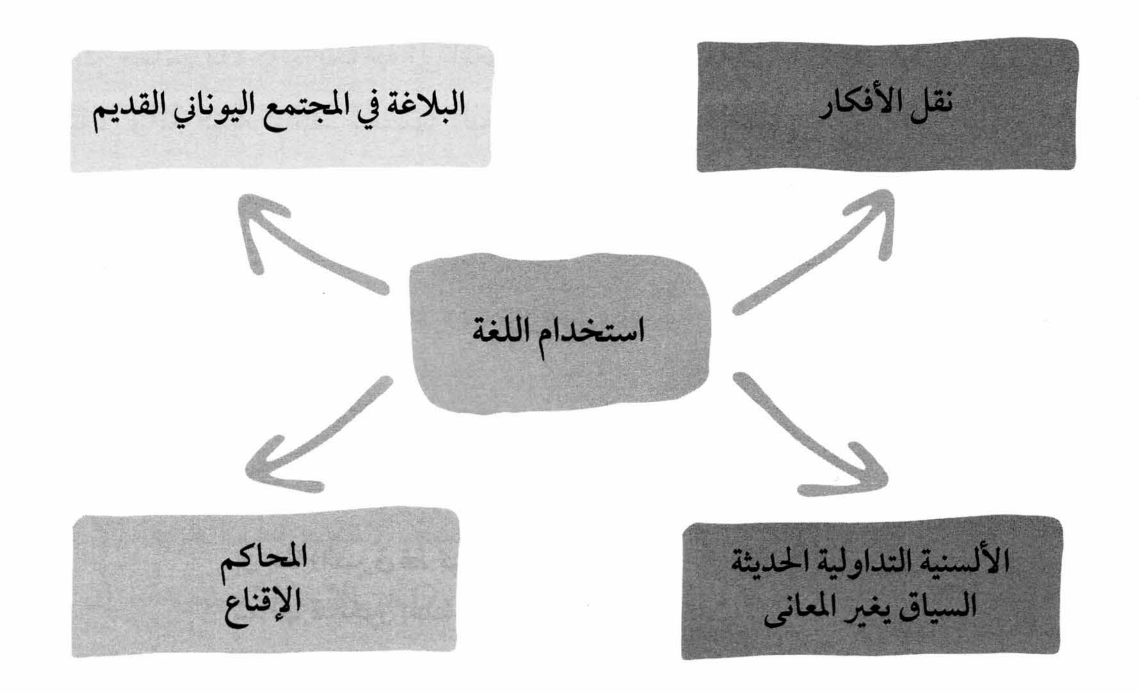
P، فهو Q » فهي جمل تحليلية لكن دون مسند إليه. الأمر نفسه ينطبق على جملة (هذا الشبرق قطة كبيرة السّن) التي يمكن عدّها إعادة تعريف لـ (القطط)، وليس تناقضًا. ثَمَّةَ نقاشات، وجدل أعقب هذه الآراء، وقد خرجت تلك النقاشات بما مفاده أنّ التحليلية تعني جواز استبدال كلمة (شبرق) بعبارة (قطة صغيرة) في أيّ سياق.

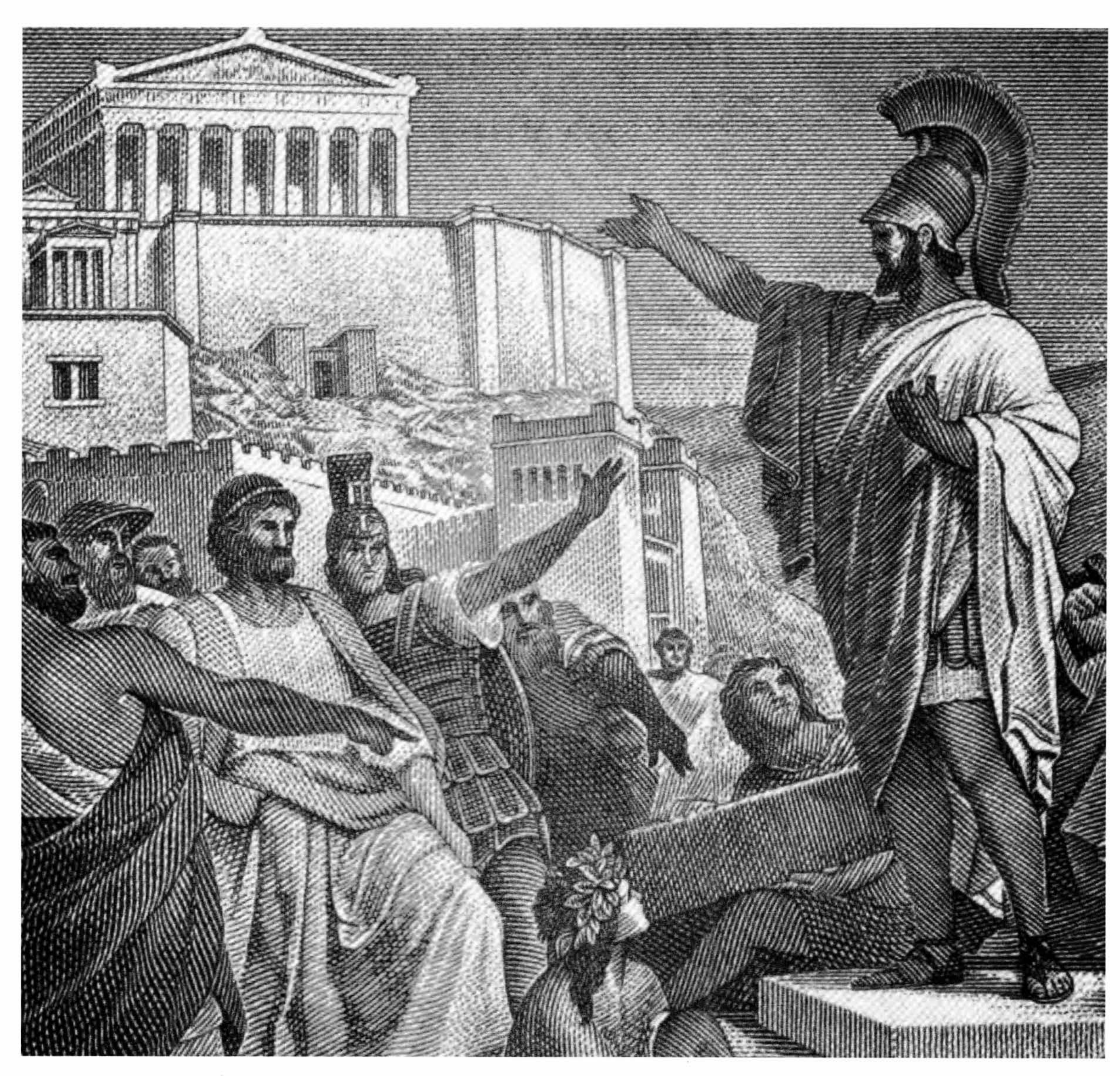
نفَى ويلارد كواين أيّ فرق بين ما هو تحليلي، وما هو تركيبي. وأنكر طريقة التعويض باعتبارها طريقة اختبار للتحليل كما في الجملة التي مَر ذكرها، فمعنى عبارة (قط صغير) هي بالضبط ما تعنيه كلمة (شبرق) إلّا أنّ المصطلحات المختلفة لا يمكن أن تكون متطابقة تمامًا، لأنّ الكلمات المستخدمة في مصطلح أو جملة ما، ترتبط بعلاقات متعددة ضمن نطاق اللغة الأوسع. فضلاً عن ذلك، فإنّ ثَمَّةَ وشائج قوية تربط المعاني بالحقائق (على سبيل المثال، المعاني التي ترتبط بأعمار القطط). لكي نذكر حقائقَ ما، فإننا بحاجة إلى المعاني، وعليه فإنّ الحقائق التحليلية، والتركيبية ترتبط ببعضها البعض ضمن إطار الفهم البشري الواسع، ولا يمكن الفصل بينهما. إن كان كواين محقًّا، فإنّ كلّ شيء، حَتى الرياضيات والمنطق، يعتمد على العالم الحقيقي (لأنها ليست تحليلية)، ويمكن تغييره إن لزم الأمر.

إنّ جملة (الشبرق قط كبير) تعد متناقضة بَيْدَ أنّها قد تكون إعادة تعريف للكلمة

التواصل

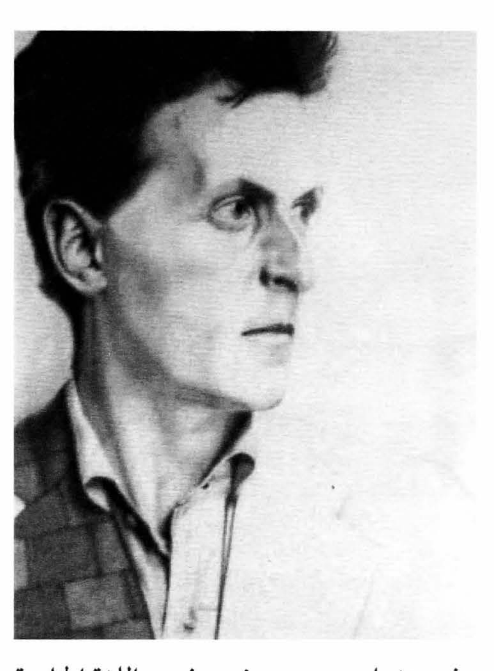
إنّ الغاية الرئيسية من استخدام اللغة هو نقل الأفكار. وقد خاض اليونانيون الأوائل جدالات كثيرة حول أهمية البلاغة (مهارات التحدث أمام الجمهور)، لأنها كانت تحظى بالقَدَح المعلّى في حياتهم ومجتمعهم. فما هو الهدف الرئيسي من الخطابة؟ هل هو لكسب تأييد الناس ومواقفهم، أو هو لإماطة اللثام عن الحقيقة؟ كان سقراط يعتقد بأنّ الهدف الثاني هو الأجدر بالخطابة، وكان يدافع عن رأيه هذا، بَيْدَ أنَنا، في هذا العصر، نرى أنّ الخطابة تستخدم في المحاكم القانونية الحديثة، والانتخابات لإقناع الجمهور بدلاً من تصحيح المفاهيم أو الواقع. تركز (الألسنية التداولية) الحديثة على اللغة العملية، وعلى طرق وأساليب خلق سياق معين، ومستمعين معينين، وتوظيف ذلك في تغيير المعاني، والإحالة، أو الإشارة، بل وحَتى تغيير الحقيقة أو تزييفها.





لعبت الخطابة دورًا بالغ الأهمية في اليونان القديمة

فكرة اللغة الخاصة



فيتجنشتاين هو من وضع مفهوم اللغة الخاصة

يعتقد لودفيج فيتجنشتاين بأنّ اللغة التي تعجز عن التواصل تدل على فكر غير متماسك. ولهذا رأي معروف في اللغة الخاصة خلاصته أنّ اللغة، في الأساس، مجموعة قواعد لا مناص من اتباعها، ولا بُدَّ من تدقيق خارجي للتحقق من اتباع القواعد (مثلما تحتاج لعبة التنس، أو غيرها من الألعاب، إلى هيئة تحكيم).

لا تستطيع اللغة الخاصة أن تعبر عن الأمزجة الكامنة المضمرة على نحو خاص، فالمعنى الذي تعبر عنه كلمة (أزرق)، مثلاً، لا بُدَّ أن يكون عامًّا على الرغم من أنّ الإحساس باللون الأزرق ليس كذلك. إنّ فكرة اللغة الخاصة مثيرة للجدل، لكنّها مهمة، لأنها تشير ضمنًا إلى أننا أقلّ فردانية مما يُفترض. يعتمد المعنى، والفهم، أيضًا، إلى حدٍّ كبير، على السياق. فالسياق مثل المواقف التي تختلف في طبيعتها وظروفها. على سبيل المثال، إنّ الذهاب إلى أداء امتحان في الجامعة، وما يصحبه من قلق، أو توتر ليس مثل البحث باسترخاء وتمهل عن مطعم يقدم الوجبات اللذيذة. إنّ الكلمات الإشارية (Indexical) مثل (هُنا) و(الآن) لا تعبر عن معنى كامل إلّا في سياق. وهذه الجملة «ثَمَّةَ مشكلة، لذلك يجب أن نتكاتف» لن يكون لها منطق مفهوم تمامًا إلّا في سياق. يرى البعض بأنّ الأمر أكبر، وأعقَد مما نتصور، فَثَمَّةَ كلماتٍ، وعباراتٍ لا تُعدّ ولا تحصى توجد بينها اختلافات طفيفة في المعنى يمليها سياق الحدث أو الموقف. وعليه، فإنّ التواصل الواضح أصعب بكثير ممّا نظن، وهذا ما يفسر الكثير من سوء الفهم الذي يحدث بين الأفراد أو الجماعات.

التلميحات والمعاني المضمرة

حدد هربرت بول كرايس مجموعة من المعايير المتعارف عليها (تسمى التلميحات أو المعاني المضمَرة) التي من خلالها نتمكن من تفسير ما يقال. نتفق جميعًا على أنّ ما يقال يجب أن يحتوي القدَر اللّازم من المعلومات، وأن يكون منسجمًا مع ما نظنّ أو نعتقد، وأن يكون موجزًا خاليًا من الترهات العقيمة. ثَمَّةَ، على الدوام، من يخرق هذه المعايير أو الضوابط، لكنّ من يفعل ذلك يتعرض إلى استهجان الآخرين وانتقادهم. تستند المحادثات أيضًا إلى افتراضات مسبقة غير معلنة، هي التي تشكل لُبَّ الموضوع، أو فحوى الحديث على الأخص، وتستند كذلك إلى التغييرات غير الملحوظة للموضوع، الأمر الذي يحدث في كثير من المحادثات. في الفلسفة، يُعدّ التمييز بين الافتراضات أمرًا أساسيًّا لكي نتمكن من التحقق من حقيقتها أو صحتها.

تمثل الترجمة بين اللغات المختلفة اختبارًا حقيقيًّا لما بين أيدينا من مفاهيم، وآراء متعلقة بالمعنى. كانت الشكوك تراود كواين (Quine) بخصوص الترجمة المثالية متسائلًا إن كانت الترجمة المثالية ممكنة، لأننا نفهم كل كلمة من خلال التداخل والانصهار الكامل بين شبكة واسعة من العناصر اللغوية والمعتقدات. إن كان كواين محقًّا، فإنّ ذلك يجعل المقارنة بين النظريات العلمية أمرًا صعبًا أيضًا. بَيْدَ أنّ هناك من يقول علينا الأخذ في نظر الاعتبار الإيجابيات أو احتمالات التشابه والتناظر بين اللغات المختلفة التي يتحدث بها بشر مثلنا يحملون نفس العقل والمنطق.

علينا أن نتفاءل، ونفترض بأنّ من يتحدث لغاتٍ أخرى مختلفة عن لغتنا هم بشر مثلنا، ولهم نفس العقل، ويفكرون بذات المنطق. وعليه، يمكن أن تكون الترجمة على قدر كبير من الأمانة، والبراعة على الرغم من الاختلافات الثقافية الكبيرة بين اللغتين. من المحتمل أن ينشأ سوء فهم قاتل بسبب أخطاء الترجمة، لكنّ المقارنة بين النظريات العلمية أمر متاح، وقد أثبت نجاحه إِذ إنّ من الممكن، (بعد بذل جهود حقيقية)، للثقافات المتباعدة أن تلتقي، ويفهم بعضها بعضًا.

القرن التاسع عشر

كان كبار الفلاسفة، في القرن التاسع عشر، أشخاصًا أفذاذًا اتّسموا بتفرّدهم، وتميزهم. كان منهم آرثر شوبنهاور (1788 - 1860) الذي أنكر على هيجل آراءه، ومذهبه، وركز على سبل العيش التي ينبغي على الناس سلوكها في حياتهم، قائلًا بأنّ الجوهر البشري هو الإرادة، (وليس الذات) التي تقودها الرغبات. كان شوبنهاور يؤمن بأنّ الإرادة ليست حرةً، لأنّ الدوافع التي تُحركها خافية عنّا، وعليه فإنّ الحياة، كما رآها، ليست إلّا فخًّا وقعنا فيه، ولا خلاص لنا منه إلّا بالفن. لقد قاده تشاؤمه وإنكار الذات إلى اعتناق البوذية.

كان سيرن كيركجارد (1813 - 1855) من فلاسفة هذا القرن أيضًا، وقد أنكر فلسفة هيغل، والميتافيزيقيا، لأنّه كان يرى بأنّ الإنسانية بحاجة إلى حقائق تساعدها على أن تحيا حياتها. وكان يعتقد بأنّ الذات مذبذبة بتذبذب الصراعات الأخلاقية أو المعنوية، ومتقلبة بتقلبها، وهي تكون في حالة من القلق عندما يتوجب عليها الاختيار. إنّ الاختيار هو كلّ شيء، فهو وثبة الإيمان باتجاه المسيحية، على نحو خاص. لقد كانت أفكار كيركجارد المنطلق الذي مهّد لظهور الوجودية.

أمّا الفيلسوف أوغست كومت (1798 - 1857) فقد كان يعتقد بأنّ للعلم الحديث الدور الأساس في التفكير الفلسفي. كانت عقيدته التجريبية المتعلقة بالوضعية تؤكد بأنّ اليقين أو الحقيقة (Truth) لا توجد إلّا في الوقائع القابلة للقياس والملاحظة (مثل الإحصائيات). وكان يسعى إلى توسيع آفاق هذا الرأي ليمتد إلى العلوم الاجتماعية، والتقليل التدريجي من حالة الميتافيزيقيا.

من فلاسفة هذا القرن كارل ماركس (1818 - 1883) الذي كان معجبًا بهيجل، وكان يرى بأنّ القوى الجدلية التاريخية والاجتماعية هي التي تُشكّل حياتنا وتوجهها. وكان يعتقد بأنّ هذه القوى الجدلية موجودة في الحياة الاقتصادية، لا بالمفاهيم. وكان يرى بأنّ تغيير العالم هو هدف

الفلسفة الجديد، وأنّ الجدلية تتطور من خلال وجود التوتر بين الطبقات الاجتماعية، والمواجهات التي تندلع بين العمال المضطهدين والرأسماليين من أصحاب المال والنفوذ.

بدأ فريدريك نيتشه (1844 - 1900) مشواره مع الفلسفة من خلال إعجابه بشوبنهاور، لم يكن يحبّ صور أفلاطون المتعالية، وكان يؤمن بنسبية السُّفسطائيين. كان نيتشه يؤمن بأنّ إرادة القوة هي التي تهيمن على كلّ شيء، ولم يكن يؤمن بوجود الذات، أو الإرادة الحرّة. كان ملحدًا، وكان يعتقد بأنّ الناس كائنات مادية متطورة. كانت قِيَمُهُ نُخبوية، وكان الطموح نحو الأفضل هو ما يثير إعجابه، وليس الحياة المريحة.

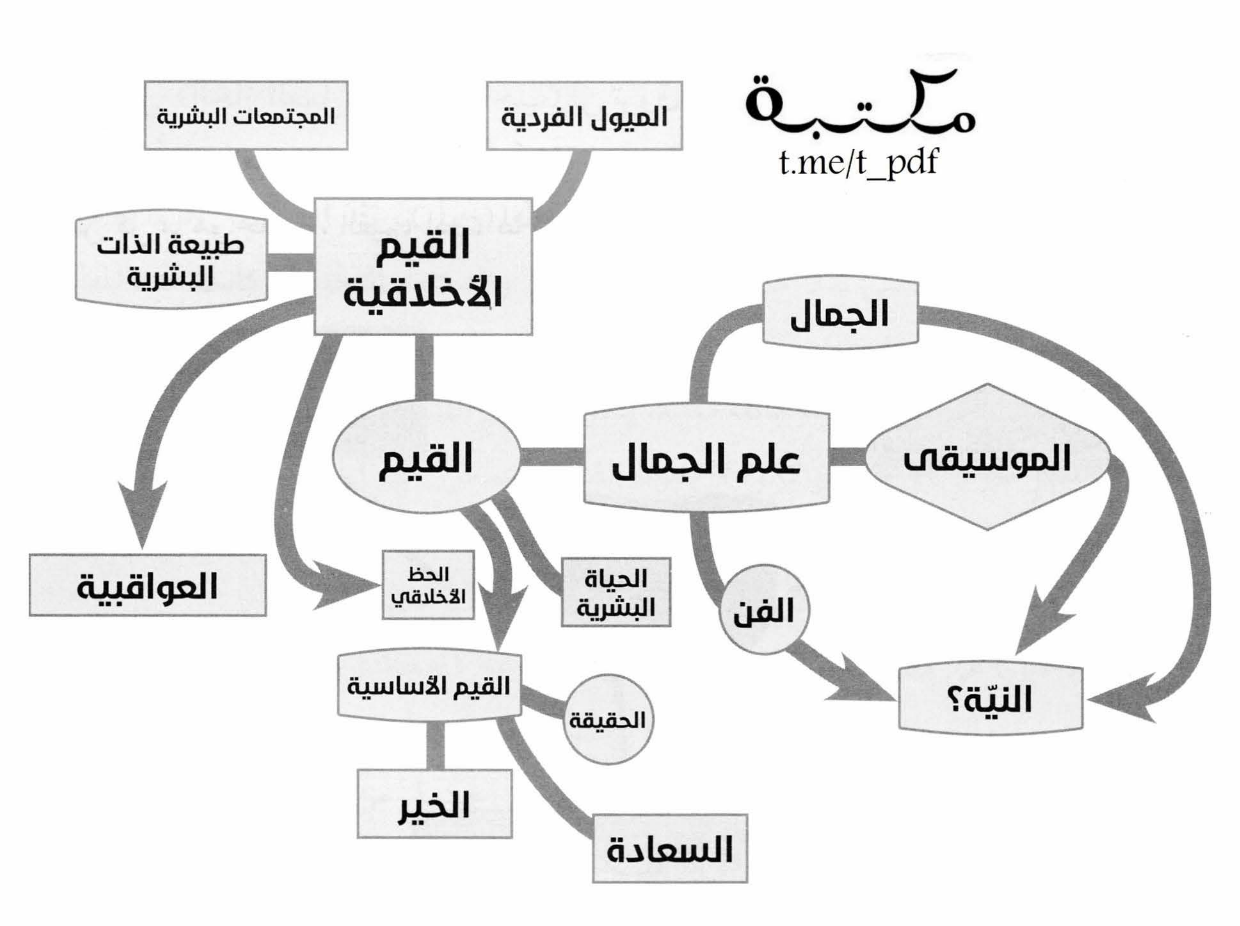
ومن فلاسفة هذا القرن أيضًا جون ستيوارت ميل (1806 - 1873) الذي عكف على دراسة المناهج التجريبية للطريقة الحسابية والعلمية، ودافع عن الظاهراتية (التي يعرّفها الجميع على أنّها هي المظاهر). عُرِف عن ستيوارت ميل أنه من أبرز الدعاة إلى النفعية، وهو من طوّرها، وكان من أنصار الفردية الليبرالية في السياسة.

أخيرًا، كان تشارلز ساندرز بيرس (1839 - 1914) يعتقد بأنّ الفلسفة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالعلم الذي لن يستقر أبدًا على حقائق نهائية، وإنّما يتبنى نظريات لها تأثيرها. الأمر نفسه ينطبق على الحياة، فالفرد يحيا ويعيش من خلال كلّ ما له تأثير، وليس من خلال (الحقيقة)، لذلك كانت فلسفته البراغماتية الجديدة شكلاً عمليًّا متقدمًا من أشكال التجريبية.



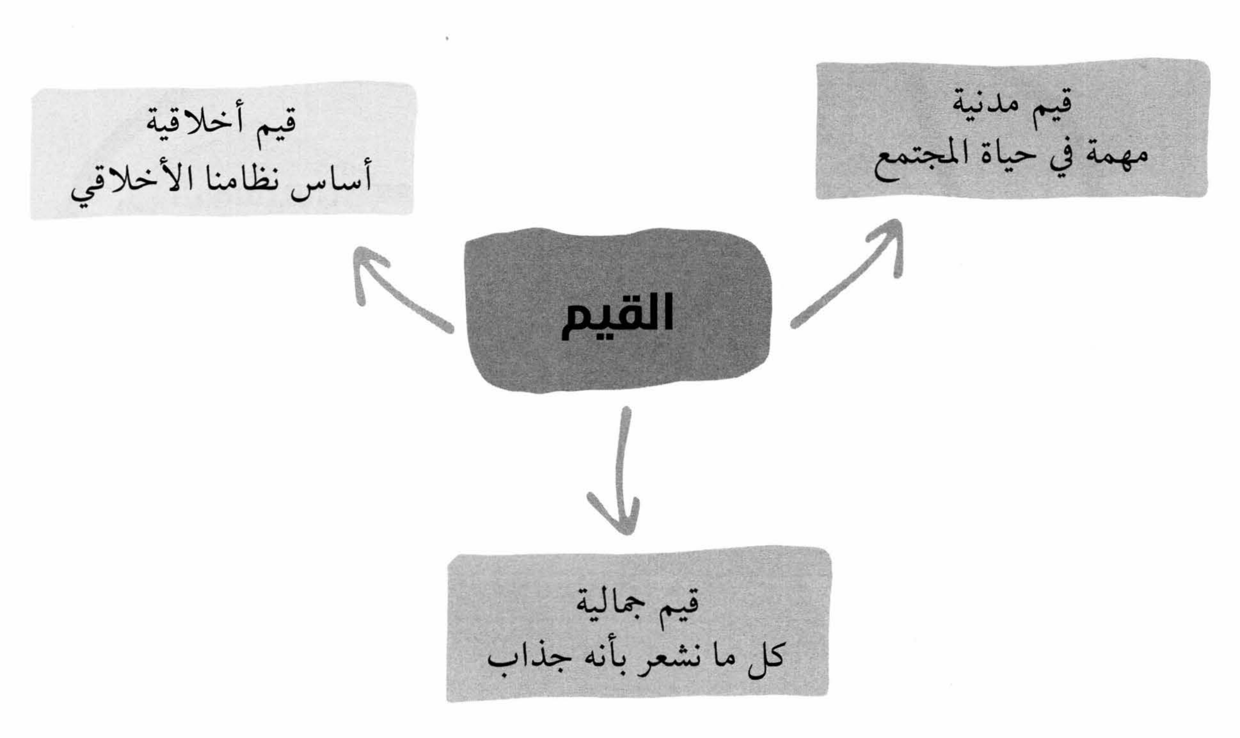
كيركغارد مؤسس الحركة الوجودية في الفلسفة

القيم


المجتمعات البشرية
الميول الفردية
مكتبة
t.me/t_pdf
طبيعة الذات البشرية
القيم الأخلاقية
الجمال
القيم
علم الجمال
الموسيقى
العواقبية
الحظ الأخلاقي
الحياة البشرية
الفن
النيّة؟
القيم الأساسية
الحقيقة
الخير
السعادة

علم الجمال

القِيَم مفاهيم عامة لها جاذبيتها وتأثيرها، فهي تستنهض الناس، وتثير فيهم الهِمَم. تمثل القيم خلاصة كل ما هو جوهري في نظر الناس الذين يحرصون على أن يعتنق غيرهم نفس القيم التي تمثل لهم كل ما هو صالح وأساسي. القيم الأساسية بالنسبة لنا هي القيم الأخلاقية الشخصية، وهي أكثر أهمية من المبادئ الشخصية التي نعتنقها، لأنها مطلب أساسي في بناء النظام الأخلاقي للمجتمع. إنّ مبادئ مثل (إنجاز العمل، وأداء الواجب) لن تروق لنا إلّا إذا كانت تنسجم مع ما نعده جوهريًّا وهامًّا. ثَمَّةَ قيم (مدنية) هي، أيضًا، تُعدّ قيمًا جوهرية في المجتمع، وقيم (جمالية) على ضوئها يحدد الناس كل ما هو جذّاب. القيم، إذن، لها أهمية كبرى، لكنّ طبيعتها محيرة.

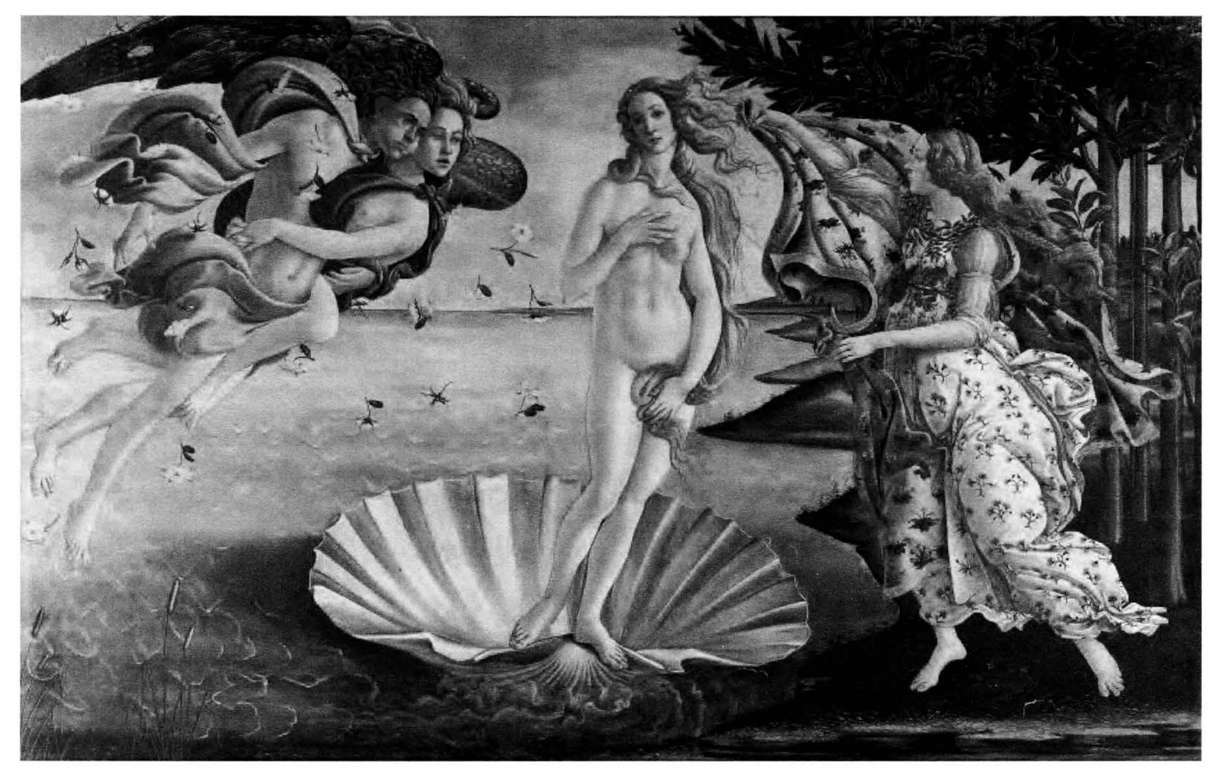


- هل إنّ القيم تعبر عن الحقيقة الأبدية؟
- هل هي خلاصة إستراتيجيات العيش المنطقية؟
- هل هي مجانبة للعقل والمنطق؟
- هل يمكننا تقديم أسباب تبرّر تمسكنا بقيم معينة؟
- هل يمكننا التأكد من وجودها مثل العواطف؟

الجمال

بعض الناس لا يعيرون اهتمامًا كبيرًا لما يقال عنه إنّه (جميلٌ)، بَيْدَ أنّ الناس جميعًا يشعرون بالإعجاب بالإنجازات التي تدلّ على البراعة والمهارة، والذكاء والتحدي. كانت هذه المفاهيم بالنسبة لليونانيين القدماء تشير إلى معنى واحد تقريبًا، أمّا في العصور الحديثة فإنّ التقييم الجمالي يُعدّ ردّ فعلٍ مميز يتطلب حساسية ما، أو ذائقة معينة. يتذوق معظم الناس الجمال الطبيعي (سواء أكان في وجهٍ أم في منظرٍ طبيعي)، حَتى لو كانوا لا يحبّون الفنون. يتمحور علم الجمال حول تجارب الإنسان المميزة والجوهرية في الطبيعة والفنون. الجمال تجسيد للعقل، والحقيقة، والحكمة، فضلاً عن المتعة، والعواطف الأخرى، وهو يلعب دورًا أساسيًّا في كل المجتمعات الحديثة.

كلمة (جميل) هي مصطلح واسع الدلالة، فهو يطلق على المعجنات، والنجارة، كما يُطلق على غروب الشمس، واللوحات الفنية. كان الجمال بالنسبة لأفلاطون أمرًا في غاية الأهمية، فهو مؤشر على القيمة الأخلاقية، وتذوقه هو الخطوة الأولى على طريق الحكمة. من جانب آخر، يعتقد البعض بأنّ الجمال أمر نسبيّ، فعندما نسمع (هذا جميل) أو (ما أجمل هذا) فإننا إزاء ردة فعل شخصية فردية، وليس أمام حقيقة مطلقة. فكلّ شخص يرى الجمال على حسب تجربته وذائقته الخاصة.



الجمال مفهوم واسع الدلالة على نحو كبير، فهو قد يُستخدم لوصف عمّال يعملون، أو لوصف عمل فني، أو غيرهما. ومعظم الناس يتذوقون شكلًا ما من أشكال الجمال

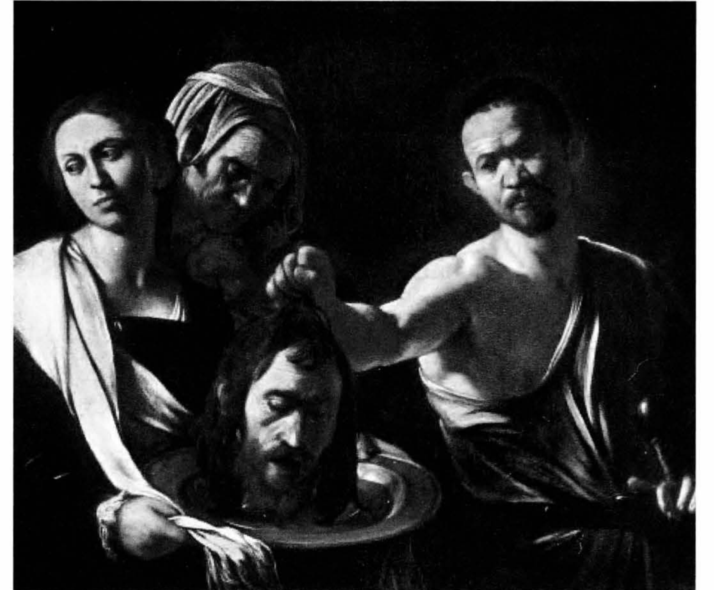
ثَمَّةَ فرق بين الميول الجمالية، والتقديرات، والأحكام الجمالية، كما يرى أؤلئك الذين يراودهم الشكّ بنسبية الجمال. غالبًا ما تطرق أسماعَنا هذه العبارة: (إنني أعرف ما أُحبّ) لكن، من جانب آخر، لدينا نقّاد الفن والموسيقى، الذين يسعون جاهدين إلى معرفة ميول الناس ورغباتهم، فضلًا عن إشاراتهم إلى كل ما ينبغي على الناس أن يُؤثروه ويميلوا إليه.

إنّ تحديد ما هو جميل بطريقة موضوعية ينطوي على ذائقة حقيقية لا يمكن أن يكون إلّا عن طريق أشخاص لهم نظرة ناقدة متفحصة، وخبرة، وسجل حافل في اكتشاف ما يتفق الآخرون على

جماله وجودته. لو قيل عن فنان ما توفي قبل مدة طويلة بأنّه لم ينَل حظه من الشهرة، والتقدير فإنّ هذا يعني بأنّ فنّه يمتاز بخصائص جمالية رائعة حَتى لو لم يتذوقها أحد.

الأحكام الجمالية	الميول الجمالية
نقدية	فردية
كل ما نحبّه / كل ما ينبغي علينا أن نحبه	كل ما أحبّه

إنّ تذوق الجمال، والإحساس به يُعدّ متعة كبرى، بَيْدَ أنّ تحديد مصدر الإحساس بالمتعة، وأسبابها أمر شاقّ وعسير. كان الفلاسفة الرومانسيون ينظرون إلى الفخامة أو الجلال على إنّه شكل خاص من أشكال الجمال. وكانوا يرون هذا الجلال في السماء المرصعة بالنجوم، أو في المناظر الطبيعية الخلابة، إنه جلال يخلق في النفس إحساسًا استثنائيًا بالرهبة والبصيرة، والشعور بالتصاغر أمام عظمة الكون وفخامته.


الفن جميل حَتى لو كان يصور، أو يعبر عن أمر في غاية القسوة والفظاعة

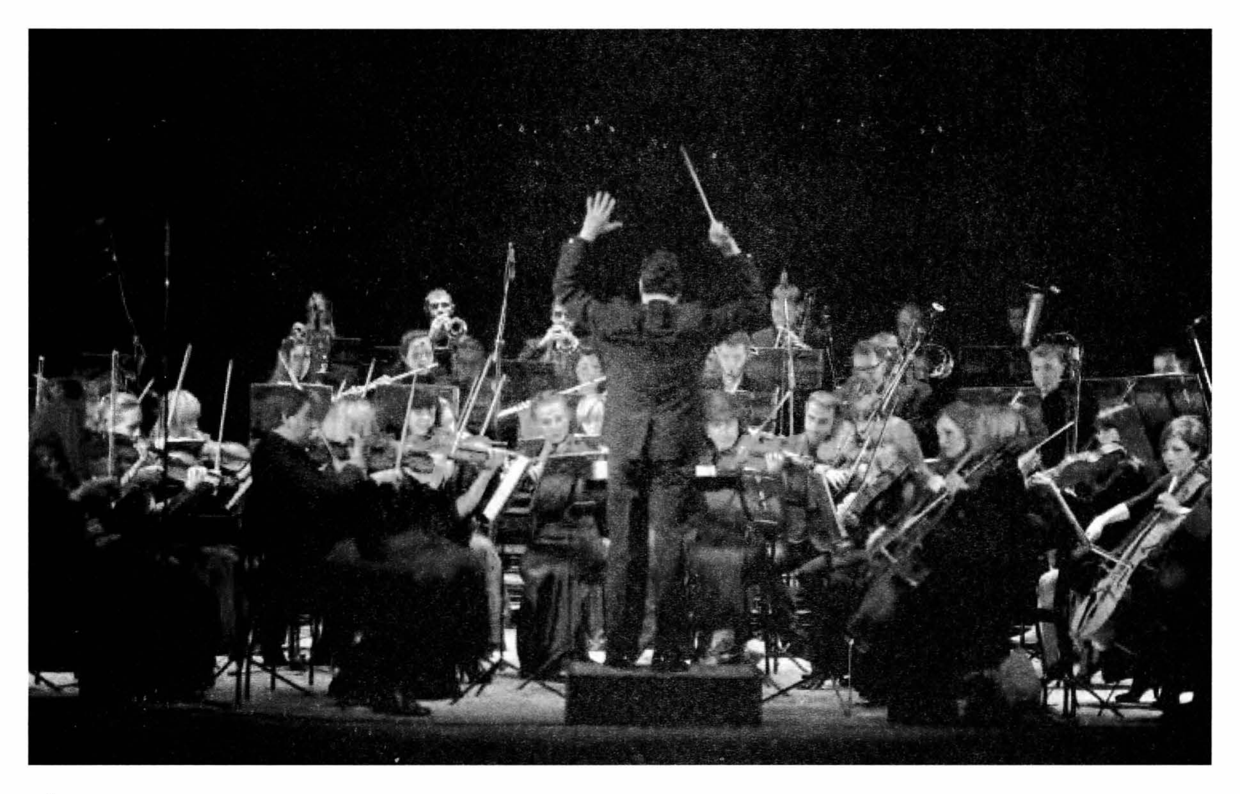
الجمال العادي موجود في الكثير من الأشياء من حولنا، كما هو الحال في الأشياء المتناغمة (مثل الأثاث الأنيق)، أو في حالات الانسجام التام مع غرض، أو غاية من الغايات (مثل نَمْر يجري)، أو في حالة الخيال الاستثنائي (كما في مسرحيات شكسبير مثلًا). إنّ اللّغز الذي ألِفناه، والسؤال الذي اعتدنا أن نسأله، هو لماذا نشعر

بأنّ الأدب جميل، والفنّ جميل حَتى لو كانا يصوران أو يعبران عن أمور في غاية القسوة والفظاعة، الأمر الذي يدل على البَون الشاسع بين أن يكون الشيء جميلًا، أو مجرد (ممتع). من الممكن المقارنة بين خصائص الأشياء الجميلة، وكذلك بين مستوياتها وكثافتها، وعليه فإنّ المسألة لا تقتصر على كونها مجرد مسألة شعور.

الفن

تركز معظم المناقشات الجمالية الحديثة على الأعمال الفنية. إنّ التشابه الكبير بين تجارب الموسيقى، والرسم، والأدب، والرقص، والفنون الأخرى يجعلنا نقدم تفسيرًا موحدًا لطبيعتها. كيف تنبثق الأعمال الفنية؟ ما هي الجوانب الأساسية الهامة للعمل الفني؟ ما هو الغرض من الأعمال الفنية؟ وما هي القيمة التي تنطوي عليها؟ ما الذي يميز أفضل الأعمال الفنية عن غيرها؟

ثَمَّةَ نمط وجود واضح يميز اللوحات الفنية، والمباني كأشياء مادية ملموسة، ولكن ماذا عن الموسيقى، سِمفونيات بيتهوفن مثلًا؟ إنّها تُعدّ شيئًا أو جسمًا، فلها اسم، ومميزات متنوعة، وباستطاعة الجمهور التركيز عليها، وهي تُعزف وتُؤدّى على مرّ الأيام، وتوالي الحقب، فهي لا تُؤدّى مرة واحدة، بل عشرات، ومئات المرات، وتظل كما هي مثل لوحة أو مبنى. العلامات الموسيقية المكتوبة صامتة، لذلك لا يمكن أن تكون هي السِمفونية، وكلّ أداء يختلف اختلافًا طفيفًا عن غيره، لذلك لا يمكن أن يوجد عزف ما، أو أداء ما يُعدّ النسخة الأصلية أو الحقيقية دون غيره. لذلك للمعزوفة أو القطعة الموسيقية وجود، أو تمظهرات متعددة، أو لعلّها تجريدٌ من التجريد، وهي سوف تبقى مشكلة لطلاب الأنطولوجيا.



ليست السِمفونية هي ما مكتوب من نوتات وعلامات صامتة، ولا كلّ أداء أو عزف يختلف اختلافًا طفيفًا عن غيره

مقومات الفن

إنّ المقومات التي يتكون منها الفن هي:

- أفكار الفنان، ومشاعره، وخياله، ومقاصده.
- شكل العمل وفحواه.
- تركيز الجمهور، ومشاعره، وثقافته.
- الدور الاجتماعي الذي يلعبه الفن.

نظرية الفن: ما هو جوهر العمل الفني؟

النظرية التقليدية: طوية الفنان ومقاصده.

النظرية الرومانسية: عواطف الفنان ومشاعره.

النظرية الحديثة: الرسالة الاجتماعية التي يروم الفنان إيصالها.

تناولت الدراسات الأهمية، وعدم الأهمية النسبية لكلّ نظرية من النظريات أعلاه. فيما يتعلق بالنظرية الأولى، انطلقت المناقشات الحديثة من فكرة فحواها أنّ نيّات الفنان أو مقاصده ليس لها علاقة، ولا صلة في ما يبدع من أعمال فنية، لأنّ الحكم على العمل الفني ينطلق من العمل نفسه، أو يقتصر عليه وحده. أمّا بالنسبة للنظرية الثانية فإنّ البعض يثير الشكوك حول فكرة أنّ الفن يعبّر عن مشاعر الفنان وعواطفه، لأنّ الأعمال الفنية التي تعبر عن مشاعر جياشة متدفقة يمكن أن يستغرق إنجازها شهورًا، ولا يمكن لمشاعر الفنان أن تبقى على نفس الوتيرة من التدفق، والجيشان طوال هذه المدة. ومع ذلك، لو تعرفنا على صاحب العمل الفني، أو حياته فلربما قد عرفنا الهدف الذي يكمن خلف عمله الفني. من الصعب الاستمتاع بأيّ عمل فني دون بعض التواصل مع مبدعه. لذلك، فإنّ العديد من المفكرين يحثّ القراء والمهتمين على الاهتمام بالسياق التاريخي إن أرادوا الإحاطة بأيّ عمل فني وفهمه على الوجه المطلوب.

من الواضح أنّ الفن الجميل هو الفن الذي يستقطب الناس، ويثير أفكارهم ومشاعرهم. الفن الرومانسي فن عاطفي للغاية وهو قد يستدر الدموع، لكنّ ثمةَ فنًّا آخرَ أنيقًا، مدهشًا، مبهرًا، يرضي المتلقين ونزعاتهم الفكرية. إنّ أفضل الفنانين هم أؤلئك الذين تدهشنا حكمتهم ومواهبهم الفذّة التي تمكنهم من تجسيد بصائرهم في أعمال فنية متكاملة. وقد ركّز بعض المفكرين على نحو كامل



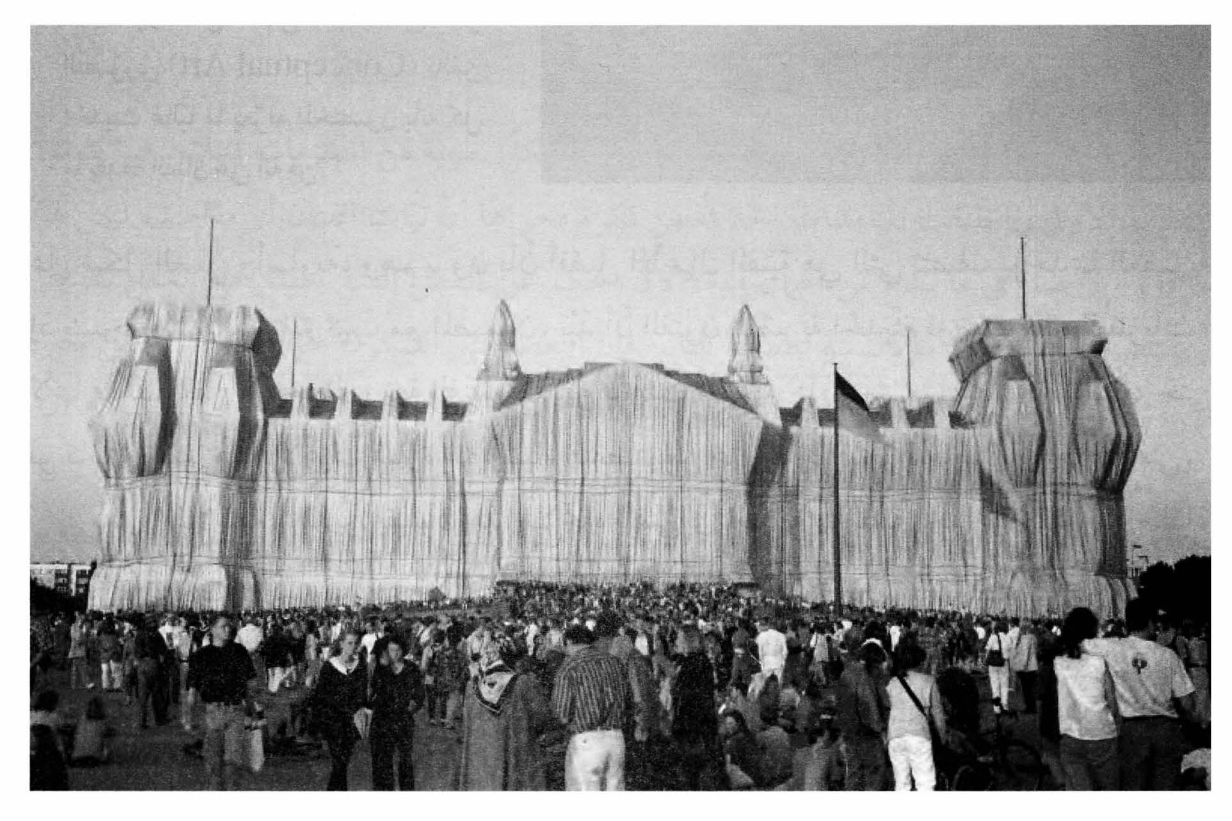
يُعدّ عمل الفنان مارسيل دوشامب (النافورة) من أفضل الأمثلة على الفن التّصوّري (Conceptual Art) فالفن الحديث غالبًا ما يعرّفه المختصون بأنه كلّ ما يقدمه الفنان على أنه فن

على شكل العمل وأسلوبه، وهم يرون بأنّ أفضل الأعمال الفنية هي التي تتصف بوحدتها العضوية إِذ ينسجم الشكل، والتركيب مع المضمون. بَيْدَ أنّ الفنون البصَرية الحديثة قوضت هذه النظريات، لأنها قدّمت الفن من خلال رؤية الفنانين الذين برهنت أعمالهم على عمق مواهبهم وأصالتها، حَتى لو كانت بعض هذه الأعمال عبارة عن أشياء التقطت من على ساحل بحر لتُعرض في معرض فني.

يرى الفلاسفة، الذين يقبلون هذا الاتجاه الفني في الفن، مؤسسة اجتماعية أكثر منه خلقًا، أو إبداعًا من نوع معين. في الوقت الحاضر يمكن أن يُعِدّ النقاد والجمهور مبنى كبيرًا ملفوفًا بالنسيج عملاً فنيًّا، الأمر الذي لا يمكن تصوره قبل قرن من الزمان مثلاً.

لقد أسفرت محاولات تحديد طبيعة الفن عن حركات تمرّد فنية، والشيء نفسه حدث في الجهود النظرية التي بُذلت لتحديد رسالة الفن، وغايته التي يروم الوصول إليها. لقد انتهت وجهة النظر التقليدية التي تزعم بأنّ الفن هو فرع من فروع التربية الأخلاقية إلى رفض الفنانين الشباب رفضًا قاطعًا لربط الفن بأيّ غرض أخلاقي. بَيْدَ أنّ الآراء والنظريات القديمة لن تضمحل، أو تختفي على الرغم من حركات التجديد والتمرد. فما دام الفن جميل، أو أنّه يشير ويعبر عن بعض القضايا

الأخلاقية، والسياسية، فإنّه سيظل مهمًّا للناس، وسوف تبقى أعمال الفن العظيمة الرائعة محل إعجاب الناس وتقديرهم. لعلّ بعض الأعمال الفنية الطارئة الغريبة تمنح الناس شيئًا من المتعة، والتسلية بعض الوقت، لكنّ أغلب الناس يبحثون عن الأعمال التي تثير فيهم التفكير والمشاعر الحقيقية، وتكون مصدر إلهام لهم، وليس عن مجرد التسلية.



يعدّ العمل الفني (الرايشتاغ الملفوف) للفنانين كريستو وجان - كلود، في عصرنا الحديث، عملاً فنيًّا مدهشًا يثير الإعجاب، الأمر الذي لا يمكن تصوره قبل قرن من الزمان

القيمة الأخلاقية

تشكل المُثل الفنية مثل (الجمال) مصدر إلهام لنا، والدور نفسه تلعبه القيم الأخلاقية مثل (الخير)، و (الحق)، و (الواجب)، و (الفضيلة). إنّ أفضل مقترب للقيم هو أن نتحرى مصدرها ونسأل عنه. لو أنّ صخرة كبيرة حطّمت صخرة صغيرة على بعد تريليون ميل من عالمنا فإنّ ذلك ليس له أيّ جانب أخلاقي، أو علاقة بقيمنا الأخلاقية. الأمر بنفسه ينطبق على تعرض بلدة ما إلى ضربة من نيزك عشوائي، وهو أمر سيئ جدًّا، لكنّه أيضًا لا يمتّ للقيم الأخلاقية بصلة، إلّا إذا كان أمرًا مقصودًا، أو بفعل فاعل. أمّا إذا أسقط أحدهم قنبلة على بلدة ما، فإنّ الغاية من وراء إسقاط القنبلة، ومعاناة الناس تجعل الأمر قضية أخلاقية. قد توجد كائنات عاقلة، أو أخلاقية أخرى في هذا الكون، بَيْدَ أنّ القيم الأخلاقية التي نتحدث عنها هي التي تنبثق من الإنسانية وشؤونها.

ثَمَّةَ مصادر ثلاثة رئيسية تنبثق عنها القيم الإنسانية:

- طبيعة البشر بشكل عام.
- عادات المجتمعات البشرية.
- الاهتمامات الفردية.

لَولَا القيم الإنسانية، لكان الجنس البشري قد اختفى منذُ مدة طويلة، فالإنسان بحاجة إلى الأمن، والدفء، والتغذية، والصحة، والتعليم، وما إلى ذلك. قد تصبح هذه القيم مهملة في بعض الأحيان (بخاصة في زمن الحرب)، لكنّ من المستحيل التخلي عنها. تنتج عادات المجتمع، وأعرافه العديد من القيم الجوهرية العديدة مثل الولاء، والشرعية، والطاعة، على الرّغم من أنّ كلّ مجتمع له حياته المختلفة، ونمط عيشه المتميز. قد تتلاشى قيم الأفراد، أو تنزوي في العديد من الحالات، مثل العبودية، أو في الجيش، بَيْدَ أنّ المجتمعات الليبرالية الحديثة تشجع الأفراد على تطوير قيم خاصة

بهم انطلاقاً من اهتماماتهم أو مصالحهم. ثَمَّةَ مصادر أخرى للقيم تنبثق من التخصص أو من طبيعة العمل أو القضية. لقد بات الإنسان، على سبيل المثال، يدرك أهمية البيئة، والحيوانات الأخرى، أمّا المجالات المتخصصة مثل الرياضيات والبستنة، فإنّ لها قيمها الخاصة المتعلقة بمستوى الدقة أو التخطيط، مثلاً يحتاج أنصار البيئة إلى العمل على وَفق نظرة بعيدة المدى، وهم يدرسون ظاهرة إزالة الغابات، ولاغنى لعلماء الرياضيات عن قيم الدقة والتناسق، أمّا البستاني فلا بُدَّ له من أخذ التغييرات الموسمية بنظر الاعتبار.

حقيقة القيم

لكن هل تنطوي هذه القيم على الحقيقة، وهل لها تأثير وإلزام، أو أنها مجرد مواقف تنشأ بشكل أساسي عن العواطف التي يمكن أن تكون بسهولة مختلفة اختلافًا تامًّا؟ ثَمَّةَ مقولة مشهورة لديفيد هيوم تفيد إنّه لا توجد علّة تثبت صحة القيم أو الواجبات والتعهدات انطلاقًا من الحقائق الطبيعية الواضحة. يرتبط هذا التمييز الصارم الدقيق بين الحقائق، والقيم بالرؤية العلمية للواقع، والأدلة التي يصرّ عليها التجريبيون. إننا نحب العطف والإحسان، ولكن هل يمكن أن نثبت أنّ هذه سجايا قيّمة؟

إذا كانت ثَمَّةَ قيم عديدة صحيحة موضوعيًّا، إذن فإنّ من المتوقع أن تكون تلك القيم محل إجماع معظم الناس. لعلّ الإجماع على القيم الإنسانية متحقق، لكنه ليس كذلك فيما يتعلق بالقيم الثقافية (Cultural) والفردية. يقول النقاد بأنّ الحدّ الفاصل بين القيم والحقائق ليس حدًّا فاصلاً قاطعًا. إذا وصفنا شخصًا ما بأنه (لا يبالي بشيء)، أو أنه (خائن)، أو يقول لك شخص ما بأنه (مدين لك) بشيء ما، أو (يحتاج) إلى شيء ما، فإنّ هذه العبارات، والأوصاف تبدو كأنها حقائق تنطوي على قيم معينة. بل إنّ البعض يعتقد بأننا لا نستطيع على الإطلاق أن نرى الأشياء (وكأنها حقائق باردة) بعيدًا عن القيم حَتى في أثناء الاشتغال بالعلوم البحتة.

العواقبية (مبدأ العبرة بالعواقب) = الغاية تُبرّر الوسيلة.

يدافع أصحاب هذه العقيدة عن الرأي القائل بأنّ كلّ ما يهم في الأفعال الأخلاقية هو أن تكون العواقب حميدة. ما نريده هو مواقف حسنة (حَيثُ يكون الناس سعداء، ويتمتعون بالصحة وما إلى ذلك)، وإذا كان علينا أن نقوم بإجراءات غير سارة لتحقيق غايات حميدة، فلعلّ ذلك مقايضة رابحة. بَيْدَ أنّ ثَمَّةَ من يقول بأننا يجب أن نفعل ما هو صواب دائمًا (حَتى لو كنّا لا نرغب في العواقب الناتجة، كما هو الحال عندما يعترف أحدهم بالذنب بسبب بعض التصرفات السيئة التي بدرت منه)، لأنّ الأخلاق متعلقة بأفعالنا، وليس بما يتمخض عنها من مواقف طيبة أو سيئة. وعليه فإننا نتحاشى الكذب ونتجنبه، وإن اضطررنا إليه، فإننا نشعر بالذنب والامتعاض. غالبًا ما يستشهد البعض بأُحجيَة (الحظّ الأخلاقي) لدحض هذا الرأي.

الموقف	الخير	ثَمَّةَ حيوان أليف في المدينة
	الشرّ	حيوان خطر في المدينة

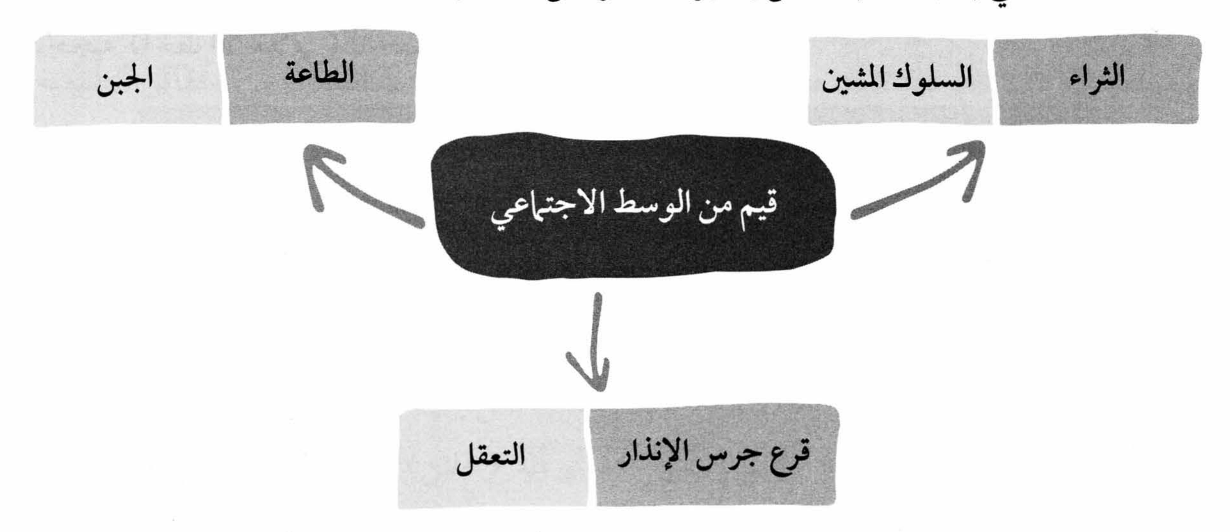
الفعل	الصحيح	إطلاق النار على الحيوان الخطر
	الخطأ	إطلاق النار على الحيوان الأليف

الحظ الأخلاقي

لو قمت بوضع لَبِنَة أو حجرًا على حائط بلا مبالاة غير مقصودة، فإنّك ستكون موضع اللّوم والتقريع بقسوة مفرِطة لو سقط هذا الحجر وشجّ رأس أحد المارّين مثلاً، أمّا لو سقط الحجر دون أن يؤذي أحدًا، فلن يلومك أحد أو يقسو عليك. هذا المثال يدل على أنّ ما يهمنا جميعًا هو نتائج الفعل

أو عواقبه، لكن عندما نحاول أن نحكم على الشخصية، وليس الأفعال، فإنّ سريرة المرء، ونيته هما اللتان تهماننا أكثر من أفعاله. ولعل النية أو السريرة هي التي تجعل أحدهم يفقد أصدقاءه سريعًا، لأنّه يضع الأحجار على الجدران حَتى لو لم تُلحق ضررًا بأحد.

يرى المتفائلون بأنّ القيم تنطوي على حقائق شمولية جامعة، لذلك تتشابه المجتمعات في قيمها الأساسية، برغم من الاختلافات الكبيرة والعميقة بين المجتمعات. تنطلق تلك القيم من المثل العليا، أو من رغبة الإنسان، (خصوصا الأطفال)، في الإحساس بعطف الآخرين، ورعايتهم، واهتمامهم. على أيّة حال، هناك من يشكك في هذا التفكير معتقدًا أنّه تفكير قائم على رغبة وأمنيات. غالبًا ما يتقبل التجريبيون، الذين لا يرون أيّ دليل ملموس على وجود قيم حقيقية، وجهة النظر التعبيرية التي تؤكد أنّ الأخلاق ما هي إلّا مسألة إحساس بالقبول أو الرفض.



ينظر المفكرون السياسيون المعاصرون إلى القيم على أنّها ناشئة عن الطبقة أو التركيبة الاجتماعية، لَا سِيَّما تلك التي تمتلك النفوذ. إنّ قيمًا مثل الطاعة، وأداء الواجب، والاجتهاد، والتعقل، والالتزام بالمواعيد هي القيم المطلوب من الموظفين الالتزام بها، لذلك فإنّ النُّخب التي تتمتع بالنفوذ تُروّج لهذه

القيم وعلى البقية أن يتقبلها. بَيْدَ أنّ هنالك قيمًا أخرى، هي القيم الثورية التي تنشأ بين أوساط الفئات الاجتماعية الضعيفة التي ترى في الغطرسة واستعراض الثراء، سجايا مشينة، وهي تساند من يقرع جرس الإنذار، ويفضح الفساد.

كان لنظرية التطور في العصر الحديث، أبلغ الأثر في الجدل والنقاشات التي تناولت القيم، فبحسب نظرية التطور فإنّ القيم انبثقت عن أصول بيولوجية، وليست عقلانية، ومِنْ ثَمَّ فالمحركات الأساسية لأيّ مخلوق هي منْ أَجل البقاء والتكاثر، وما القيم إلّا جزء من الإستراتيجيات التي تؤدي إلى ذلك. بالنسبة للمخلوقات الضخمة كانت قيم التوادّ والتعاون مجرد طرق ناجحة لتحقيق غايات ذاتية. وعلى حسب من يتبنى هذه المنهج فإنّ السبب الرئيسي الذي يجعلنا نعامل الآخرين بلطف ومودة هو حاجتنا ورغبتنا في أن يعاملنا الآخرون بالمِثْل لكي نحيا حياتنا براحة بال.

القيم الأساسية

تحتل القيم أعلى مستويات الأهمية، سواء أكانت ناشئة عن العواطف، أم الفطرة السليمة، أم قوانين البيولوجيا، أم السلطة السياسية. إذن هل نستطيع تحديد بعض القيم التي يمكن للبشرية كلّها أن تبني عليها حياتها الأخلاقية؟ لقد دعى أفلاطون إلى الالتزام الصارم بالقيم، وكان يضع الجمال، والخير، والحق، على شكل هرم قمته تمثل شكل الخير، أو صورته (الأبدية غير المتغيرة، وغير المادية، وهو مصدر جميع القيم). كان أفلاطون واليونانيون يعترفون ويقرّون بوجود قيم أساسية أخرى مثل العقل، والمعرفة، والانسجام، وازدهار المجتمع البشري، والمتعة. وأضافت الأديان قيمًا أخرى، كالإيمان، والحب، والتواضع، أمّا القيم الديمقراطية الحديثة فقد أضافت بدورها مواقفَ ومفاهيمَ أخرى مثل الاحترام. بالطبع هنالك قيم أقل أهمية لكنّها تحظى ببعض الأولوية مثل طول العمر، أو الغنى وجمع الثروات، أو تحقيق الفوز والنجاح.

صورة الخير

الجمال	الخير	الحقيقية

العقل	المعرفة	الاتساق	الرخاء	المتعة

تعرضت فكرة القيمة العليا - الخير المطلق - إلى الكثير من النقد بسبب غموضها وعدم التيقن من وجودها، لكنّ ثَمَّةَ من دافع عنها قائلاً بأنّ كلمة (خير) لا يمكن البتّة أن تُعرف في إطار شيء آخر. على سبيل المثال، لو قال شخص ما بأنّ الملذات هي أمر حسن جوهريًّا، فبالإمكان أن نسأله عما إذا كان يتحدث عن ملذات طيبة أم سيئة. من النادر، في الوقت الحاضر، أن يُقدَّم (الجمال) على إنّه قيمة عليا، على الرغم من أنّ الحياة دون الجمال تبدو خاوية عقيمة لكثير من الناس. أمّا (الحقيقة) فقد تلقت ضربات متتالية في العصر الحديث حَيثُ أصبح إنكار وجودها النسبي (أيْ الإنكار) أمرًا شائعًا. ومع ذلك، فإنّ حياتنا الاجتماعية سوف تواجه المخاطر لو استمر الناس في الكذب، ولن يكون للعلم معنى، ولا جدوى إن لم يُقدِّم لنا الإجابات الصحيحة، أمّا المؤرخون فإنهم سوف يظلون أبدًا راغبين في معرفة ما حدث بالفعل. شعر فلاسفة التنوير بجاذبية شديدة نحو الحياة العقلانية، الأمر الذي تمرد ضده الرومانسيون. قد لا تتفق الثقافات المختلفة حول ما هو عقلاني أو غير عقلاني، بَيْدَ أنّ محبي العقلانية هم من يؤمنون بما تتمخض عنه الرياضيات، والمنطق، والعلوم الدقيقة، فهي مناهج يُحتذى بها، لكن، حَتى في هذه الحالة، يظل السؤال إذا ما كانت هنالك معايير مطلقة. لقد فقدت الحكمة والمعرفة الصرفة في العصر الحديث مكانتهما. لقد جعلتنا الفيزياء نقترب من حدود الإثارة، والرهبة بَيْدَ أنّ أنماط المعرفة الجديدة فحسب هي التي تحظى بالقيمة العليا.

نظر اليونانيون بتقدير، وتبجيل إلى ما يحيط بالكون، وما يتخلل مظاهره ومفاصله، من انسجام، واتساق، وتناغم، وأثر تلك القيم في المجتمع كما يتجلى ذلك في إعجاب الناس ورغبتهم في (السلام والمصالحة). كان تفسير أرسطو وتناوله للأخلاقيات قائمًا على مُثُل عليا هي السعادة، أو الرفاهية، أو الرغد (Eudaimonia).

الرفاهية: هي كلّ ما من شأنه أن يحقق السعادة ويعزّزها.

غالبًا ما تترجم هذه الكلمة اليونانية الأصل (Eudaimonia) إلى كلمة (السعادة)، بَيْدَ أنّ هذه الكلمة لا تدل على مجرد الإحساس اللطيف، أو الشعور الجميل. إنها تعني طيْب الحياة ورغدها، وأنّ كلّ شيء يسير على ما يرام، ونرى أنّ أفضل ترجمة لها هي كلمة (الرّغد) أو (الرّخاء). يرتبط مفهوم هذه الكلمة على نحو وثيق بما يفعله الفرد، وبطبيعة الحياة التي يعيشها، فإن كانت حياته ناجحة سعيدة، فإنها الحياة التي تستحق أن تنعت بهذه الكلمة اليونانية.

مذهب اللذة: يقول بأنّ اللذة هي القيمة الأعلى في الحياة.

يمثل مذهب اللذة أو المتعة (Hedonism) العقيدة التي تقول بأنّ اللذة هي القيمة العليا، وقد باتت الثقافات العَلمانية الحديثة تعتنق هذا المذهب.

معظم الفلاسفة لديهم شكوك حول المتعة، حَتى الفلاسفة الأبيقوريون، الذين ارتبط فكرهم باللذة والمتعة، كانوا يعتقدون بأنّ ضبط النفس قيمة من القيم العليا. وقالوا بأنّ الانغماس المستمر في الطعام والشراب يؤدي إلى السُّمنة، والصداع، وأنّ الخير الأسمَى يتجسد في الصداقة. اعتقد الكثير من الفلاسفة بضرورة الحذر من فكرة أنّ اللذة أو المتعة هي الخير الوحيد. لو قيل لك بأنّ التفكير

الجاد في الفلسفة، على سبيل المثال، لا يجلب لك إلّا التعاسة، فهل ستذهب إلى الأطباء لتخضع لجراحة في الدماغ لتزيد من إحساسك بالسعادة، لكنها تجعلك قليل التفكير؟

من بين كل القيم المستمدة من طبيعتنا الإنسانية البحتة، فإنّ حرمة دم الإنسان وحياته، تلك القيمة البسيطة، هي أكثر القيم وضوحًا، فقتل إنسان من غير ذنب، أمر مدان، ومرفوض في كلّ زمان ومكان، والكلّ يشعر بوجوب أن يبادر إلى إنقاذ من يتعرض إلى غرق أو حريق من الناس. ومع ذلك، فثَمَّةَ حالات إشكالية. هل يمكن أن تفقد حياة الإنسان قيمتها تمامًا إلى الحد الذي يبرر الانتحار، أو القتل الرحيم، أو عقوبة الإعدام؟ هل إنّ بعض الناس لهم قيمة أكثر من غيرهم، بسبب مواهبهم الفذّة (التي تُوضع موضع الاختبار عندما يكون هناك مقعد واحد فقط في قارب النجاة)؟

ثَمَّةَ طريقة ناجحة لاكتشاف قيمنا العليا، ألَا وهي أن نسأل عن أمور لا تخطر لنا على بالٍ، ولا يمكن تصورها، أو حَتى إنّ نسأل ما الذي سنفعله (قبل الموت بمدة قصيرة). إذا كان لديك أصدقاء أشرار يدفعون بك إلى تصرفات شريرة، في أيّ مرحلة تقول (لا.. لا يمكننا فعل ذلك!). من غير المحتمل أن يسلب اللصوص طفلًا لعبته المفضلة عن عمد، أمّا التحايل على المستشفيات، والمرضى فإنّه أمر منبوذ محتقر من الجميع. ثَمَّةَ أخلاقيّات لا بُدَّ من مراعاتها حَتى في أوقات الحروب التي يحدث فيها ما لا يعقل.



تبرز الحروب في كثير من الأحيان
ما يطلق عليه بـ (غير المعقول)

من أقطاب الفلسفة التحليلية

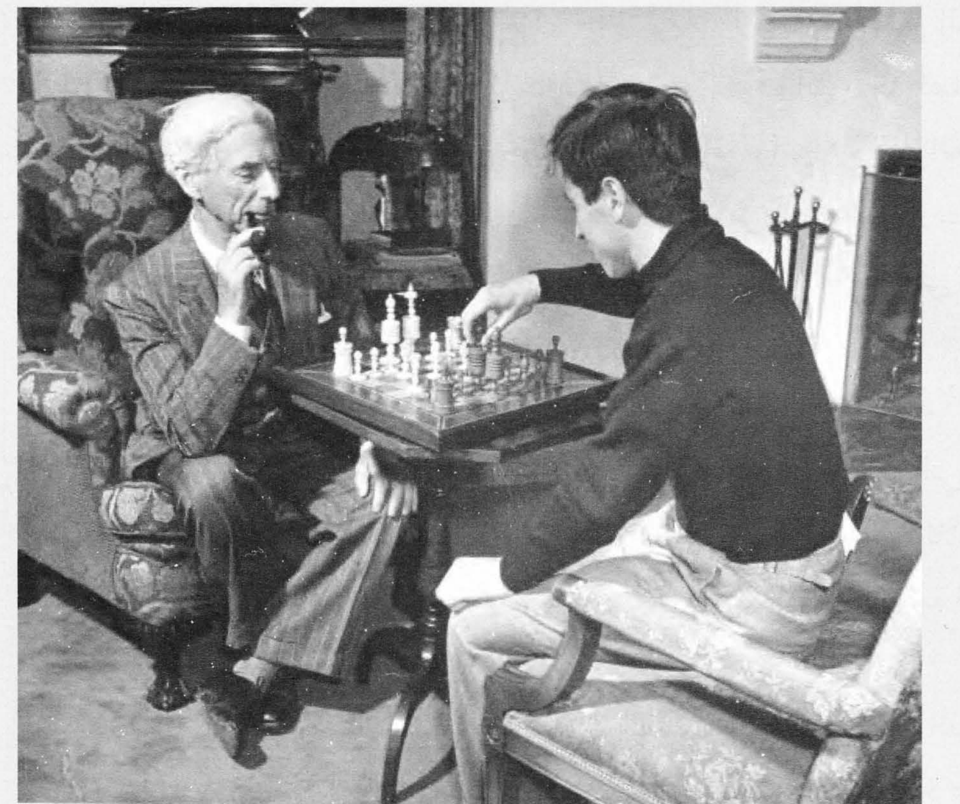
كان كوتلوب فريج (1848 – 1925) هو من الذي ابتكر المنطق المسند، وهو الذي أسس الفلسفة التحليلية الحديثة. حاول شرح أسس الرياضيات بأدوات منطقية جديدة. ثُمَّ حول اهتمامه نحو اللغة مع التركيز على المعنى، والإشارة (أو المعنى المرجعي) الذي يربط اللغة بالواقع. لقد ميّز فريج بين المنطق وعلم النفس، معتقدًا أنّ المنطق جزء من مجال ثالث موضوعي من مجالات الطبيعة. كان هدفه الذي سعى إليه هو أن يجعل من الفلسفة موضوعًا أكثر دقة، وأن يمُدّ تأثيرها الواسع الكبير في حياة الناس.

حذا برتراند راسل (1872 – 1970) حذو فريج، وكان له الفضل الكبير في ضبط معايير المنطق الجديد. لقد كان تجريبيًّا، لكن كانت له بحوثه وجهوده التي ركز فيها على المنطق واللغة، وكان يتطلع إلى شرحها وتفسيرها من خلال المنطق. دافع راسل عن الواقعية، ونظرية مطابقة الحقيقة، وصبّ جهوده على سبل أو طرق استنتاج الواقع من أجزاء التجارب الأولية (التجارب الخام). إضافة إلى ذلك، حاول راسل أن يحدد الشكل المنطقي في اللغة والمعنى الدقيق الحقيقي وراء الكلمات. لقد درس العلوم دراسة جادّة دقيقة، وكان يهدف إلى وضع فلسفة تتناسب مع اكتشافات العصر الحديث. كان راسل معروفًا بتغيير وجهات نظره في كثير من الأحيان.

لم يكن جِيْ. إِيْ. مور (1873 – 1958) من المناطقة، بَيْدَ أنّ مقالاته التي اتسمت بالوضوح، والمنهجية أثرت تأثيرًا كبيرًا في الفلسفة التحليلية. كان لا يُعتدّ، في تفسيره للأخلاق، بمحاولات تفسير الخير ضمن إطار الطبيعة، وقد اشتهر بدفاعه عن واقعية الفطرة السليمة ضد النظريات المثالية التي لم يبق لها مكان إلّا في الأذهان.

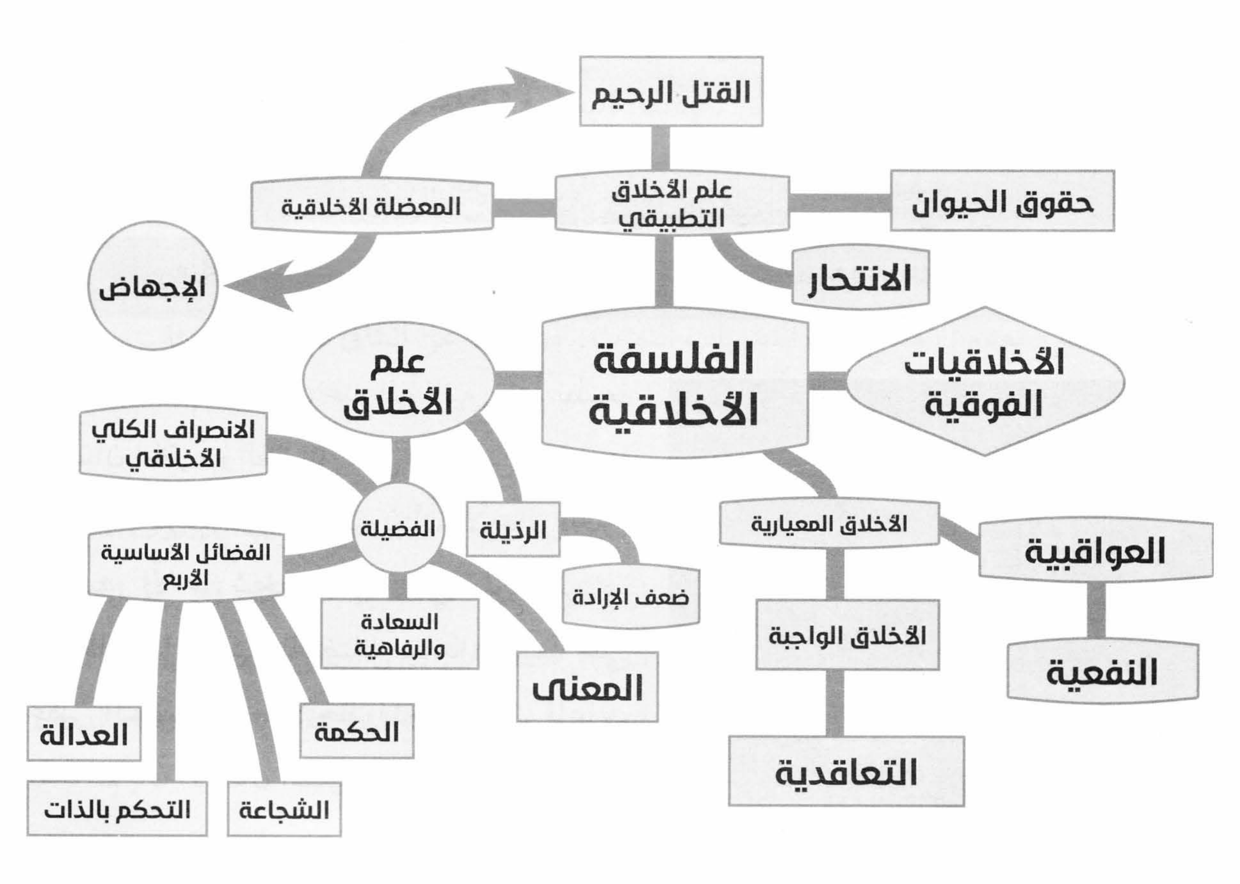
كان لودفيج فيتجنشتاين (1889 – 1951) زميلًا لراسل جمعتهما مقاعد الدراسة، وكان اهتمامه منصبًّا على اللغة والمنطق. كان يقول بأنّ المنطق ليس حقائق أبدية، بل هو مجرد عرف سائد اتفق عليه

الناس، وقد اعتنق المذهب الذَّري المنطقي (Atomism) الذي يرسم صورة واقعية للمعرفة من الحدّ الأدنى للمفاهيم. لكي تكون الجملة ذات معنى، يجب أن تكون مرتبطة بالتجارب الأساسية التي أدت إلى الحركة الوضعية المنطقية. ثُمَّ تخلى فيتجنشتاين عن الفلسفة، لكنّه عاد إليها بوجهات نظر مختلفة تمامًا كانت أقل واقعية، وأكثر نسبية. تهيمن ألعاب اللغة على تفكيرنا، لكنّ اللغة لا تكتسب المعنى إلّا من خلال طريقة استخدامها. وعليه لا نستطيع معرفة الأخلاق والدِّين، لكنّا نستطيع أن نستخدم لغة الدِّين والأخلاق على نحو متماسك ذي مغزى. تحتاج اللغة إلى مجتمع، لذلك فإنّ الفلسفات المتطرفة في فرديتها لا تحظى بالقبول.



كان لراسل الفضل الكبير في ضبط معايير المنطق. لذلك، ليس من المدهش أنّه كان يستمتع كثيرًا بلعب الشطرنج

علم الأخلاق

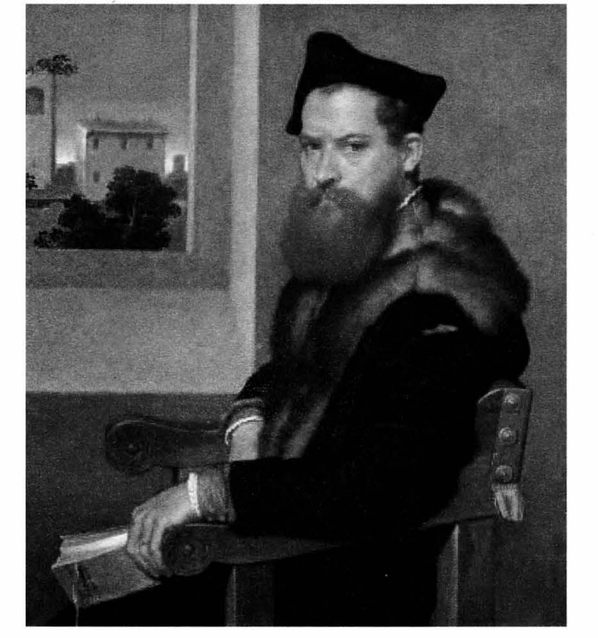

القتل الرحيم
المعضلة الأخلاقية
علم الأخلاق التطبيقي
حقوق الحيوان
الإجهاض
الانتحار
علم الأخلاق
الفلسفة الأخلاقية
الأخلاقيات الفوقية
الانصراف الكلي الأخلاقي
الفضيلة
الرذيلة
الأخلاق المعيارية
العواقبية
الفضائل الأساسية الأربع
ضعف الإرادة
السعادة والرفاهية
الأخلاق الواجبة
النفعية
المعنى
العدالة
الحكمة
التعاقدية
التحكم بالذات
الشجاعة

أنماط الأخلاق

يمكن تصنيف الفلسفة الأخلاقية إلى عدة أنماط منها الأخلاقيات الفوقية (Metaethics)، والأخـلاق المعيارية (Normative Ethics) والأخـلاق التطبيقية (Applied Ethics). الأخلاقيات الفوقية هي القيم الأساسية، ومبادئ الفكر الأخلاقي، ومصادرها، وتأثيرها. أمّا الأخلاق المعيارية فهي التي تتعلق بـ (المعايير)، أو معايير وقواعد السلوك الأخلاقي، بينما تهتم الأخلاق التطبيقية بالمعضلات الأخلاقية في الحياة العادية.

الأخلاق الفوقية	الأخلاق المعيارية	الأخلاق التطبيقية
مبادئ الفكر الأخلاقي	قواعد السلوك الأخلاقي	المعضلات الأخلاقية في الحياة العادية

كان علم الأخلاق عند اليونانيين يهتم بطبيعة الإنسان الخيّر، والفضائل التي تجعل من شخصيته شخصية خيّرة. كانوا يعتقدون أنّ الأفعال الخيرة لا تصدر إلّا عن شخص خيّر، فهي سلوكه المعتاد. لقد ظل هذا الاهتمام بالفضائل سائدًا، مهيمنًا حَتى عصر النهضة عندما لاحظ المحامون في قاعات المحاكم بأنّ الأفعال المصيبة والأفعال الخاطئة هي



منذُ عصر النهضة، ولحد الآن يؤكد المحامون بأن المهم ليس شخصية الفرد، وإنما ما يصدر عنه من أفعال خيّرة، أو شريرة

التي تستحوذ على الاهتمام، وليس شخصية الفرد، فرُبَّ شخص طيب أو صالح، يرتكب جريمة ما، بينما يكون الشخص الطالح بريئًا. وعليه انطلق الباحثون، والمفكرون في بحوثهم وجهودهم العلمية من المبادئ التي تستند إليها الأفعال الخيّرة أو الصحيحة، والأفعال الشريرة أو الخاطئة.

انبثق اتجاهان عن تلك الجهود كانت لهما الهيمنة، والرواج في أروقة الفلسفة. الاتجاه الأول يستند إلى رأي يقول بأنّ الأفعال الخيّرة، أو الصحيحة هي التي تنطلق من الشعور بالواجبات الأخلاقية المتفق عليها في كل مكان (Deontology)، أمّا الاتجاه الثاني فقد استند إلى الرأي الذي يقول بأنّ الأفعال الصحيحة، أو الخيّرة هي التي تؤدي إلى زيادة رفاهية الإنسان، وسعادته (الفلسفة النفعية). يؤيد الكثير من الفلاسفة والمفكرين الرأي القائل بأنّ الأخلاق ما هي إلّا مواثيقًا وأعرافًا ذوات منافع متبادلة على الرغم من أنّ هذا الرأي غالبًا ما يكون موضع ازدراء وتهكم من الكثيرين. تمخض الشعور بعدم الاقتناع بهذه النظريات الثلاث، مؤخرًا، عن انبثاق نظرية الفضيلة.

أخلاق الفضيلة

يقال عن البيانو، مثلاً، بأنّه ثمين وجيد، إذا كان يؤدي وظيفته على الوجه المطلوب. الأداء الحسن، والتصرف على الوجه المطلوب هما المعيار الذي تستند إليه نظرية الفضيلة، فالرجل الفاضل هو من ينجح في أداء وظيفته. حدد أرسطو وظيفتين أو سمتين بشريتين: المنطق (فهو ما يميز الإنسان عن الحيوانات الأخرى)، والنزوع نحو العيش في مجتمع (وهي صفة مشتركة بين الإنسان، والنمل، والنحل).

قد يطعن البعض في هذه الفرضية، فالإنسان حرّ في تقرير ما يشاء من سمات أو وظائف يرى بأنها لصيقة به، وبطبيعة تكوينه، إلّا أنّ مُنظّري الفضيلة يرون بأنّ ثَمَّةَ (طبيعة بشرية) عامة شاملة يشترك فيها كل أبناء النوع البشري (على الرغم من الاختلافات العرقية، والجغرافية، والمحلية، ... إلخ).

وعليه، يعتقد البعض بوجود فضائل (فكرية) تتعلق بـ:

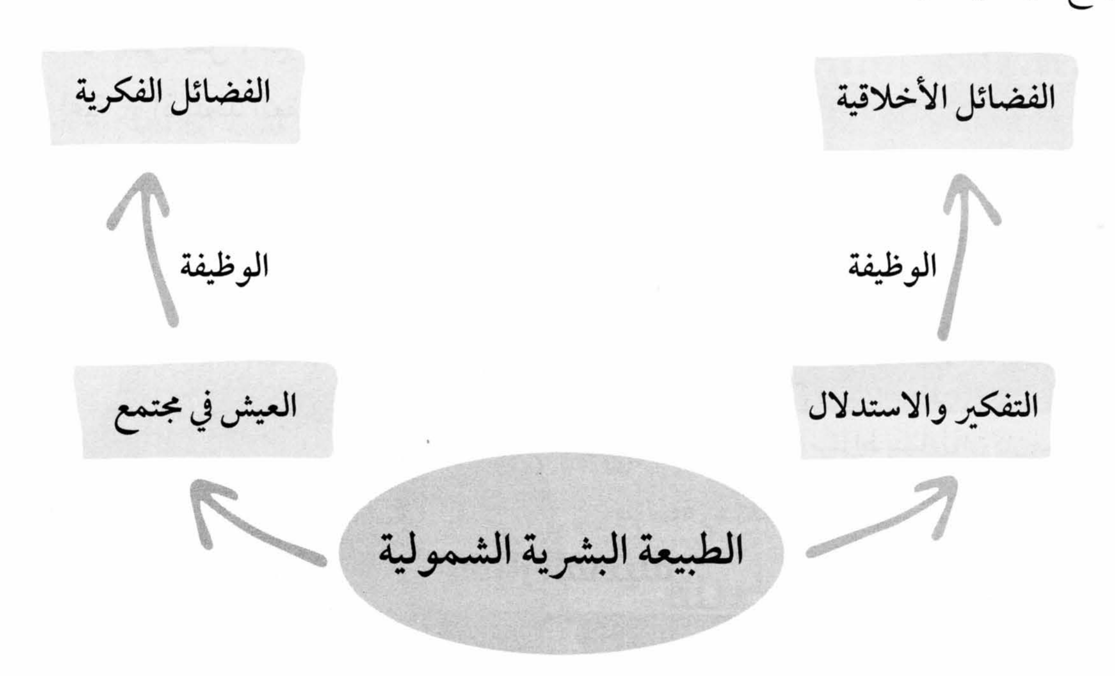
- المنطق السليم.
- الفضائل (الأخلاقية).
- المواطنة الصالحة.

إنّ الهدف من الفضائل الأخلاقية هو تحقيق (الإيدمونيا) udaimonia أي، الرفاهية والرخاء، وما يترتب عليهما من سعادة.



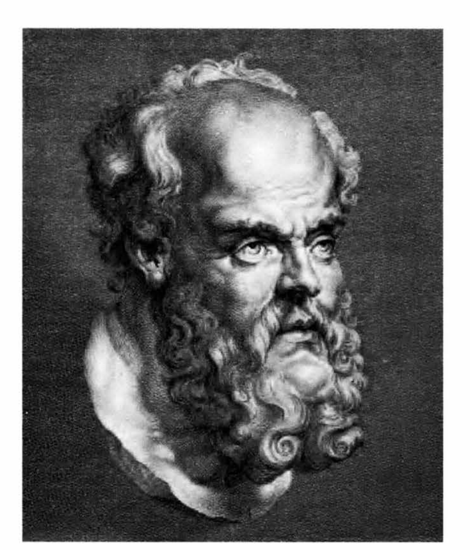
تمامًا مثل البيانو، يتم تقييم الإنسان من خلال أدائه لوظيفته على الوجه المطلوب

إنّ الهدف من الفضائل الأخلاقية كما قلنا هو تحقيق حالة الرخاء والرفاهية، أو حياة النجاح، والازدهار.



الفضائل هي مجموعة من الدوافع التي تدفع بالفرد نحو السلوك الصحيح، مثل القتال بشجاعة في ساحة المعركة، أو ضبط النفس، وعدم الإسراف عندما نحصل على ما نريد مجانًا. ثَمَّةَ مستويات خمسة من مستويات سلوك طريق الفضيلة. عندما يتصرف الناس مثل الحيوانات البرية الجاهلة، فهذه (بهيمية)، أو (وحشية)، إِذ يعرف الناس الرذيلة، والشرّ، لكنهم يقترفون الرذائل، ويقدمون على فعل الشرّ. أمّا ضعف الإرادة (akrasia) - الافتقار إلى القدرة على ضبط النفس - فتتجلى عندما يريد أحدنا أن يفعل ما هو صواب، لكنّ المغريات تدفعه إلى غير ذلك.

إنّ السعي في عمل الخير، وامتلاك القدرة، والإرادة على ذلك هو الأفضل بكثير، بَيْدَ أنّ هذا لا يعد فضيلة، لأنّ الفضيلة لا تعني فعل الخير، فحسب، بل لا بُدَّ من وجود إرادة واعية - إِذ يتحد العقل مع المشاعر - تسعى إلى الخير. ليس الشخص الفاضل من يحسن التصرف، ويفعل الخير فحسب، بل يجب أن يفعل ذلك. إنّ أداء الواجب هو السلوك الصحيح القويم، لكنّه لا يُعدّ فضيلة لو كان أداؤه مشوبًا بالتردد.



كان سقراط يتساءل إن كان من المستطاع تعليم الناس الفضيلة

معيار الفضيلة



لكلّ فضيلة معيار، على كل طرف منه صفة، أو سجيّة من صفات التطرف، والفضيلة هي المنطقة الوسطى بينهما. وهكذا، فإنّ الشجاعة، مثلاً، هي السجيّة التي تكون في المنطقة الوسطى بين التهور، والجبن، أمّا ضبط النفس فهي صفة بين العزوف عن الملذات والمتع، والإفراط فيها. عندما نقول، هنا، أنّ الفضيلة هي أمر بين أمرين، أو هي الصفة، أو السجية الوسط بين صفتين، أو سجيتين، فإنّ ذلك لا يعني بأننا نشير إلى ما هو معتاد من سلوك، بل يعني القيام بما هو صحيح يتناسب مع الموقف وما يتطلبه. وعليه، غالبًا ما يكون من الصحيح أن يغضب الإنسان، والغضب

هو الصفة الوسط بين برودة الأعصاب، واللا أبالية، وبين الاستسلام المطلق لنوبات الغضب، وثورة الأعصاب، بَيْدَ أنّ الغضب يجب أن يتناسب مع الأسباب التي تستوجب الغضب.

رأي سقراط في الفضيلة

كان سقراط يسأل هذين السؤالين حول الفضيلة، وكل منهما يمثل قضية أساسية:

- هل يمكن أن نعلّم الإنسان الفضيلة؟
- هل ثَمَّةَ فضيلة عُليا واحدة تصدر عنها كل الفضائل؟

كان سقراط يعتقد بأنّ الفضيلة أمر يمكن أن يتعلمه الناس، لو وجدوا المعلم القادر على ذلك، وكان يعتقد، أيضًا، بأنّ التفكير الصحيح، والمنطق السليم يجعل الإنسان كاملاً في فضائله.



أرسطو ونظرية الفضيلة

كان أرسطو يعتقد بأنّ الناس يجب أن يتعلموا الفضيلة في مرحلة الطفولة، ابتداءً من تعليمهم العادات الحميدة، والمشاعر الصحيحة، وردود الأفعال المناسبة (مثل عدم الضحك من معاناة الآخرين)؛ مع تطور التفكير، والاستدلال لدى الطفل فإنه يصبح أكثر حبًّا للفضيلة الحقيقية شاعرًا بمتعتها. إنّ ما يميز نظرية الفضيلة هو التركيز على تربية الأطفال، وكذلك

كان أرسطو يرى بأنّ الفضيلة لا تكمن في الثروة، والصحة، والأصدقاء، بل إنّ حياة الرغد والسعادة هي التي تتطلب الثروة، والصحة، والأصدقاء، والفضيلة

نموذج القدوة الحسنة التي هي جزء مهم من التطور الأخلاقي.

يرى أرسطو بأنّ الفضيلة الجامعة ليست هي المقدرة، أو القوة الفكرية، بل هي الفطرة السليمة، والحس السليم، أو كما أسماها أرسطو (فرونسيس)، وتعني الحكمة العملية. إنّ الأشخاص الذين نصفهم بالعقلانيين هم الذين يجسدون الفضائل الاجتماعية، إِذ إنّها تتجلى في سلوكهم، وتصرفاتهم. يعتقد أرسطو بأنّ الحياة المزدهرة السعيدة لا بُدَّ لها من أن تكون فاضلة، بَيْدَ أنّها بحاجة إلى (السلع الخارجية) أيضًا، أَلَا وهي الثروة المعقولة، والصحة الجيدة، والأصدقاء. اختلف الرواقيون مع أرسطو قائلين بأنّ الفضيلة الحقيقية النقية كافية.

كان المجتمع اليوناني معجبًا بالفضائل الأساسية الأربع:

- الحكمة.
- الشجاعة.
- ضبط النفس.
- العدالة.



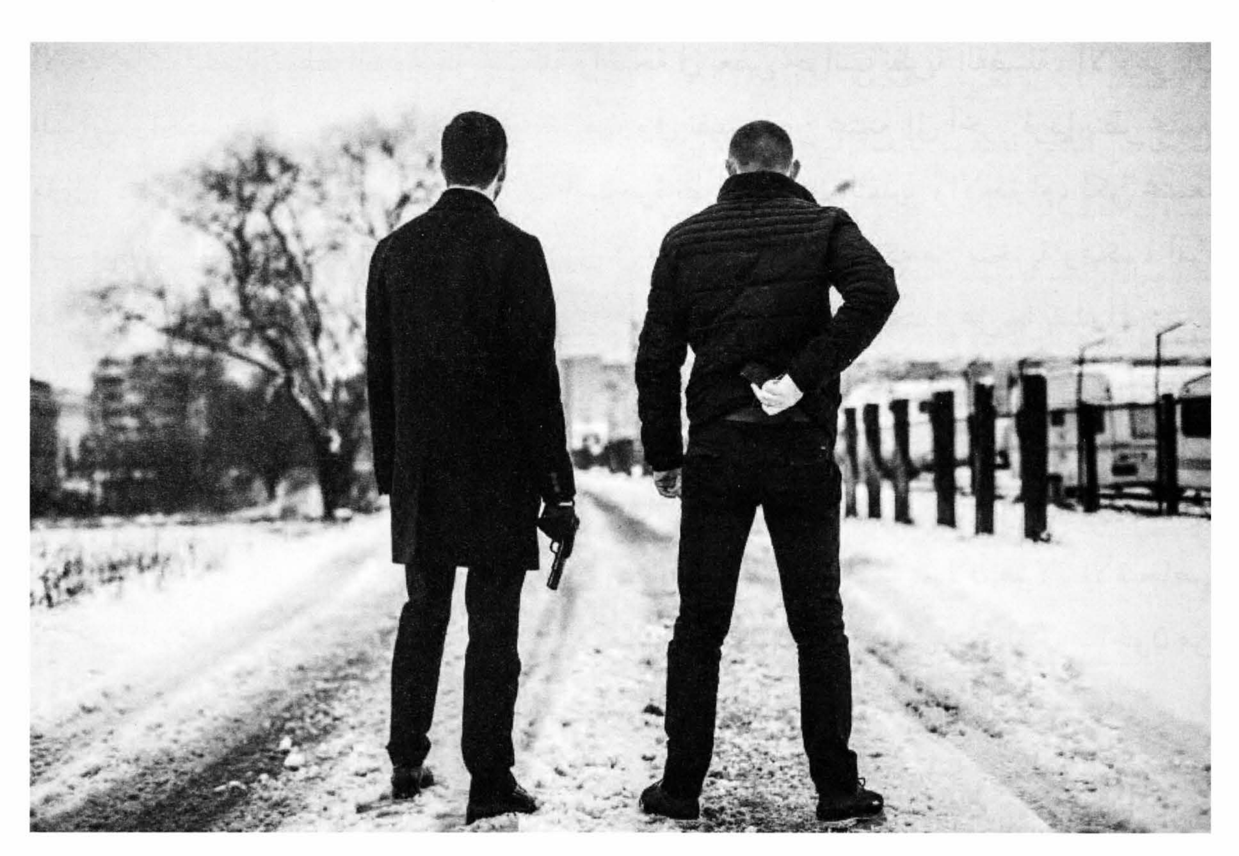
قد تختلف الفضائل الحديثة قليلًا، بَيْدَ أنّ الناس ما زالوا ينظرون بإعجاب وتقدير إلى الفضائل الأساسية لدى اليونانيين

الفضائل الأساسية

منذُ أيام اليونانيين أضيفت فضائل أساسية أخرى إلى القائمة، مثل الرحمة، والاحترام، والصدق، والولاء. تُعدّ صفة الرحمة والعطف في الوقت الحاضر من أعظم الفضائل، لكنّ الناس كانوا ينظرون إليها، في السابق، على إنّها مظهر من مظاهر الضعف، لذا هي رذيلة في عرفهم. إنّ هذه الاختلافات النسبية تسلط الضوء على مشكلة واضحة في بعض جوانب نظرية الفضيلة، ألَا وهي أنّ السمات والخصائص الشخصية تختلف في تصنيفها وفي تقييمها من مجتمع إلى آخر. فربما ينظر مجتمع ما إلى الشخص الظريف الذي يطلق النكات الساخرة نظرة فيها كل التقدير والاحترام، لكنّ مجتمعًا آخرَ قد ينظر إليه بازدراء واستهجان، لأنّه يرى في ما ينطوي عليه سلوكه من سخرية وتهكم، أمرًا غيرُ محمود وغيرُ جدير بالاحترام. وهذا يعني أنّ الفضائل نسبية، لأنّها تعتمد على ما يقبله المجتمع، وما يتواضع عليه؛ أيْ إنّ المجرم القاتل قد يكون موضع تقدير وإعجاب العصابات الإجرامية. يبدو أنّ بعض الجوانب النسبية أمر لا مفر منه، لأنّ الزمن يتغير، فالشجاعة، مثلاً، لم تُعدّ سَلُّ سيفٍ لخوض غمار التبارز، وإنّما هي الثبات، ورباطة الجأش في مقابلات التوظيف. على أيّة حال، لا بُدَّ من النظر إلى الفضائل الاجتماعية في إطار أوسع من إطار عصابة المجرمين، لأنّ هؤلاء الأشخاص هم أصلاً مواطنون غير صالحين (لعلّ الأشخاص الذين يشعلون الحروب هم مواطنون صالحون من وجهة نظر مواطني بلدانهم، لكنّهم أشرار مجرمون، من وجهة نظر مواطني الدولة الخصم).

تعرضت نظرية الفضيلة إلى نقد رئيس آخر يزعم بأنّ هذه النظرية ليست هي الدليل الصحيح الذي يقودنا إلى الأفعال الصحيحة، وأنّ الشخصية الصالحة ليست هي التي تدل الفرد على ما ينبغي القيام به. تُعَدّ الأفعال والتصرفات الصحيحة، بحسب وجهة النظر التقليدية، جزءًا من السلوك المتوقع من الأشخاص الفضلاء. أحد أشكال نظرية الفضيلة الحديثة هو رفض القواعد الأخلاقية

لصالح الخصوصية. إنّ من المتعذر في الحياة الواقعية أن نجد حالتين متماثلتين تماثلًا تامًّا، لذلك فإنّ القواعد البسيطة، كما يرى من يرفض القواعد الأخلاقية، تشوّه أفعالنا. فالقاضي الذي يطبق نصوص القانون تطبيقًا صارمًا لن يعير أهمية كبيرة لتفاصيل كلّ قضية أو كلّ حالة.



يُنظر إلى الفضائل على حسب طبيعة السياق الذي يحويها، فرُبَّ قاتل ينال إعجاب عصابة على جريمته التي أقدم على ارتكابها

الانصراف الكلّي الأخلاقي: هو إنكار القواعد الأخلاقية.

دراسة الواجب الأخلاقي (الديونتولوجي) Deontology هو علم الواجب الأخلاقي، وكان عمانوئيل كانت من أشهر من كتَب في هذا الموضوع تأييدًا، ودفاعًا عنه، إِذ إنّه كان يهدف إلى استخلاص المبادئ الأخلاقية من العقل الخالص من خلال التركيز على الاتساق العقلاني. يجب أن تكون العدالة محايدة، وذات عقلانية باردة غير متحيزة كما تتجلى في مادة الرياضيات. ثَمَّةَ قاعدة، أو مبدأ وراء كل فعل نقدم عليه، فهو القانون الذي يسود حياتنا، الأمر الذي يجعل من الإنسان أن يتحلى بالتماسك الأخلاقي. عندما يقوم أحدهم بإعادة تذكرة قطار إلى شخص أسقطها، فإنّه يفعل ذلك على أساس قاعدة أو مبدأ (قد يسبب هذا الأمر كارثة)، لذلك يجب أن أمدّ يد المساعدة، وأعيد التذكرة لصاحبها.

علم الأخلاق الواجبة: هو دراسة الواجب الأخلاقي.

إذا كان كلّ فعل يستند إلى قاعدة أخلاقية، فإنّنا نستطيع إذن، أن نقارن بين الأفعال لكي نجعل منها متسقة على نسق واحد من خلال إيجاد أو تحديد المبدأ الذي يتفق عليه جميع الأشخاص العقلانيين، (المبدأ العام الجامع). في حالة المثال الذي سقناه عن تذكرة القطار، فإنّ المبدأ العام هنا هو (يجب علينا جميعًا مساعدة الأشخاص الذين يعانون من مشاكل أو أزمات بسيطة). يمكننا جميعا قبول ذلك. تنص الضرورة الحتمية للفيلسوف كانت على تحديد المبدأ العام أو القاعدة العامة الجامعة التي تكمن وراء موقف أو حالة، ومِنْ ثَمَّ فإنّ واجب الإنسان هو اتباع ذلك المبدأ أو القاعدة. إذا كان الفعل أو التصرف خاطئًا، فإنّ قاعدته الأخلاقية سوف تتضارب مع القيم أو القواعد العامة الأخرى. ثَمَّةَ سؤال بسيط يرتبط بنظرية كانت ألَا وهو: « ماذا لو فعل الجميع ذلك؟ » عدم دفع ثمن رحلة القطار يعد جريمة صغيرة، ولكن ماذا لو أنّ الجميع لم يدفع ثمن الرحلة؟

الضرورة الحتمية عند كانت: نتصرف وكأن المبدأ أو القاعدة الأخلاقية التي استندنا إليها، قانون عام، جامع، شامل.

ثَمَّةَ توجهات، أو نسخ أخرى من الأخلاقيات (الديونتولوجي) تعتمد على الحدس، أو الضمير لإماطة اللثام عن الواجب الأخلاقي، بَيْدَ أنّ هذه التوجهات أو النسخ تفتقر إلى جاذبية دقة تفسير كانت، وليس ثَمَّةَ طريقة لحلّ نزاع بين شخصين لكلّ منهما حدس مختلف. يركز علم الأخلاق على النيّات أكثر منه على العواقب، لكنّ المرء لا يمكن أن يُكوّن نيّات عقلانية دون تقييم العواقب. ولعل كانت نفسه قد بالغ في تأكيد الطاعة عندما قال، يجب على المرء تجنب الكذب في كلّ حال أو لأي سبب كان، فالبعض قد يكذب منْ أَجل إنقاذ أبرياء، والناس لا تخفي إعجابها بمن يفعل ذلك، لأنّه يبدو لهم تعبيرًا عن الإرادة الخيّرة، إلّا أنّ كانت يقول إنّ واجب الشخص ذي الإرادة الخيّرة هو ليس الشعور بالشفقة والعطف، وإنما تطبيق القوانين العامة الجامعة التي لا تتعارض مع قول الحقيقة، ولا تمنع قولها على الإطلاق. مثل هذه الحالات والمواقف توضح صعوبة تحقيق اتّساق عقلاني تام بين المبادئ الأخلاقية.

قال عمانوئيل كانت (1724 – 1804) على الإنسان أن لا يكذب أبدًا

وجّه البعض نقدًا للنظرية بسبب طابعها غير العاطفي، فهم يرون أنّها نظرية لا يحركها إلّا حُبّ العقل، وهو حُبّ يفتقر إلى الجاذبية العامة الجامعة، فضلاً عن تأكيدها أداء الواجب، (الأمر الذي يخلو

من حرارة العواطف)، أكثر من تأكيد حميميّة العواطف تجاه الآخرين. قد يكون من الصعب، أيضاً، قبول المبدأ الذي يكمن وراء الأفعال، (على سبيل المثال، شخص يقاتل في سبيل العدالة فيوصف بأنه خائن أو عميل). إنّ أكبر مشكلة تواجه النظرية هي أنّها تفترض، مسبقًا، قيمًا معينة (مثل عدم الرغبة في فقدان تذكرة القطار)، ويقول النقاد إنّ من الممكن إضفاء الطابع العام الجامع على جميع أنواع المبادئ والقواعد الغريبة، أو الطالحة، ما دام الشخص يتحلى بشخصية متماسكة، وتفكير متسق. وقد تبدو السرقة تصرفًا لا بأس به ما دام الجميع لصوص!

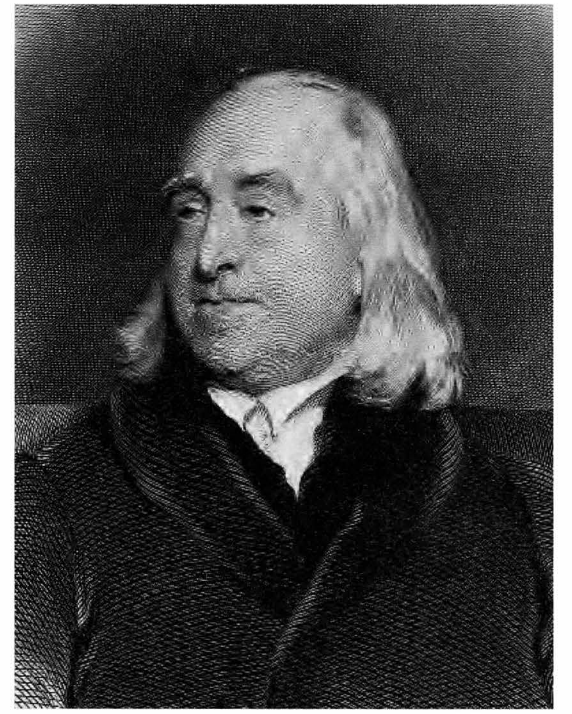
أمّا من دافَع عن نظرية كانت فقد كان الإعجاب بشموليتها وعموميتها، المحفز لذلك الدفاع. لقد رأوا في النظرية فكرًا يشجع على لقاء الحضارات المختلفة، (بل حَتى المتعادية منها)، والتوصل إلى اتفاقية أخلاقية من خلال التركيز تركيزًا موضوعيًّا على ما هو عقلاني، ومتسق بعيدًا عن العواطف الصاخبة أو الانحياز.

المذهب النفعي

يذهب أهل هذا المذهب إلى القول بأنّ تحقيق أفضل وأقصى فائدة ممكنة هو الغاية المتوخاة من وراء جميع الأفعال والأعمال الأخلاقية، أيْ الحصول على كل ما يرغب الإنسان في الحصول عليه عادة. فالغاية هي أفضل المخرجات المرجوة ولا علاقة لها بالنيّات أو الشخصية (على الرغم من أهميتها). تطورت الصيغة الحديثة لهذا المذهب على يد التجريبيين الذين كانوا يسعون للحصول على نظرية تتناسب والخبرات، أو التجارب الفعلية التي هي في المقام الأول، الرغبة في الحصول على اللذّة، وتجنب الألم، لذلك فإنّ النفعية في أبسط تمظهراتها (التلذذية) تطالب بزيادة (اللذّة)، وتقليل (الألم)، بَيْدَ أنّها لم تعد في توجهاتها الأخيرة على هذا القدر من الصراحة والوضوح، وهي تسعى نحو الرفاهية، وتحقيق الرغبات.

المذهب النفعي: الأخلاق (أو الفضيلة) هي وسيلة لتحقيق قدر ممكن من الفائدة (السعادة).

تتميز النفعية بافتراضاتها المسبقة ذوات الطبيعة الديمقراطية للغاية، لأنّ « ثَمَّةَ معيارًا واحدًا يطبق على الجميع »، أيْ إنّ سعادة رئيس الدولة ليست بأهمّ من سعادة المواطن. وهي تفترض أيضًا، بأنّ من الممكن تقييم تكاليف وفوائد معظم الأفعال تقييمًا دقيقًا جدًّا، وعليه فإننا نستطيع معرفة ما ينبغي فعله، على الرغم من تنوع الأفعال وتشعبها، إذا كان التعامل مع الجميع على قدم المساواة. يواجه النفعيون بعض السخرية بسبب قيامهم بوضع قيم عددية للأفعال أو التصرفات التي نختار القيام بها على أساس المفاضلة أو المقارنة، (على سبيل المثال، قد يقترح النفعيون الذهاب إلى المطعم الذي يحتل القيمة 78 بدلًا من الذهاب إلى السينما التي تحتل القيمة 67). بَيْدَ أنّ هذا النهج، أيْ وضع قيم عددية للأفعال، قد لا يكون أمرًا مستغربًا كما يبدو للوهلة الأولى، فالجرّاحون، مثلًا، يضعون توقعات بالنسبة المئوية، أي تقييمات عددية، ويجب أن تكون دقيقة قدر الإمكان، للعمليات الجراحية التي يريدون إجراءَها.



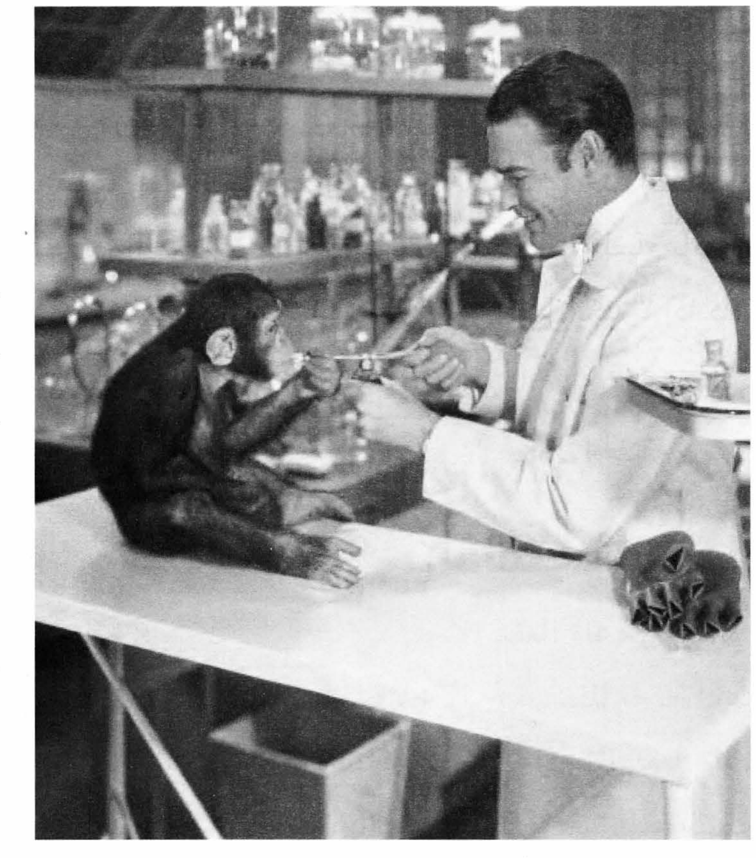
كان جيريمي بينثام (1748 – 1832) من بين الرواد الأوائل الذين أيدوا النفعية

النفعية العملية

يدّعي النفعيون بأنّ نهجهم هو النهج العملي، أي يتسم بطبيعة عملية أكثر من النظريات الأخلاقية الأخرى، على سبيل المثال، لا مناص لمستشفى ذي

ميزانية محدودة من تحديد أولويات خدمات العلاج التي يقدمها للناس، واحتساب الفوائد مقابل التكاليف، فهي الطريقة الوحيدة التي تجعل من المستشفى قادرًا على التوصل إلى القرار الصحيح. ثَمَّةَ مزيّة أخرى للنفعية ألَا وهي أنّها جعلت منظمات حقوق الحيوان الحديثة ترفع صوتها مطالبة بإدراج الحفاظ على حقوق الحيوانات ضمن القرارات الأخلاقية، لأنّ الحيوانات مخلوقات تشعر بالألم، والجوع، والشبع، ... إلخ.

إنّ السعي لزيادة المتعة إلى أقصى حدّ ممكن يستلزم منع التعذيب، لأنه في هذه الحالة يُعدّ شرًّا كبيرًا. بَيْدَ أنّ بعض الحالات قد تتطلب اللجوء إلى التعذيب، أو ترك الآخرين يعانون منه. على سبيل المثال، قد يتعرض فندق ما، أو مبنى ما إلى حريق هائل، عندها قد نضطر إلى التضحية ببضعة أفراد منْ أَجل إنقاذ العشرات، أو المئات. ولعلّ مثل هذه الأمثلة المبالغة أدت إلى تحكيم المنهج النفعي الذي يستهدف زيادة مستويات الرفاهية من خلال قواعد سلوكية وأخلاقية، مثل: (منع التعذيب)، و (حماية العائلة). يعتقد

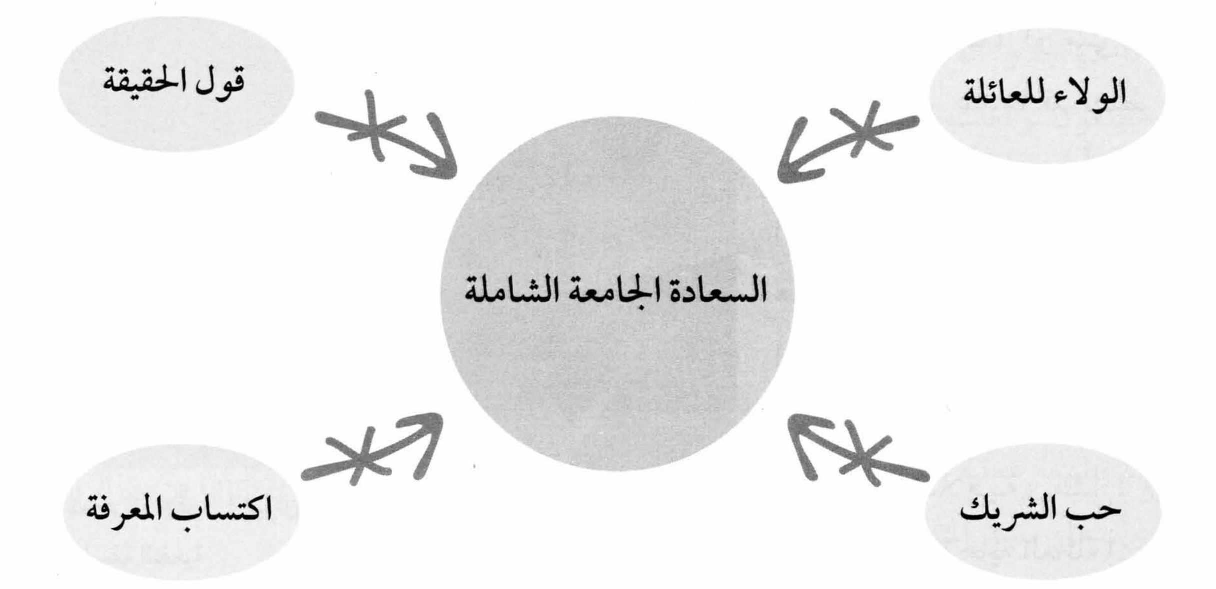


انبثقت حركة حقوق الحيوان
من الفلسفة النفعية

بعض المفكرين بأنّ هذه القواعد سوف تؤتي أكُلها على المدى الطويل، ولا ينبغي خرقها حَتى وإن تمخضت، من حين لآخر، عن نتائج غير مرغوب فيها. يقول النقاد بأنّ تحكيم النفعية يبدو كأنّه جزء من علم الأخلاق (الذي يؤكد الواجبات، وضرورة أدائها) إن تجاهلت حسابات الربح والخسارة.

مخاطر النفعية

تعاني النفعية من إشكالات عديدة بسبب طبيعتها العملية المغرقة في عمليتها. تقول النفعية بأننا لا نستطيع الحكم على فعل إلّا من خلال النتائج التي تترتب عليه، لكن ماذا لو كانت تلك النتائج لا حصر لها، ولا تنتهي أبدًا؟ ماذا لو أدت جريمة قتل بشعة إلى نتيجة رائعة بعد مئة عام من وقوع الجريمة؟ من خلال قيام حفيد الضحية، مثلاً، بإطلاق مشروع خيري تخليدًا لذكرى جدّه الضحية؟ إذا كان ما يهمنا هو النتائج فحسب، فمن ذا الذي يهتم بكيفية وقوعها؟ وبدلاً من القيام بأفعال تظهر عطفك، وبِرَّك بأصدقائك، لماذا لا تشتري روبوتًا يقوم بأدائها على نحو أفضل بكثير؟ إذا كان



الهدف هو زيادة الرفاهية، فمن يهتم بالعدالة؟ لماذا لا نعاقب الأبرياء عن قصد، وتعمّد، لكي نردع كلّ من تسول له نفسه ارتكاب جريمة؟ إذا كانت المتعة هي كلّ ما يهمّ فلماذا لا يخترع العلماء عَقّارًا رخيص الثمن لا ضرر فيه، يجعل من يتناوله يشعر بمتعة كبيرة، ونضعه في إمدادات المياه التي تصل إلى البيوت وغيرها من الأبنية؟

ثَمَّةَ نقد آخر وجهه عدد من النقاد إلى النظرية، والتزامها بتحقيق الرفاهية للجميع. فالنظرية فيها جوانب قد تقلل من الأهمية النسبية لأقرب الناس إلينا في الوقت الذي تمنح ملايين الأشخاص ممن لا نعرف أهمية متساوية. ليس للمتطلبات الأخلاقية نهاية أبدًا. لماذا يعكف القارئ على قراءة هذا الكتاب في الوقت الذي يسعه فيه أن يعمل على تحسين أحوال الناس وزيادة رفاهيتهم وسعادتهم في بلد أجنبي بعيد؟ المشكلة في النفعية هي أنّها تركز قيمة أخلاقية واحدة، وتهمل كل القيم الأخرى.

يُنفق فلاسفة النفعية الكثير من الوقت في صقل نظريتهم، وتشذيبها سعيًا منهم لحلّ الكثير من المشكلات، وهي محاولة تستحق الجهود المبذولة، فلا يمكن أن يهتم كلّ شخص بنفسه دون غيره، ولسان حاله يقول: (لست معنيًّا بالعواقب)، فذلك مصدر الخطر الذي يهدد الجميع. ختامًا لا يسعنا إلّا أن نقول بأنّ النفعية نظرية من أهم النظريات الفلسفية.

العقد الاجتماعي

يرى دعاة العقد الاجتماعي بأنّ من الممكن أن يحيَا الناس حياة أفضل إن تعاونوا وتآزروا دونما حاجة للفضيلة أو الأخلاق. هذا هو الأساس الذي تستند إليه الأخلاق والفضيلة، كما يعتقد دعاة العقد الاجتماعي الذين يؤمنون بأنّ الناس لا يقومون بالأعمال الحسنة أو الصالحة، إلّا بدافع المصلحة الذاتية، والمصالح الذاتية متبادلة، أيْ إنّ من يقدم عونًا أو مساعدة لغيره، فإنّه بالمقابل سوف يحظى بالعون والمساعدة. قد يتظاهر المرء بالطيبة، وحُبّ الآخرين بَيْدَ أنّ الناس قادرون على

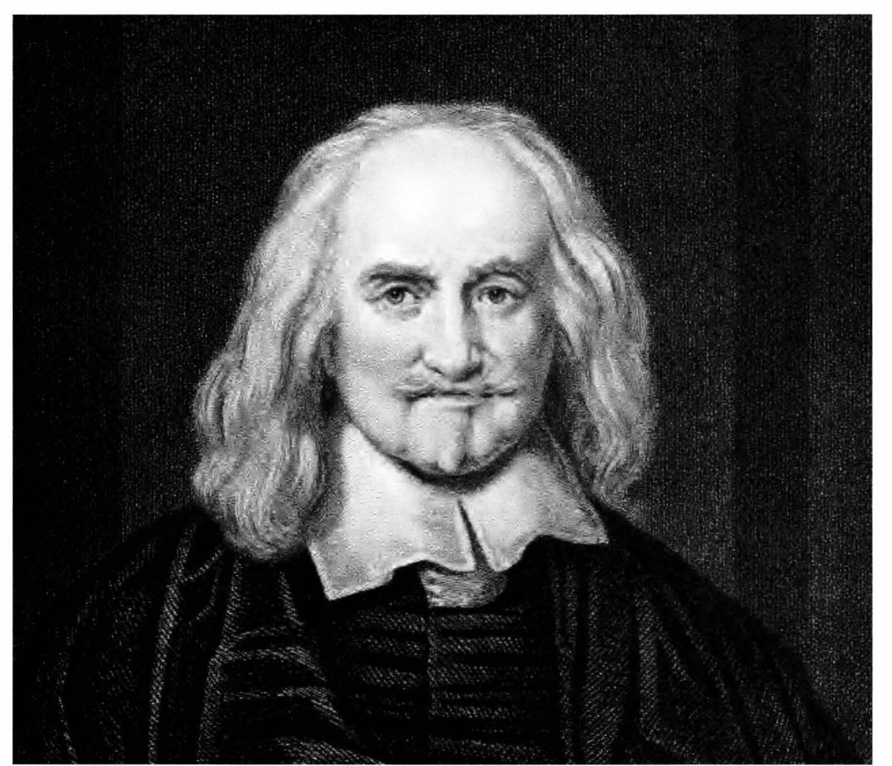
تمييز المشاعر الحقيقية، من المشاعر الصادقة الأصيلة، لذلك فإنّ أفضل ما يفعله المرء هو أن يكون صادقًا في ما يقول ويفعل، وأن يكون لطيفًا ودودًا حقًّا. يربي الآباء أبناءهم على التحلي بالصدق والجدية والتعاون مع الآخرين، لأنّ حياتهم لن تسير كما ينبغي إلّا بذلك. قد لا يعود عمل صالح، أو مبرّة بخير على صاحبه، إلّا أنّ السمعة الطيبة، بحدّ ذاتها، تجلب الخير إلى صاحبها.

العقد الاجتماعي: الأعمال الصالحة لا تنبثق إلّا عن المصلحة الذاتية.

لو اتفقت مع شخص ما على تبادل المساعدة والعون، مثلاً التناوب على دفع ثمن القهوة، فإنّ الشخص الذي يدفع أوّلاً يكون في الموقف الأضعف، لأنّه قد لا يحظى بفرصة للتمتع بدوره في الانتفاع من الاتفاق، لكنّ وجود قدْر من الثقة، في مثل هذه المواقف، أمر لا بُدَّ منه. الشيء نفسه ينطبق على النظرية، فلا بُدَّ لنا من أن نضع فيها ثقتنا على الرغم مما قاله توماس هوبز من أنّ نجاح النظرية يتوقف على وجود سلطة سياسية تستطيع فرض العقود التي تتعرض إلى الانتهاك. تكمن قوة هذه النظرية، التي قد لا يعيرها البعض اهتمامًا، في تجذّرها في أعماق الذات البشرية، فالمصلحة الذاتية أو الشخصية، هي المحرك الحقيقي، والمحفز الذي يدفع بالإنسان نحو الجد والعمل، لأننا جميعًا نسعي وراء المصلحة الذاتية. فضلاً عن ذلك، فإننا من خلال المصلحة الذاتية قد نشخص بعض التصرفات والأعمال التي تتنافى مع الأخلاق مثل الخيانة، وعدم الوفاء بالوعد.

لم يتقبل الناس، في الحقب الماضية، النظرية النفعية التي ساءت سمعتها كثيرًا بين أوساط المجتمع، فالكثير من الناس كان يرى في الأنانيّة نقيضًا للأخلاق (خصوصًا الإيثار، وبذل العون، وتقديم المساعدة للآخرين)، وعليه ما كان من الوارد أن يتقبل المجتمع نظرية تقوم في الأساس على المصلحة الشخصية، لأنّ في قبولها تناقضًا مع ما كانوا يعتقدونه آنذاك. فمن المعيب، والمضحك، مثلاً، أن يوصف حُبّ الأم لطفلها بأنه نابع من المصلحة الشخصية، والناس، في الأغلب، لا تثق

بأيّ شخص يعترف صراحة بأنه مهتم بمصلحته الشخصية اهتماماً كاملاً لا يترك مجالاً لغيره من الاهتمامات الأخرى. المثل الذي يمكن أن نسوقه هنا هو المنتفع بالمجان، وهو الشخص الذي يتظاهر، مجرد تظاهر، بالتعاون مع الآخرين مستغلاً حسن نياتهم. تحبذ النظرية، وتشجع على الاهتمام بالمصالح الذاتية، وترى في ذلك خير الأفراد والجماعة، بَيْدَ أنّ البعض قد يرى بأنّ النظرية تجعل من التهرب من دفع الضرائب، أو التملص من دفع فاتورة الطعام في المطعم، أعلى معايير الأخلاق. فضلاً عن أن النظرية لا تعبأ إلّا بالأقوياء القادرين على تقديم الخدمات، ورد الفضل لمن يقدم لهم معروفًا، أمّا الأشخاص الضعفاء، أو ذوو الإعاقة الشديدة، فإنّهم خارج إطار الفضيلة والأخلاق، لأنّهم غير قادرين على ردّ الفضل بمثله.



كان هوبز يرى بأنّ تنفيذ العقود يتطلب سلطة سياسية تفرض ذلك

التطورات الحديثة

ثَمَّةَ تطورات حديثة أعادت نظرية العقد الاجتماعي إلى الحياة مرة أخرى. فقد دلت هذه التطورات التي حدثت في أكثر من مجال على أنّ الحياة الناجحة تحتاج بالفعل إلى معايير أخلاقية ترتبط بالعطاء والشهامة والسخاء، التي كانت دائمًا وعلى امتداد التاريخ، محطّ إعجاب الناس وتقديرهم، حَتى وإن انطلقت من منطلق المصلحة الشخصية الواضحة التي لا غبار عليها.

علم الأحياء

إننا نعرف الآن، أكثر من أيّ وقت مضى، بأنّ العديد من مجتمعات الحيوانات تتصف بدرجة عالية من التعاون، والإيثار. يشكل هذا السلوك غريزة لدى تلك المجتمعات، وهو ضمن تركيبة حامضها النووي. وهذا ما يصح، أيضًا، بالنسبة للإنسان الذي يعيش في مجتمعات معقدة. وعليه، فإنّ الإنسان لا يسعه إلّا أن يتصرف على نحو أخلاقي كالإحساس بالتعاطف الفوري، على سبيل المثال، مع شخص غريب لا يعرفه، لكنّه يشعر بألم شديد في جسمه.

نظرية اللعبة

تُعنى نظرية اللعبة بدراسة قواعد التعاون. فهي تؤكد بأنّ ثَمَّةَ مخاطرَ وإشكالاتٍ قد تحيق بالعقود المبرمة بين الناس، لذلك فهي بحاجة إلى سلطة تفرضها، لكنّ هذا التعاون الذي لا غنى عنه، والمطلوب باستمرار سوف يكون أكثر نجاحًا لو كان الأشخاص المعنيون يتحلّون بالحسّ التقليدي العالي بالمعايير الأخلاقية من الإيثار، وبذل العون والمساعدة لمن يطلبها، وزرع الثقة في النفوس، والتضحية منْ أَجل الآخرين.

الأخلاق التطبيقية

تتسع المعضلات الأخلاقية الحقيقية لتشمل قضايا الحياة والموت، حَيثُ الإشكالات المبهمة، والأسئلة الكبرى، لذلك تحاول الأخلاق التطبيقية أن تدلو بدلوها لتفسير هذه المعضلات وسبر أغوارها. تعنى النظريات الأخلاقية بالقرارات الفردية، وهي تهتم إما بنيّات الإنسان ومقاصده، أو بعواقب أفعاله. يتعرض الكثير من الأشخاص إلى معضلات حقيقية على أرض الواقع. إنّ النيّات، أو المقاصد، وكذلك العواقب مهمة، وعلينا أن نقرر ما ينبغي فعله، وأن نحكم على النتائج بعد ذلك. كما يجب علينا أيضًا، احترام حقّ الآخرين في تقرير مصيرهم (استقلالهم الذاتي)، حَتى لو اختلفنا معهم فكريًّا أو أخلاقيًّا.

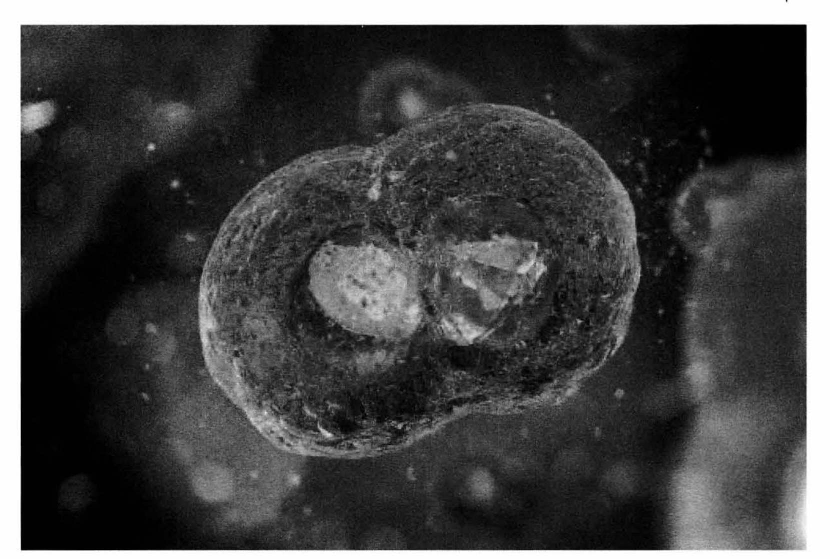
النظرية	التطبيق
القرارات الفردية	القرارات التي يتخذها الكثير من الأفراد
المقاصد والعواقب	المقاصد والعواقب

قد تقع مسؤولية عمل ما على بضعة أشخاص، أو ربما يتلقى فرد ما أو مجموعة أفراد، أمرًا أو تشجيعًا من أحد ما أو جهة ما، على ارتكاب فعل معين، أو ربما كانوا مجبرين على ذلك. بَيْدَ أنّ الفشل في تنفيذ أمر ما قد يكون أسوأ من التصرف أو العمل السيّئ نفسه في بعض الأحيان. ثَمَّةَ ظاهرة تدعى (ظاهرة الأثر المزدوج) وهو أن يكون للعمل الصالح أو الفعل الحسن آثارٌ جانبية سيئة غير مقصودة. والناس تحكم على مثل هذه الأعمال والأفعال بعواقبها، لا بنيّات من فعلها. ومع ذلك، لا بُدَّ من أخذ بعض الأمور بنظر الاعتبار فيما يتعلق بالعواقب أو الآثار الجانبية السيئة: هل كانت تلك الآثار السيئة غير متوقعة ولا محتملة؟ أو كان بالإمكان تخمينها وتوقعها؟ أو أنّها كانت متوقعة؟

الإجهاض

يمثل الإجهاض نموذجًا من نماذج المعضلات التي تُعنى بها الأخلاق التطبيقية. والإجهاض، كما نعرف، هو عملية تخلّص من كائن حيّ أو كِيان معين يبدأ بمجموعة صغيرة من الخلايا، ثُمَّ يتحول إلى كائن حي قابل للنمو والحياة في تسعة شهور. لكن ماذا نطلق على هذا الكِيان؟ (كائن حيّ)، أم (نَفْس)، أم (إنسان)، أو هل هو (طفل)، أو (شخص)؟ أم أننا نفتقر إلى المفردات اللازمة لوصف هذا الكيان الذي نصفه أحيانًا بـ (اللاقحة) و (الجنين)؟ في الواقع ليس ثَمَّةَ فرق جليّ، واضح بين جنين في مراحل النضج الأخيرة، وطفل حديث الولادة.

تطرق الجدل الدائر، أيضًا، إلى الأمّ. هل علينا أن نأخذ بالنيّات أو بالعواقب؟ على الرغم من أنّ دوافع الإجهاض مختلفة، وتتراوح من أسباب بسيطة تافهة، إلى شعوز بالرعب من التعرض إلى حادث اغتصاب، إلّا أنّ ولادة طفل لها تأثير وعواقب طويلة المدى على حياة الأمّ. إنّ الغاية هنا هي خلق توازن بين حقوق الجنين والأمّ، والأب أيضًا، وكلّ المعنيين بهذا الأمر.



في أي مرحلة يصبح الطفل شخصًا؟ هل في مرحلة اللاقحة، أو عندما يكون جنينًا، أو حين يولد؟

القتل الرحيم

أدى القتل الرحيم (Euthanasia) إلى خلق معضلات مماثلة. فهو من جهة، جريمة قتل واضحة لا غبار عليها، لكنّه، من جهة أخرى، عملية انسحاب لا مفر منها في الحالات الصحية الميئوس منها. إنّ حرية الاختيار أمر بالغ الأهمية، وقد تناولت المناقشات الكثيرة عددًا كثيرًا من القضايا (الاختيارية أو الطوعية) التي يسمح فيها للمريض بحرية الاختيار، والقضايا (الإجبارية)، لا خيار للمريض فيها، والقضايا (غير الطوعية)، حَيثُ لا يستطيع المريض التعبير عن وجهة نظره. ثَمَّةَ قلق هائل يثقل نفس المريض عندما يشعر بأنّ وفاته قد تكون موضع نفع وفائدة لأشخاص آخرين. وهنا علينا أن نختار مفرداتنا بدقة، لأنّ الأمر صار سِيّان بين (إطالة العمر)، أو (إطالة الاحتضار).

حقوق الحيوان

لم تهتم البشرية في الماضي، ذلك الاهتمام الكبير بالحيوانات الذي نشهده في هذا العصر (وإن كانت الإساءة إلى الحيوان تُعدّ مثلبة أو ذنبًا)، لكنّها أصبحت أخلاقيًّا محطّ اهتمام النفعيين دفاعًا عنها، وشجبًا لأيّ ألم ناتج عن سوء معاملة، علمًا أنّ العلم الحديث أثبت أنّ الحيوانات، كقنديل البحر وغيره، مخلوقات متطورة معقدة أكثر مما نظن. يرفض كبار المدافعين عن حقوق الحيوان تناول لحوم الحيوانات، وهم يرفضون رفضًا قاطعًا قتل أيّ كائن حيّ، بل قد يشتط الأمر بهم إلى تفضيل شمبانزي بصحة جيدة على شخص يعاني من مشاكل صحية بدنية أو نفسية. لكنّ الحيوانات ما زالت، في عصرنا هذا، تُستخدم لأغراض التجارب والبحوث الطبية، بل إنّها بمثابة (الرقيق)، ويتم استخدامها، وكأنّها وسيلة من وسائل الترفيه. عندما نحاول أن نطبق مفهوم (الشخصية) أو (النفس) على الحيوانات، فإننا نجد بأنّها، على وفق هذا المقياس، تستحق المزيد من الحقوق.

يقوم الإنسان، لدواعٍ صحية، بقتل تريليونات الميكروبات، ويرى في ذلك فائدة كبيرة، بَيْدَ أنّه يربي الحيوانات الأليفة، ويطلق عليها الأسماء مثل بقية أفراد العائلة، بل إنّ بعض هذه الحيوانات الأليفة تفهم بعض إشارات أو مفردات المحادثات البسيطة. ثَمَّةَ مخاوف من انقراض بعض أنواع الحيوانات، بل حَتى الأشخاص الذين يُقبلون على أكل اللحوم يشعرون بقلق من بعض أشكال الاستغلال الوحشي للحيوانات.

تركّز الأخلاقيات التطبيقية، من ضمن ما تركز عليه، على الانتحار، والعقاب، والأخلاق الجنسية، وحقوق الأطفال، وطرق التعامل مع كبار السن. كل هذه الشرائح، والقضايا بحاجة إلى وضع تعريف واضح، محدد لمفهوم (الشخصية)، ومعرفة ما هي أولوياتنا الحقيقية عندما نجد أنفسنا في خضم معضلات تسبب الألم، والقلق.



لطالما تعرض الحيوان إلى الألم على يد الإنسان طلبًا للمتعة والترفيه عن نفسه. تمثل هذه القضية للنفعيين قضية أخلاقية أساسية تتعلق برفاهية الإنسان، وكذلك الحيوان

الظاهراتية والوجودية

كان إحياء تراث هيجل ثمرة من ثمار الظاهراتية التي أرسى قواعدها إدموند هوسرل (1859 – 1938) الذي كان يسعى إلى خلق تفكير يكون بلا افتراضات مسبقة. كان هوسرل ينطلق في تفكيره من استبعاد أيّ افتراضات مسبقة تتعلق بالحقيقة والواقع، مستهدفًا تنقية تجربته مما قد يعلق بها من افتراضات مسبقة. بدا هوسرل واقعيًّا لكنه جنح بعد ذلك، إلى المثالية، مؤمنًا بأنّ الأشياء كلّها لا تأتي ولا تكون إلّا من تجارب نقية، وإنّ الذات موجودة، كجوهر، أو مطلب لا بُدَّ منه للمحافظة على الفكر ودعم استمراره.

دافع مارتن هايدكر (1889 – 1976) عن هوسرل غير أنه أعاد النظر في طبيعة الوجود، لأنه كان يعتقد بأنّ الباحث لا يسعه إلّا دراسة النمط الذي نراه خاصًا بالكائن العقلي Dasein (وتعني الوجود الإنسي الذي يبقى دائمًا على علاقة بالموجودات، ويتميز عنها، وهو يتكون من الاحتمالات، وليس من الحقائق). كان هايدكر يعتقد بأنّ الذات كيفية ديناميكية، مرتبطة بمستقبلها، وتعي الموت، وهي كيفية صادقة حقيقية إن كانت تعمل بشكل كامل. وكان يرى بأنّ من المتعذر ولوج عوالم الميتافيزيقيا إلّا من خلال هذا النمط الديناميكي للوجود. كان ميل هايدكر للأصالة وحبه للحقيقة وراء رفضه المتزايد للتكنولوجيا الحديثة.

كان جون بول سارتر (1905 – 1980) معجبًا بهوسرل. عمل سارتر على تطوير فكرته التي عُرف بها، ألَا وهي أنّ الحرية – حرية الأفعال أو حرية التغيير –، تمثل جوهر الذات. كانت تلك الفكرة هي الأساس الذي قامت عليه فلسفته الوجودية التي كان لها تأثيرها الأدبي والفلسفي والفكري البالغ. إنّ الإيمان بطبيعة بشرية ثابتة، أو الإيمان بأنّ المكتوب لا مفر منه هو عقيدة فاسدة، فالإنسان مسؤول عن أفعاله، وتصرفاته، والأخلاق تتعلق بما يصدر عن الإنسان من قرارات مقصودة واعية

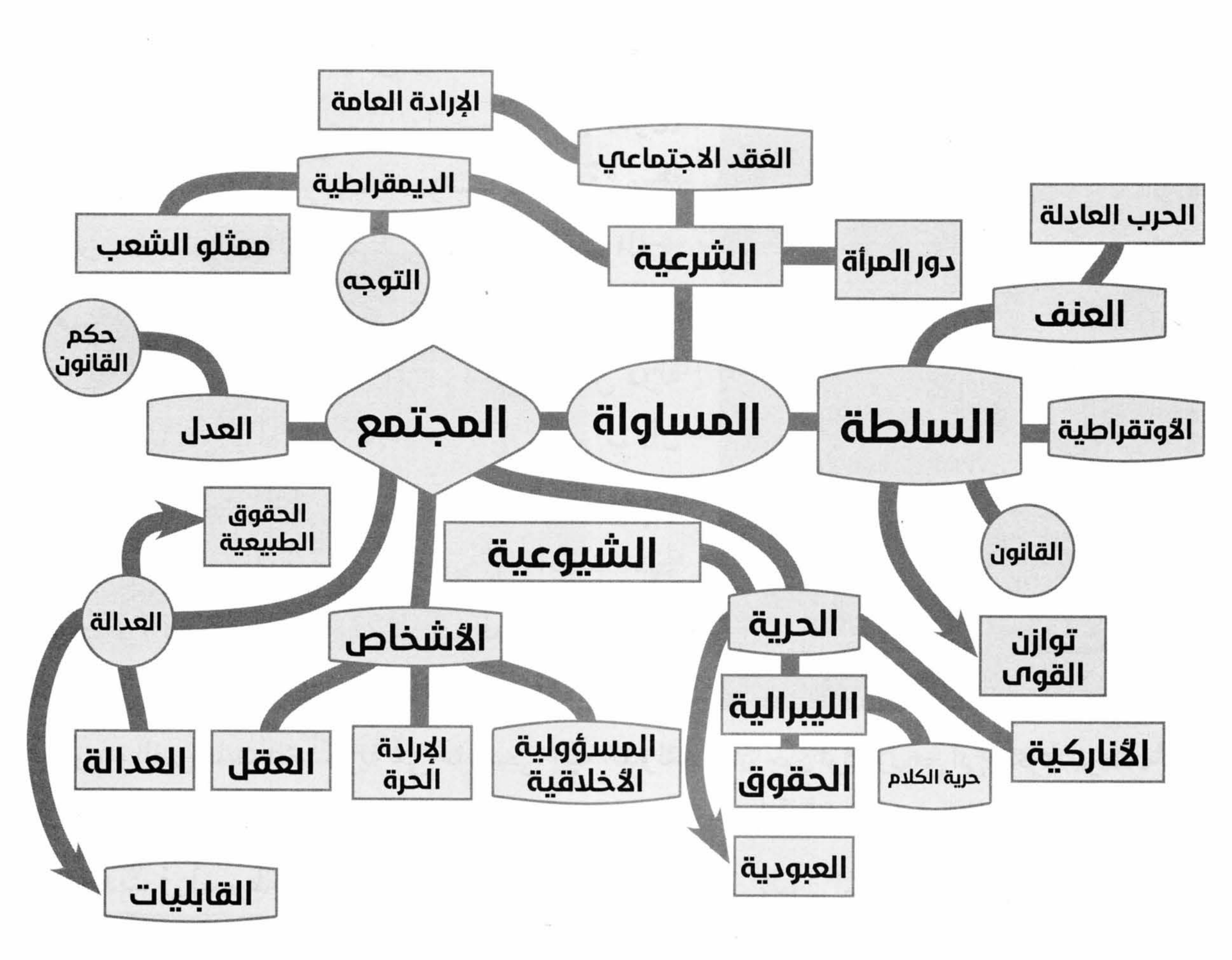
أكثر مما تتعلق بعواقب القرارات أو التصرفات. كانت سيمون دي بوفوار (1908 - 1986) شريكة لسارتر في حياته الفكرية، والشخصية الرئيسية في الفلسفة النسوية الجديدة، وكانت ترى بأنّ الحرية الوجودية للمرأة تكمن في ما تؤدي من دور اجتماعي. كانت دي بوفوار ترى بأنّ الجندرية هي بدعة ابتدعها المجتمع لا يمكن الخلاص منها إلّا إذا تحمّلت المرأة مسؤولية نفسها.

لم يكن ميشيل فوكو (1926 - 1984) متحمسًا لفكرة حرية الوجود، بل كان متشائمًا، فهو يرى أنّ الإنسان تحاصره علاقات هيمنة تاريخية. درس فوكو تاريخ علم النفس، والطب، والنظام الجنائي لكي يثبت أنّ الإنسان هو من يساهم في خلق الضغوط الاجتماعية التي تُكبّل إرادته وحريته. وكان يرى أنّ صورة الطبيعة البشرية التي نحملها في تصوراتنا وأوضاعنا التي نحن عليها الآن، أو ما يمكن أن نكون عليه، هي مما يقع خارج نطاق إرادتنا وسيطرتنا. إنّ الهدف من الفكر، كما يرى فوكو، هو تحرير الإنسان، والارتقاء به ارتقاءً لا يمكن لنا حَتى أن نتخيله.

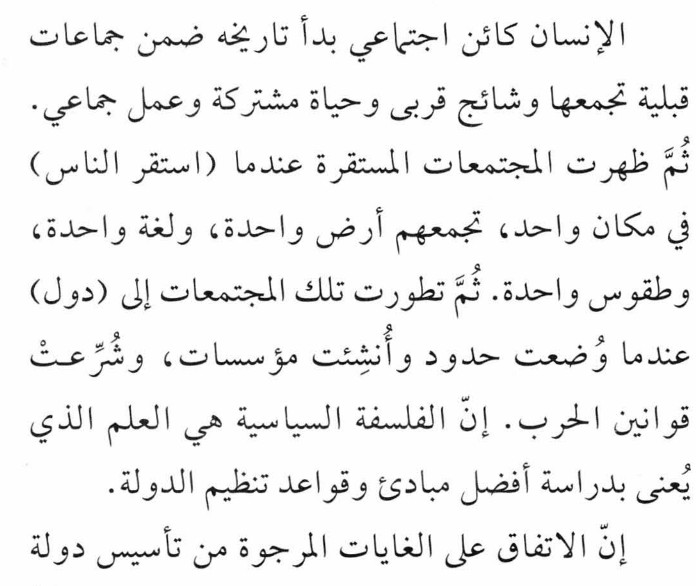


كان سارتر يرى أنّ الأخلاق تتعلق بالقرارات الصحيحة الأصيلة وليس بالعواقب

المجتمع

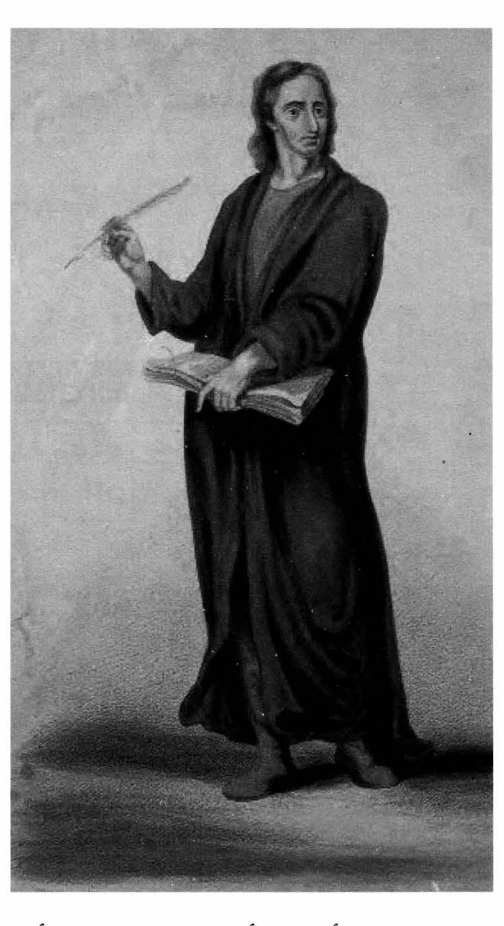

الإرادة العامة
العَقد الاجتماعي
الديمقراطية
ممثلو الشعب
التوجه
الشرعية
دور المرأة
الحرب العادلة
العنف
حكم القانون
العدل
المجتمع
المساواة
السلطة
الأوتقراطية
الحقوق الطبيعية
الشيوعية
القانون
العدالة
الأشخاص
الحرية
توازن القوى
الليبرالية
العدالة
العقل
الإرادة الحرة
المسؤولية الأخلاقية
الحقوق
حرية الكلام
الأناركية
العبودية
القابليات

الشرعية



الإنسان كائن اجتماعي بدأ تاريخه ضمن جماعات قبلية تجمعها وشائج قربى وحياة مشتركة وعمل جماعي. ثُمَّ ظهرت المجتمعات المستقرة عندما (استقر الناس) في مكان واحد، تجمعهم أرض واحدة، ولغة واحدة، وطقوس واحدة. ثُمَّ تطورت تلك المجتمعات إلى (دول) عندما وُضعت حدود وأُنشِئت مؤسسات، وشُرِّعتْ قوانين الحرب. إنّ الفلسفة السياسية هي العلم الذي يُعنى بدراسة أفضل مبادئ وقواعد تنظيم الدولة.

إنّ الاتفاق على الغايات المرجوة من تأسيس دولة هو البداية المثلى لبناء الدولة. فإذا قرر مجتمع ما بأنّ الكفاءة، على سبيل المثال، هي الغاية الرئيسة المرجوة من تأسيس الدولة، فإنّ استجلاب العبيد، واستخدامهم يصبح من الأمور المحمودة، بل إنّ الروبوت سوف يكون هو المواطن الأفضل، لا الإنسان. أمّا إذا كان الغزو، والفتوحات العسكرية هي ما تسعى إليه الدولة فإنّ الحرب والقتال سوف يكونان محور الحياة المجتمعية، (كما حدث في أسبرطة القديمة). بَيْدَ أنّ هذه الآراء لم تعد تحظى بقبول المجتمعات، وأصبح الافتراض الطبيعي هو أنّ هدف الدولة تحقيق السعادة لمواطنيها، الأمر الذي يمكن تحقيقه نظريًّا من خلال شكل



كان جون لوك أول من أتى بفكرة (الموافقة، أو المصادقة الضمنية

من أشكال العبودية، بَيْدَ أنّ معظم الناس يرون الحرية جوهر الحياة الحرة الكريمة. وقد يرغب الناس أيضًا في إدارة الدولة، والتحكم بها، وكذلك التحكم بحياتهم الشخصية.

شرعية الحكومة

العَقد الاجتماعي: هو إبرام اتفاقية على الحكم بين الناس ومن يتسلم مقاليد الحكم.

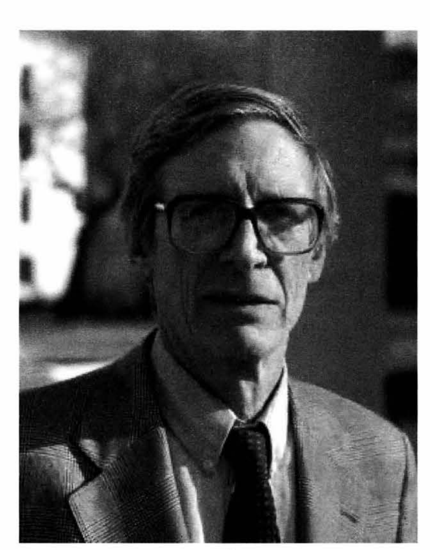


أضاف جان جاك روسو فكرة الإرادة العامة لقاعدة العَقد الاجتماعي

بدأت الفلسفة السياسية الحديثة بقضية (شرعية الحكومة). ما الذي يخول بعض الأشخاص ليحكموا الآخرين؟ طرح توماس هوبز فكرة العَقد الاجتماعي التي تنص على أنّ شرعية الحكم لا تُستمَد إلّا من موافقة الناس ورضاهم. وبما أنّ العَقد الاجتماعي هو عقد غير مكتوب، وغير موثق، فقد طرح جون لوك فكرة الموافقة الضمنية التي تعني بأنّ استخدام طرق البلد، ومرافقه، ومؤسساته، على سبيل المثال، يعني القبول بسلطة الحكومة التي قامت بإنشاء تلك البنى التحتية. ثُمَّ جاء جان جاك روسو ليضيف صورة مثالية، هي عبارة عن عقد تجمعات يتوصل فيها الناس إلى إجماع يعبر عن الإرادة العامة، وينتهي بتعيين الحكومة.

الإرادة العامة: هي إجماع الناس.

أضاف جون رولز بُعدًا آخر لهذا النهج، ألَا وهو الموضوعية، من خلال قيام أعضاء المجتمع باختيار المجتمع الذي يصبون إليه انطلاقًا من موقف أولي مفترض، فهم ينطلقون من خلف حجاب الجهل بما يضمره الغد لهم، ويريدون صنع مجتمع جديد دون أن يعرفوا المواقع الاجتماعية التي سوف يشغلونها. فإذا توصل الناس، وهم في هذا الموقف الحيادي المتجرد، إلى إجماع بخصوص الهيكلية التي يرغبون فيها لمجتمعهم، فإنّ هذا الإجماع هو الأساس الذي تستند إليه الحكومة الشرعية في توجهاتها وسياساتها الرئيسية التي يعتقد رولز بأنّها ينبغي أن تركز على تحقيق الرفاهية للمواطنين الأكثر حرمانًا.



يعتقد جون رولز بأنّ الحكومة الشرعية لا تنعقد إلّا إذا أغفل الناس المواقع الاجتماعية التي سوف يشغلونها في ظل الحكومة الجديدة

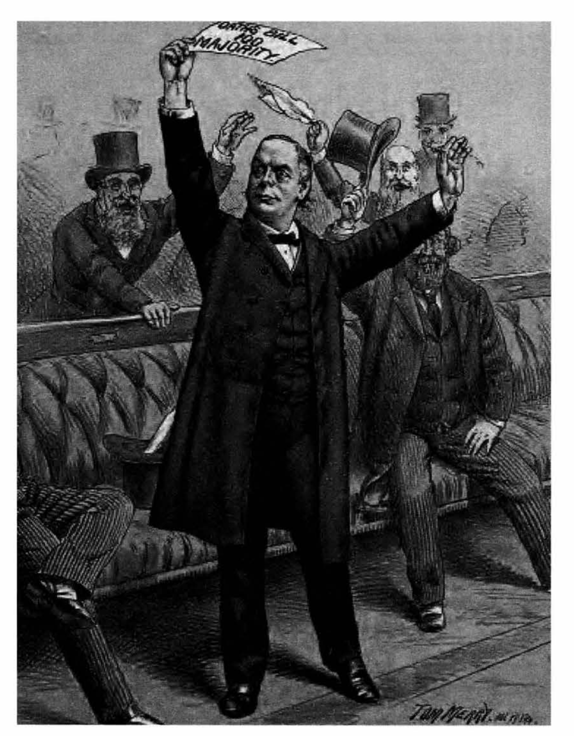
الديمقراطيات

تستند الشرعية الديمقراطية إلى الاختيار المباشَر للمواطنين. ومع ذلك، فإنّ الديمقراطية ليست قرار الشعب بكلّ شرائحه وأطيافه، لأنّ الأغلبية تصبح صاحبة القرار، بينما الأقلية تكون متفرجة. كان روسو يريد أن تكون الإرادة العامة مبنية على الإجماع، وليس على خيار الأغلبية. هل تعدّ الحكومة شرعية إذا رفضت أقلية كبيرة قبول تلك الحكومة؟ هل من حق الحكومة أن تلجأ إلى قمع الأقليات واضطهادها؟ إن فعلت ذلك فإنها تقوض سلطتها وشرعيتها. إذن ما هي المبادئ التي يمكن أن تعزز من وشائج انتماء الأقليات إلى دولة واحدة متحدة؟ يتطلب صنع الحالة الجامعة نشر قيم التسامح، وتدعيمها في المجتمع من خلال التعاطي مع الثقافات الفرعية، واحترام النظام السياسي نفسه، وضمان قبول الأصوات الديمقراطية والتمثيل العادل للأقليات.

تستطيع الديمقراطيات الصغيرة اتخاذ قرارات مباشَرة بعد مناقشتها في تجمعات، أو جمعيات، أمّا في الديمقراطيات الكبيرة فإنّ القرارات تُتخذ من ممثلين عن المواطنين، وليس من خلال الاختيار المباشَر للمواطن.

يُصنف ممثلُو الشعب المنتخَبُون إلى نوعين:

- الوكيل: ومهمته طرح آراء الناس، ووجهات نظرهم.
- المفوض: شخص ينال إعجاب الناس فيفوضون إليه أمر التفكير في مصالحهم ومناقشتها.



تُتخذ القرارات في الأنظمة الديمقراطية بعد مناقشتها من جمعية منتخبة

إذا كان النائب عضوًا في حزب سياسي، فإنّ ذلك قد يزيد شرعية تمثيله، لأنّ الأحزاب لا تقوم إلّا بدعم الناس لها، والتفافهم حول مشاريعها المعلنة التي وعد الحزب بتنفيذها، مع وجود احتمال انقسام بين الحزب ومكوناته حول طرق العمل والتنفيذ. وقد يخفق الوكيل والمفوض في تمثيل الأقليات، لأنّهما إمّا يتحدثان باسم الأغلبية، أو يكونان عضوَيْن موَالييْن للأغلبية التي ينتميان إليها. وعليه، فإنّ نظام الانتخابات الصالح هو النظام الذي ينبثق عنه ممثلون (يعكسون) جميع أطياف المواطنين وشرائحهم، وهم في الوقت نفسه مسؤولون أمام الشعب.

تمثيل المرأة

كان تمثيل المرأة تمثيلاً كاملاً من القضايا التي شغلت العصر الحديث. عمليًّا، هيمن الرجل على جميع الحضارات، تقريبًا، هيمنة كاملة حَتى العصور الحديثة، وهو خلل لا يمكن تجاوزه إلّا من خلال منح حقّ التصويت للجميع رجالاً ونساءً، وتكافؤ فرص التعليم والعمل. بَيْدَ أنّ فلاسفة سياسة الحركة النسوية يقولون أنّ المشكلة أعمق مما نعتقد. فحَتى عندما يتحقق التمثيل المتساوي، فإنّ مؤسسات الحكومة، والقيم الثقافية (بما في ذلك الحياة الأسرية) تبقى ذكورية، لذلك لا بُدَّ من إعادة النظر في لغة المجتمع، وطقوسه، وإجراءاته. ويبدو أنّ فكرة (الجنسانية) جاءت نتيجةً لكلّ من الأعراف الاجتماعية والبيولوجية.



على الرغم من تحقيق تمثيل متساوٍ بين النساء والرجال مطلع القرن العشرين إلّا أنّ الثقافة والمؤسسات الحكومية ما زالت ذكورية

الأفراد والشرعية

تعتمد فكرة حرية الناس في اختيار طريقة الحكم التي تسوسهم، على فكرة (الشخص) كذات منفصل يتمتع بقوى العقل، والإرادة الحرة، وهو قادر على تحمل المسؤولية الأخلاقية. عندما تُستمد الشرعية في المجتمع من الفرد كنقطة بداية، فإنّ ذلك المجتمع هو مجتمع ليبرالي. والافتراض الأساس هو أنّ المواطن حُرّ ما دام أنّه لم يؤذِ غيره. ثُمَّ جاء الفلاسفة الليبراليون الذين ركّزوا على السبل التي يحفظ من خلالها الفرد استقلاليته، وفرديته المفترضة، ويختار أن يندمج مع غيره لتوحيد الجهود منْ أَجل إنجاز المشاريع المجتمعية.

نقد الليبرالية

يعتقد النقاد اليساريون أنّ حرية إبرام العقود تجعل المواطنين في موقف ضعيف (كما هو الحال مع العمال اليدويين)، إِذ يمكن استغلالهم بسهولة. أمّا النقاد المجتمعيون، فإنّهم يعتقدون أنّ الحرية الليبرالية تجعل الفرد ينسحب من المجتمع، ما يناقض الطبيعة الاجتماعية عند الفرد الذي لا يتمكن من العيش إلّا داخل مجتمع.

السلطة

السؤال هنا، هو ما مقدار السلطة التي ينبغي أن تكون للحكومة على مواطنيها، على فرض أنّها حكومة شرعية. قد تكون هذه السلطة واسعة النطاق (تغطي معظم جوانب الحياة)، لكنّها لا تمتلك العقوبات الرادعة لفرض

نفسها، أو يمكن أن تكون سلطات محدودة النطاق، لكنّها قوية. هل ينبغي على الحكومة أن تقرر سلطاتها، أو يجب تقييد سلطاتها تقييدًا صارمًا؟ لا جدال في أنّ الحكومة يجب أن يكون لها السلطة، لكن يجب أنّ يكون للمواطنين أيضًا سلطاتهم الخاصة بهم على الحكومة. وهل ينبغي أن تتركز سلطة الحكومة في عدد محدود من الأشخاص، أو توزع على نطاق أوسع؟ إحدى الإجابات على ذلك السؤال هي الفكرة الحديثة المعروفة ألَا وهي الفصل بين السلطات حَيثُ لا تملك الحكومة سلطة على المنظومة القانونية ما يساعد على تطبيق الدستور بحيادية. وعليه فإنّ فروع الحكومة الثلاثة: (السلطة التنفيذية، والسلطة القضائية، والسلطة التشريعية) تظل مستقلة تمامًا. تعتنق معظم دول العالم اليوم فكرة الفصل بين السلطات نظريًّا، إلّا أنّ من النادر أن نجد لها تطبيقًا تامًّا. على سبيل المثال، في الولايات المتحدة يرشح الرئيس (السلطة التنفيذية)، قضاة المحكمة العليا (السلطة القضائية)، ويتمّ التصديق على الترشيح من مجلس الشيوخ (السلطة التشريعية).

	النظام الاستبدادي	النظام التكنوقراطي	النظام الديمقراطي
أسلوب الحكم	حكومة الفرد الواحد	حكومة الخبراء	حكومة أشخاص متعددين
المزايا	قرارات سريعة	تحقيق الرفاهية، وحماية الشرائح التي تحتاج إلى المساعدة	ضوابط وكوابح تحد من السلطات
العيوب	مستوى حياة متدنية	كثرة الضرائب	قرارات بطيئة

اعتقد الفلاسفة القدماء أنّ المستبدّ العادل (أو الاستبداد الحميد) هو نظام الحكم المثالي، بَيْدَ أنّ ثَمَّةَ مخاطر محتملة تتمثل في الفساد. كان الحكام المستبدون التقليديون محاطين بمجموعة من الأرستقراطيين الذين يملكون الأراضي، ويتقاسمون السلطة بينهم، وكان تماسك الدولة قائمًا

على حماية ورعاية الحاكم. ولنظام الحكم الاستبدادي (الأوتوقراطي) القوي مزايا، منها أنّ قراراتها سريعة، (غالبًا ما يُفوّض كبير المستشارين باتخاذها)، الأمر الذي يترتب عليه إنجازات لا تنسى، لكنّ هذا الحكم نادرًا ما يحقق للناس الحياة الكريمة التي يصبون إليها. ليس من الضروري وجود حاكم مستبد، إذ ربما تدير الدولة نخبة من الأشخاص الذين لديهم سلطة ما عسكرية، أو أرستقراطية، أو اقتصادية.

كان أفلاطون يحلم بدولة يديرها فلاسفة بارزون يتميزون بالحكمة، أيْ التكنوقراط بلغة اليوم، وهم مجموعة الخبراء الذين لهم التأثير الأكبر. تركز الفلسفة الليبرالية على مبدأ (الرفاهية) وتبريره، فالرفاهية تعني تقديم المساعدة والعناية لمن هم بحاجة إليها، لكن على حساب أولئك الذين يستطيعون تحمل تكاليف المساعدة. بشكل عام، بات من المقبول أن تقوم الحكومات بفرض الضرائب العالية على الأغنياء، بَيْدَ أنّ المبادئ السياسية العظيمة الثلاثة: الحرية، والمساواة، والعدالة، سوف تكون بين شدّ وجذب.

هل للأغنياء حرية الاحتفاظ بما كسبوه؟ هل للفقراء الحقّ بتلقي خدمات العلاج الصحي باهظة الثمن كالأغنياء؟ هل إنّ استبعاد الكثير من الناس عن المزايا والمنافع التي يوفرها المجتمع يُعدّ ظلمًا مجحفًا؟



إنّ الفوز في انتخابات ديمقراطية يمنح الحكومة، نظريًّا، سلطات كاملة، غير أنّ أحد أهداف الديمقراطية هو كبح جماح السلطة المفرطة. إذن، والحال هكذا، أين التوازن، وكيف السبيل إليه؟ إنّ السلطة التي تسعى جميع الديمقراطيات إليها هي سلطة بلا قادة فاسدين. إذا كانت الديمقراطية مجرد وسيلة لاختيار القادة، فإنّها أيضًا تتيح لهم حرية التصرف، بَيْدَ أنّ المفهوم الأوسع للديمقراطية يشمل النقاشات العامة، واشتراك الجمهور في صنع القرار، وحَتى أصحاب الأعمال من موظفين، وتجار، وأشخاص عاديين يمكنهم المشاركة. تمثل الحكومة في الأنظمة الديمقراطية مصدر إحباط، لأنّ قراراتها بطيئة، ويمكن أن يُجهضها اعتراض المعترضين، كما إنّ السياسات طويلة المدى تكون عرضة للتعطيل، والعرقلة بسبب الانتخابات المتكررة. والسؤال هنا، هل على الناس اتباع الإجراءات الديمقراطية فحسب، أو ينبغي أن يتحلى المواطنون بأخلاق الديمقراطية، وفضائلها، ويسعون إلى المشاركة في إدارة شؤون بلدهم بالانخراط مع الآخرين ضمن فعاليات وعمليات ذوات طابع مدني؟

استخدام القوة

للحكومات الحقّ في فرض القانون عن طريق العنف إن لزم الأمر، لكن هل إنّ استخدام القوة لفرض العقوبات له ما يبرره بأنه يمثل ردعًا، أو عامل وقاية، أو إصلاح وتقويم؟ هل إنّ إنزال العقوبات بالبعض هو لأنهم يستحقون ذلك، أو لردع الآخرين من خلال بث الخوف فيهم، أو لأنّ إنزال العقوبات هو التصرف الصحيح، أو لتغيير شخصية الجاني؟ لكن ما هي العقوبة التي يستحقها، مثلًا، من يقوم بابتزاز الناس؟ ألَا يؤدي إنزال العقوبة في شخص بريء إلى بث الذعر بين الناس؟ إننا نريد القضاء على الجريمة وإيقافها، بَيْدَ أنّ العقوبة تأتي بعد فوات الأوان. بالإمكان استعادة الممتلكات المفقودة أو المسروقة، لكن يتعذر استعادة الأشخاص الذين قُتلوا أو فُقدوا.

أمّا تغيير شخصية الجاني نحو الأفضل، فإنّه أمر ميئوس منه إلى حدّ ما بالنسبة للجناة الأكبر سنًّا. يمكننا القضاء على الجريمة واجتثاثها من خلال قبضة حديدية تضرب بقسوة دونما رحمة، بَيْدَ أنّ هذا يتعارض مع القيم الليبرالية الأساسية في الحرية واحترام استقلالية الأفراد.



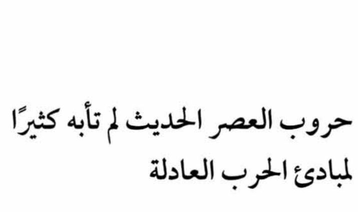
تستطيع الحكومة القضاء على الجريمة من خلال إجراءات قاسية لا ترحم، بَيْدَ أنّ هذا سوف يكون على حساب حرية الناس

تتجسد أكبر سلطة تتمتع بها الحكومة في إعلان الحرب على دولة أخرى، لكن متى يحدث هذا؟ تنص نظرية الحرب العادلة على أنّ إعلان الحرب جائز إن كانت لصد عدوان، ولها ما يبررها، كأن تكون هي الملاذ الأخير، وليست تصرفًا عبثيًّا، مدعومة من جميع سلطات الدولة. لقد أصبحت الحروب الحديثة مروعة لدرجة أنّ البعض قد يشكك في المبادئ المذكورة آنفًا، وهي المراد منها إيقاف الحروب، أو تقليص عددها، لأنّ الدمار الذي تخلفه الحرب كبير جدًّا، يتجاوز كل شيء، وكلّ ما يمكن أن يُعدّ صحيحًا ومبررًا. لقد تم أيضًا، وضع مبادئ معيارية خاصة بإدارة أيّ حرب. من هذه المبادئ: عدم اللجوء إلى القوة المفرِطة، يجب أن تكون الأهداف مشروعة، عدم استخدام الأسلحة المحظورة، حماية أسرى الحرب، وعدم القيام بعمليات انتقامية، لكن كيف يمكن إيجاد توازن بين عدالة الحرب والعدالة التي ينبغي تطبيقها على من شملتهم الحرب؟ كيف نوازن بين قيمة كلّ إنسان فقد حياته في الحرب، وقيمة مستقبل غامض تصنعه الحرب؟



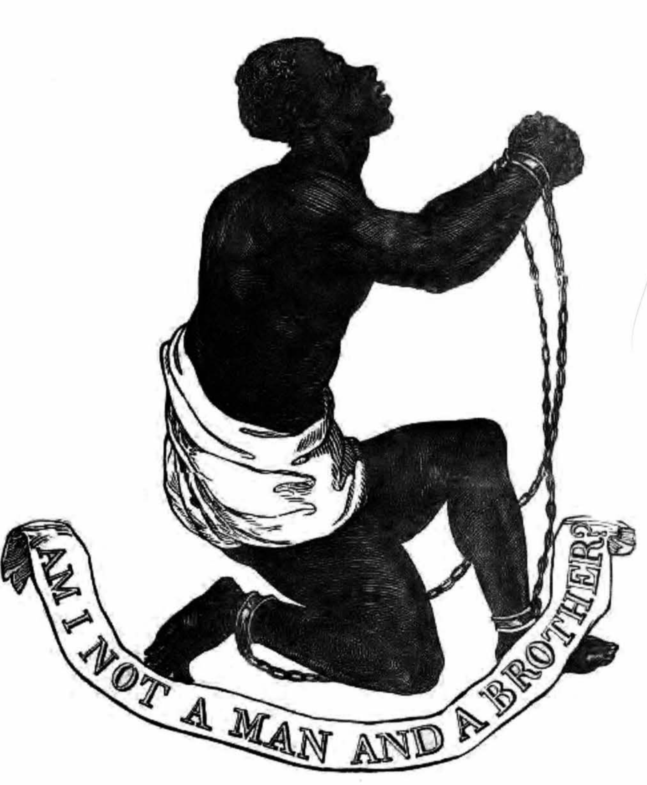
الحرب العادلة هي حرب تندلع:

- لسبب حقيقي.
- لصد عدوان.
- على نحو متسق وليس عبثيًّا.
- كحلّ أخير.
- توفر فرص تحقيق أهداف الحرب.
- مدعومة من سلطات الدولة بالكامل.



حروب العصر الحديث لم تأبه كثيرًا
لمبادئ الحرب العادلة

الحرية



تُعدّ الحرية، في الديمقراطيات الحديثة، والمجتمعات الليبرالية، واحدة من أهم القيم. فلقد بات الناس جميعًا في هذا العصر يحتقرون العبودية التي هي حرمان تام من الحرية. لكن ما هو العيب في العبودية ولماذا يحتقرها الناس ويشجبونها؟ لا يمكن أن تكون المعاناة التي يعيشها العبيد هي السبب، فالعبودية تبقى في كلّ الأحوال أمرًا مشينًا حَتى لو خلت حياة العبيد من أيّة معاناة، وكانوا سعداء مرفهين. أحد الأسباب التي تجعل الناس يشجبون العبودية ويمقتونها هو أنّ لكلّ إنسان « ذات مستقلة وكيان قائم بنفسه » ويشعر بأنه يمتلك زمام أمره كلّه، فهو ليس بضاعة ولا سلعة تباع وتشترى، ولا يمكن لأحد من البشر أن (يمتلك) غيره من بني جنسه، لأنّها ببساطة تمثل عملية سرقة لإنسانية الإنسان. من المنطقي أن يكون كلّ شخص هو المالك لأمره وذاته، ما يعني أنّ قيام شخص ما ببيع جزء من جسده، كُليَته مثلاً، هو أمر قانوني، بَيْدَ أنّنا نحتاج إلى أخذ هذه المسائل بشيء من التروي، والنظر الثاقب، وأن نضع في الحُسبان مبدأ (الاستقلال الذاتي) الذي يعني أنّ كلّ شخص مسؤول عن نفسه.

الاستقلال الذاتي: هي القدرة التي يتمتع بها كلّ شخص في تحمّل المسؤولية عن نفسه.

إن كان كلّ إنسان مسؤولاً عن نفسه وحياته، فإنّ استعباد شخص ما لا يحرمه حقًّا من حقوقه فحسب، وإنّما يمحق سمة أساسية وجوهرية من سمات وجوده. الأمر الذي يعني أنّ استقلالية كلّ فرد يجب أن تكون محمية (حَتى في المجتمع الذي تُعدّ فيه العبودية غير قانونية)، وهو الأساس الذي يقوم عليه مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة.

الأناركية (الفوضوية)

تزعم الأناركية بأنّ الدولة ليس لها سلطة شرعية فهي أصلاً ليس لها الحقّ في أن توجد. ينبثق هذا الموقف من الأهمية الكبرى، والقيمة العظمى التي تحتلها الحرية والاستقلالية في فكر الأناركية، وفكر من يؤمن بها ممن يقولون بأنّ التخلي عن الحرية بموجب عقد اجتماعي يشبه العبودية التي تمسخ ذات الإنسان واستقلاليته. إنّ من حقّ الشخص الطبيعي أن يختار مهنته، أو نوع الحياة التي يحبّ أن يعيشها، وكل مقدار يخسره الفرد من حريته له ما يبرره في العصر الحديث. من الممكن أن نتقبل الأناركية، وفلسفتها لو كانت أوضاع البشر وأحوالهم تزدهر وتتطور نحو الأفضل في ظلّ الاستقلالية الكاملة، ما يدعونا إلى القول بأنّ العَقد الاجتماعي أمر لا بُدَّ منه حَتى وإن كان خطأً. يقول النقاد إنّ الأناركية لا تثبت صلاحيتها إلّا في أجواء السلام والازدهار، بَيْدَ أنّ الحاجة إلى التنظيم المركزي تظهر حالما تلوح أزمة في الأفق.

الأناركية (الفوضوية): ليس للدولة الحق في الوجود، وليس لها أيّة سلطة شرعية.

تضارب الحريات

- كلنا نريد الحرية، ونطلبها لأنفسنا لكننا نضيق ذرعًا بالآخرين إذا ما مارسوا حريتهم.
- من حقّ الفرد اختيار المكان الذي يحبّ العيش فيه، لكنّ معظم الدول تقيد الهجرة.
- حرية الكلام شيء رائع، شرط أن لا ينطوي على إهانة الناس.
- حرية امتلاك كلاب شرسة أو أسلحة خطرة، أمر خطير للغاية، حَتى لو لم ينتج عنه أيّ ضرر فعلي.
- الاقتصاد الرأسمالي بحاجة دائمة إلى سوق حرة، لكنّ من القسوة تدمير شركة صغيرة منافسة!

قد يقع التصادم أو التضارب بين الحرية وغيرها من قيم أخرى. لو منحت أغلبية ما قدرًا هائلاً من الحرية فإنّ ذلك يؤدي إلى اضطهاد الأقليات الأخرى. وفسح المجال أمام التجارة مع إعطاء حرية كاملة قد يؤدي إلى تفاوت هائل في الثروة وتمايز طبقي. إنّ منح الحريات المختلفة للناس تحتهم عليهم في المقابل واجبات يلتزمون بأدائها، وسلوكًا محددًا، على سبيل المثال، تجنب الدخول في ممتلكات الغير أو الإضرار بها، حَتى لو تطلب ذلك السير لمسافات طويلة. يكمن التحدي في إيجاد التوازن المطلوب وتحديد الأولويات من بين القيم المختلفة، وما قد ينشأ بينها من تضارب.

لحرية التعبير أهمية كبيرة في الأنظمة الديمقراطية، على الرغم ممّا قد ينطوي عليه ذلك من مخاطر تتمثل في نشر الأكاذيب. أمّا مبدأ حرية العقيدة فهو ذو أهمية أكبر، يتعذر وجود مجتمع ليبرالي من دونه. لعلنا جميعًا نؤمن أنّ حرية المعتقد مطلقة، لكن علينا أن ننعم النظر في بعض الحالات التي تنطوي على مشاكل كبيرة. قد يتجاوز ولاء الأفراد للدين ولاءهم للدولة، وقد تتعاطف أقلية دينية مع العدو في زمن الحرب أكثر من تعاطفها مع بلدها. قد تدفع بعض المعتقدات معتنقيها إلى العنف حَتى لو لم تتضمن تلك المعتقدات ما يدعو إلى العنف. لا يمكن القضاء على هذه المعتقدات، لكنّ السؤال هو إلى أيّ مدى يجب أن تذهب الدولة في سياسة الإقناع والدعاية لمواجهة المشاكل المذكورة؟

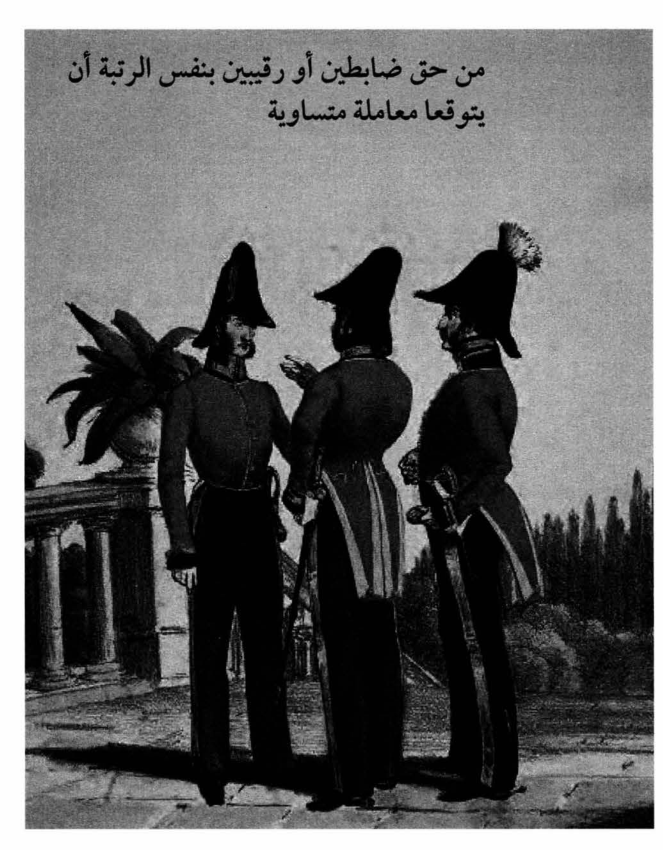
إنّ معظم الدول قادرة على أن تتعامل بتسامح مع مجموعة كبيرة ومتنوعة من الثقافات الفرعية، لكن قد تكون هناك أنشطة تقليدية (مثل تعاطي المخدِّرات) تعد غير قانونية. يمثل هذا الوضع مشكلة لكلّ من الديمقراطية، ولمبدأ الحرية، الأمر الذي ينجم عنه مواقف وآراء مختلفة أو متضاربة يمكن للديمقراطيين كبحها باسم الأغلبية، بَيْدَ أنّ انتهاك حرية الأقلية يحتاج إلى ما يبرره.

لعلّ النفعية تمثل مخرجًا من هذا الوضع الشائك، فهي ترى بأنّ الفعل الصحيح هو كل فعل تنتج عنه أقصى فوائد ممكنة. لقد كان لهذا المنهج تأثيره البالغ في صنع القرار السياسي (مثل الإنفاق على الخدمات الصحية). وقد يرى البعض بأنّ قمع حرية الأقلية له ما يبرره إذا كانت النتيجة تصب في الصالح العام للدولة ورفاهية مواطنيها. ومع ذلك، فإنّ مشكلة هذا الموقف النفعي، الذي قد يراه البعض سيئًا، أنه موقف لا يُشعر بتأنيب الضمير لكونه مخالفًا للعدالة ما دامت نتائجه سوف تكون نحو الأفضل. وهكذا، فإنّ من السهل قمع أقلية صغيرة منْ أجل الحفاظ على مصالح وسعادة الأغلبية، لكن ماذا لو كانت الأقلية كبيرة، وليست صغيرة؟ من المؤكد أنّها سوف تشعر بكثير من الضيق والكبت إذا ما تم تقييد حريتها.

المساواة

إذا كانت المساواة تعني التطابق فمن الواضح أنّ الناس ليسوا (متساوين). إنّ فكرة المساواة بين البشر ليست جديدة. يُفترض في المجتمع الذي يضم طبقات متعددة أن يتم التعامل مع الأشخاص الذين ينحدرون من نفس الطبقة على قدم المساواة. على سبيل المثال، يجب التعامل مع رقيبين اثنين في الجيش، أو مع موظفين اثنين في نفس الدرجة على قَدَم المساواة، حَتى طبقة العبيد (لو كانت موجودة) يتم التعامل مع أفرادها دون تمييز بينهم. بَيْدَ أنّ الفكرة التي سادت العصور الحديثة هي أنّ جميع المواطنين في الدولة الواحدة يتمتعون بحقوق متساوية، بل إنّ جميع البشر ينبغي النظر إليهم

على أنهم متساوون، لكن في أيّ جوانب، وبأيّ معنى؟ وهل المسألة هي مجرد إتاحة حقوق متساوية للجميع، أو يجب أن يكون الناس متساوين في بعض الجوانب؟


من حق ضابطين أو رقيبين بنفس الرتبة أن يتوقعا معاملة متساوية

تفترض فكرة العَقد الاجتماعي، وكذلك فكرة رولز (الموقف الأولي) المساواة بين الناس لأنهم جميعًا يقومون باختيار من يمثلهم بملء حريتهم. من المرجح أن يكون المجتمع الذي يختاره الناس غير متكافئ، إلّا أنّ العدالة بحاجة إلى حالة مساواة أولية أو أساسية. إنّ الافتراض الأساس هو أنّ الناس متساوون سياسيًّا ما لم توجد أسباب تبرر عدم المساواة بينهم.

اقترح البعض، في المجتمعات الديمقراطية، أن يتم إعطاء الناخبين المتميزين الحق في الإدلاء بأكثر من صوت، لكنّ في الواقع فإنّ جميع المواطنين المؤهلين متساوون في الإدلاء بأصواتهم.

بالنسبة للنفعية فإنها تعتقد بأنّ سعادة كلّ المواطنين دونما تمييز بين مواطن وآخر هي مسؤولية الحكومة، على الرغم من تقبل الفكر النفعي لما يقع من ظلم في مجال توزيع الثروات أو السلطات.

تتجلى المساواة على نحو أوضح في (سيادة القانون). كان من الشائع في المجتمعات التقليدية تهّرب الأرستقراطيين من الجريمة، لكن في الأنظمة التي يُطبق فيها القانون تطبيقًا صارمًا فإنّ الجميع سواسية أمام القانون، بل إنّ بعض رؤساء الدول ينتهي بهم المطاف في السجن. إنّ المساواة الحقيقية

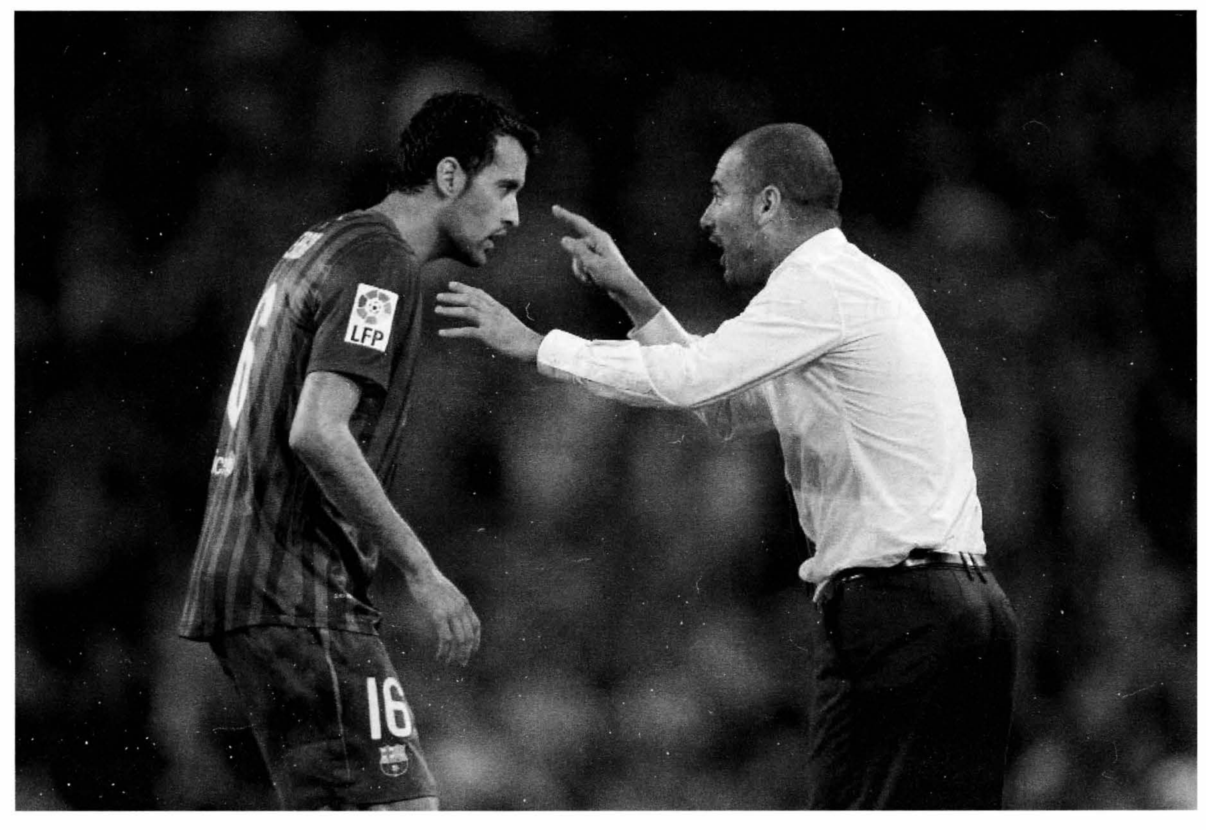
أمام القانون لا تتعلق بوضع المتهم وطريقة التعامل معه في المحكمة فحسب، وإنما أيضًا، بمن تُوجّه له التهمة، وبحق الدفاع على يد أفضل المحامين.

يتقبل الناس في حياتهم اليومية، دون جدال، العديد من حالات عدم المساواة. فرُبَّ مدرب منتخب رياضي يفسخ عقد هذا أو ذاك من اللاعبين، ويتحكم بهم، أمّا مؤسس شركة ما فهو مديرها وصاحب الأمر فيها. كما إنّ من الطبيعي أيضًا أن يتقبل الناس التفاوت الكبير في الثروات، أمّا الأشخاص من ذوي المواهب أو الطاقات الروحية الهائلة، فإنّ من المفترض أنّهم يستحقون أسخى الجوائز والمكافآت. لكن ما هي الحدود التي يكون التفاوت ضمنها مقبولاً؟ في المجتمع الرأسمالي (الثروة تولد الثروة)، لذلك يستطيع الشخص الذي اكتسب أموالاً كبيرة استخدام أمواله لزيادة ثرواته، والمزايا التي توفرها الثروة، ما يؤدي بدوره إلى تفاوت كبير، وعدم مساواة.

يسعى الناس لتحقيق المساواة، يدفعهم إلى ذلك إحساسهم بالعدل والإنصاف، وميلهم الفطري إليهما. بَيْدَ أنّ المساواة لا تكون مطلوبة في كلّ شيء، فأيّ خير يرتجى، مثلاً، من جعل الناس جميعًا سواسية في الفقر؟ إنّ العرف المقبول بين الناس هو تقديم حوافز سخية لمن يستطيع أن ينجز أعمالاً كبيرة قيّمة. وهكذا فإننا نرى بأنّ المساواة بحدّ ذاتها ليست قيمة مهمة. يبتغي الناس العدالة في توزيع الثروات، والاستفادة من خدمات التعليم، والرعاية الصحية، وكما قال رولز ينبغي أن يُوجَّه الاهتمام للأفراد الأقلّ رفاهية في المجتمع، ممن يعانون من صعوبات حقيقية بسبب عدم تكافؤ الفرص.

العدالة

كلّ الناس يفضلون العيش في مجتمع تسوده العدالة، لذلك كان وضع الدساتير العادلة أحد أهمّ أهداف الفلسفة السياسة. فالمساواة هي أول مبدأ من مبادئ العدالة، ومن الواضح أنّ تفضيل



غالبًا ما يتقبل الناس عدم المساواة في حياتهم اليومية، على سبيل المثال، إن بعض المدربين الرياضيين يتحكمون بالفريق وأعضائه كما يحبون

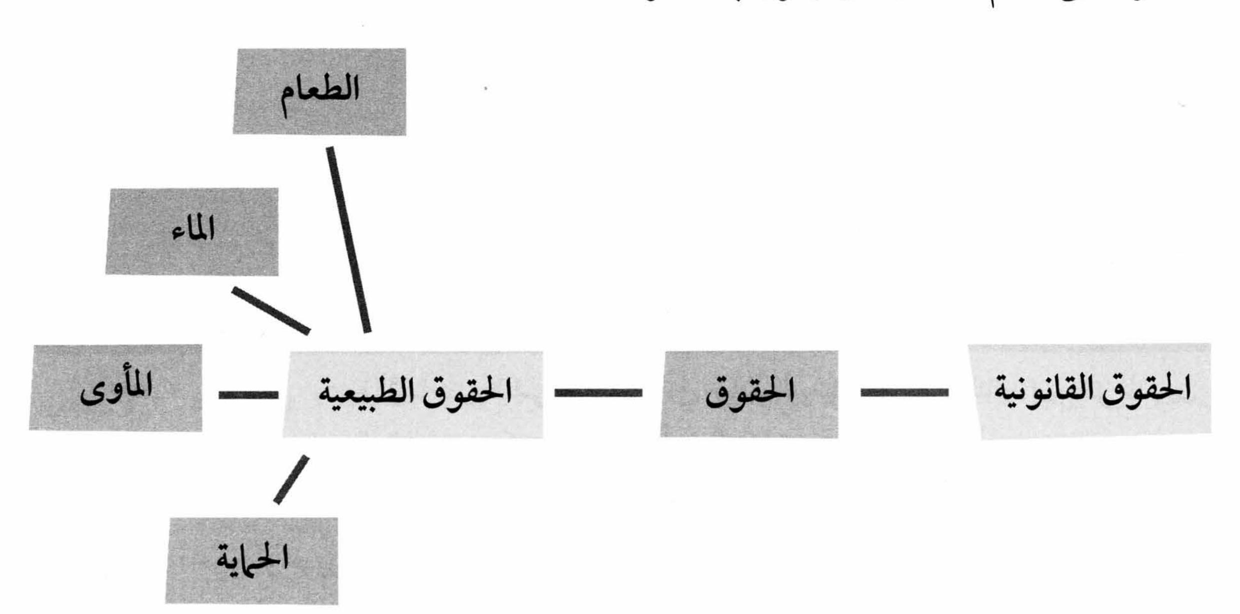
شخص على آخر، أو فريق من الناس على آخر دون سبب مقبول هو ظلم يناقض مبدأ العدالة. بَيْدَ أنّ بعض أشكال التفاوت تكون مقبولة، ولها ما يبررها.

العدالة، كما يرى رولز، هي عدالة تشمل جميع الناس، وحسب كفاءاتهم والفرص التي يحظون بها وحاجاتهم، العدالة، كما يراها النفعيون، هي التي ينجم عنها أكبر قدر ممكن من المنافع والفوائد،

العدالة، كما يراها روبرت نوزيك، هي أن ينال كلّ شخص ما يستحق. العدالة، كما تراها مارثا نوسبوم، هي أن يعمل كلّ حسب طاقته وكفاءته الشخصية.

الحقوق الطبيعية والحقوق القانونية

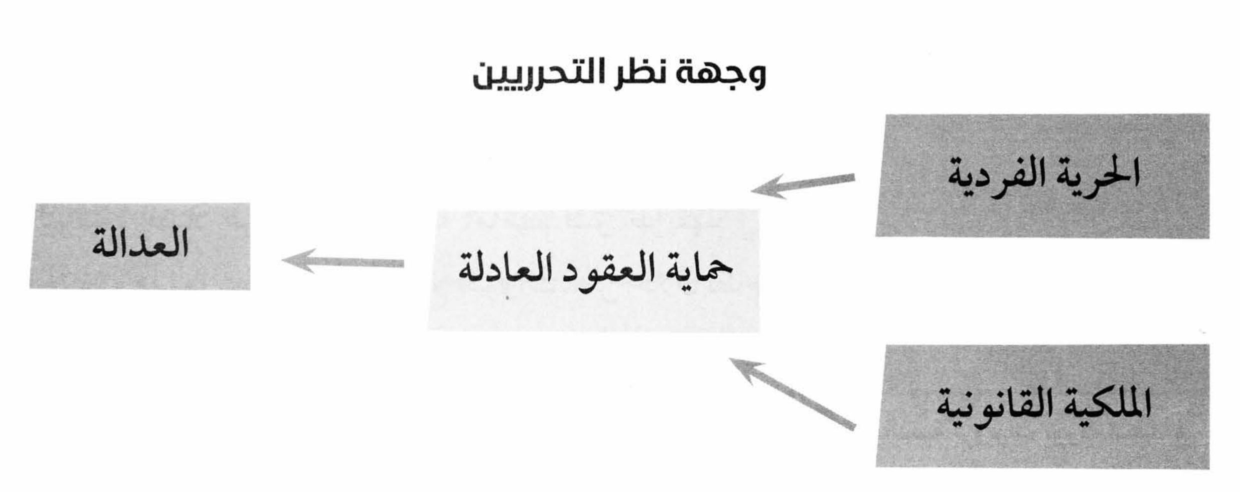
مهما قلنا عن العدالة فإنّها ليست إلّا تمتّع الناس بحقوقهم التي تبدأ من فكرة الحقوق الطبيعية، (الغذاء، والماء، والمأوى، وحقّ الدفاع عن النفس)، بَيْدَ أنّ الحقوق القانونية هي الجزء الأساس من حقوق الإنسان. إنّ أبسط حقّ يمكن فرضه وتطبيقه هو المحافظة على العقود، وهو حقّ الفرد في الحصول على ما تم الاتفاق عليه بموجب القانون.



يعتقد نوزك بأنّ كلّ ما تحتاجه العدالة هو، في الحقيقة، الحرية الفردية، والاستقلال الذاتي، والامتلاك المشروع للثروات والأموال. كلّ ذلك مطلوب لكي تظل العقود العادلة القانونية سارية

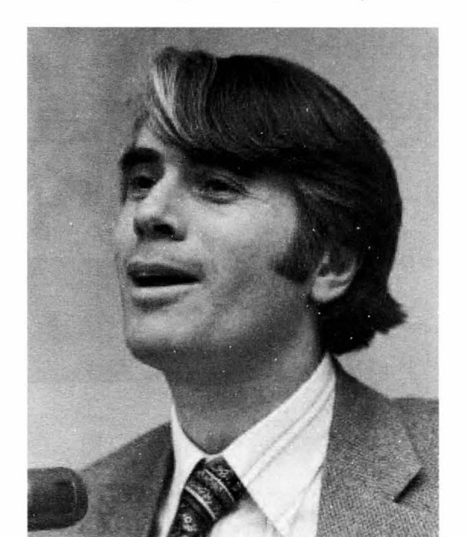
المفعول. إن أصبح شخص ما ثريًّا بهذه الطريقة، وأصبح غيره فقيرًا، فليس ثَمَّةَ طريقة قانونية عادلة للتدخل في ذلك، ويبقى للمرء حرية التبرع للمحتاجين، والمساهمة في أعمال البِرّ والخير.

يرى أصحاب المذهب التحرري (Libertarian) بأن العدالة هي فسح المجال للحرية الفردية التي تُعدّ أعلى القيم مكانة، وأي ظلم ينجم عن ذلك، فهو ليس ذنب العدالة، أو الحرية الفردية.

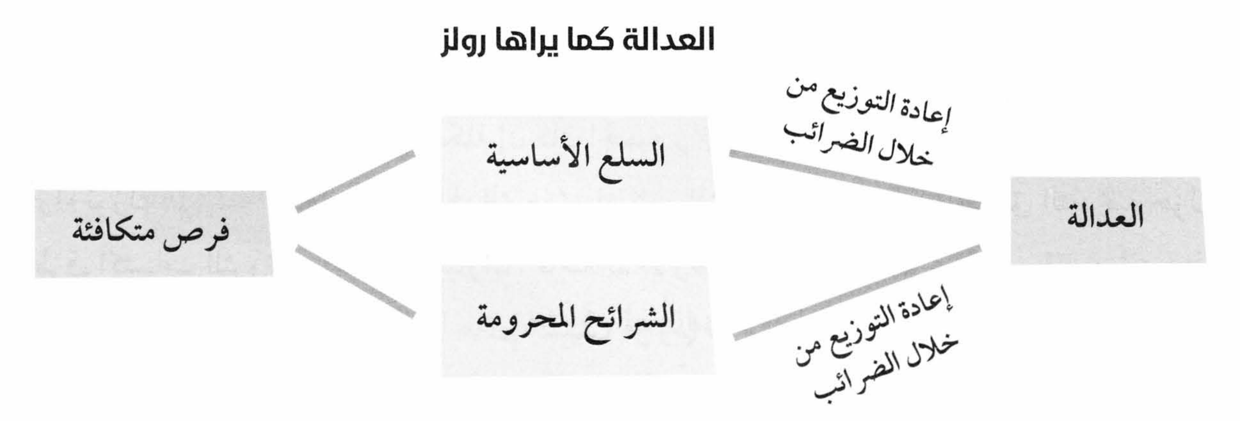


يضرب لنا نوزك مثالاً مشهورًا عن بطل من أبطال كرة السّلة أصبح شديد الثراء من خلال زيادة أجور التذاكر التي يدفعها الناس لرؤيته وهو يلعب. يبدو أنّ من الظلم أن يكسب لاعب أكثر بكثير من بقية الفريق، لكن أين المشكلة إن كان الجميع راضيًا بذلك؟ انصبّ معظم النقد الذي تناول آراء نوزك على عدالة وقانونية (أصل الثروة)، إِذ تثور الشكوك حولها نظرًا للحقائق التاريخية حول طرق اكتساب الثروة، وأساليب حيازتها. فامتلاك الأرض قد يكون نتيجة عملية سرقة حدثت منذ عهد طويل، أو ربما كانت هدية من حاكم مستبدّ، أو ربما تم شراؤها لكن بأموال اُكتسِبت بطرق غير قانونية، أو غير أخلاقية، الأمر الذي تمحوه قانونية وعدالة كلّ الإجراءات، والمعاملات اللاحقة.

يعتقد رولز بأننا نبدأ أفرادًا أحرارًا، متساوين كأسنان المشط، كلّ منا يحيا حياته المستقلة، أمّا ما يحدث بعد ذلك فهو تفاوت طبقي، ولا مساواة، ولا بُدَّ من أنّ له ما يبرره. يرى رولز بأنّ الاختبار الحقيقي للمذاهب، والأفكار هو رضا الناس وقبولهم بما يتمخض عنها من واقع على أن يكون حكمهم على الواقع موضوعيًّا وغير شخصي. لا بُدَّ للعدالة، إذن، من التركيز على الشرائح الأكثر حرمانًا، والذين هم بحاجة إلى السّلع الأساسية، التي تمثل حاجات أساسية طبيعية تتطلبها الحياة اليومية، فضلًا عن إتاحة الفرصة أمامهم لشق طريقهم في الحياة. وهذا ما يتطلب إعادة توزيع الثروات، من خلال نظام الضرائب، وليس عن طريق الأعمال الخيرية الفردية، لكن علينا جميعًا أن ننظر إلى المجتمع نظرة أوسع، ونرى مستوى تطبيق العدالة.



العدالة بالنسبة لروبرت نوزك تستند في الأساس إلى إنفاذ العقود



يقول أمارتيا سين ساند مارثا نوسبوم إنّ العدالة ليست مسألة حقوق، وفرص، وعقود، فحسب، بل هي قابلية الناس وقدرتهم الفعلية على أن يحيوا حياة كريمة (أي قدرتهم على أن يتصرفوا، ويعملوا على حسب ملكاتهم وقدراتهم). إنّ العدالة ليست مجرد دستور عادل، كما يعتقد رولز، وإنّما هي شيء واضح جَلي يستطيع الناس رؤيته، وتلمسه، كما هو الحال مع الظواهر والحالات الأخرى مثل العبودية، والعنف الأسري، ونقص الغذاء.

إنّ إتاحة الفرص على الورق، والتنظير لها لا يُسمن ولا يُغني من جوع، خصوصًا إن كان الواقع والظروف العملية لا تنهض بآمال الناس وتطلعاتهم. إنّ العدالة التي لا توفر لبعض الشرائح من الناس إلّا (السلع الأساسية) لهِي عدالة عرجاء ناقصة. لا بُدَّ للقائمين على المجتمع ومتطلباته من التركيز بشكل خاص على المرضى، وأصحاب الإعاقة، فهم غالبًا ما يعجزون عن التعبير عن ملكاتهم ومواهبهم من غير مساعدة. هذه هي النظرة العملية للعدالة، ليس لأنّها تدعو إلى خلق الفرص فحسب، وإنما لأنها، أيضًا، تعالج المواقف المبنية على أحكام مسبقة أو إجحاف، وتحول دون القيام ببعض ما يجب القيام به (مثل حرمان البنات من التعليم).

العدالة كما يراها سين



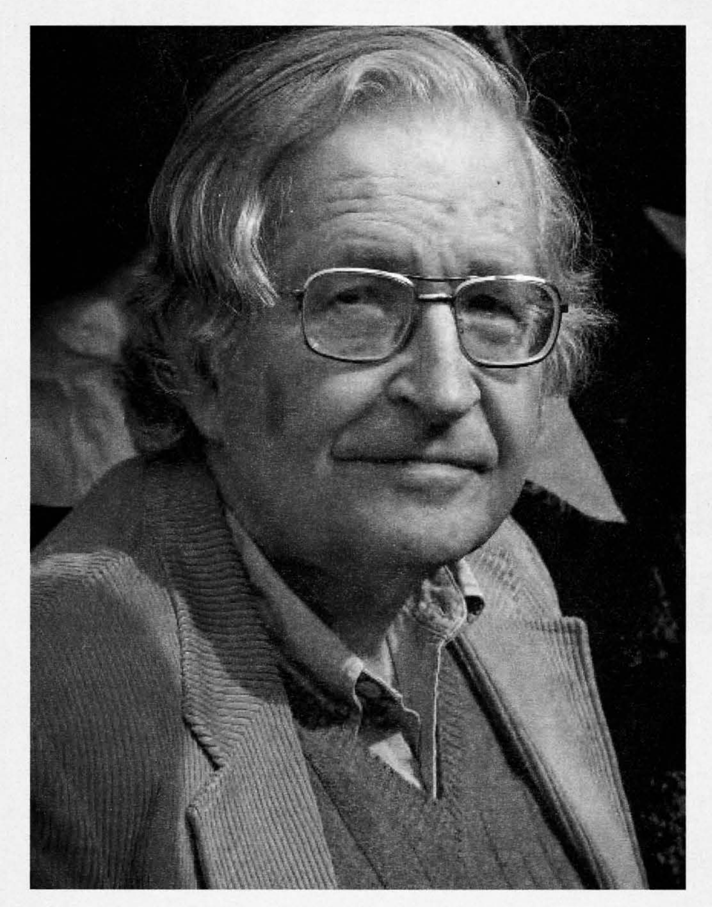
ركّزت الفلسفة التحليلية على المنطق واللغة، فقد طور المناطقة (نظرية المجموعات Set Theory)، و(نظرية النموذج Model Theory)، و(المنطق الصُّوري Modal Logic)، فضلًا عن قدرتهم على إماطة اللثام عن حدود المنطق. كان ويلارد كواين (1908 – 2000) يسعى إلى العثور على إيجاد أبسط صيغ الميتافيزيقا التي تتناسب والعلم الحديث، وقد تبنى المذهب الفيزيائي (Physicalism)، بالإضافة إلى نظرية المجموعات التي يمكن أن تعبر عن الرياضيات التي يحتاجها العلم. كان كواين يعتقد بأنّ معيار الوجود هو المعيار الذي يمكن التعبير عنه من خلال المنطق، وكان يشكك في الحقائق الضرورية والمعرفة المسبقة، وكان يرى بأنّ المعنى في اللغة لا يمكن معرفته إلّا من خلال التجارب الفعلية الملموسة، وأنّ نظرية المعرفة ينبغي أن تصبح عِلمًا تجريبيًّا.

كان المفكرون والفلاسفة، لحقب طويلة من الزمن، يعتقدون أنّ المعنى يتجسد في استخدام المفردات وتراكيبها، وكانوا يبحثون عن الفهم الفلسفي في اللغة العادية، بَيْدَ أنّ نظريات أخرى للمعنى ظهرت تركز على مقاصد المتكلمين. دافع دونالد ديفيدسون (1917 – 2003) عن نظرية شروط الحقيقة للمعنى، أو مطابقة الحقيقة للمعنى، بالاعتماد على تعريف منطقي دقيق للحقيقة. كان ديفيدسون يقول إنّ العقل لا يمكن أبدًا أن يكون مرتبطًا بالدماغ عبر قواعد دقيقة، وإنّ الأسباب لها قوى سببية، وعليه لا بُدَّ من أن يكون للعقل خصائصه المميزة، وأنّ التبرير هو عبارة عن ذرائع وأسباب تعلل المعتقدات والأفكار.

كان ديفيد لويس (1941 – 2001) طالبًا من طلاب كواين. كان هدفه وضع تفسير تجريبي كامل لتجاربنا. يفهم الناس الخصائص على أنها مجموعات من الأشياء (مثل جميع الأشياء الحمراء)، ثُمَّ تتم الاستعانة بنظرية المجموعات والعوالم المحتملة لشرح قوانين الطبيعة والسببية. كان لويس

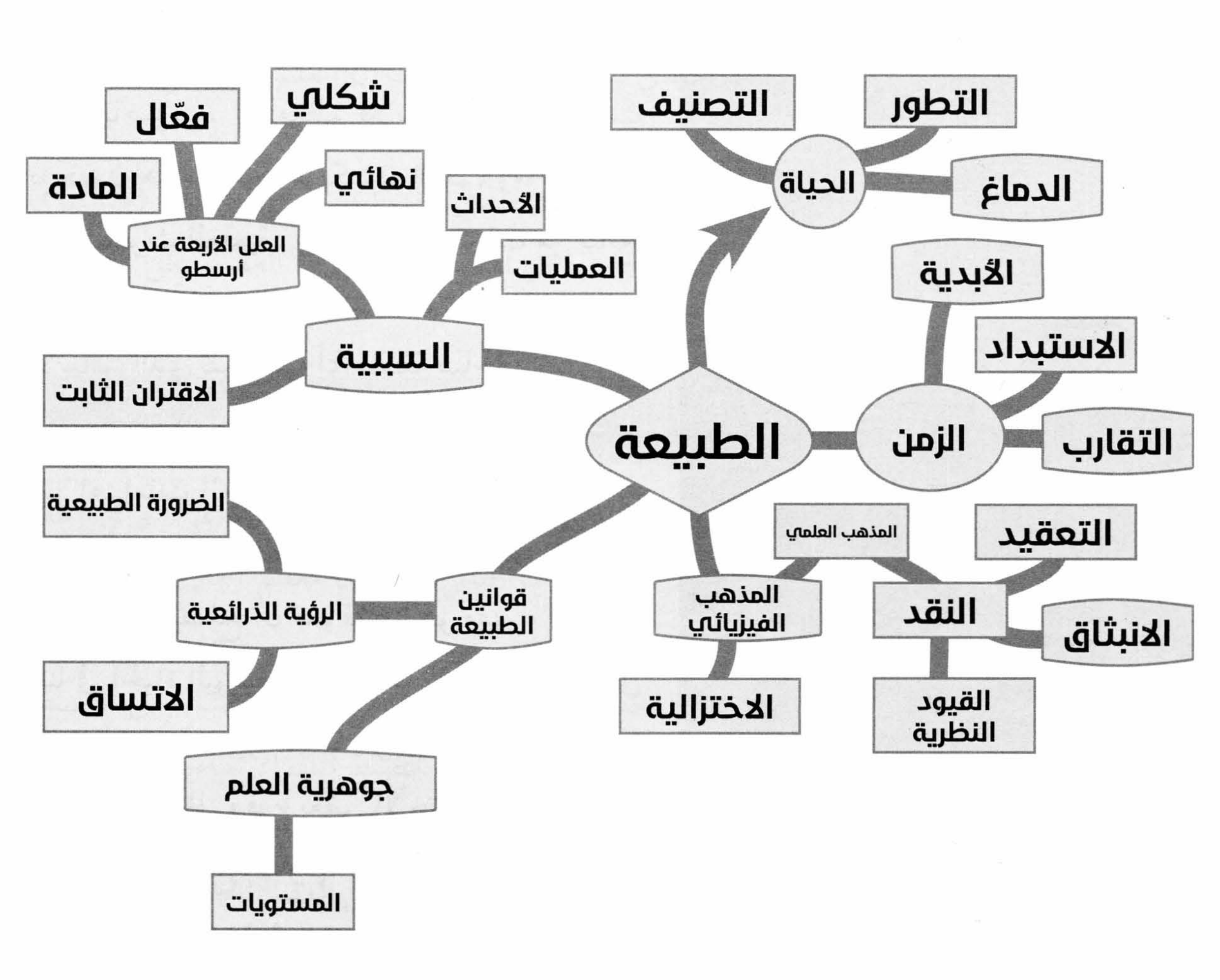
يرى بأنّ أيّة مجموعة من المقومات أو العناصر، إنما هي شيء واحد. أمّا الضرورة والاحتمالية فلا يمكن أن يكون لهما وجود إلّا ضمن الواقع المحتمل.

لاحظ نعوم تشومسكي (مواليد 1928) السرعة، والكفاءة اللتين يتعلم بهما الأطفال اللغة، ما جعله يعتقد بأنّ البشر جميعًا لديهم آليات داخلية خاصة باللغة، ومِنْ ثَمَّ فإنّ جميع اللغات متشابهة في تركيبتها العميقة. أدى هذا الرأي إلى إحياء وجهة النظر القائلة بوجود الأفكار الفطرية الكامنة في الإنسان، كما أدى، أيضًا، إلى وضع اللغة في سياق تطوري.



طور نعوم تشومسكي فلسفة اللغة من ملاحظته لتعلم الأطفال الكلام

الطبيعة



الطبيعة
الحياة
التصنيف
التطور
الدماغ
الزمن
الأبدية
الاستبداد
التقارب
السببية
العلل الأربعة عند أرسطو
المادة
فعّال
شكلي
نهائي
الأحداث
العمليات
الاقتران الثابت
قوانين الطبيعة
الرؤية الذرائعية
الضرورة الطبيعية
الاتساق
جوهرية العلم
المستويات
المذهب الفيزيائي
الاختزالية
المذهب العلمي
النقد
التعقيد
الانبثاق
القيود النظرية

السببية


ليس من الممكن رؤية السبب في اللحظة التي تحرك فيها قطرة مطر ورقة شجرة

عالمنا المادي هذا، هو مناط الفلسفة، ومجال بحثها. قد يغفل بعض الفلاسفة عن هذه الحقيقة، أو يبتعدون بعيدًا عنها، إلّا أن الكثير من الفلاسفة الكبار كانوا علماء أفذاذًا، ومن كبار المتخصصين في الرياضيات. إنّ معظم فلاسفة العصر الحديث يوجهون اهتمامهم نحو ما يكتشفه العلم، وما تتمخض عنه البحوث العلمية، وتجارب المختبرات من نتائج ونظريات. تشكل معطيات العلم، ونتائجه المثبتة الأساس الذي تقوم عليه أيّ فلسفة صالحة.

ومع ذلك، فإنّ للفلاسفة اهتماماتهم التي تختلف عن اهتمامات العلماء، وهم ينشغلون في البحث في حقائق ومفاهيم قد يعتبرها العلماء أمرًا مفروغًا منه. المثال الذي يصلح أن نسوقه هنا هو مفهوم السببية. إننا في الحياة اليومية نتحدث عن (أشياء تؤدي إلى أشياء أخرى)، مثلاً عندما تحرك قطرة مطر ورقة في شجرة، أو نعلل وقوع بعض الأحداث بما سبقها من وقائع حَتى أصبح حدوثها أمرًا لا مفر منه. ومن هنا يأتي التعميم، فنتحدث عن (أسباب) أدت إلى حصول تصرفات، أو أفعال، أو أحداث.

لكن عندما نظر التجريبيون (ولَا سِيَّما ديفيد هيوم) إلى السببية من وجهة نظر تتسم بقدر أكبر من العلمية، تولدت لديهم شكوك حولها. عندما تحرك قطرة المطر ورقة الشجرة فإنّنا نرى الأولى تعقبها الثانية، لكننا لا نرى عنصرًا إضافيًّا اسمه (سبب) في لحظة سقوط قطرة المطر على ورقة الشجر. إنّ كلّ ما نراه هو انتظام الأحداث، حدث يقع بعد آخر، (الاقتران الثابت حسب تعبير هيوم). ولأنّ ذلك يحدث دائمًا، فإننا نفترض بأنّ هذا الحدث، أو ذاك لا بُدَّ له من أن يحدث، معتقدين بوجود كِيان يدعى (سبب) هو الذي ينشئ كلّ ذلك، بَيْدَ أنّ العلم يقوم على ما يلاحظه العالم أو الباحث، ولم يحدث حتى الآن ملاحظة أو رؤية السبب. يقدم لنا العلم الحديث معادلات دقيقة تدلنا على أنماط منتظمة لـ (الاقتران)، في الوقت الذي نادرًا ما نجد فيه كلمة (مسبب)، أو (سبب) قد وردت في كتب الفيزياء. وقد أشار بعض المتخصصين إلى أنّ العلم يمكن أن يسقط الفكرة بأكملها من حساباته.

الاقتران الثابت: حدث يعقبه آخر.

حاول عدد قليل من الفلاسفة وصف الطبيعة بهذه الطريقة غير السببية، (أو في إطار اللا سببية) من خلال تقديم وصف عام لأنماط تجارب البشر، بَيْدَ أنّ معظم الفلاسفة ما زالوا متمسكين بفكرة السببية.

كان (المسبب أو الباعث الفعّال) هو المحور الذي دارت حوله معظم المناقشات في الفلسفة الحديثة، حَيثُ يؤدي شيء ما إلى حدوث شيء آخر. ولكن ما هي بالضبط تلك الأشياء التي يمكن أن تكون أسبابًا ونتائج؟ إنّها الأحداث والوقائع (وليست الحقائق أو الأوضاع) بحسب التسمية المعتادة. بَيْدَ أنّ كلمة أحداث أو وقائع، غامضة إلى حدّ ما، نظرًا إلى أننا نتحدث عن العصر الجليدي كلّه على أنه (حدث من الأحداث، أو واقعة من الوقائع). يمكن أن يتسبب العصر الجليدي في انقراض الكائنات

الحية، لكنّ القول الأكثر دقة هو أن نتحدث عن درجات الحرارة، وما لها من آثار في الحيوان. إن ابتغينا تناول السبب أو المسبب على نحو أكثر دقة فلا بُدَّ لنا من أن نضع في بالنا التفاعلات التي تحدث بين خواص، أو كيفيات محددة، وليس بين أحداث أو وقائع. إنّ الحديث عن الأسباب والآثار، يحمل بين طياته الحديث عن شيء ثُمَّ الانتقال إلى غيره، إنّ الكرة التي تسبب بعجًا في وسادة، وقطعة السكر التي تذوب في الشاي مرةً واحدةً، تدلان على أنّ من الأفضل أن نتحدث عن (العمليات) السببية، وليس عن مكونات ثابتة.



عندما يتم تقطيع ثمرة طماطم إلى نصفين فإنّ السبب الفعّال هو من قام بالتقطيع

الأنماط الأربعة للتفسيرات السببية لدى أرسطو

- إذا كانت السكين صلبة لأنها مصنوعة من الفولاذ فهذا هو سبب مادي.
- إنّ قطع أحدهم ثمرة طماطم إلى نصفين فالسبب الفعال هنا هو من قطع الطماطم.
- إن حدث بطريق الخطأ وجرحت نفسك بسكين ذات نصل حاد، فإنّ تصميم السكين هو السبب الشكلي أو الصوري.
- صنعت السكاكين منْ أَجل قطع الأشياء، فهذا هو السبب الذي صنعت السكاكين من أجله.

قوانين الطبيعة

ولدت فكرة وجود (قوانين) للطبيعة مع ولادة العلم الحديث، وهي فكرة قريبة الوشيجة، وثيقة الصلة مع تطبيق الرياضيات على الطبيعة، لأنّ المعادلات والقوانين الرياضية مثل قانون التربيع العكسي لنيوتن (ويعرف أيضًا بقانون الجذب العام)، هي قوانين تبدو بسيطة للغاية، وصحيحة بلا تغيير (تمتثل) لها كلّ الأشياء الملموسة (الطبيعية أو الفيزيائية). هذه القوانين الرياضية تهيمن على الفيزياء الحديثة التي تستعير (قوانينها) من معادلات الرياضيات. قد نظنّ أحيانًا بأنّ العلم كلّه ليس معنيًّا إلّا باكتشافات القوانين، بَيْدَ أنّ هذا الرأي يغفل الاكتشافات العظيمة مثل اكتشاف المجرات أو عمل الآليات الكهروكيميائية الموجودة في الخلايا العصبية في الدِّماغ.

لقد أكدت اكتشافات إسحق نيوتن أنّ للطبيعة قوانين رياضية

أدت وجهة نظر هيوم للسببية إلى وجهة نظر أخرى ذات صلة، هي أنّ القوانين ليست إلّا أنماطًا منتظمة في حركة الطبيعة. عندما يقذف أحدهم حجرًا فإنّه لا يرى سببًا لسقوط الحجر، لأنّ سقوط الحجر أمر حتمي، الأمر نفسه ينطبق على كلّ ما نراه من أشياء تسقط، إِذ أننا لا نرى سببًا معينًا يجعلها تسقط، فسقوطها متوقع نتيجة لتدحرجها، أو رميها، أو حركتها، وهو أمر متكرر الحدوث اتخذ نمطًا ثابتًا، وهذه النمطية، أو الاتساق يتفق مع معادلة نيوتن.

الرؤية الذرائعية: ليست القوانين إلّا وصفًا رياضيًّا لمعايير علمية.

ثَمَّةَ رؤية ذرائعية للقوانين تقول إنّ القوانين ليست أكثر من وصف رياضي لقياسات ومعايير توصلت إليها الأجهزة العلمية. يسهل التنبؤ بوجود هذه القوانين التي يصعب تفسيرها أحيانًا. نظرية الكمّ، على سبيل المثال، سليمة من الناحية الرياضية، ويسهل التنبؤ بها، وتوقع وجودها على نحو استثنائي، بَيْدَ أنّ علماء الفيزياء غالبًا ما يعترفون بأنهم لا يفهمون ما يجري في الواقع.

نحن نشعر بوجود ضرورة طبيعية في سلوك الطبيعة المقيد بالقوانين، لكنّ الرأي القائل بوجود اتساق في الطبيعة يؤكد أنّ بعض السلوكيات في الطبيعة لا تتغير أبدًا، دون أن تكشف لنا بأنها لا يمكن أن تتغير. وهذا ما يقودنا إلى وجهة نظر هيوم المعروفة وهي أنّ القوانين يمكن أن تتغير لكي نستطيع التكهن بالكون الذي يضم عوالمَ متطابقة مع عالمنا لكنّ لها حركتها وفعالياتها، وعناصرها التي تتحكم بها قوانين مختلفة.

الاتساق: القوانين هي وصف لعمليات وأنشطة متسقة.

الضرورة الطبيعية: القوانين هي وصف لقوة تتحكم بالطبيعة.

يبدو أنّ القوانين هي إمّا توصيف للاتساق، أو قوة تتحكم بالطبيعة. ويبدو الرأي الأول سليمًا صحيحًا إلّا أنّه ظاهري سطحي، أمّا الرأي الثاني فإنه يعكس لنا صورة محيرة للقوانين. يبدو أنّ القوانين تأبى إلّا أن تكون فوق الطبيعة، تأمرها فتطيع. وهذا يعني أنّ الكون إذا اختفى، فسوف تظل هذه القوانين موجودة في انتظار كون آخر للمضي قدمًا في دورها، لكن لا يوجد في العلم ما يدعم وجهة النظر هذه.

جوهرية العلم: القوانين ناشئة عن محتويات الكون.

جوهرية العلم هي من أحدث الآراء العلمية التي تقول إنّ القوانين تنبثق من محتويات كوننا، وليست مفروضة عليه. إنّ سلوك الأشياء ينتج عن (الميول) النشطة أو القوى التي تنطوي عليها المادة، وليس عن القوانين المجردة، الأمر الذي يدلنا على المصدر الذي نشأت منه القوانين التي تقتصر على الطبيعة التي نعرف، ويدلنا أيضًا على أنها قوانين صحيحة بالضرورة، لأنّها جزء من ماهية الطبيعة، وليس مكونًا أو عنصرًا مضافًا إليها أو مُقحَمًا عليها. لا يمكن أن تكون القوانين مختلفة إلّا إذا كانت محتويات الكون مختلفة. لا يتقبل العلماء فكرة اختلاف قوانين الكون، فنحن لا نستطيع أن نفترض أنّ الجاذبية يمكن أن تكون أضعف، أو أبطأ، لأنّ الأشياء لا يمكن أن نتخيلها أو ننظر إليها بهذه الطريقة.

يقول أتباع هيوم إنّ هذا مما لا يمكن ملاحظته ملاحظة فعلية، فليس كلّ شيء يمكن أن يكون مجموعة من (القوى) فلا بُدَّ من شيء جوهري أساسي تكون له القوى كلّها، إلّا أنّ آفاق اكتشاف ذلك الشيء الجوهري الأساسي في الواقع ليست واعدة.

- كيف يمكننا أن نعرف بأنّ التفسيرات في أعمق مستوياتها جوهرية وأساسية؟
- كيف لنا أن نعرف بأنّ ثَمَّةَ ما هو خفي إلى الأبد يكمن في أعماق الأشياء؟

يتضمن بحثنا ومحاولاتنا الاستكشافية فكرة المستويات، فحجارة البناء إن رُصِفت ورُصَّت، تشكلت بمستوى يؤدي إلى المستوى التالي. وعليه فإنّ الجسيمات الرئيسية للنموذج القياسي للفيزياء (الإلكترونات، والكواركات) هي التي تكوّن 92 نوعًا طبيعيًّا من الذرات. يأخذنا هذا الموضوع من الفيزياء إلى الجدول الدوري في الكيمياء، حَيثُ يمكن للذرات تكوين الجزيئات، وهذا بدوره يأخذنا إلى البيولوجيا حَيثُ تتكون أشكال الحياة من الجزيئات، وهلمّ جرًّا. يمكن أن تقدم لنا التفسيرات صورة واضحة لكل حقل من حقول العلم، وإن ظلت بعض الأمور في أعماق كل حقل يغلفها الغموض.



المذهب الفيزيائي

الاختزالية: كل مستوى من المستويات ينطوي على احتمالية الارتقاء نحو المستوى الأعلى.

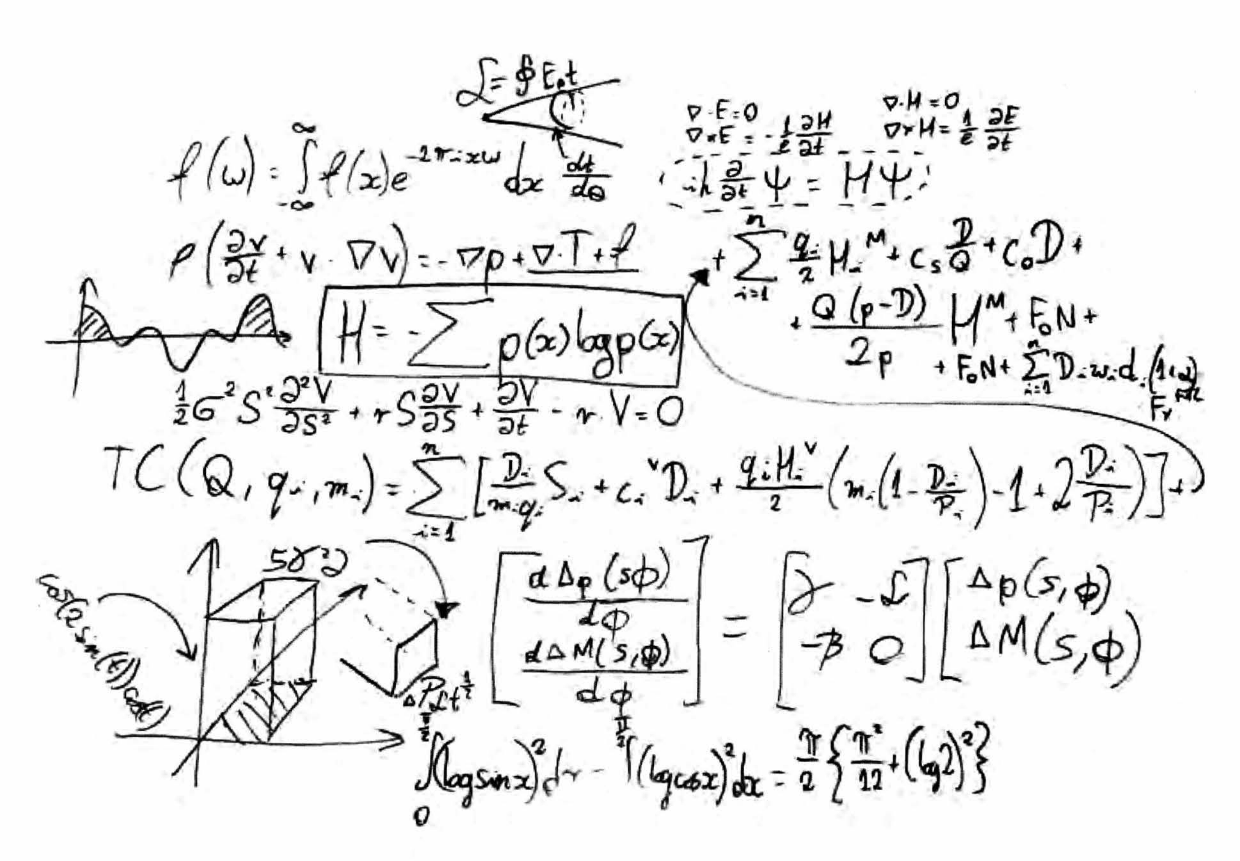
نستطيع أن نشرح مختلف المواضيع من الفيزياء، والكيمياء، وعلم الأحياء، وعلم النفس، والاقتصاد ... إلخ، حَيثُ نسبر أغوار كل مستوى، لكنّ من المتعذّر بطبيعة الحال أن نتمكن من تقديم صورة شاملة موحدة لكلّ المستويات إلّا إذا تمّ الربط بينها جميعًا حَيثُ يتم توضيح كلّ مستوى، وشرحه من خلال استنتاجه من المستوى الذي يكون أقلّ منه صعوبة

أو تعقيدًا. هذه هي النظرة الاختزالية للطبيعة التي تنص على أنّ لكلّ مستوى متقدم فحوى يمكن استنتاجها ومعرفتها من خلال المستوى الأقلّ منه. تدعم الآراء الحديثة الاختزالية، لأنّ التفسيرات السببية للعلوم الفيزيائية غير متاحة، فهي موصدة بوجه من يطرقها، وهذا يعني عدم وجود أيّ تفسير مقنع حتى الآن.

مذهب العلمية: كلّ تفسير محتمل مقبول يتحول في النهاية إلى تفسير علمي.

إن كان أدنى المستويات المعروفة لدينا هو مستوى مادي محض، وإن كان كل مستوى يفسره المستوى الذي فوقه، فإنّ هذا لا يعني إلّا الفيزيائية (أو المادية التي تقول بأنّ ما يوجد هو المادة فحسب)، والعلمية أو المذهب العلمي (وجهة نظر مفادها أنّ كلّ تفسير محتمل مقبول يتحول في نهاية المطاف إلى تفسير علمي، أمّا التفسيرات الحالية فربما نضرب بها عرض الجدار). إنّ ما يجذب الفيزيائيين هو الفكرة التي ذكرناها، وهي أنّ مستويات الفيزياء الأقلّ تفسر المستويات العليا من الثقافة البشرية، بَيْدَ أنّ الفكرة الأخرى، فكرة أنّ الاقتصاد بكلّ جوانبه يمكن تفسيره من خلال مستويات الفيزياء البسيطة، هي فكرة غير مقبولة لنا باستثناء بعض الأشخاص الذين لديهم تفكير لا يشبه تفكيرنا، وعقول لا تشبه عقولنا. إنّ مما يثير مشاعر الإحباط فينا أن تنص نظريتنا على أنّ الاقتصاد بكامله ما هو إلّا تطبيقًا لأساسيات علم الفيزياء.

يسعى العلم إلى اكتشاف جميع أنماط الوجود الطبيعي، صغيرها وكبيرها. استطاع العلماء أن يقدموا تلك الأنماط، أو يصوروها على شكل معادلات رياضية، واستطاعوا أيضًا تحديد ما تكرر من آليات، وتراكيب. على الرغم من ذلك، ثَمَّةَ أسباب ثلاثة أساسية تجعلنا نؤمن أنّ الفيزياء غير قادرة على تفسير الاقتصاد.



يمكن تصوير الأنـماط المنتظمة في الطبيعة على شكل معادلات رياضية بَيْدَ أنّ المعادلات لها حدود، ولا تستطيع أن تصور كل شيء

الإبهام والالتباس

ثَمَّةَ حدود لا يمكن تجاوزها، أو إزالتها بسبب الإبهام والتعقيد المطلق. لا يستطيع الإنسان، حَتى لو استخدم أفضل أجهزة الحاسوب، أن يتنبأ أبدًا بطقس يوم معين بعد عشر سنوات من الآن، أو أن يتوقع الشكل الدقيق للموجة التالية التي سوف تضرب الشاطئ. وهكذا هو الاقتصاد، فهو يتحرك بفعل وشائج سببية تتخلل كل المستويات، ويصبح عِلمًا معقدًا جدًّا في حركته حَتى إنّه يتجاوز حدود فهمنا وإدراكنا.

القيود النظرية

تكمن الصعوبة الثانية في وجود قيود وصعوبات لا يمكننا تجاوزها، حَتى لو كانت لدينا أفضل المخططات والدراسات، وأوسع المفاهيم وأدقها. ابتكر الاقتصاديون منظومة مفاهيم (الإِئتمان)، و(الديون)، و(التضخم)، و(الربح)، وما إلى ذلك، لكي يتمكنوا من توضيح مواضيع تخصصهم وشرحها، إِذ يشير كل مصطلح أو مفهوم إلى نمط من أنمطة النشاط الاقتصادي البشري. عمل المحاسبين يتعلق بالحقائق المالية وهم يقومون بتوظيف الرياضيات حيثما أمكن ذلك. تتولى الكتب المنهجية شرح العلاقات بين المفاهيم. ولكنّ كلّ هذا لا يمكن أن يحقق الدقة التي تتصف بها الفيزياء أبدًا، لأنّ المفاهيم المستخدمة تشير إلى مجموعات من الحقائق المتنوعة كما هو الحال في كلمة (سحابة) التي تشير إلى عدد لا حصر له من الأشكال.

ظهور خصائص جديدة

المشكلة الثالثة التي تحوْل دون الاختزال التوضيحي للمستويات هي إمكانية ظهور خواص جديدة يمكن أن (تنبثق) عندما تتوفر مجموعة من المكونات، وتتحد معًا، كما هو الحال عندما يتم

توفر ما يكفي من العشب ليصبح مرجًا. إنّ هذا المصطلح هو مجرد مصطلح وصفي جديد، لكنّه مصطلح جديد يمكن أن يعكس صفاتٍ أو مزايا، كما في قولنا مثلاً مرج (جميل). السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل يمكن توقع الميزات أو الخصائص المنبثقة عن اجتماع المكونات، وهو أمر ممكن كما رأينا من خلال الأمثلة.

يمكننا هنا أن ننظر إلى المروج من المنطلق الإسقاطي (Eliminativist)، الذي يرى بأنّ المروج لا وجود لها ككيانات متميزة، لأنها مجرد عشب. ولا يمكن أن يوجد العشب والمرج معًا فلا يمكن أن يظهر ما هو أكثر من المجموع الذي يتكون من الأجزاء. إذا كان الأمر كذلك، يتعذر علينا إذن أن نطبق الاختزالية، والإسقاطية على ما يظهر من خصائص جديدة. وأفضل مثال نسوقه هنا، هو العقل الذي يبدو بأنه يحتوي على ما هو أكثر من المادة الرمادية اللون الصالحة للأكل داخل جماجمنا. إنّ السِّمة المميزة للخصائص القوية في ظهورها، وانبثاقها هي أنها تتمتع بقوى سببية خاصة بها يتعذر التنبؤ بها من خلال معرفة القوى السببية لمكوناته. وعليه نستطيع القول إذا كانت العقول تمثل خصائص قوية الانبثاق، والاقتصاد ينطوي على ما يصدر عن العقول، وعليه فلن يكون الاقتصاد قابلاً للاختزال.



حسب رأي الإسقاطيين ليس ثَمَّةَ مرج لأن المرج ليس إلّا عشبًا فحسب

ليس المذهب الفيزيائي إلّا نظرية ميتافيزيقية، وهي افتراض مستمد من نظرتنا إلى الطبيعة، مع عدم وجود دليل يثبت ذلك من خلال الكشف عن الروابط التي تختزل المسافة بين مستويات المعرفة. من الطبيعي تعذر الانبثاق السريع للخصائص، لعل استيعابنا لتعقيدات الطبيعة يتطور باستمرار، وقد نجد طرقاً أخرى لتوسيع مفاهيمنا، ومعلوماتنا، ومختلف تخصصاتنا.

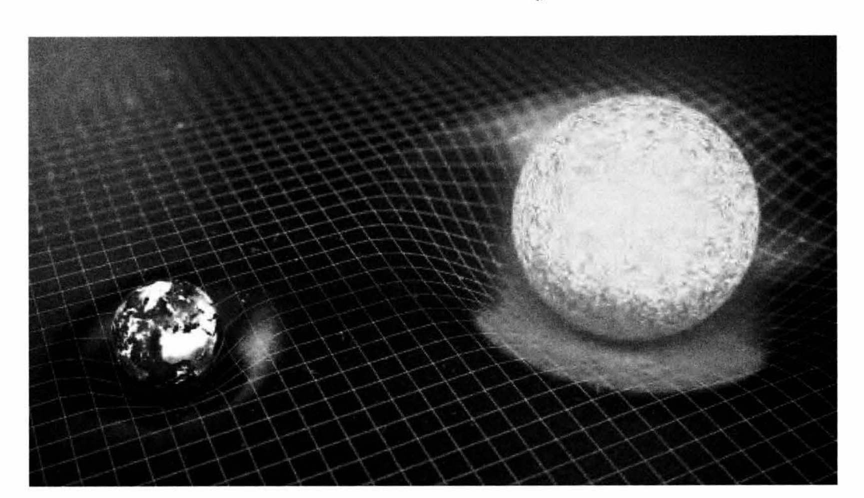
ثَمَّةَ عائق آخر يحول دون تحقيق آمال من يسعى لإثبات أنّ كلّ شيء هو مادي، وأنّ المادة الفيزيائية هي الموجودة، وهي التي تشغل الفراغ والزمن. يتطرق الناس في أحاديثهم اليومية إلى الفراغ والزمن (أو الزمان والمكان) على إنهما حاويتان تحويان المادة الفيزيائية، وكأنه أمر مسلم به. أمّا الفيزيائيون فإنّهم يرون في المكان والزمان جزءًا من العالم المادي، وهما موجودان، ولا بُدَّ لأيّة نظرية فيزيائية من أن تشير إليهما أو تتضمنهما.

الزمن

كان أول خلاف حول المكان والزمان هو الخلاف الذي شجر بين أصحاب الآراء (المطلقة) وبين أصحاب الآراء (النسبية). كان إسحق نيوتن يرى أنّ الفراغ مطلق، وأنّه خلفية ثابتة تتكون من مجموعة أماكن توجد فيها الأشياء. أمّا أينشتاين فقد كان يرى أنّ المكان والزمان نسبيان والعلاقة بين محتوياتهما لا يمكن قياسها أو معرفتها إلّا بالإحالة أو الإشارة إلى معايير معينة. أشارت نظرياته إلى زمكان واحد. ثُمَّ جاءت نظرية الكم التي تتعلق بالعمليات (Processes)، حَيثُ (تنهار) الأمواج و (تقفز) الجسيمات الكمية، الأمر الذي يتطلب وقتًا حقيقيًّا. وهكذا نرى بأنّ مسألة الوقت، فيما لو كان نسبيًّا، أو مطلقًا، لم يحسمها العلم بعد.

وقد شكك الفلاسفة الأوائل بوجود الزمن. إذ اللحظة الراهنة لا وجود لها، فهي مجرد نقطة لقاء الماضي بالمستقبل؛ الماضي انتهى، ولم يعد موجودًا، أمّا المستقبل فهو لم يأت بعد، وعليه

فلا وجود للزمن! إذا كانت اللحظة الراهنة غير موجودة، فكيف يمكن أن توجد السنة (أو الشهر مثلاً) إذا كانت لحظاتها لا وجود لها؟ لكنّ ثَمَّةَ أسباب تدعونا للإيمان بوجود الزمن. نحن نقول أنّ الديناصور حيوان منقرض، أيْ لم يعد له وجود، ما يعني أنّ زمنه قد ولّى وانقضى، وأنّ هذا الحيوان كان موجودًا، والدليل على ذلك بقايا الديناصورات التي عثر عليها العلماء.



أشارت نظريات أينشتاين إلى مفهوم (الزمكان) الواحد

قد يتعذر علينا تحديد اللحظة الراهنة، بَيْدَ أنّ التجربة الراهنة أكثر رسوخًا، ووضوحًا من الذكريات، أو مما يرسمه الخيال. أمّا إنكار المستقبل، فإنه إنكار لأيّ مستقبل أمام الأجيال، وكأننا نقول (ليس لدينا مستقبل)، وهو قول لا يشك اثنان في فساده. إنّ الرأي القائل بوجود الماضي

نيوتن	أينشتاين	نظرية الكم
المطلق	النسبي	المطلق
الزمان والمكان ثابتان	لا يمكن قياسهما إلّا بالإشارة إلى معيار ما	تظهر العمليات في وقت حقيقي

والحاضر والمستقبل بنسب متساوية، هو الأبدية التي تقول بأنّ كلّ الأزمان تتجاور، وتتعايش مع بعضها البعض، وأنّ (اللحظة الراهنة) ليست جزءًا خاصًا من الواقع.

يفضل العلماء الأبدية، أمّا الفيزياء فإنها لا تهتم إلّا بتسلسل الأحداث العام، وليس بلحظات معينة. أمّا البشر فإنّ الحياة لا تعني شيئًا لهم إن كانت لحظتهم الراهنة غير مهمة، ولا يأبهون لها، ويشعرون بأنّ المستقبل لن يختلف عن الماضي. لدينا في الماضي ما نندم عليه أشدّ الندم، ولدينا في المستقبل ما نتطلع إليه بشوق، وتصميم. لا يمكن أبدًا أن نصدق أنّ اللحظة الراهنة محض وهم، ونحن نجري مسرعين لكي نلحق بالقطار.

الأبدية: الماضي، والحاضر، والمستقبل، كلها موجودة بنسب متساوية.

للزمن سلسلتان: السلسلة (أ)، والسلسلة (ب). السلسلة الأولى هي سلسلة نحوية تضبط علاقة الفعل بالزمن. فالجمل الآتية: (ركضتْ البنتُ)، و(تركضُ البنتُ الآنَ) و(سوفَ تركضُ البنتُ) تعبر عن ثلاث حقائق موضوعية مختلفة. إننا ننظر إلى الزمن في كلّ جملة من وجهة نظر راهنة، بَيْدَ أنّ حقيقة الزمن في الجمل الثلاث تتغير مع مرور الوقت. أمّا السلسلة (ب) فإنها سلسلة الـ (ما قبل) والـ (ما بعد) (نظرة غير مقيدة بعلاقة الفعل بالزمن) دون أن تعير أهمية للوقت الحاضر، ولا لمرور الوقت. يستخدم الناس في أحاديثهم اليومية السلسلة (أ) (حَيثُ يمر الوقت)، أمّا العلم فإنه يميل إلى السلسلة (ب) (حَيثُ تنتظم الأحداث في تسلسل فحسب).

يتذكر الناس الماضي وأحداثه السلسلة (أ)، لكنّهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك مع المستقبل، وهم يخططون للمستقبل، ويشعرون بخوف مما يحمله لهم ولا يفعلون ذلك مع الماضي. أمّا في السلسلة (ب)، فإنّ اللحظة الراهنة ليست ذات صلة بحقائق الفيزياء العظيمة، وأنّ جميع الأزمنة (أو تصنيفات الأزمنة) لها وجود متساوٍ، لأننا نستطيع أن نتحدث عن كلّ جزء، أو قسم من أقسام



كلنا يؤمن بأنّ الديناصورات لم تعد موجودة، لكنّها كانت موجودة في زمن ما

الزمن بعبارات صحيحة واقعية. يشعر الحسّ السليم والفطرة السليمة بأنّ السلسلة (أ) لا تتضمن ماضيًا ولا مستقبلاً. إن لم تمتد اللحظة الراهنة لمدة من الزمن فإنّ إحساسًا بالذعر يشق طريقه نحو القلوب. بالنسبة للسلسلة (ب) فإنّ الزمن غير مثير للجدل، ولا يوجد ما يثير الخلاف والاختلاف، أما بالنسبة للسلسلة (أ) فإنّ تجربتنا مع الزمن تصبح محيرة، لأنّ كلّ لحظة تختفي قبل أن نمسك بها، أو نتمكن من استيعابها.

السلسلة (أ)	السلسلة (ب)
علاقة الفعل بالزمن	غض النظر عن علاقة الفعل بالزمن
(ركضت البنت)	ما قبل الفعل
(تركض البنت الآن)	وما بعده فحسب
(سوف تركض البنت)	
المحادثات والحوارات اليومية	الخطاب العلمي

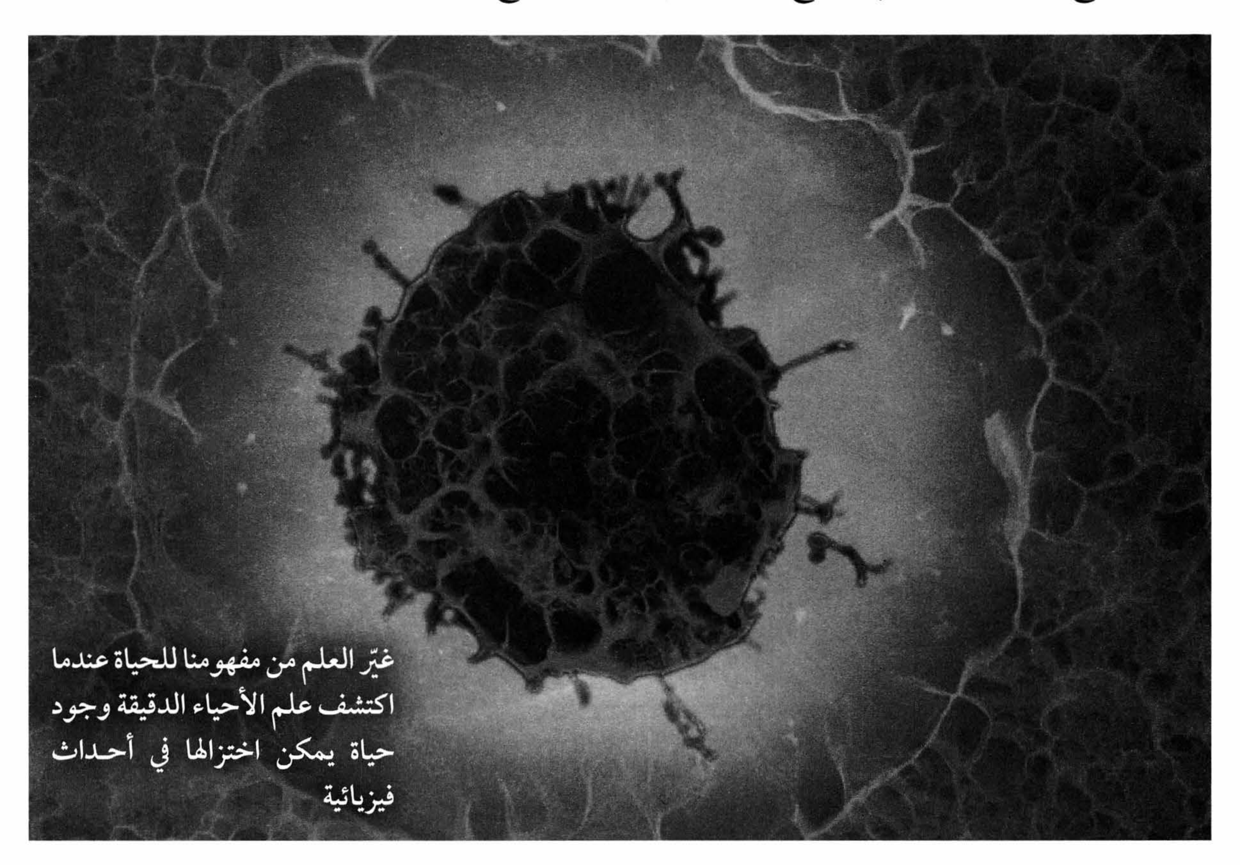


حَتى من يعتنق النظرة الأبدية يعترف بأنّ الزمن له اتجاه، لكنّه ينظر إليه على إنّه جانب من جوانب العلاقات السببية، أو إنّه ناشئ عن الإنتروبيا (الانتشار أو التشتت الكوني للطاقة). يمكن توضيح ذلك من خلال استعارة مبدأ الـ (ما قبل)، والـ (ما بعد) من السلسلة (ب)، فضلاً عن إطلاق اسم على الزمن لكلّ حدث، أو واقعة ضمن التسلسل، على سبيل المثال 4 آب 1914، وهو تاريخ إعلان الحرب على ألمانيا من بريطانيا العظمى. إنّ كلّ ما في حوزتنا هو مفهوم للزمن، لأنّ الأشياء تتغير، لذلك لا يسعنا إلّا وصف التغييرات التي تحدث أمّا (قصة) الزمن، فعلينا أن نضرب عنها صفحًا.

إنّنا لا نفهم إلّا فكرة الزمن، لأنّ الأشياء تتغير

الحياة

يسعى الفلاسفة إلى استكشاف الطريقة التي يفكر بها البشر، فضلاً عن ذلك، هم يحاولون أيضًا، معرفة صورة البيولوجيا البشرية، ومكانة الإنسان في النظام البيئي للأرض. ثَمَّةَ الكثير الذي يعتمد، على سبيل المثال، على مدى الاختلاف الأساسي للبشر عن الحيوانات الأخرى. يعدّ مبدأ الانتقاء الطبيعي في نظرية التطور أهمّ مبدأ من مبادئ النظريات البيولوجية التي تفسر لنا كيف نفكر، ولماذا نحن هنا من هذا الكون. فضلاً عن ذلك، ترفدنا هذه النظرية بمنظور إيكولوجي للحياة يضع البشرية في سياقٍ واسع، بل هو في غاية الاتساع.



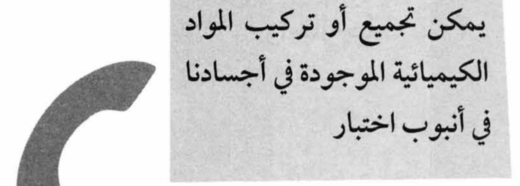
غيّر العلم من مفهومنا للحياة عندما اكتشف علم الأحياء الدقيقة وجود حياة يمكن اختزالها في أحداث فيزيائية

لقد غيّر العِلم من مفاهيمنا الحديثة للحياة على نحو مدهش ولافت للنظر. من المفروض أنّ البقاء على قيد الحياة يحتاج إلى بعض المكونات الإضافية، كما تحتاج النار إلى الوقود، أو كما تحتاج الروح إلى قوة طبيعية.

تدلّ هذه التطورات، بقوة، على إنّ الفيزياء (مغلقة) (أيْ إنّها لا تتطلب تفسيرات خارجية)، وتدلّ أيضًا على إنّ الحياة يمكن اختزالها في أحداث مادية (فيزيائية). يؤمن معظم الناس، في الوقت الحاضر، بأنّ حياة النبات تتجسد أساسًا في الكيمياء. ونظرًا لأنّ أهمّ جانب من جوانب الحمض النووي (DNA) هو المعلومات التي يحملها ذلك الحمض، فإنّ البعض يرى بأنّ الحياة هي، أحيانًا، معلومات وليست كيمياء.

تحديات العلم للروح



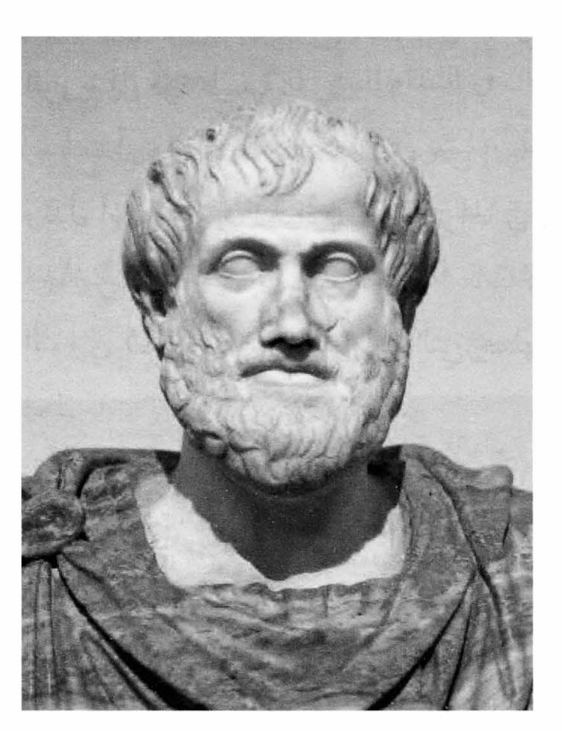


يدل قانون حفظ الطاقة على عدم وجود أيّ مصدر آخر للطاقة خارج الفيزياء



لم يكتشف علم الأحياء الدقيقة أيّ علامات أو آثار تدل على وجود قوى خارجية على مستوى الخلايا أو الكيمياء الأحيائية

تصنيف الطبيعة

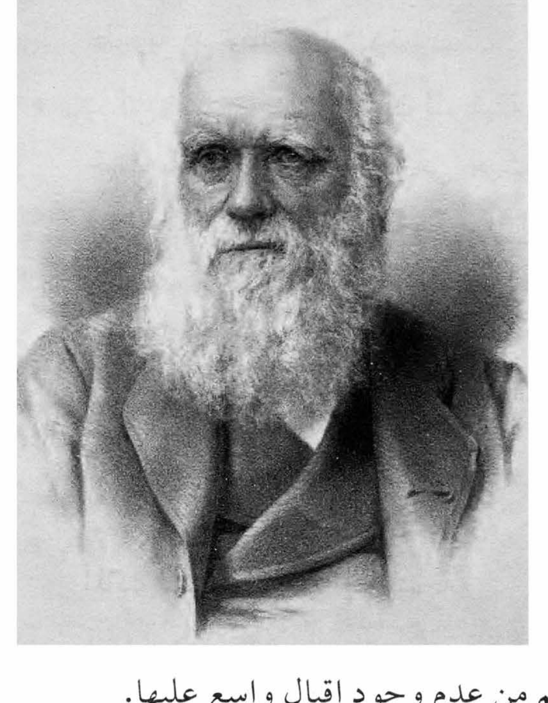


كان أرسطو أوّل فيلسوف يضع تصنيفًا للأحياء في علم الأحياء، ولطالما أحبّ الفلاسفة تصنيف الطبيعة. تختلف الطرق الحديثة في التصنيف، وقد أثارت هذه الطرق جدلًا واسعًا. كانت بداية التصنيف من الميزات الخارجية مثل وجود خطوط أو أصداف. أمّا في الوقت الحاضر فلدينا علم الوراثة التطورية، والتحليل الجيني. ثَمَّةَ أربع طرق رئيسة للتصنيف:

- من حَيثُ الخصائص والميزات الداخلية والخارجية.
- من حَيثُ طريقة التكاثر.
- من حَيثُ مكانها في الطبيعة.
- من حَيثُ تاريخ السلالة وتفرعاتها.

يفضل العلماء تصنيف الأشياء على حسب العلاقات التي تربط بينها، وليس بحسب طبيعتها الأساسية، لأنّ ذلك يساعد على تصنيف الأشياء تصنيفًا دقيقًا، كلّ على حسب المنظومة التي ينتمي إليها. ينقسم الفلاسفة بين مشكك بالتصنيف، لأنه يرى المسألة على إنها عُرْف ليس إلّا (مثل الأسماء التي يطلقها الناس على طبقات الأرض)، وبين من يرى أنّ الأسماء التي تطلق على أصناف الحيوانات لها علاقة بطبيعتها الأساسية. يقول كرايبك إنّ كلمة (نَمِر) أُطلقت في الأصل على حيوان معيّن، ثُمَّ أطلقت على حيوانات أخرى تحمل الطبيعة الأساسية نفسها لأول حيوان أطلق عليه ذاك الاسم.

الفلسفة والتطور



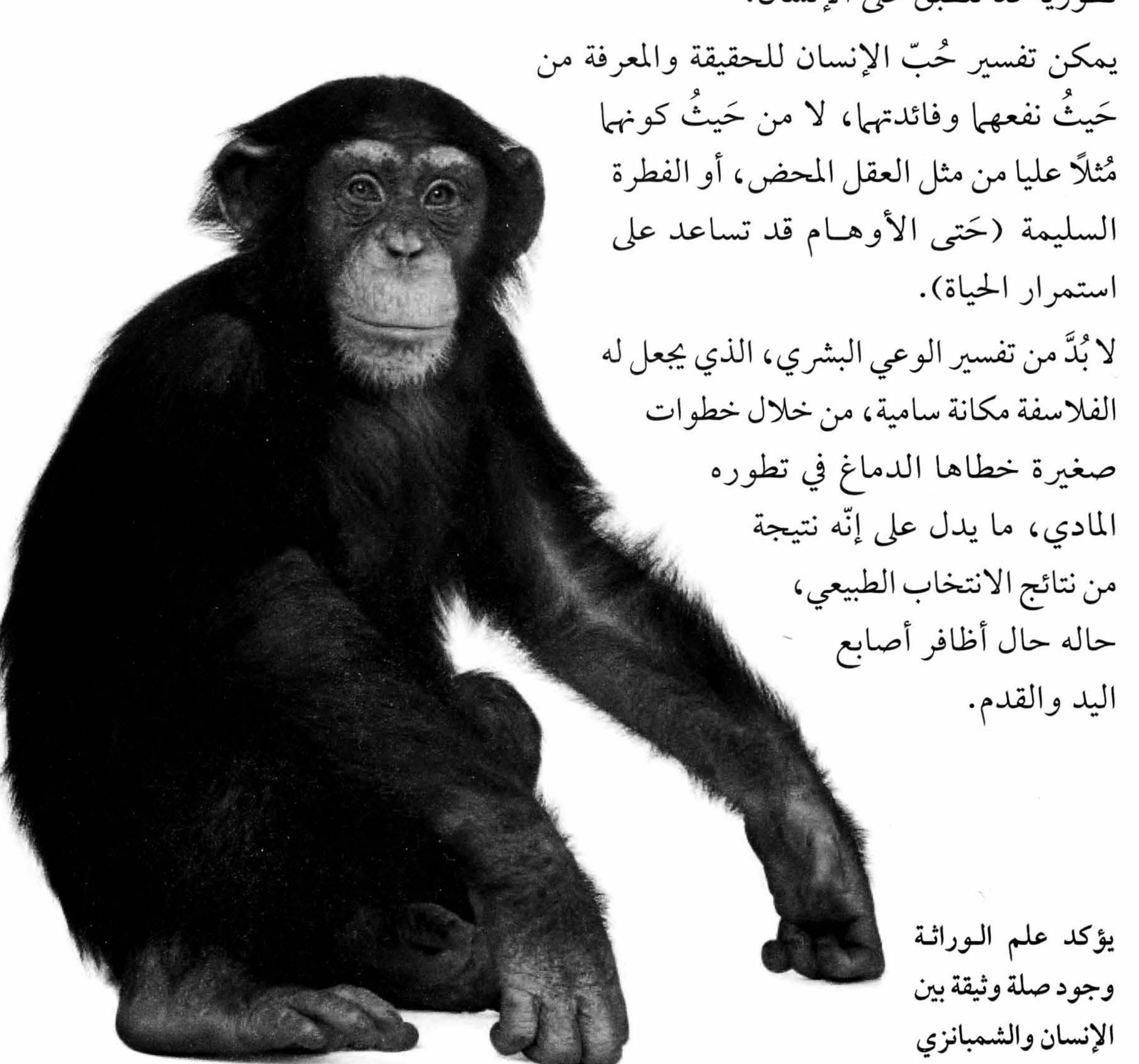
قدمت نظرية الانتخاب الطبيعي - ومفادها أنّ صفات الكائنات الحية موروثة كلّها عن عمليات تكاثر نجحت في الاستمرار في الحياة - لتشارلز داروِن تفسيرًا مقبولاً للتنوع الطبيعي. لقد أصبحت هذه النظرية، بفضل علم الوراثة، جزءًا أساسيًّا من علم الأحياء الحديث. كان تناول الفلاسفة لنظرية التطور، وآثارها تناولاً متمهلاً بطيئًا. فلم يتقبل الكثيرون بعض معطيات نظرية التطور، لأنّها صعبة الهضم وغير مستساغة.

حظيت وجهة النظر التعاقدية، (وهي إستراتيجية الأشخاص الأنانيين للحصول على المساعدة من الآخرين)، في الفلسفة الأخلاقية، بدعم كبير على الرغم من عدم وجود إقبال واسع عليها.

أكدّ علم الوراثة بقوة، الآصرةَ الوثيقة بين الإنسان والقرد، مثل الشمبانزي، والبونوبو، بل إنّه ذهب إلى القول بأنّ ثَمَّةَ قرابة، وإن كانت بعيدة، بين الإنسان والموز. لقد عززت هذه المعلومات من صورة اندماج البشرية في البيئة، وأنتجت لنا علم البيئة الذي يدعو البشرية إلى العيش في الطبيعة بدلاً من الانسلاخ عنها واستغلالها بلا رحمة. رأى الفلاسفة في كلّ هذه التطورات البيولوجية أهمية كبرى، لأنها غيّرت من نظرتنا إلى الجنس البشري تغييرًا هائلاً. وقد كان لذلك تأثيره في الفلسفة فكلّ نظريات الفلسفة تنبثق جزئيًّا، عن الطريقة التي ينظر بها الإنسان إلى نفسه.

الدماغ المتطور

- يمكن أن تفسر لنا نظرية اللعبة الرياضية السلوك الودّي بين الحشرات، فهو إستراتيجية تطورية قد تنطبق على الإنسان.
- يمكن تفسير حُبّ الإنسان للحقيقة والمعرفة من حَيثُ نفعهما وفائدتهما، لا من حَيثُ كونهما مُثلاً عليا من مثل العقل المحض، أو الفطرة السليمة (حَتى الأوهام قد تساعد على استمرار الحياة).
- لا بُدَّ من تفسير الوعي البشري، الذي يجعل له الفلاسفة مكانة سامية، من خلال خطوات صغيرة خطاها الدماغ في تطوره المادي، ما يدل على إنّه نتيجة من نتائج الانتخاب الطبيعي، حاله حال أظافر أصابع اليد والقدم.



يؤكد علم الوراثة وجود صلة وثيقة بين الإنسان والشمبانزي

العقل والعلم

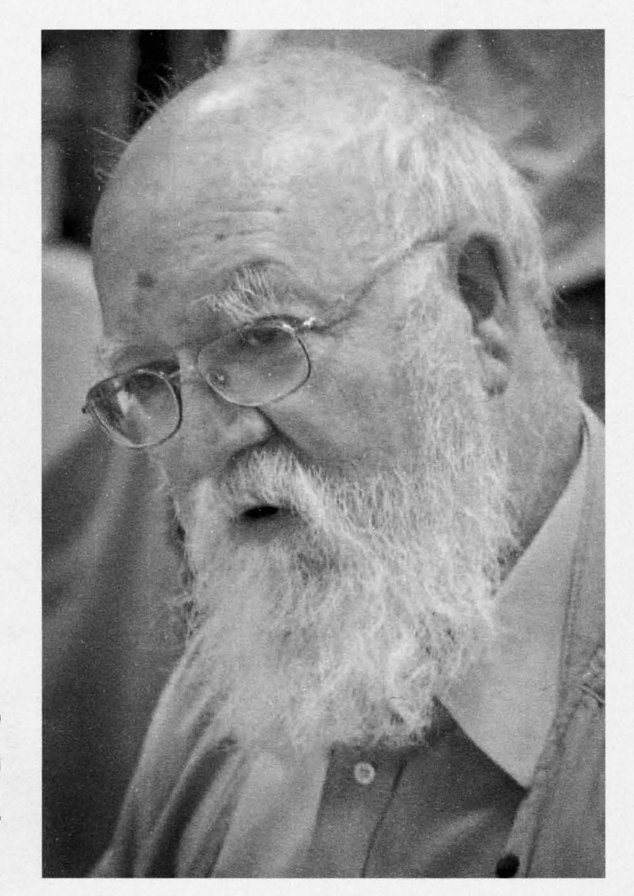
لعب علم الأعصاب الحديث دورًا كبيرًا في تغيير النظرة إلى العقل الذي أصبح سلسلة من أحداث فيزيائية أو مادية. يرى علماء السلوك بأنّ العقل مجرد سلوك خارجي، بينما رأى آخرون بأنّ العقل نشاط مادي أو فيزيائي من أنشطة الدِّماغ. يعتقد هيلاري بوتنام (1926 - 2016) بأنّ العقل هو سلوك داخلي للدماغ، أيْ إنّ العقل وظيفة من وظائف الدِّماغ. ثُمَّ ذهب لاحقًا، إلى أنّ معاني الكلمات ليست خاصة، لكنها انتشرت في أوساط المجتمع والعالم، وعليه فإنّ العقل نفسه يمثل جانبًا خارجيًّا.

درس دانيال دينيت (المولود في عام 1942) عِلم الأعصاب، وتبحّر فيه، وكان يعتقد بأنّ دراسة الوعي لا تفضي إلى شيء أكيد وموثوق. كان يرى أنّ معظم ما يتداوله الحديث عن العقل هو مجرد آراء توفيقية، وليس سردًا لما يحدث حقًّا. وكان يعتقد أنّ القسم الأكبر من حياتنا العقلية موجود في اللا وعي، وإن لم نُدرك ذلك.

كان جيري فودور (1935 - 2017) يتساءل عن كيفية عمل الدِّماغ، حتى قادته بحوثه ودراساته إلى أن يقترح وجود لغة خفية للتفكير، وتركيبة جزئية للعقل، (على شكل وحدات منفصلة يتكون منها الكلّ). كان يعتقد أنّ العديد من المفاهيم فطرية، غير مكتسبة من التجارب.

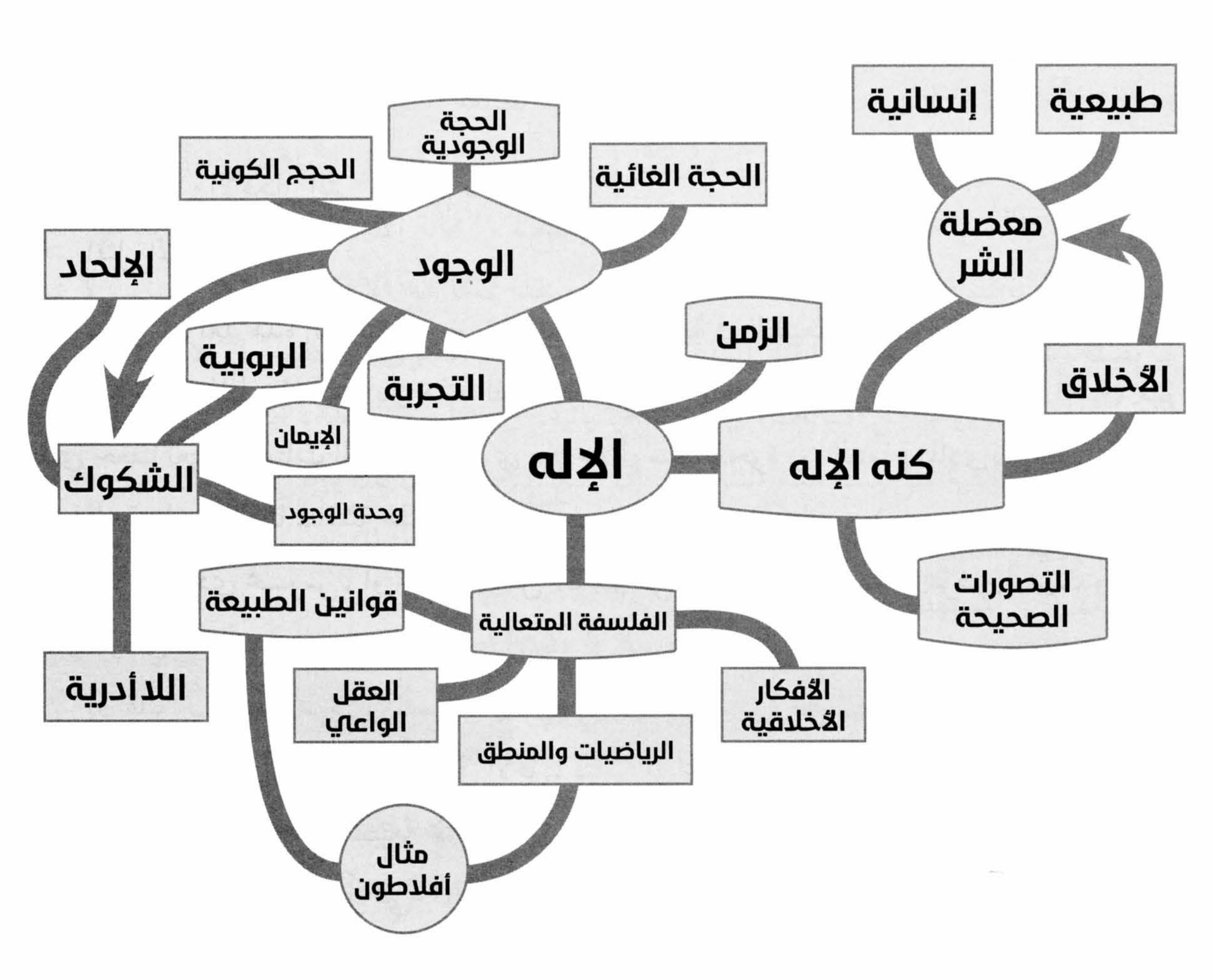
يقف ديفيد تشالمرز (المولود في عام 1966) موقفًا سلبيًّا من الفيزيائية الاختزالية قائلاً إنّ ذلك يمثل استخفافًا بالمشكلة. يدعونا تشالمرز إلى مواجهة ذلك السؤال العسير: لماذا لا نختبر المعلومات، ونجربها بدلاً من معالجتها؟ وقد دفع هذا الرأي بعض المفكرين إلى القول بأنّ الوعي لا يمكن فهمه مطلقًا، فنحن نفتقر إلى الدليل المقنع.

أدى التأثير المتزايد للعلم في الفلسفة إلى إثارة تساؤلات حول سلطة العلم. فوجد توماس كوهن (1922 - 1996) أنّ العلماء يتلاعبون بالنتائج لتناسب النظريات الدقيقة، وقد أماطوا اللثام عن صعوبة مقارنة نظرية بأخرى، لأنّ المفاهيم الرئيسية تتغير معانيها. اقترح شاؤول كريبك (المولود في عام 1940) بديلاً لمواجهة هذه المعضلة قائلاً إنّ معاني الكلمات والأسماء، مثل (الذهب)، تشير إلى أشياء محددة. يقول كريبك بأننا نستطيع معرفة الحقائق الضرورية من خلال الطرق العلمية، الأمر الذي يؤدي إلى نهضة كبيرة في الميتافيزيقيا، فضلاً عن زيادة الثقة بالعلم.



وظفّ دانييل دينيت علم الأعصاب لشرح نتائج دراساته عن الوعي البشري

التعالي



طبيعية
إنسانية
معضلة الشر
الحجة الوجودية
الحجج الكونية
الحجة الغائية
الوجود
الإلحاد
الزمن
الأخلاق
الربوبية
التجربة
الإيمان
الإله
كنه الإله
الشكوك
وحدة الوجود
التصورات الصحيحة
قوانين الطبيعة
الفلسفة المتعالية
اللاأدرية
العقل الواعي
الأفكار الأخلاقية
الرياضيات والمنطق
مثال أفلاطون

ما وراء الطبيعة

هل ثَمَّةَ ما يوجد وراء الطبيعة، أو يتجاوزها؟ من الواضح أنّ المعتقدات الدينية هي المعتقدات التي تحاول الإجابة عن ذلك السؤال، فهي تؤكد وجود عقل روحاني، (لَا سِيَّما الإله)، لا يخضع لقوانين الطبيعة التي نخضع لقوانينها. يمكن تصنيف الظواهر التي قد تتجاوز المادة إلى أربع فئات:

- الوعي والإدراك.
- الرياضيات والمنطق.
- القوانين والأفكار التي تتحكم بالطبيعة.
- المُثل الأخلاقية.

يمكن أن نعد هذه الفئات الأربع خصائص غير مادية في الطبيعة، أو أن تكون ما وراء الطبيعة في عالم (خارق للطبيعة). من بين هذه الفئات الأربع يُعدّ العقل الواعي الخاصية الأكثر أهمية، فهو الذي جعلنا نعرف الفئات الثلاث الأخرى من خلال سدّ الفجوة بين الدماغ المادي، وهذه الظواهر غير المادية. لقد تطرقنا لمناقشة هذه القضايا في فصل سابق من الكتاب، (راجع الفصل السادس). إنّ العقل إمّا مادي محسوس، أو عرَض واهن (ناجم عن أحداث الدماغ)، أو عرَض شديد، وراسخ (له تأثيره في ما يتسبب الدماغ به من أحداث)، أو غير مادي.

إن قلنا أنّ العقل عرَض راسخ، فهذا يعني أنّ العقل جزء من الطبيعة، أمّا لو قلنا أنّه ثنائي الجوهر، فذلك يعني أنّ العقل، جزئيًّا في الأقل، ينتمي إلى عالم الغيب (ما وراء الطبيعة). ينطوي الرأي الأول على دلالة مفادها أنّ الطبيعة مختلفة تمامًا عن الصورة التي تقدمها الفيزياء. قد نعتقد بأنّ الفيزياء مغلقة، (ويمكنها أن تفسر كلّ شيء)، لكنّ الأمر ليس كذلك في الواقع، لأنّ ما يسبب وقوع الأحداث هو قوى ذهنية عرضية، كما هو الحال عندما نتخذ قرارات واعية. إنّ الثنائية المادية تأخذنا إلى ما وراء

الطبيعة، لأنّها تنطوي على وجود نمط من الواقع مختلف، ألَا وهو العالم الروحي. لا توجد في الدماغ، كعضو مادي، أي آليات تمثل جسرًا يربطنا بهذا العالم العقلي / الروحي، وعليه لا بُدَّ من أن تكون القدرة على الوصول إلى العالم المادي جانبًا من جوانب المادة العقلية.

العقل الخارق للطبيعة

إن كان للعقل نمط وجود خارق للطبيعي، فإنّ هذا يجعلنا نجزم بأنّ المنطق، وقوانين الطبيعة، والمُثل الأخلاقية، (التي يألفها العقل)، قد تتجاوز الطبيعة أيضًا، وتتسامى عليها، ولها وجود أبدي لا غنى عنه، وتمتلك من القوى ما يؤثر في الطبيعة. نظرية المُثُل لأفلاطون (المفاهيم المثالية التي توجّه كلًا من الفكر والواقع) لها مثل هذا الوضع، والحالة الأبدية، كما إنّ العديد من علماء المنطق، والرياضيات يرون في تخصصاتهم حقائق مستقلة تمامًا عن الأفكار البشرية عنها، ولا تمتّ لها بصلة. نستطيع أن نتلمس الدليل الواضح على تأثير العالم العلوي في الطبيعة في الأنماط الرياضية الدقيقة الموجودة في هياكل النباتات، والمواد الكيميائية، ونستطيع أن نجده، أيضًا، في توافق الطبيعة مع القوانين المنطقية مثل مبدأ عدم التناقض. إنّ جميع الناس يرون بأنّ بعض الأفعال، مثل معاملة شخص بريء معاملة قاسية، شرٌّ لا لبس فيه، والتفسير الوحيد لذلك هو وجود القيم الأخلاقية المتعالية، (أي المستمدة مما وراء الطبيعة).

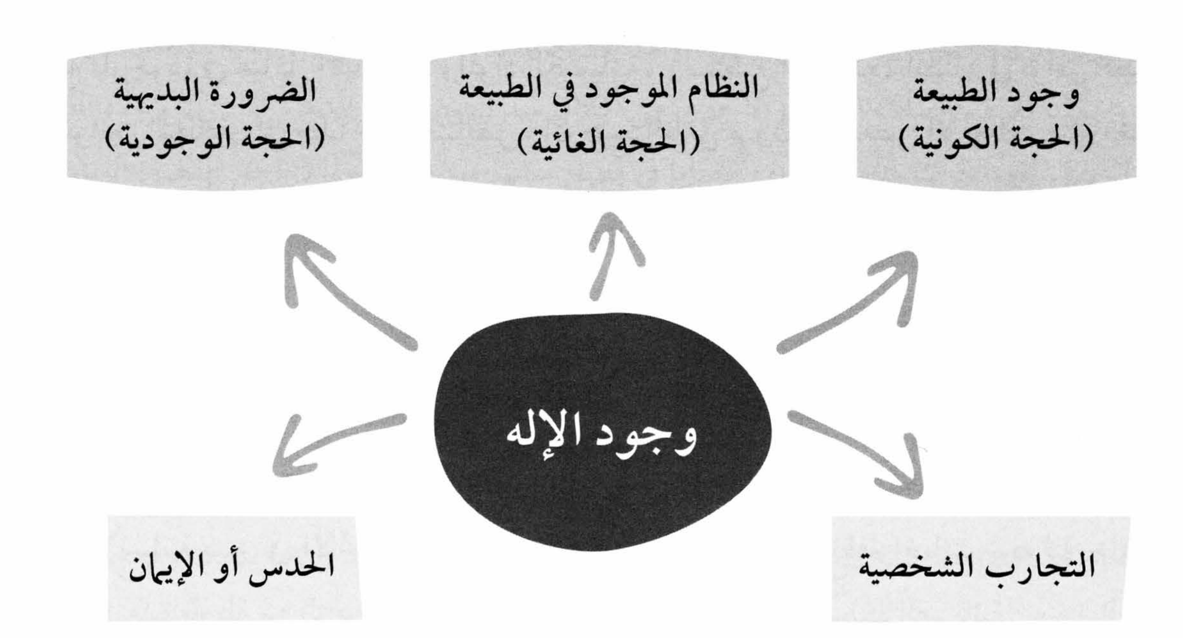


إنّ سلسلة الأفكار تلك، التي تبدأ بالفيزيائية، يمكن أن تقودنا تدريجياً نحو الدين، بَيْدَ أنّ تاريخ الثقافة الإنسانية يسير في الاتجاه الآخر، لأنّ المعتقدات الدينية كانت افتراضات شمولية جامعة، وُجدت في مدة طويلة من الزمن قبل أن يطرح عدد قليل من المفكرين مذهب الفيزيائية. يعتمد العلم،

إلى حد كبير، في ما ينجز، وما يكتشف على افتراضات مذهب الفيزيائية، أمّا اللّاهوت فإنّه يفترض وجود إله، (ويسعى لتوطيد عقائد ومذاهب متسقة). تفتخر الفلسفة بأنّها تنطلق من الحدّ الأدنى من الافتراضات، ولذلك سوف نتطرق إلى العقائد الدينية من وجهة نظر محايدة قدر الإمكان.

وجود الإله

تتمحور معظم المعتقدات الدينية الحديثة حول وجود إله، كائن روحيّ، علوي، فرد، عظيم، يجمع بين القدرة، والكمال بطريقة تجعله يهيمن على الطبيعة، وإليه الأمر في الكون كله. ويستند الإيمان بوجود مثل هذا الكائن السّامي إلى خمسة أسس رئيسية: وجود الطبيعة بحدّ ذاتها، الانتظام الموجود في داخل الطبيعة؛ الضرورة الواضحة لوجود مثل هذا الكائن؛ التجارب الشخصية؛ الحدس أو الإيمان. من بين هذه الأسس الخمسة تكتسب الأسس الثلاثة الأولى الأهمية الأكبر: الحجة الكونية، والحجة الغائية، والحجة الوجودية.



الحجة الكونية

تستنتج الحجة الكونية وجود الإله من وجود الكون ذاته. فالإله هو من أوجد الكون، وهو مصدره. إننا نؤمن بأنّ كل ما يحدث في الطبيعة له سبب، وهذا السبب يندرج ضمن سلسلة من الأحداث التي تُعزى إلى علة متقدمة سالفة، إمّا إلى حدث أوّل، أو إلى الأبدية. إن كان لكل شيء أو كل حدث سبب، فما هو السبب الذي أدى إلى الحدث الأول؟ لا بُدَّ من أن يكون الحدث الأول استثناءً لهذه القاعدة، ولا بُدَّ من أن يكون الحدث الأول هو من أوجد نفسه بنفسه. يبدو أنّ كلّ شيء في الطبيعة قد حدث بفعل مسبب، وعليه فلا بُدَّ من أن تكون العلة الأولى، أو السبب الأول خارج الطبيعة، والعقل فحسب من يستطيع أن يمتلك مثل هذه القدرة، قدرة مشابهة لقدرتنا على اتخاذ قرار عن إرادة وتبصر. لكن ماذا لو لم يكن لسلسلة الأحداث بداية؟ في هذه الحالة لا بُدَّ لنا من معرفة كيف استمرت تلك السلسلة، ولم تنقطع، أو تتوقف، ولماذا أخذت الاتجاه الذي أخذته، وليس أي اتجاه آخر؟ إذن لا بُدَّ من وجود علة خارجية هي التي حافظت على استمرار سلسلة الوجود، وتوجيهها نحو الاتجاه الذي أخذته. في كلتا الحالتين، (بافتراض وجود بداية، أو عدم وجودها) فإنّ العلة الخارجية الوحيدة التي يرجَّحُ بأنّها من أوجد الكون هو روح (عقل) أعظم قادر على خلق الأشياء، وابتداءَ الأحداث.



تقول الحجة الكونية بأن وجود الكون بحد ذاته دليل على وجود خالق له

الحجة الغائية



إن وجود أنماط في الطبيعة غاية في التعقيد، والنظام، مثل متتالية فيبوناتشي التي تظهر في زهرة عباد الشمس، لدليل على وجود مبدع حكيم

كلمة غائية (Teleological) في الإنجليزية مشتقة من الكلمة اليونانية (telos) التي تعني (الغاية)، أو (الغرض). يقول أصحاب هذه الحجة بأنّ التنظيم، والاتساق الموجودَيْن في بِنيَة الطبيعة يدلان على وجود روح (أو عقل أو إرادة) تبدع بتنظيم ولها غاية. تفترض هذه الحجة بأنّ الطبيعة تصبح فوضى عارمة لَولَا وجود من يحفظ لها نظامها. أمّا الفكرة التي تقول بأنّ الطبيعة اكتسبت بِنيتها المعقدة، الجميلة بمحض الصُّدفة، فإنّها فكرة سخيفة مضحكة، مثلها مثل من يزعم أنّ إلقاء حروف على الأرض ممكن أن يشكل، بمحض الصدفة، قصيدة غاية في الروعة، والجودة والجمال. يمكن توضيح فحوى هذه الحجة (الغائية) من خلال فكرة التناظر، أو القياس؛ فعندما نرى مجموعة من الأشخاص منظمين على نحو رائع فإنّنا سوف نفترض وجود شخص ما مسؤول عن ذلك، وعندما نرى آلة تعمل بكفاءة، فإننا سوف نفترض بأنّ شخصًا ما قام بتصميم تلك الآلة، وتصنيعها، وعليه فإنّنا نستطيع أن نفترض وجود خالق مقتدر لهذا الكون لما نرى من دقة صنع، وإحكام، وتنظيم لما حولنا من طبيعة وموجودات.

الحجة الوجودية

تتمحور أوّل حجتين حول وجود أدلة تبرهن على وجود خالق للكون، مثل وجود الطبيعة، أو دقة أنظمتها، وقوانينها. أمّا الحجة الوجودية فإنّها تُعوِّل على البداهة، والفطرة السليمة الخالصة في معرفة مفهوم ذلك الموجود الأسمى. إنّ المفهوم الذي لدينا جميعًا حول الإله هو « موجود يتصف بكمال مطلق وعظمة لا متناهية »، أو هو « موجود لا يمكن تصور موجود أعظم منه ولا أكبر ». في كلتا الحالتين، فإنّ مثل هذا (الموجود)، بالمفهوم الذي نتصوره، لا بُدَّ من اتصافه بصفات تنسجم مع عظمته المطلقة، وكماله التام، مثل القوة، والمعرفة، والخير، وغيرها من فضائل في أقصى مستوياتها، ودرجاتها. بَيْدَ أنّنا نرى أنّ أهم الصفات هي صفة الوجود التي لا يمكن اكتساب صفات الكمال الأخرى من دونها. إذن فالوجود هو الكمال الأوّل، ولا بُدَّ من وجود الإله بالضرورة، لأنّ مفهوم الخالق بحد ذاته يتطلب ذلك كما يتطلب المثلث بالضرورة أضلاعًا ثلاثة حتى يكون مثلثًا.

الإيمان والتجربة

كثير من الأشخاص لديهم تجارب شخصية يبدو أنّها تنطوي على وعي مباشر بالإله، أو على اتصال معه. شهد كثير من الناس معجزات، يبدو أنّها تمثل تدخلاً إلهيًّا مباشَرًا في شؤون البشر. لكنّ الفلاسفة عادةً لا يعيرون أهمية لهذه المعجزات ولا يعدونها حججًا، أو أدلة تبرهن على وجود إله، فهي ليست شمولية، ولا عالمية، وتعتمد على ثقة الناس في من شهد المعجزات، ونقل أخبارها، والتي يرجع تاريخ بعض منها إلى عصور غابرة. تمثل المعجزات أسبابًا وجيهة للإيمان خصوصًا بالنسبة للأشخاص الذين شهدوها، إلّا أنّ المعجزات تبقى حالات، أو وقائع فردية محدودة لا تتكرر أمام كل جيل. ويمكن قول الشيء نفسه عن الإيمان، أو الحدس الذي قد يهيمن على عقل المؤمن، ويتحكم به، بَيْدَ أنّ الحدس، أو الإيمان ليس عاملاً مقنعًا لمن تراودهم الشكوك خصوصًا أنّ هذا النهج لا يسمح بعقد مقارنات بين العقائد المختلفة، أو بين مشاعر حدس مختلفة بشأن صيغ متباينة من الحقيقة.

تقييم الحجج

وجّه الكثير من المشككين بوجود إله نقدهم للحجج الرئيسية الثلاثة التي تبرهن على وجود إله. أمّا فيما يتعلق بالحجة الكونية فقد زعم المشككون أنّ من الصعب أن نفترض أنّ لكل شيء سببًا، ثُمَّ نستثني الإله من تلك القاعدة. وإذا كان ثَمَّةَ قوة، أو قدرة أَوجدَت نفسها بنفسها، فما الذي يجعلنا نعتقد أنّ تلك القوة، أو القدرة لا بُدَّ من أن تكون إلهًا، وليس حدثًا سابقًا غير عاديّ؟ إنّ كلّ حجة من الحجج التي تسعى للبرهنة على وجود إله تحمل بين طياتها ما يشير إلى طبيعة الإله، إلّا أنّ الحجة الكونية تشير إلى روح (أو عقل أو إرادة) أَوجدَت السببَ الأوّل، أو العلّة الأوّلى في الكون، الأمر الذي لا تؤمن به كلّ الأديان.

أمّا الحجة التي تستند إلى ما في الكون من إبداع، فهي الحجة التي تستهوي المؤمنين، فنحن نعيش في عالم مذهل في جماله، منظم على نحو رائع. لا تنطوي هذه الحجة على وجود مبدع فحسب، بل ووجوب عبادته. يرد النقاد على ذلك بأنّ العالم ليس كلّه جميلًا، بل ثَمَّةَ جوانب قبيحة، وسيئة فيه، وعليه، لا يمكن أن نستنتج بأنّ خالق هذا العالم كامل ومثاليّ. يقول هيوم إنّه إذا كانت الحجة تستند إلى تشبيه، وقياس، وتناظر، ومضاهاة، فإنّ الخالق قد يكون فريقًا من الآلهة، أو هو إله، لكنّه إله قد يقع في الخطأ. إنّ التحدي الأكبر الذي تواجهه هذه الحجة هو النظريات العلمية التي تقول بأن الطبيعة ربما تكون قد طوّرت نظامها المحكم الجميل من خلال الانتقاء الطبيعي دون مساعدة من قوى غيبية، أو خارقة للطبيعية، الأمر الذي قد يفسر لنا وجود الكائنات الحية، بَيْدَ أنّ حركات الكون المتسقة، المتناغمة، التوافقية للكون، والبساطة التي تقترن بقدرة هائلة كما تتجلى في قوانين الطبيعة، تظل أمرًا عصيًّا على الشرح، والتفسير.



يعتقد هيوم أنّ من خلق الكون هو فريق من الآلهة ارتكب بعض الأخطاء عندما خلق الكون

أمّا حجة الإبداع في الخلق فقد حظيت برواج في العصر الحديث من خلال اكتشاف مقدار الضبط والدقة في الثوابت الكونية (أي القيم الأساسية للفيزياء، مثل قوة الجاذبية، أو كتلة الإلكترون)، ما يساعد على جعل الحياة ممكنة. لقد أثبتت النمذجة الحاسوبية أنّ أيّ انحراف بسيط عن مجموعة الثوابت الحالية يجعل من الحياة أمرًا متعذرًا، ما يدل على وجود خالق مبدع خلق القوانين، والثوابت لغاية ما. كان من الممكن أن تكون هذه الحقيقة الرائعة أقل إدهاشًا لو كان ثَمَّةَ العديد من الأكوان المتنوعة، وليس هذا الكون الذي نجد أنفسنا فيه.

قلة من الناس آمنوا بوجود إله استنادًا إلى حجة الوجود التي يبدو بأنّها حجة ذكية بارعة، غير أنّها ليست مقنعة، لكنها تجتذب الأشخاص الذين يشعرون بوجوب وجود إله. هذه الحجة غير مقنعة تمامًا، كما قلنا، لكن من الصعوبة تحديد جوانب القصور فيها، فهي تستند إلى صفة الوجود،

كونها إحدى صفات الإله. يقول البعض بأنّ غطاء رأس شخص ما، مثلاً، له ثلاث صفات أو شروط، هي وجود بِطانة، وتتناسب ورأس ذلك الشخص، وأن يكون موجوداً في متناول اليد. يعتقد الفيلسوف كانت بأنّ في الأمر سوء فَهم، لأنّ الوجود هو افتراض مسبق على مناقشة غطاء الرأس، وليس صفة من صفاته. أمّا في المنطق الحديث، فإنّ الوجود يُعدّ أحدَ المعايير أو المحددات، أيْ إنّه يحدد ما هو موجود، لكنّه ليس مُكوِّنًا من مكوناته. قد ينطوي اعتراض كانت على خطأ ما، فالتفكير في الإله، والتأمل في خلقه يؤدي إلى الاعتقاد بأن لا مفر من وجود إله.

الربوبية: تعتقد بأنّ الإله موجود، لكنّه لا يتدخل في شؤون البشر.



تتجلى الشكوك بالدين بأشكال، ودرجات متفاوتة. فأصحاب المذهب الرّبوبي، مثلاً، يؤمنون بوجود إله مستندين في ذلك إلى الحجة الكونية، (لا بُدَّ من أن ثَمَّةَ موجود روحيّ هو من خلق الطبيعة)، لكنهم يقولون لا يوجد ما يدل على وجود دور له في شؤون البشر، وهو مبتعد عنّا، ولا يستجيب لدعائنا، ولا لصلواتنا، وجهة نظر تُسمّى، أحيّانًا، (إلهُ الفلاسفة). أما سبينوزا فقد قال بوحدة الوجود، وهو رأي يرى أنّ العقل جزءٌ من الطبيعة، ولا يرى ما يدعو إلى الإيمان بالروحانيات، بَيْدَ أنّه كان معجبًا بروعة الطبيعة، لذلك فإنّه كان يعتقد أنّ الإله والطبيعة شيء واحد. كانت كتابات سبينوزا تتطرق باستمرار إلى (إله واحد خالق)، لكنّ بعض النقاد يقولون بأنّه كان أقرب إلى الإلحاد.

مذهب وحدة الوجود: الإله هو الطبيعة، والطبيعة هي الإله، فهما شيء واحد.

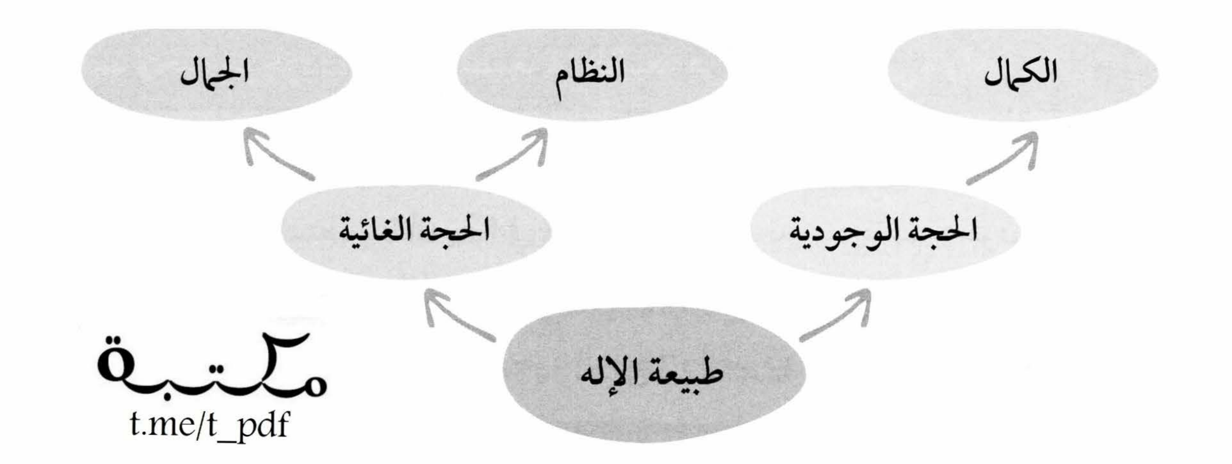
يعطي اللا أدريون الأولوية للدليل، والبرهان المباشر، وهم يقولون لا يوجد دليل كافٍ على وجود إله، وعليه لا يستطيعون أن يبتّوا في هذا الأمر. أمّا الملحدون، فإنّهم يؤمنون بعدم وجود إله مستندين في موقفهم هذا إلى بعض نقاط الضعف في الحجج الثلاث الرئيسة التي تسعى إلى برهنة وجود إله، وإلى عدم وجود دليل على وجود الروح، والخلود، وإلى التفسيرات العلمية للوجود، وطبيعة الجنس البشري. وهم لا يؤمنون بوجود معجزات، ولا يعترفون بقداسة النصوص الدينية الأساسية.

اللا أدرية: ليس ثَمَّةَ دليل كافٍ يجعلنا قادرين على أن نقطع برأي حول وجود الإله.

يتحدى الوضعيون المنطقيون - حركة تجريبية حديثة - دلالات المعاني، ورمزيتها في اللغة الدينية، متسائلين عن الدليل الذي يسندها، أو ينقضها. وهم يرون أنّ المؤمن يجب أن يغير من قناعاته حسب الأدلة التي تتوفر بين يديه، وإلّا فلا طائل من قناعاته، ولا خير يرتجى منها.

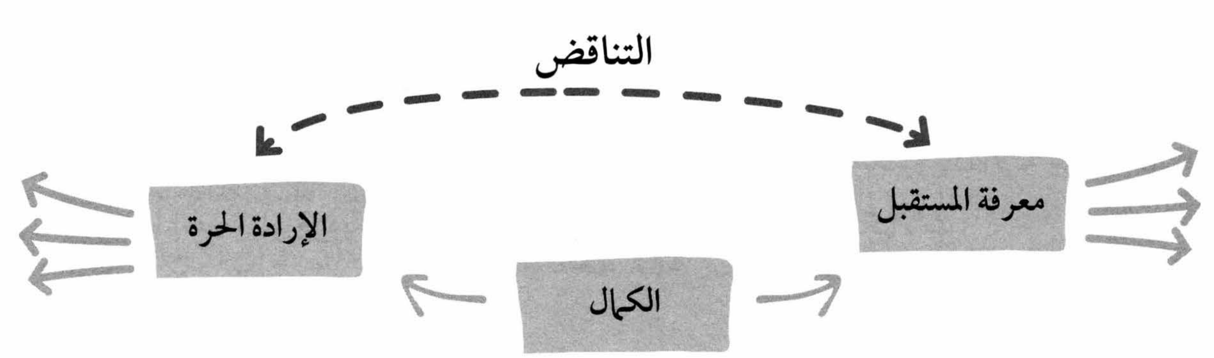
طبيعة الإله

عندما نتطرق في نقاشاتنا إلى وجود إله، فلا بُدَّ من أننا نعرف ما الذي تعنيه كلمة (الإله)، على الرغم من أنّه موجود يكتنفه الغموض والإبهام، غير أنّ الأسباب التي تجعلنا نؤمن بإله هي نفسها التي تفسر لنا معنى ذلك المفهوم (مفهوم الإله). إنّنا نستنتج من الحجة الغائية بأن الإله يحب الجمال، والنظام، أما الحجة الوجودية، فإنها تدلنا على أنّ الإله قد احتاز جميع الكمالات.



لو تقبلنا الحجج الثلاث، وآمنا بوجود إله، فإن تفسير الكثير من الأشياء يغدو ممكنًا من خلال ما يبدو لنا دليلًا، وبرهانًا، وما هو بالضرورة حقيقة، وما هو مستحيل متعذر، وعليه، يمكننا أن نرى بوضوح بأنّ الرب يحب النظام، وهذا يقودنا إلى أنّ وجوده سرمدي بالضرورة.

يزعم بعض من يؤمن بالحجة الوجودية بأن الإله (كامل تمامًا)، ولنا أن نسأل عن جوانب الكمال في الذات الإلهية، وهل هي متسقة، أو لا. قد لا تكون بعض جوانب الكمال ذات أهمية، مثل صنع كعكة مثالية؛ وعليه فإنّ الكمال الإلهي هو الكمال اللائق الجدير بإله. إنّه موجود كلي القدرة، وليس ثَمَّةَ ما هو خارج قبضة قدرته، وسلطانه. بعض الكمالات الإلهية تتجسد في صفاته،



وهي الصفات التي تثير أقصى درجات الإعجاب بين بني الإنسان مثل المعرفة، والقدرة، والحكمة، والإحسان، بَيْدَ أنّ المشكلة تكمن في طريقة تفكيرنا في الإله من خلال استخدام مفاهيم بشرية.

ثَمَّةَ سؤال هام يطرحه البعض عن الإله والزمن، أنّ الإله هو خالق الكون، وهو من يُسيّره، أحيانًا، في أعماله. إنّ خلق الكون، وتسييره أفعال تحدث ضمن إطار زمني ممتدّ، ما يعني بأنّنا نرى الماضي بالنسبة لما صنع الإله لا يتغير، أمّا المستقبل فهو غير معروف لنا. البعض يجد أنّ علاقتنا بالزمن لا يمكن أن تكون هي نفسها بالنسبة للخالق، فهو موجود قبل اللا زمن، وفي كل زمن. لكن إن كان الإله خارج معيار الزمن بالكامل، فإنّ ذلك يجعل من الخلق، وتسيير شؤونه أمرًا محيّرًا، لذلك فالتفسير الأفضل هو أنّ الإله موجود في جميع اللحظات، تمامًا كما نعيش نحن في اللحظة الحاضرة الراهنة، الأمر الذي يتفق مع كمال العلم، وكمال القدرة (لأن الإله قادر على معرفة كل

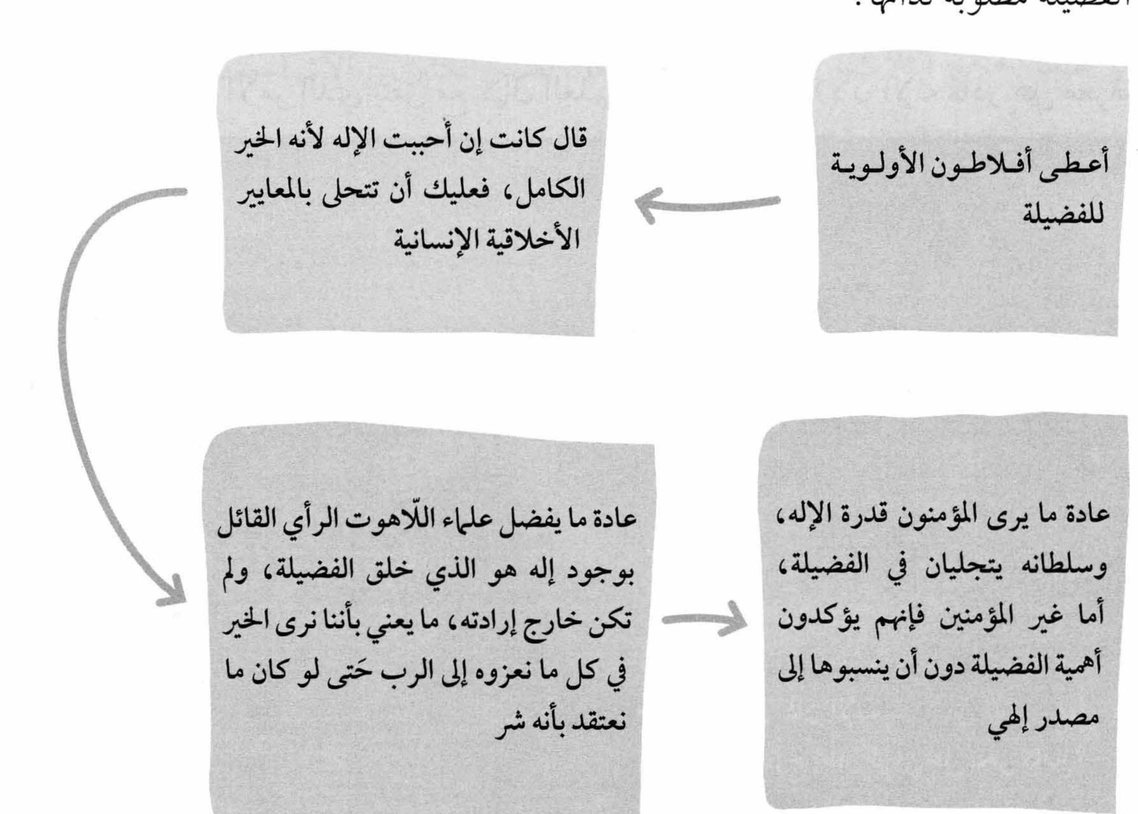


إن كان الإله قد خلق الكون فهل هو خارج إطار الزمن على نحو كامل؟

شيء في نفس الوقت، وكل شيء في قبضته، وتحت سلطانه)، لكنه تفسير يجعل من وجود الإله أمراً نعجز عن تصوره، أو إدراكه.

الإله والأخلاق

تركز معظم المناقشات التي تتناول جوهر الذات الإلهية على الأخلاق والفضيلة. وقد أثار أفلاطون هذا الموضوع في ما عُرف بمعضلة يوثيفرو، وهو أحد الحوارات التي حاولت أن تعرف لمن الأولوية، أهي للإله، أم للفضيلة والأخلاق؟ أي هل لأنّ الإله حكيم، فهو يوصي بالفضيلة، أو لأنّ الفضيلة مطلوبة لذاتها؟



معضلة الشر

من الطبيعي أن نفترض بأن الخير، والإحسان من صفات الإله ومن دلالات كماله، على الرغم من وجود بعض العقائد السالفة التي تؤمن بأن الإله يغضب، ويشعر بالغيرة، وينتقم؛ وهذا ما يؤدي إلى معضلة الشرّ، فهناك تناقض يتجلى في عدم قدرة ذلك الإله المحسِن على الشر، وهو القادر على ذلك، لأنه قوي وقادر، ويعلم، بما سيكون. ثَمَّةَ مشاكل ومآسٍ مختلفة تعكس لنا (شرّ البشر) مثل (الإبادة الجماعية)، و(شرّ الطبيعة) مثل (وقوع الكوارث والهزات الأرضية). فيما يتعلق بشرّ البشر، فإنّ إحدى طرق الحد من ذلك هو تأكيد أهمية الإرادة الحرة للإنسان، والحث عليها. تكمن حقيقة البشر الأساسية في استقلاليتهم الكاملة وتحكمهم بمصائرهم، وحقهم في أن يعيشوا حياتهم كما يرغبون. إنّ ارتكاب الأعمال الشريرة أمر وارد في أي مكان أو مجتمع، وبالتالي فإنّ الناس، بدافع الشعور بالحرية، قد يقترفون ما يجعلهم أشرارًا، وهم، بلا شك يفعلون ذلك، ومع ذلك فإنّ هذا الحال أفضل من الوضع الذي يفتقر فيه الناس إلى الحرية. قد يقول قائل إنّ حرية ارتكاب إبادة جماعية هي حرية لا يريدها الإنسان؛ على أي حال، يتعذر أن نجد حياة، أو عالمًا خاليًا من الشرّ.



يرى البعض بأنّ الزلازل والكوارث دليل على عدم وجود إله خيّر، رحيم

شر الطبيعة

الشر الذي تبديه الطبيعة متجسدًا في كوارثها، هو المعضلة الأكبر، لأنّ الإنسانية تقف عاجزة عن التصدي له، إِذ إنّ الأمر كله موكل بمشيئة الإله وإرادته. يستشهد غير المؤمنين بالكوارث الطبيعية كدليل مهم على عدم وجود إله رحيم محسن. ثَمَّةَ ردود مألوفة على هذا الرأي نلخصها بما يأتي:

- الشر أمر لا مفر منه.
- قد يتمخض ما نظنه شرًا عن خير بعد مدة من الزمن.
- الشر ليس حقيقيًّا، وإن كان موجودًا.



يقول لايبنز بأننا نعجز عن إدراك كمال خلق الربّ، لاننا لا نفهم بعض بواطن الأمور

في ما يتعلق بالرد الأول يقول لايبنز بأنّ الإله الكامل خلق كونًا مثاليًّا، ونحن لا يسعنا الشك في ذلك، لأننا لا نفهم التوازنات والتسويات التي لا بُدَّ منها في مثل عملية خلق كهذه. فمن المستحيل خلق كوكب، على سبيل المثال، يخلو من زلازل متكررة. أمّا بالنسبة للرد الثاني فإننا نعتقد بجهلنا بالحكمة الإلهية من وجود الكوارث، لذلك لا يمكن أن ندينها، أو نسارع إلى إنكارها، فالمعاناة خطوة لا بُدَّ منها نحو خلاص الإنسان، أو تطوره الأخلاقي والقيمي. وأخيرًا، يقول أصحاب الرد، أو الموقف الثالث بأننا نتصور الشر في صورة الألم الحسي والحزن الذي تنقبض له الصدور، بَيْدَ أنّ هذه النظرة ضيقة للغاية، لأنّها لا تعبر إلّا عن وجهة نظرنا كبشر، فالزلازل والبراكين فيها من الفوائد للأرض الكثير، وإن كانت بالنسبة لنا تمثل كوارثَ مؤذية.

الأخلاق والسياسة

كانت القواعد الأخلاقية، لمدة طويلة من الزمن، إمّا نفعية، (الغاية منها زيادة المنافع والفوائد)، أو أخلاقية (الالتزام الدقيق بالواجبات، والمسؤوليات). تزَعَّم ألاسدِر ماكنتاير (المولود في عام 1929) حملة تستهدف إحياء نظرية الفضيلة انطلاقًا من قناعته بفشل النظرية النفعية، والأخلاقية في إثبات صلاحية مبادئها. يرى أصحاب نظرية الفضيلة بأنّ نظرية الأخلاق تخاطب المجتمع، وليس الأفراد، وقد أصبحت سياسية أكثر مما هي فلسفية. كان التحدي الأساس هو معرفة ما إذا كانت القيم الأخلاقية تحمل بين طياتها معنىً دقيقًا أم لا (كما تساءل التعبيريون) أو ما إذا كانت تستند إلى حقائق أخلاقية، أو إلى مشاكل الحياة. تناولت كارول كيليكان (ولدت في عام 1936) نهج الفضيلة من الزاوية النسوية، قائلة لا ينبغي لنا بأن نقف على الحياد البارد في موضوع الأخلاق عندما تكون الغاية التي نسعى إليها هي خير، ورفاه الآخرين.

كان بيتر سينجر (المولود في عام 1946) فيلسوفًا أخلاقيًّا مؤثرًا للغاية، كان يعتقد بوجوب تطبيق مبادئ النفعية، خصوصًا في ما يتعلق بعلاقة الإنسان بالحيوانات. كان سينجر يعتقد بأنّ للحيوان حقوقًا معنوية، مثل حقوق الإنسان، لأنّها تشعر بالألم كما يشعر به الإنسان، وتعاني كما يعاني، لذلك يرى سينجر بأننا يجب أن نهتم بالحيوانات، وأن نتجنب تناولها.

كان لكتابات جون راولز (1921 – 2002) الفضل في إحياء الفكر السياسي من خلال النهج الجديد الذي طرحه للتعامل مع الليبرالية، والعدالة. كان راولز يعتقد بأنّ على المجتمع أن يعتني بالشرائح الأقل رفاهية، والأقل دخلاً. بَيْدَ أنّ روبرت نوزيك (1938 – 2002) رد على ذلك قائلاً بأنّ الليبرالية هي الكفيلة بتقديم الحلول، رافضًا أيّ شكل من أشكال الهندسة الاجتماعية. كان نوزيك يدافع عن الحرية باعتبارها القيمة السياسية الرئيسة، بينما كان الآخرون يدافعون عن العدالة.

أحدث الآراء هو الرأي الذي عبرت عنه مارثا نوسباوم (المولود في عام 1947) وآخرون، بالقول بأنّ الليبرالية تركز على الحرية، والفرص أكثر مما ينبغي، ولم تركز بما فيه الكفاية على حياة الناس الفعلية التي سوف تكون أفضل إن أتيح لهم المجال للتعبير عن قدراتهم بشكل كامل. العدالة هي الأهم - وليس الحرية أو المساواة - ويجب أن تكون عدالة عملية وليست نظرية.

كان بيتر سينجر يعتقد بأن الحيوانات لها حقوق معنوية مثل البشر

مقدمة مثالية للطلاب والقراء غير المتخصصين على حدٍ سواء، فكل ما تحتاج معرفته عن الفلسفة يوفره لك هذا الكتاب، إذ ستجد جميع المفاهيم التي تحتاجها لفهم القضايا الأساسية في الفلسفة.

كتاب مليء بالمخططات المفيدة، واقتراحات القراءة الإثرائية، واللمحات السهلة الفهم حول تاريخ الفلسفة، ما يجعل تعلم الموضوع أسهل من أي وقت مضى. بما في ذلك أفكار من أرسطو وزينو إلى ديكارت وفتجنشتاين، يغطي هذا الكتاب النطاق الكامل للفكر الغربي.



في اللحظة التي تنتهي فيها من قراءة هذا الكتاب، ستتمكن من الإجابة عن أسئلة مثل:



- ما الحقيقة؟
- ما الذي يمكنني معرفته حقًا؟
- كيف أعيش حياة فاضلة؟
- هل أملك إرادة حرة؟





ISBN 978-9922-601-92-2

9 789922 601922



العراق - بغداد - المنصور
darmanairaq@gmail.com



العراق - بغداد - شارع المتنبي
07819141219 | 07702931543
darktbalmya@yahoo.com